



التابع لمؤسسة الامام الهادي عليه السلام

معالم الفتن

الجزء الأول

د. سعيد أيوب

تصدير

بقلم الدكتور عاطف سلام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الأطهار الطيبين، وصحابته المنتجبين.

أما بعد فإن الكتاب الذي بين أيدينا يتناول تلك الحقبة التاريخية التي تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وامتدت بعد ذلك إلى عدة عقود، وعلى الرغم من الأهمية البالغة التي تتميز بها تلك الحقبة الحساسة، حيث قد تشكلت فيها الجذور السياسية والاجتماعية والثقافية للمسلمين إلا أنها لم تحظ بالاهتمام المرجو من قبل الباحثين والمفكرين، وأصبح الكثير من المثقفين لا يعرف سوى النزر اليسير عنها، وبالنسبة لبعض الدراسات القليلة المتناثرة التي دارت حولها فإن أساليب تناول تلك الحقبة قد تعددت واختلفت على نحو لا يروي ظمأ طلاب العلم والحقيقة، ولا يعينهم على استيعابها وإدراك أثارها، فهناك الاتجاه الأدبي الذي تناول تلك الحقبة بشكل ضيق محدود، وسار على منهج مميح لا يفضي لنتائج محددة أو مفاهيم واضحة عنها، وكان يفتقر إلى ميزان ثابت منبثق عن الدعوة الإسلامية ذاتها يمكن أن يقاس عليه وقائع تلك الحقبة، ولعل هذا الاتجاه كان

الصفحة ٦

يرمي إلى الناحية الأدبية اللغوية فحسب بعيدا عن الرؤى العقائدية، وهناك الاتجاه الصامت المنغلق الذي يرى عدم تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة مطلقا، بل وصل الأمر إلى حد التحذير من محاولة فحص وقائعها وأحداثها بحجة أن ذلك قد يفتقر إلى إساءة الظن ببعض الشخصيات والتجمعات البارزة التي تنتمي إليها، وهناك الاتجاه الممالئ المتملق الذي دأب على مجرد المدح والإطراء، ولم يدخر وسعا في قلب الأمور رأسا على عقب وبتز الحقائق من أجل تصويب وقائع تلك الحقبة ومواقف أصحابها على نحو يصعب تصديقه أو التسليم به بالنسبة للقارئ العادي... إلى غير ذلك من الأساليب والاتجاهات التي كانت غالبا ما تقصر عن الوفاء بأمانة البحث العلمي المحض الذي يؤدي في النهاية إلى توعية القارئ بطبيعة تلك الحقبة، وتوضيح الرؤية حولها، والخلوص بتقييم موضوعي لها، وتحديد علاقتها - ولو إجمالا - بالواقع الحالي.

إن تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة يقودنا - لا محالة - إلى طرح التساؤل الآتي: هل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يفكر جديا بمستقبل الأمة من بعده، وما الإجراءات التي اتخذها في هذه السبيل؟

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يمثل القلب النابض والعقل المفكر لتلك الدولة الناهضة، فهل أعد منهاجا واضحا لتشكيل القيادة من بعده، بحيث يكفل ذلك الاستمرارية والاستقرار على النحو الذي ينشده للمسيرة التي بدأها؟ وعلى فرض وجود منهج واضح حول القيادة قد حدده الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهل قام بتوعية الأمة به؟

وعلى فرض قيامه بذلك، فهل خرج هذا المنهج من بعده إلى حيز التنفيذ بشكل كامل، أم خرج بشكل جزئي، أم لم يخرج قط نتيجة الظروف والمتغيرات التي طرأت على واقع الأمة إبان وفاته؟
من ناحية أخرى فإن أهمية البحث في تلك الجذور التاريخية وفحص وقائعها البارزة تمكن في انعكاسها بشكل أو بآخر على الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي امتد من خلالها عبر القرون التالية إلى اليوم.

الصفحة ٧

إن الدعوة القائلة بأن نغض الطرف عن وقائع تلك الحقبة الهامة، وأن نجعليننا وبينها حجابا مستورا لا تخدم الحقيقة، بل لا تخدم الإسلام ذاته، حيث إنتراكمات الماضي وتداعياته لا يمكن أن تتفصل عن الواقع الحالي، إن لم تكن قد ساهمت في صياغته إلى حد بعيد.

إننا بحاجة ماسة إلى إلقاء الضوء على تلك الجذور التاريخية من أجل التوصل إلى فهم سليم وموضوعي مبني على أساس علمي لها، واستخلاص العبر والدروس منها، وتحديد نقاط الضعف والقوة فيها بالقدر الذي يعيننا على فهم الحاضر المحيط بنا، ويجعلنا قادرين على رؤية المستقبل بوعي وواقعية، وتحديد ملامحه بعين باصرة غير قاصرة.

إن الكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة جادة من المؤلف لتسليط الضوء على تلك الحقبة التاريخية الهامة، ملتزما بقواعد البحث العلمي المتفق عليها، ومتوخيا ذات المقاصد التي أومأنا إليها آنفا، والذي لفت نظري في منهجه أنه اعتمد فيدراسته على مصادر الحديث والتاريخ والتراجم المعتبرة التي تحظى بثقة أهل العلم والمعرفة قاطبة، كما أنه قام بالربط بين الأحاديث النبوية من جهة والأحداث التاريخية من جهة أخرى، بحيث يصدق بعضها بعضا، وكأن الكتاب قد جاء يحملين دفتيه تفسيراً نبويا للتاريخ، ولا جرم أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) قد تركنا على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، والتي لا يضل عنها إلا هالك، وفي اعتقادي أن ذلك لا يتحقق بوجه كامل إلا من خلال الأحاديث التي تكشف المستقبل، وترصد حركته بعين الوحي فضلا عن الوعي.

ومما يستلفت النظر - أيضا - قيام المؤلف بالفصل بين " تاريخ الإسلام " و " تاريخ المسلمين "، حيث يرى أن " تاريخ الإسلام " هو تاريخ الفطرة الأزلية التي تمثل إرادة الله في الكون، وبالنسبة للبشر فقد بدأ مطلع بقوله تعالى: (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...).

وفوق الأرض قام بصنعه الأنبياء والمرسلون من لدن آدم إلى الخاتم،

الصفحة ٨

والمقصود من ذلك هو أن " التاريخ الإسلامي " يقتصر على مجموعة الأقوالوالأفعال والمواقف والأحداث التي يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته لكونها تمثل واقعه وحقيقته، ولا يقوم بصنعه سوى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو منينوب عنه بتفويض مباشر عنه.

أما بالنسبة لـ " تاريخ المسلمين " فهو تدوين لمجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التي قام بصنعها أولئك الأفراد والتجمعات التي أعلننا انتماءها لهذا الدين تعبيرا عن أنفسهم وواقع حالهم فحسب، ولا يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته كمقياس له.

هذه رؤية المؤلف، وهي وجهة نظر جديرة بالبحث والملاحظة، وتدعوننا إلى التأمل وإعادة النظر في مدلول كلمة " التاريخ " الذي بين أيدينا، فهل هو " تاريخ إسلامي " يعبر عن واقع الإسلام وحقيقته وأهدافه، أم هو " تاريخ المسلمين " الذي يمثل نوازعهم الذاتية ومواقفهم وأهدافهم الخاصة بهم؟ هذا وبالله التوفيق.

د. عاطف سلام

الصفحة ٩

الاهداء

..إلى مصابيح الهدى الذين يقودون الناس إلى صراط العزيز الحميد

إلى الذين صبروا صبر الأحرار وينتظرون يوم العدل على الظالم

إلى هؤلاء أهدي هذا الكتاب

....أيوب

الصفحة ١٠

الصفحة ١١

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على النبي الأكرم المبعوث بالشريعة الخاتمة وعلى آله ومن تبع هداه إلى يوم الدين وبعد:

على امتداد المسيرة البشرية دار الصراع بين الخير الذي تمثله أعلام ومشاعل المثل الأعلى المرتفع وبين الشر الذي يمثله الدخان الكثيف للمثل الأعلا المنخفض. وعلى امتداد هذه المسيرة كانت أعلام الأنبياء والرسل عليهم

السلامتقيم الحجة على الجميع، وتدون تاريخ الإسلام الذي لم يحمل هزيمة واحدة منذراً لله ذرية آدم عليه السلام. وكان هذه التاريخ زاد للفطرة في كل زمان ومكانففيه ترى العلم والهدى والرحمة والسعادة وبه تعبر الحياة الدنيا بسلام إلى الآخرةتاريخ الإسلام هو تاريخ الحجة ودعوة الناس إلى صراط العزيز الحميد. وهذاالتاريخ يمكن أن نرى نرصد بدايته عندما أخذ الله الميثاق من ذرية آدم وأشهدهم علناًفسهم * (أست بريكم قالوا بلى) * ويمكن أن نرى امتداده وشواهده من خلالمسيرة الأنبياء.

وعلى امتداد المسيرة البشرية أيضا كان الناس يدونون تاريخهم، وهذاالتاريخ يمكن أن ترى امتداده وشواهده من خلال حركة الناس على امتدادتاريخهم. فمن توافقت حركته مع حركة الوجود فهو عضو في تاريخ الإسلام الذيتمثله أعلام المثل الأعلى المرتفع. أما من توافقت حركته مع حركة فقه الاغواءالتزيين والاحتناك والفحشاء والمنكر إلى آخر هذا الشوط الذي تأنف منه الفطرةفلا يمكن بحال أن يكون عضواً في تاريخ الإسلام وإنما هو عضو في تاريخ الناس

الصفحة ١٢

الذي يدثره هذا الدخان الكثيف للمثل الأعلى المنخفض. ولا يمكن بحال أن تربصمات كفار قوم نوح وهود وصالح ولوط وأصحاب الأيكة على تاريخ السلاموا إنما تراها على صفحات تاريخ الناس. ويمكن أن ترى هذه البصمات بوضوحعندما يحدثك تاريخ الإسلام بما حدث لأتباع المثل الأعلى المنخفض على امتدادتاريخهم الأسود وكيف ضربهم الطوفان والصيحة وكيف نالوا جزاءهم في الدنيا تحت ضربات الماء والهواء والحجارة، ولعذاب الآخرة أشد.

وعلى هذا فالحجة والدعوة أعلام ظاهرة في تاريخ الإسلام، والتدمير أثرظاهر في تاريخ الناس، وفي هذا وذلك زاد للفطرة على امتداد المسيرة. فأصحابالفطرة السليمة إذا نظروا إلى حركة المسيرة البشرية وشاهدوا علامات التاريخالمهزوم كانت هذه المشاهدة حجة بذاتها ودعوة في الوقت نفسه إلى ترتيبالأوراق في اتجاه تاريخ السلام الذي تظهر عليه معالم الطهر والنقاء، وهذهالمعالم حجة بذاتها على كل إنسان. وسيتبين كل إنسان حقيقة هذا عندما يقفعارى المشاعر وعاري التاريخ أمام الله الواحد الحق يوم القيامة.

وعلى امتداد التاريخ الإنساني عمل الشيطان من أجل أن يعلم الخلق أنتاريخ الإسلام وتاريخ الناس تاريخ واحد. لأنه تحت هذا القالب تختلط الأموروعلى امتداده يحقق الشيطان أهداف خطته لإضلال أكثر الناس. وما فقه الاغواءالتزيين إلا خلط على امتداده يكون الضلال والارتباب والحيرة.

وفي عصرنا الحديث تعالت الأصوات التي ترفع إعلام " لا سياسة في الدينولا دين في السياسة " وقامت أجهزة ومؤسسات الصد عن سبيل الله بترقيع التاريخيعطي في النهاية صورة أن الناس أدرى بمصالحهم. وهذا القول في حد ذاتهمصادرة لتاريخ الإسلام لحساب تاريخ الناس.

وفي عصرنا الحديث أيضا تعالت أصوات ناس من المسلمين وقالوا: إنالدين منفصل عن الدولة بالفعل على امتداد التاريخ الإسلامي.

وهنا خلط واضح وتحميل تاريخ السلام ما ليس منه. وتعاليت أصواتهم أكثر فأكثر وقالوا: إن الخلافة على امتداد التاريخ الإسلامي لم تكن أصلا إسلاميا.

الصفحة ١٣

وإنما مجرد اجتهاد وتطبيق ارتضاه المسلمون الأوائل.

وهذا أيضا خلط يهدف إلى إعلاء كلمة المثل الأعلى المنخفض. والذبيدقق النظر في تاريخ السلام عند اللبنة الأولى يرى أن الخالفة أصل أصيل فيالبناء الفطري، قال تعالى: * (واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة). (١) *

وعلى امتداد تاريخ الإسلام خاطب الله تعالى أنبياءه ورسله فقال لإبراهيمعليه السلام: * (إني جاعلك للناس إماما). (٢) *

بل إن نظام الخلافة يرى أيضا على المساحات الواسعة، يرى على وجهالماضي والحاضر. قال تعالى: * (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قومنوح). (٣) *

وقال: * (وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا). (٤) *

وقال * (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره). (٥) *

فالخلافة في البناء الفطري ترى عند القمة وعند القاعدة. وعلى هذا فإنالقول بأن الخلافة ليست أصلا إسلاميا قول فيه نظر. وهذا القول روح له أعداء الفطرة في عصرنا الحديث عندما بدأت الروح الإسلامية تدب وترج أجساد وعقولالمسلمين وتدعوهم إلى أعلام المثل الأعلى المرتفع. وأشعل أعداء الفطرة النارفي كل طيب، وزينوا كل خبيث ليصدوا عن سبيل الله. وتوج الوغد الهندي سلمانرشي وغيره هذه الأعمال بروايات وأقوال الهدف منها النيل من أعلام تاريخالإسلام لحساب الأطروحة الغربية التي تعمل من أجل توثيق الفطرة.

(١)سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢)سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣)سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٤)سورة يونس: الآية ٧٣.

(٥)سورة فاطر: الآية ٣٩.

ونحن في كتابنا هذا سنعرض أطروحات الإسلام التي جاء بها النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم في ما يتعلق بمستقبل الأمة ودورها الرسالي الذي عهد به إليها وموقف الأمة من تلك الأطروحات النبوية. وسنعرض تجربة الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وما تمخض عنها من نتائج امتدت عبر القرون إلى اليوم.

وسنبين مدى ملائمة ذلك مع أطروحات الرسول صلى الله عليه وسلم التي تمثل المنهج الإسلامي الأصيل. وسنقيم تلك التجربة التي تحرك فيها لا مسلمون بشكل موضوعي للخروج منا بالعبر والدروس التي تعيننا على تمييز الحق من الباطل والعودة تارة أخرى إلى ذات المنهج الإسلامي الذي رسمه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. ومنهجنا في البحث يقوم على تحديد المشكلات واستبعاد الزائف منها بعد قراءة نقدية ومتفحصة وتقييمية. مع الوضع في الاعتبار أن جانب كبير من التراث صنعته أفراد، وهذا الجانب تداخل مع تاريخ السلام كما ذكرنا. وعلى هذا فتاريخ المسلمين عندي قابل للنقد كما أنه معرض أحيانا للرفض إذا تعارض مع القرآن والسنة الصحيحة. وقراءتي للأحداث كان الهدف منها تقديم تاريخ شامل. بمعنيتاريخ تجتمع فيه جميع الخيوط، وهذه القراءة التي تمارس النقد وفقا للكتاب والسنة تنظر إلى التراث على أنه نقطة بداية. فالبدائيات دائما ترى عليه وجهالنهايات. وعلى هذا فإن الأمور إذا اشتبهت اعتبر بأخرها أولها. أي يقاس آخرها على أولها فحسب البدائيات تكون النهايات. هذا ولقد آثرت في هذا البحث الطريقة السردية التي تعتمد على آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والرواية التاريخية. هذا وبالله التوفيق.

الصفحة ١٥

النور الذي أضاء

الصفحة ١٦

الصفحة ١٧

أولا - نور في أعماق الوجود

- ١ المنابع:

إن جميع موجودات العالم ما نر وما لا نرى ما نعلم وما لا نعلم، تنتهيفي وجودها وآثارها إلى الله الواحد الأحد عز وجل، ولأنها منها وإليه، فلا يمكن لأبي موجود في الوجود من الأفراد من ملكه جل أنه، ولأن جميع الموجودات في هذا العالم حياتها وقدرتها وعلمها متصل بالله تعالى، فلا يمكن لموجود مهما كان قدره وعلمه من الفرار من الله الذي يملك كل شيء، فقد خلق سبحانه الخلق لهدف من ورائه حكمة، وأوجب سبحانه على نفسه فتح الطريق لعبادة وهداية عباد هاليه قبل أن يخطوا فيه خطوة واحدة.

فكما أن حبة القمح توضع في الأرض فتتشق للنمو قاصدة في نموها اتجاهها واحدة لتكون شجرة كاملة عليها سنابلها، وكما أن نطفة الحيوان تعرف طريقها فتتوجه إلى اتجاه واحد ينتهي بها إلى إيجاد النوع، فكذلك الإنسان من أول بداية التكوين يتجه في طريق نحو غاية واحدة على امتدادها يكدر حتى يلاقي ربه، والعبودية هي الغرض الإلهي من خلق الإنسان، وحقيقة العبادة أن يضع الإنسان نفسه في مقام الذلة والعبودية، ويوجه وجهه إلى مقام ربه، طاهر النفس عن الكفر بمراتبه، وعن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر). (١)

وقوله تعالى: (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين). (٢)

(١) سورة الزمر: الآية ٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٨.

الصفحة ١٨

والعبودية إذا تمكنت من نفس العبد رأى ما يقع عليه بصره وتبلغه بصيرته مملوكا لله، خاضعا لأمره، ووجد أن كل ما آتاه الله فهو من فضله سبحانه، ومامنعه فإنما منعه عن حكمة، وعلم أن هناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم.

وطريق العبودية فتحه الله وهدى عباده إليه، واللبنة الأولى في هذا الطريق هي الفطرة، أودع فيها سبحانه ميثاق الربوبية الذي شهد به الإنسان عند العتبة الأولى في طويق العبودية، قال تعالى: (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). (١) لقد أخذ جل شأنه الميثاق - ف موطن قبل الدنيا - من عباده في عالم الذر (ألست بربكم؟) خطاب حقيقي وتكليم إلهي، (قالوا بلى شهدنا) إنهم يفهمونما يشاهدون، إن الله سبحانه يريد منهم الاعتراف وإعطاء الموثق، فشهد كل إنسان على نفسه، ولم يعد لأحد منهم حجة على الله يوم القيامة، ليقول أنه كان غافلا في الدنيا عن ربوبيته تعالى، ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذه.

وكما هدى الفطرة إلى معرفته تعالى، ألهم النفس الإنسانية تجنب عنا الفجور والورع عن محارم الله، فجعل نهييه سبحانه عن فعل حجاب مضروب، فإذا اقترب الإنسان المنهي عنه يكون قد شق الستر المضروب وخرق الحجاب. قالتعالى: (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها). (٢)

إن النفس ملهمة كي تميز بين الفجور والتقوى. ووضع لبنة التقوى فيها. تركية وإِنماء وتزويد لها بما يمدّها في بقائها عن طريق غايتها، قال تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٣.

أولي الألباب). (١)

وكما أقام سبحانه الحجة على الإنسان في عجبته الداخلية أقام عليه الحجة في عالم الحياة الدنيا، عالم المشاهدة المنظور، فجهز بدن الإنسان بما يبصر به، وما يستعين به على الكلام. فإذا نظر، أو تكلم واستقام نظره وكلامه مع المخزون الفطري، ومخزون التقوى، تقدم في طريق الخير. قال تعالى: (ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفنتين * وهديناه النجدين). (٢)

والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر. أي علمناه طريق الخير وطريق الشرب إلى الهام منا. فهو يعرف الخير من الشر. والإنسان مخير في أي الطريقين يسلك. قالتعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا * إنا أعتدنا للكافرين سلاسلوأغلالا وسعيرا). (٣)

لقد زود تعالى الإنسان داخليا وخارجيا بالوقود الذي يؤدي إلى الفوز. وأراه السبيل المؤدي إلى الغاية المطلوبة. وعلمه بواسطة الأنبياء والرسل عليهم السلام أن سلوك هذا السبيل ينتهي بالإنسان إلى سعادته في الدنيا والآخرة. وأخيره أن الشكر لهذه الهداية الإلهية إنما يكون بوضع النعمة في محلها، واستعمال هذه النعمة على أساس أنها من المنعم الحق.

لقد أقام سبحانه الحجة على جميع خلقه، وقد قضى الله أن الإنسان راجع إليه. وسيسأل الإنسان عن عمله، أشكر النعمة أم كفر بها؟

والنعم تبدأ من الفطرة ولا تنتهي لأنها لا تحصى ولا تعد.

وأمام الله قاصم الجبارين سيق الإنسان عاريا من كل شيء. عاري النفس، عاري المشاعر، عاري التاريخ (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٢) سورة البلد: الآية ٨ - ١٠.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٣ - ٤.

سوف يرى (١) * (وأمام الله قاصم المستكبرين سيقف الإنسان المحاصر بحجج الله، لتشهد كلحجة عليه، فلا يجد ملجأ يذهب إليه * (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون). (٢) *

إن ينبوع دين الله فطرة الإنسان نفسه. والفطرة تصرح أن الإنسان لم يكن له إلا أن يخضع لله تعالى خضوع عبادة، خضوع الضعيف للقوي، ومطاوعة العاجز للقادر، وتسليم الصغير الحقيق للعظيم الكبير الذي لا يماثله شيء في وجوده، العزيز الذي لا يغلبه شيء وغيره ذليل.

- ٢ نظرات على طريق الابتلاء:

إن عبور الحياة الدنيا إلى الآخرة تعلق جوره مظلات الابتلاء والفتن.

فالامتحان ناموس إلهي على امتداد هذه الجسور، وهذا الامتحان لا يستثنى منها المؤمن والكافر والمحسن والمسيء. وامتحان الله يكون لإظهار صلاحية الإنسان الباطنية من حيث استحقاق الثواب والعقاب. ويكشف به تعالى للمؤمنين حال المناقب وهم يعبرون جسر الحياة إلى الآخرة. كما إنه يقوي الإنسان المؤمن لاجتياز هذا الجسر. وكما يمتحن الله الفرد يمتحن سبحانه الأمة قال تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم). (٣)

إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة لها شريعة واحدة. ولكنه تعالى جعل للناس شرائع مختلفة، ليمتحنهم فيما آتاه من النعم المختلفة التي لا تحصى ولا تعد. فاختلاف النعم يستدعي اختلاف الامتحان. (٤) وعلى امتداد هذا الامتحان الذي هو في الوقت نفسه امتداد الحياة الدنيا، يموت الفرد ويأتي الآخر، وتموت

(١) سورة النجم: الآية ٣٩ و ٤٠.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢١.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

ب (٤) الميزان: ٢٥٢ / ٥.

الأمة وتأتي الأخرى قال تعالى: (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون). (١)

إن الأجل في هذه الآية أضيف إلى الأمة، إلى الوجود المجموعي للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات. إن هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين أفراد العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ. هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن بالأمة له أجل، وله موت، له حياة، له حركة، وكما أن الفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت. وكما أن موت الفرد يخضع لأجله ولقانونه ولناموسه كذلك الأمم أيضا، لها آجالها المضبوطة (٢) وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون). (٣)

إن الأمم تموت، وتأتي أمم أخرى. أعلام تسقط وأعلام ترفع. وعلى امتداد الرحلة يكون في السلف عبرة للخلف، ويكون في الماضي زاد للحاضر يبصر به الطريق الواضح إلى المستقبل. والقرآن الكريم حث الإنسان كي ينظر

إلى الخلف حيث ساحة الاعتبار. ليكون الاعتبار له زاد، قال تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين). (٤) *

لقد أهلكوا وسبب الهلاك الذنوب، وفي هذا دلالة على أن للسيئات والذنوب دخلاً في البلياء والمحن العامة، كما أن الحسنات والطاعات لها دخل في إفاضة النعم ونزول البركات. وقال تعالى: (وكم أهلكنا من قرية بطرت

(١) سورة يونس: الآية ٤٩.

(٢) المدرسة القرآنية / باقر الصدر: ٥٦.

(٣) سورة الحجر: الآية ٤ - ٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٦.

الصفحة ٢٢

معيشتها (١) * (أي طغت في معيشتها وقال تعالى: * (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون). (٣) * إن الماضي حجة على الحاضر والحاضر حجة على المستقبل. ولا يسمع الصم الدعاء. إن الأمة تأتي لينظر إليهم كيف يعملون. ورسول الله عليهم السلام حثوا أقوامهم وذكرهم بمن سبق كي يبصروا وقع أقدامهم وهم يعبرون الجسر إلى الآخرة.

فهذا هود عليه السلام يقول لقومه: (واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح). (٣)

وهذا صالح عليه السلام يقول لقومه: (واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد عاد). (٤)

والنظر إلى الخلف لا يعني التغني بوثنية من سبقونا، إنما البحث في عوامل انهيارهم كي يتجنب الحاضر ما وقع فيه الماضي. فعمل الماضي يكون قد أركس في فتنة. فإذا لم يتبين الحاضر خيوطها وسار على منوالهم، كان في حقيقة الأمر امتداداً للفتنة وإن لم يشارك فيها. وكما أن في الماضي زاد للحاضر يعبر به جسور الحياة. فإن الحاضر وهو تحت الامتحان عبرة للمستقبل. فهذا موسى عليه السلام يقول لقومه: (عسى ريكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون). (٥) (لقد ذهبت أمة، وجاءت أخرى ليجري عليها الاختبار الذي يكون زادا للمستقبل. وأمة محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأمم. يخاطبها سبحانه فيقول: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءت رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من

(١) سورة القصص: الآية ٥٨.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٤)سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٥)سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

الصفحة ٢٣

بعدهم لننظر كيف تعملون). (١)

إن المسيرة سائرة، تذررها الحجة من كل مكان. وكل خطوة وكل همسة محسوبة ومكتوبة. يقول تعالى: (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين). (٢)

- ٣ برنامج الشيطان:

ذكرنا أن الامتحان سنة إلهي. ولقد سمى الله تعالى هذا الامتحان في كتابه:

بلاء وابتلاء وفتنة. فقال جل شأنه: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) (٣) ، وقال: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) (٤) ، وقال:

(ونبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) (٥) ، وقال:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . (٦) (إن الأرض مساحة للامتحان. والإنسان عليها يمتحن بكل جزء من أجزاء العالم، وكل حالة من حالاته التي لها صلة به.

والشيطان الرجيم، لما لعنه الله وطرده نظير معصيته. أخذ على عاتقه إغواء أكثر الناس، فتسلل بإغوائه إلى كل مجال يختبر فيه الإنسان من الله، فإذا كان سبحانه قد جعل ما على الأرض زينة، فإن الشيطان التف حول هذه الزينة بتبئية أخرى كاذبة. وإذا كان الله تعالى قد ابتلى عباده بالشر والخير، فإن الشيطان التف حول الشر ليزينه، وحول الخير ليزهد الناس فيه، وإذا كان مجال الاختبار ليعلم سبحانه المجاهدين والصابرين، تسلل الشيطان إلى هذه المساحة، ليكون أكثر

(١)سورة يونس: الآية ١٣ - ١٤.

(٢)سورة ياسين: الآية ١٢.

(٣)سورة الكهف: الآية ٧.

(٤)سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٥)سورة محمد: الآية ٣١.

(٦)سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

الصفحة ٢٤

الناس في ضلال مبين. وهكذا تسلل الطريد إلى مائدة الامتحان. مهمته أن يدعوفقط إلى الضلال وقد زينه، وهو يدعو فقط لأنه لا يستطيع أن يجبر الناس علمعصيته، ولما كانت حركة الشيطان على الأرض هكذا، فإن تسليط بعض منالضوء على البداية، قد يفيد لمعرفة منهجه في الاغواء والتزيين.

خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وأمر بالسجود له، فسجد الملائكة، وكانإبليس من الجن وداخل فيهم، فأبى أن يسجد فخاطبه تعالى: (قال يا إبليس مامنحك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين (١) فجاء الردالذي تحتوي كلماته على منهج الشيطان الكامل (قال أنا خير منه خلقتني من ناروخلقتني من طين(٢))، لقد أكله الحسد وهو الذي شاهد المقدمة حيث الترابوالطين والصلصال. وعندما عاين العلم والحركة والحياة كنتيجة للمقدمة، دفعهالحسد إلى المقدمة حيث الحمأ المسنون متعاميا عن النتيجة استكبارا عليها. إنهاالصغار والجمود بعينه، ودعوة أولى لرفض النظر في آيات الله. وفي اعتراضالشيطان تلويح، بأن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقا والأمر بالسجود لأدمليس حقا.

والمتدبر في آيات الله، يجد أن الشيطان قبل رفضه السجود لأدم، كانتحجة الله قد دثرتة. وهذه الحجة أن الله تعالى أمره فيمن أمر بالسجود، فالأمر حجةبذاته. وخروج الشيطان عنه هو خروج باختيار وليس عن جبر. كما يجد المتدبرأيضا أن في ردود الشيطان على الله تعالى، لم تكن ردودا جوفاء، وإنما تحملمنهجها كاملا في الضلال وهذا المنهج له مهمة واحدة، هي الصد عن العبادة الحق.

ومن أجل هذا اعتمد المنهج على عمود يفصل أنبياء الله ورسله عليهم السلام عنأبناء آدم فلا يصل إليهم الهدى. وعمود يعمل على الصراط المستقيم من أجلإعاقبة الطريق أمام الفطرة حتى لا تصل إلى غايتها الحق. وعمود يعمل على إرساءقواعد الشذوذ ومهمته تصفية كل ما هو طاهر على امتداد المسيرة البشرية بعد رحيل

(١)سورة ص: الآية ٧٥.

(٢)سورة ص: الآية ٧٦.

الأنبياء والرسول. ودق أوتاد الشذوذ واعتبار الخارج عنها خارج على القانون.

باختصار يعتبر برنامج الشيطان قاعدة أساسية ينطلق منها قطاع الطرق على امتدادالتاريخ.

أولا - قطع الطريق على الأنبياء والرسول عليهم السلام:

أخبر الله تعالى بأنه عندما أمر الملائكة بالسجود قال إبليس(أنا خير منه) (١) وقال (لم أكن لأسجد لبشر خلقتني من صلصال.. (٢) فالرفض يحمل في أعماقه الحسد والكبر. وفي نفس الوقت يحتوي على أطروحة كاملةلتحقيق الجنس البشري. وهذا الرفض وهذه الأطروحة، شكلا في الحقيقة فقها كاملا للشيطان نسميه " فقه التحقير " وهذا

الفقه مارس عمله ضد الأنبياء والرسل منآدم إلى محمد عليهما السلام. وإذا كان مؤسس الفقه، رفض أمر الله بالسجود لآدم في بداية الخلق، فإنه على امتداد المسيرة البشرية وضع العقبات أمام أمر الله الذي حمله الأنبياء والرسل للسجود لله تعالى. والعقبات التي وضعها الشيطان من أجل الوصول إلى هدفه، كان عمودها الفقري تحقير الأنبياء والرسل، على اعتبار أنهم مبشر وليسوا ملائكة. وإذا كان الشيطان في البداية قد قال: (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) (٣) فإن حملة فقهه على امتداد التاريخ الإنساني وقفوا مندعوة الأنبياء في خنادق الحسد والكبر، رافعين راية التحقير للبشر الذي خلقه اللهم طين، نسوا الله فأنساهم أنفسهم. * (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده). (٤) * فماذا كان رد جحافل الظلام علنامتداد التاريخ الإنساني. يقول تعالى: * (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) (٥) * وقال تعالى: (قالوا ما أنتم إلا بشر مثنا وما أنزل الرحمن

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٣٣.

(٣) سورة الحجر: الآية ٣٣.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١١.

(٥) سورة الأنعام: ٩١.

من شيء) (١) * ، وقال تعالى: (فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد) (٢) ، وقالوا: (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) (٣) ، ولأنهم يرفعون لافتة التحقير الشيطانية التي ينفذون بنودها بدون تعقل قالوا: (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة). (٤) وقالوا: (لولا أنزل عليه ملك) (٥) ، لقد رفضوا البشر الذي خلقه الله من طين. وكان هذا الرفض مقدمة كبرى للصد عن سبيل الله، قال تعالى: * (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا). (٦) * وعلى هذا الرفض دق الشيطان وتدا شع ثقافة جاء عليها الفراعنة والقياطرة والأباطرة، الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجري في عروقهم. ووفقا لهذا الادعاء الذي ساندته كهنة الاغواء والتزيين، هروا الناس إلى عبادتهم من دون الله، وعلى هذه العبادة شيدت الأصنام، وهتكت الأعراض، وجلدت الشعوب، ورفعت رايات الجبرية والطاغوت واعتبر الخارج عنها خارج على القانون. ولم يقف فقها التحقير عند الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإنما مارس هذا الفقه عمله على امتداد المسيرة بعد رحيل كل نبي وكل رسول. فلقد اعتمد الجبابرة على حملات التشكيك والتشويش المنظم لوقف مسيرة الذين يأمرون بالقسط من الناس. فإذا لم تأت الحملات بالثمار المطلوبة، اعتمدوا لهم أسلوب اليد الغليظة بالحجر تاروق بالسيف تارة وبقطع الرؤوس والطواف بها تارة أخرى.

ثانيا - قطع الطريق على الفطرة:

عندما قال الشيطان أنا خير منه، شمله عقاب الله تعالى: قال تعالى: * (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين). (٧) * لقد نزل إلى منزلة

(١) سورة يس: الآية ١٥.

(٢) سورة التغابن: الآية ٦.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٣٤.

(٤) سورة فصلت: الآية ١٤.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٨.

(٦) سورة الإسراء: الآية ٩٤.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٣.

الصفحة ٢٧

الهبوط، ليكون من الصاغرين أهل الهوان. ولم يترك الشيطان منزلة الهبوط دون استغلالها فقال: * (رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون) (١) لم يقل: رب انظرنى إلى يوم يموت آدم، بل ذكر آدم وبنيه. فقال له سبحانه: * (إنك من المنظرين). (٢) * وفي هذا النص دلالة على أن هناك منظرين غيره، منهم ملائكة ومنهم بشر، أخبرت عنهما السنة النبوية الشريفة. (٣)

وفي منزلة الهبوط صاغ الشيطان فقه الاغواء والتزيين، الذي به يخترق الكيان الإنساني وعليه تتعدد الأهواء * (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. * إلا عبادك منهم المخلصين) (٤) ، لقد اختار مساحة الزينة والزينة الحق جعلها الله لعباده كي يسوقهم التفكير فيها إلى العبادة الحق. قالتعالى: * (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) (٥) * ، فأقام الشيطان له خيمة في اتجاه هذه الزينة، وهذه الخيمة بثت ثقافة ألوهية الكواكب والنجوم. تلك الألوهية التي اعترض عليها هد هـ كان يحتفظ بفطرته التي فطره الله عليها. فعند ما ذهب هذا الطائر إلى مملكة سبأ، وجدهم يعبدون الشمس من دون الله، فعلم وهو الطائر أنها زينة أخرى غريبة، قد أدخلت على الزينة الحق التي تدعو إلى العبادة الحق.

فقال سليمان عليه السلام وهو يتحدث عن ملكة سبأ * (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) (٦) لقد وقعوا على الزينة المحرمة، وهم المجهزون بالفطرة، والفطرة نعمة والاختيار الخطأ يترتب على امتداده كفران النعمة. والسنة الإلهية عند كفر النعمة، تسلب نعمة الهداية. وفي عالم اللاهداية تعشق الأسماع والأبصار

(١) سورة الحجر: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥.

- (٣) أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم. بظهور المهدي ونزول عيسى عليهما السلام.
وبخروج الدجال والسفياي آخر الزمان ومن أراد المزيد فعليه ببحوثنا في المسيح الدجال.
(٤) سورة الحجر: الآية ٣٩ - ٤٠.
(٥) سورة الصافات: الآية ٦.
(٦) سورة النمل: الآية ٢٤.

والقلوب كل زينة تنتهي بصاحبها إلى الهلاك. تعشق زينة الشهوات والأموال والبنين والمكر والصد عن السبيل. ومع هذا العشق تتحرك جحافل الليل أصحابقه الشيطان، ليدافعوا عن زينتهم أمام الذين يتعاملون مع الزينة الحق. على أنها للتفكر وللابتلاء في عالم الإنسان.

وفي الزينة الحق قال تعالى: * (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا). (١) * قال المفسرون: إن المال والبنين وإن تعلقت بها القلوب، وتاقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع وتحقق بها الآمال. إلا أنها زينة سريعة الزوال، لا تنفع الإنسان في كل ما أراده وما يأمله وما يتمناه منها. ولأنها كذلك فلا بد للتعامل معها وفقا لما شرعه الله تعالى، وإذا كانت هذه الزينة زائلة، فإن الأعمال الصالحة هي الباقية. وهي عند الله خيرا ثوابا، لأن الله يجازي الإنسان الذي جاء بها خير الجزاء، وخيرا أملا. لأن ما يؤمل بها من رحمة الله وكرامته ميسور للإنسان، فهي أصدق أملا من زينات الدنيا وزخارفها التي لا تفي للإنسان في أكثر ما تعده.

وكما أقام الشيطان له خيمة في اتجاه زينة الكواكب، أقام خيمة في اتجاه زينة الأموال والأولاد، وعلى هذه الزينة قسمت القلوب ووجه أصحابها سهامهم في اتجاه طائفة الأعمال الصالحة التي تدعو إلى الخير والثواب. وجاء طابور طويل يصد بالمال عن سبيل الله كما فعل قارون * (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) (٢) * ، واستمر هذا الطابور يتدفق على صفحة الوجه الإنساني آخذا صورا عديدة في عالم الرشوقويوت المال للصد عن سبيل الله. وفي عالم زينة الأولاد قالوا فيما أخبر سبحانه * (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين). (٣) * (وعلى قاعدة الأبناء، جاء الآباء بالأبناء ليركبوا على رقبة الشعوب، ليصبح بذلك المستقبل ابنا لشذوذ

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٢) سورة القصص: الآية ٧٩.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٥.

الحاضر والحاضر ابنا لشذوذ الماضي، والجميع يحافظون على سنة الآباء القومية التي أقام الشيطان خيامها، ورفع عليها قانونه الخالد الشاذ الذي وقف حجر عثرة على امتداد دعوة الأنبياء والرسل. لقد قالوا كما أخبر الله

تعالى: (قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) (١) * ، و * (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) (٢) * ، و * (قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) (٣) * ، وقالوا: * (إننا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون). (٤) *

إن زينة المال والأولاد التي أضفى عليها الشيطان زخرفه ليتلقفه الغاؤون، هذه الزينة المزخرفة أقامت جدرا من الأموال واللحوم للصد عن سبيل الله. وهذا الانحراف وغيره، ما زال حجر عثرة على طريق الدعوة الحق. فالفطرة التي تحملكليات الدين، زخرف لصاحبها طريق الانجراف، وزين لهم الباطل والمعاصي، ففسدوا الله. ومن ينسى الله ينسيه الله نفسه وتنتهي به خطاه إلى الهلاك. إن حاملا لفطرة هداة الله إلى السبيل الحق، وعرفه طريق الحق وطريق الباطل، وله أن يختار. فمن اختار طريق الباطل، أضله الله. ومعنى إضلال الله له، إن الله يقطع عنه الرحمة لانحرافه في الاختيار. ولا يدخل في الرحمة إلا إذا أخذ الخطوة الأولى في اتجاه الاختيار الحق. وجحافل فقه الشيطان، لا يبأسوا من طرح ثقافات وعقائد من شأنها أن تقسد الدين الفطري، لأنه على فساد الدين الفطري يترتب عليه فساد القوة الحسية الداخلية للإنسان، ولا تتعادل فيما بينها. وعلى فساد القوالب الحسية، يكون الإنسان مستعدا لتلقي أي إغواء أو تزيين، يشبع أي ملكة من ملكات النفس الجائعة. وعلى أعتاب الكثرة من الذنوب الآدمية، يأتي طغيان هذالكثرة التي لا تتعظ بموقف، ولا تتفاعل مع وجدان. ويترتب على طغيانهم ضعف القوة المخالفة، لذلك كان طريق الدعوة طريقا شاقا على امتداد المسيرة البشرية.

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠٤.

(٣) سورة يونس: الآية ٧٨.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

ثالثا - قطع الطريق على الدعوة:

بعد أن مارس قطاع الطرق عملهم للصد عن سبيل الله. انقطع الطريق علنا لرسول والأنبياء والفطرة وفقا لمنهج الشيطان. نرى أن هذا المنهج قد قطع الطريق على الدعوة، بمعنى إنه استعمل أدوات يستطيع أن يعرقل بها الطريق أمام السائرين في اتجاه العبادة الحق إلى يوم الوقت المعلوم. وأدوات الشيطان التي استعملها في هذا المجال قام بها المنافقون والذين في قلوبهم مرض وغيرهم من الذين يلبسون ملابس الأديان. أي أنه عمل على ضرب الدعوة من داخلها حتى تسير في اتجاه غير اتجاه العبادة الحق. وهذا المخطط أخبرنا الله تعالى به، فبعد أن أنظره الله ليوميبعثون قال الله جل شأنه * (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) (١) * ، قال المفسرون: لما أنظر إبليس واستوثق بذلك أخذ في المعاندة والتمرد. قال: لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا على طريق الحق وسبيلا لنجاة ولأضلنهم

عنها لئلا يعبدون ولا يوحدوك (٢) وعود الشيطان على الصراط المستقيم، كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه.

والجلوس على الصراط المستقيم لا يتحقق الغرض منه إلا برمز من رموز هذا الصراط، بمعنى أنه لكي يصد عن سبيل الله فلا بد من ثقافة يصيد بها الذين يسرون على الصراط المستقيم.

وهذه الثقافة لكي يتحقق الغرض منها لا بد أن يحملها طائفة من السائرين على الصراط المستقيم، فمعهم يكون الضلال أشد. ويسرون في الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بينما هم في الواقع يغوصون في أحوال الذين من قبلهم من الذين غضب الله عليهم ولعنهم. إن قطع الطريق على الدعوة، يتحققا إذا حملها أصحاب اللادعوة واللاهتاف، بشرط أن يكون على أصحاب الدعوة

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦ - ١٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٠٤.

الصفحة ٣١

والهدف ملابس الدعوة والهدف.

ويعد أن أعلن الشيطان الخط العريض، بأنه سيجلس على الصراط المستقيم. ذلك الصراط الذي يوصل الناس إلى ربهم الحق وينتهي بهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، أخبر سبحانه بأنه قال: * (ثم لآتينهم من بين أيديهم من خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم) * وفي هذا إيضاح للخط العريض. قال المفسرون: عن مجاهد قال * (من بين أيديهم) * يعني من حيث يبصرون، وقيل:

من بين أيديهم أي الدنيا. (١) وقيل: أي ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم، من الأمور التي تهواها النفوس، وتستلذه الطباع. وكل ما يتعلق بالأموال والأمان. فيأتيهم ليخوفهم من الفقر إذا هموا لينفقوا في سبيل الله. أو يخوفهم من ذم الناس أو لومهم إذا أمروا بمعروف أو إذا سلكوا سبيل من سبل الخير وعلى هذا جاء فقه التوقع والترقيع والانسحاب، غلافه غلاف الدين ومحتواه لاعلاقة له بالدين.

والمراد من خلفهم، قال المفسرون: أي أرغبهم في دنياهم (٢)، وقيل:

أي آتيهم من ناحية الأولاد والأعقاب وذلك لأن الإنسان له فيمن يخلفه من أولاد، آمال وأمان ومخاوف ومكاره. ويخيل للمرء أنه يبقى ببقاء أولاده، ويسره ما يسره ويسوؤه ما يسوؤه، فيجمع لهم المال من حلاله وحرامه، ويفسح لهم الطريق إذا كان ذا جاه وملك ليكونوا امتدادا له بعد وفاته.. وعلقاعدة الأبناء جاء فقه السلطة الذي يمدح المستقبل لأنه ينتمي إلى حاضر القاضي والجلاد ويمدح الحاضر لأنه ينتمي إلى ماضي القاضي والجلاد إنه عالم * (إننا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون) (٣) * (عالم ينظر إلى المستقبل بعين الماضي وإن كان

آباؤهم في الماضي لا يعقلون شيئاً، إنه عالم غلاف فقهه غلاف ديني أما محتواه فهو أقرب إلى المحافظة على الشذوذ.

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٠٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

الصفحة ٣٢

والمراد بعن أيانهم وعن شمائلهم، قال المفسرون: عن أيانهم: أي أشبه عليهم أمر دينهم (١) وقيل: اليمين هو الجانب القوي الميمون من الإنسان، أي الدين. وإتيانه من جانب الدين، أن يزين لهم المبالغة في بعض الأمور الدينية والتكاليف بما لم يأمرهم الله.. وعلى هذا جاء فقه المبالغة والتنتع والمفرين، الذين يدعون أنهم يعلمون كل شيء وهم لا يعلمون أي شيء. وعلى أكتافهم تتأكل الشرائع ويتراجع الدين، إن غلاف فقه المنفرين والمتنتعين والذين يتخذون الزهد والرهبنة طريقاً ليأكلوا به أموال الناس بالباطل، غلاف يحمل ملامح دينية. أما محتواه فقد خطه أصحاب القضايا الرديئة، التي لا تصلح إلا لعالم اللادعوة واللاهدف * (وعن شمائلهم)، قال المفسرون: انتهى لهم السيئات والمعاصي. وقيل: عن شمائلهم أي تأصيلاً لفحشاء والمنكر والدفاع عن اقتراف الذنوب بجعل الأهواء قانوناً لهم.. وأمام هذا الفقه تقهر اليمين وتقدم الشمال تحت لافتة تنادي بحقوق الإنسان، فالعنوان له ملامح طيبة " حقوق الإنسان " أما المحتوى فلا وجود فيه لإنساناً لفطرة، إلا من رحم الله.

والمنهج الشيطاني لم يكتف بمحاصرة الإنسان من جهاته الأربع، وإنما خطط من أجل أن يجمع أتباعه تحت ثقافة واحدة، هي ثقافة الأهواء رغم تفرق سبلهم، وهذه الثقافة يعزفها الشيطان الرجيم على الجميع. أخبر الله تعالى بأنه قال: * (أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريتها لا قليلاً). (٢) * قال المفسرون: يقال، حنك الدابة بحبلها، إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. والمعنى: أقسم لئن أخرتني إلى يوم القيامة، وهو مدمكت بني آدم في الأرض، لأجمن ذريته إلا قليلاً، أتسلط عليهم تسلط ركب الدابة الملجم لها عليها، يطبعونني فيما أمرهم، ويتوجهون إلى حيث أشير لهم، من غير أي عصيان وجماع. إن الاحتكاك فقه لتلجيم العقول وتكميم الأفواه

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٠٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

الصفحة ٣٣

وتعصيب العيون، عن كل حق أو حقيقة. إن الاحتكاك قانون يضرب بسياطها لغواء والرعاع والديهام.

وفي عالم الاحتكاك تتلقى الدواب أوامر الضلال والأمانى وتغيير خلق الله، بدون اعتراض وبلا أدنى تفكير. قال تعالى وهو يخبر في كتابه عن خطة الشيطان * (وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله). (١) * قال المفسرون: * (ولأضلنهم) * أي عن طريق الحق، * (ولأمنينهم) * أي أزين لهم ترك التوبة * (ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) * يعني بشق آذانها، * (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) * يعني دين الله. (٢)

والمعنى: أي لأضلنهم بالاشتغال بعبادة غير الله، واقتراف المعاصي، ولأغرینهم بالأمانى التي تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم وما يهمهم من أمرهم، ولأمرنهم بشق آذان الأنعام وتحريم ما أحل الله، ولأمرنهم بتغيير خلق الله.

وينطبق على مثل الإخساء وأنواع المثلة واللواط والسحاق. وقيل: المراد بتغيير خلق الله، الخروج عن حكم الفطرة، وترك الدين الحنيف. قال تعالى: * (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم). (٣) * والخروج على حكم الفطرة، غير تبديل الفطرة. فالفطرة لا تبدل لأنها حجة بذاتها على الإنسان.

وهكذا قطع البرنامج الشيطاني الطريق على الرسل والفطرة والدعوة، والله غالب على أمره. لقد طلب الشيطان الامهال إلى يوم الوقت المعلوم، فأعطاه الله ذلك، وتوعد ذرية آدم بالإغواء والتزيين والاحتكاك وغير ذلك. ولأن برنامجه لا يقصده إلا شر الدواب عنه الله، زاده الله فقال له تعالى: * (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان

(١) سورة النساء: الآية ١١٨ - ١١٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٥٦ / ١.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

إلا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا). (١) قال المفسرون: أي استنهض للمعصية من استطعت أن تستنهضه من ذرية آدم بصوتك، وصح عليهم لتسوقهم إلى المعصية بأعوانك وجيوشك، فرسانهم ورجالهم. وشاركهم في الأموال فيجمعونها من خبيث وينفقونها في حرام، وشاركهم في الأولاد أي يمجسونهم ويهودونهم وينصرونهم ويصبغونهم غير صبغة الإسلام. (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) أخبر سبحانه، بتأييده تعالعباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال (وكفى بربك وكيلًا) أي حافظا ومؤيدا ونصييرا. (٢)

نـ برنامج الشيطان تنسفه العبادة الحق نسفا. فالشيطان لا يستطيع أن يجبر إنسان على معصية، إنه يزين ويغوي وينادي فقط، والذي يلبي نداءه يكون في الحقيقة قد اختار، ومن اختار طريق الشيطان فهو بعيد عن الله، وبرنامج الشيطانيسير اتباعه عكس اتجاه الفطرة، ولا يقصدوا إلا ما خلفوه وراء ظهورهم.

والإنسان الذي يسير في غير اتجاه الفطرة، كلما توجه إلى ما يراه خيرا لنفسه وصالحا لدينه أو لدنياه، لم ينل إلا شرا أو فسادا، وكلما بالغ في التقدمزاد في التأخر، وليس بفالح أبدا. وذلك لأنه مطارذ من الله ولا بقاء لشئيطارده الله إن أتباع برنامج الشيطان لن يهديهم الله، ما داموا يتزودون من زادبرنامج الضلال. (والله لا يهدي القوم الظالمين) (٢) (والله لا يهدي القومالفاسقين) (٤) (والله لا يهدي القوم الكافرين) (٥) (إن الله لا يهدي منيضل) (٦) (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) (٧) (إن الله لا يهدي من هو

(١)سورة الإسراء: الآية ٦٣ - ٦٤ - ٦٥.

(٢)تفسير ابن كثير: ٥٠ / ٣.

(٣)سورة التوبة: الآية ١٩.

(٤)سورة المائدة: الآية ١٠٨.

(٥)سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(٦)سورة النحل: الآية ٣٧.

(٧)سورة غافر: الآية ٢٨.

كاذب كفار) (١) * فهؤلاء جميعا دخلوا باختيارهم إلى دائرة مقفولة على الغاؤون.

فمن لم يأخذ بالأسباب وخرج من هذه الدائرة، هلك وخسر الدنيا والآخرة، إنالعودة إلى سبيل الفطرة، لا يكون إلا بالاتجاه أولا نحو الفطرة، ثم السير على سبيلها وفقا لما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى الخطوة الأولى يأتي مدد الله العزيز الحكيم، قال تعالى: * (إن تتصروا الله ينصركمويثبت أقدامكم). (٢) *

٤. حصار برنامج الشيطان:

لقد عمل الشيطان وقطاع الطرق على امتداد التاريخ الإنساني، من أجلالتشكيك في كل رسول ونبي، رافعين في وجوههم أعلام الاستكبار والتحقير.

وعلى امتداد التاريخ لم ينقل إلينا أن هناك نبيا أو رسولا قد هزموا إنما نقل إليناأن الاستكبار هزم في كل مكان وكل زمان، هزم تحت طين الطوفان أيام نوحعليه السلام. وهزم تحت الرياح العاصفة أيام هود عليه السلام. وهزم تحتصاعقة من السماء أيام صالح عليه السلام وهزم تحت قصف الحجارة من السماء أيام لوط عليه السلام. وهزم تحت أمواج البحر المتلاطمة أيام موسى عليه السلام. وما زال يهزم حتى يومنا هذا تحت شهادة الدعوة الخاتمة

التي جاء بهامحمد صلى الله عليه وسلم. * (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنياويوم يقوم الأشهاد)
(3). *

إن الباطل هو الذي يهزم وفي هزيمته آية لكل من له سمع وبصر وعبرة لمن أراد الاعتبار * (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق). (٤) *

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الدعوة، ولكن هيهات،

(١)سورة الزمر: الآية ٣.

(٢)سورة محمد: الآية ٧.

(٣)سورة غافر: الآية ٥١.

(٤)سورة الأنبياء: الآية ١٨.

الصفحة ٣٦

منذ آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم والتوحيد يسري فيالوجود. لقد ذهب الجبابة وأبناء الجبابة الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجري في عروقهم، ذهبوا، وذهب من بعدهم الجلادون الذين أرادوا أن تكون للشذوذقداسة. ذهبوا وما زالوا يذهبون، ودعوة الحق راسخة في النفوس رسوخ الجبال * (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كرهالمشركون). (١) *

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الفطرة. والفطرة التياستهدفوها يقدرروا على تبديلها وفي هذا انتكاس لهم. أما تغيير الطريقالفطري، فإن الشيطان لم يمكن من إجبار الناس على المعاصي، هو يدعو إليها فقط. وهذا الباب أغلقته حجج الله على عباده في عالم الذر والخلق، وفي عالمالمشاهدة المنظور. ولقد جاء رسل الله عليهم السلام بالدين الحق، وللدنيطريقة خاصة في الحياة، وبه يميز الناس أي الطرق يسلكون إلى حياة طيبة فيالدنيا والآخرة، والدين الصحيح لا يكون إلا بحفظ الصلة بالله تعالى وإخلاصالعبادة له. فمن أخلص العبادة لله تكون له حياة طيبة والله تعالى يحيي في الدنياالذين آمنوا حياة غير الحياة التي يعطيها للآخرين، فحياة المؤمنين والمجرمينوموتهما لا يتساويان. قال تعالى: * (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهمكالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون). (٢) *

ومن أعظم الحجج على الإنسان، أن الله ما ترك دعوة جاء بها رسول منرسله، إلا وأخبر فيها عن مكائد الشيطان، كي يحذر الجنس البشري من عمليات الاغواء والتزيين وغير ذلك. أليس في هذا تعرية لبرنامج الشيطان، والرسالةالخاتمة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، أفاض فيها سبحانه فيهذا الجانب، وكشف كل مكر يقوم به الشيطان وأتباعه حتى يوم الوقت المعلوم.

(١)سورة الصف: الآية ٨ - ٩.

(٢)سورة الجاثية: الآية ٢١.

الصفحة ٣٧

أليس في هذا حجة إضافية على ما عند الإنسان من حجج. إن الأخبار بما مضحجة دامغة * (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدومبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم). (١) *

لقد أخبر سبحانه عن أمره ونهيه تعالى فقال: * (إن الله يأمر بالعدلوالإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكمتذكرون)(٢) * ، وبين سبحانه أن الشيطان سيعمل على طريق ما نهى الله عنه،فقال إنه (يأمر بالفحشاء والمنكر) (٣) * ولأنه كذلك جاء التحذير من الحركة الشيطانية فقال سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم * (قل إنما حرم ربيالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق) (٤) * وقال: * (ولا تقربواالفواحش ما ظهر منها وما بطن) .(٥) * إنه الحصار المضروب على برنامجالشيطان، حصار هدفه تحرير الإنسان ووضعه على طريق الحياة الطيبة في الدنياوالآخرة. والحياة الدنيا لا تساوي ساعة واحدة أمام الحياة الآخرة.

وكما حاصر كتاب الله أعمدة البرنامج الشيطاني، الفحشاء والمنكر، حاصرقطاع الطرق الذين وجدوا في الطاغوت ضالتهنم. فقال تعالى: * (والذينكفروا أولياؤهم الطاغوت) (٦) * وفي مقابل هذه الولاية قال سبحانه: * (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى).(٧) *

وقال تعالى: * (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)، ثم حذر سبحانه فقال: * (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا

(١)سورة يس: الآية ٦٠ - ٦١.

(٢)سورة النحل: الآية ٩٠.

(٣)سورة النور: الآية ٢١.

(٤)سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٥)سورة الأنعام: الآية ١٥١.

(٦)سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٧)سورة الزمر: الآية ١٧.

(٨)سورة الأعراف: الآية ٢٧.

الصفحة ٣٨

مبيناً)(١) * ، وقال * (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون).(٢)

وآيات القرآن التي تحاصر الشيطان وحزبه، وتبشر المؤمنين بالفوز، آيات كثيرة. أما من ناحية تمكين الشيطان كي يزين للناس المعاصي، فإن الله تعالين الإيمان في قلوب الذين آمنوا. قال تعالى: * (ولكن الله حيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) (٣) * وجعل سبحانه لمن آمن نورا يمشي به في الناس، قالتعالى: * (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس). (٤) إذا كان الشيطان قد أمهل حتى يوم الوقت المعلوم، فإن الله أيد الإنسان بتتبع الأنبياء والرسل والأئمة المهدين والملائكة الباقين ببقاء الدنيا. وهكذا، زينة في مواجهة زينة، وحياء في مواجهة حياة، ومنهج في مواجهة منهج.

منهج الله يث التوحيد، وإعانة الله لعباده، والتسبيح، والتطهير، والحرية، والحلال، والحكمة، والخشوع، والعبادة الحق، والشكر، والشهادة، والخلود. ومنهج الشيطان حيث الاختلاف، والأزلام، والاستبداد، والاستعباد، والتفاخر، والتكذيب، والجهل، والجريمة، والفحشاء والمنكر، والخرافات، والطاغوت، والضلال، والفسق، والظلم والكفر، والنار.

(١) سورة النساء: الآية ١١٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٩.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

ثانيا: النور والسحب الداكنة

على امتداد المسيرة الإنسانية، أقام الله تعالى حجتة على خلقه بإرسال الأنبياء والرسل ومعهم الهدى. وعلى امتداد نفس المسيرة والشيطان وأولياؤه يعملون من أجل الضلال والنار، وبعد رحيل النبي المؤيد بالوحي، ينشط الشيطان وتلاميذه في العمل على أرضية الصدر الأول في كل رسالة، وذلك لأن هذه التربة تعتبر مخزنا هاما تستمد منه الأجيال وقودها الذي تتطلق به إلى المستقبل، فالشيطان إذا دق شذوذا في الأرضية الأولى، ضمن لهذا الشذوذ قداسة على امتداد المسيرة البشرية. ومن أجل هذا تنشط حركته على امتداد هذا المساحة، وبالرغم من أن هذه المساحة تكون مشبعة بالعلم، إلا أن الشيطان يواجه هذا العلم دائما بالبغي، وما يلبث الذين يفي قلوبهم مرض أن يهيمنوا ببيغيمالذي يغذيه الزخرف والتزيين والإغواء، فبهذه التغذية يتراجع العلم ويعبر البيغيمالي عالم الفتن. ولقد أخبرنا الله في كتابه أن الاختلاف بعد الرسل ما جاء إلا بعد أن أقيمت عليهم الحجة بالعلم، وهذا الاختلاف ما ترعرع إلا على تربة البغي التي يترتب عليها العقاب * (وما اختلف أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب). (١) *

قال المفسرون: أي بغي بعضهم مع بعض، فاختلّفوا في الحق لتحاسدهم

وتباغضهم وتدابروهم. فحمل بعضهم بغض البعض الآخر، على مخالفته فيجميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقا (١). وقيل: اختلاف أهل الكتاب في الدين مع نزول الكتاب الإلهي عليهم، لم يكن عن جهل منهم بحقيقة الأمر، بل كانوا عالمين بذلك. وإنما حملهم على ذلك بغيهم وظلمهم من غير عذر، وذلك كفر منهم بآيات الله المبينة لهم حق الأمر وحقيقته. لا بالله، فإنهم يعترفون به، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا في دنياه وآخرته أما في الدنيا فبالخزي وسلب سعادة الحياة عنه. وأما في الآخرة فبالأليم عذاب النار، والدليل على عموم سرعة الحساب للدنيا والآخرة قوله تعالى بعد آيتين: (أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) (٢). وإذا كان البغي قد أثمر شجرة الاختلاف. فإنه أثمر أيضا شجرة الافتراق، قال تعالى: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (٣) (قال المفسرون: أي وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الإتفاق، إلا حال كون تفرقهم آخذا أو ناشئا من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم) (٤). وقال ابن كثير: أي إنما كان مخالفته ملحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم. وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد (٥).

إن الشيطان ينشط في تربة العلم، حيث القافلة الأولى. فإن استطاع أن يدق له وتدا أو ينصب له خيمة، ضمن البغي والاختلاف والفرقة. ومن هذها لأشجار سيأكل كل قادم ملجم العقل من بني الإنسان تحت لافتات عدة تزينها سنة الآباء الأوائل، التي يدافعون عنها حتى ولو خرجت منها رائحة الفواحش.

(١) تفسير ابن كثير: ٣٥٤ \ ١.

(٢) تفسير الميزان: ١٢١ \ ٣.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٤.

(٤) الميزان: ٣١ \ ١٨.

(٥) تفسير ابن كثير: ١٠٩ \ ٤.

والنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، عندما بعث كانت سنة الآباء الضالين لها أعلام في كل مكان من عالم الفرقة والاختلاف. لقد دعاهم إلى الحق، فواجهوه بالباطل (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) (١) و(إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (٢). جاء الرسول الخاتم ليواجه شريحة من الكفار في رسالته الخاتمة تحمل نفس الملامح التي حملها كفار قوم نوح عليه السلام في صدر الإنسانية، فقيما شكنا نوح

عليه السلام قومه الله تعالى وقال: (واِني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فيآذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) (٣) في الرسالة الخاتمة قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) (٤) و(إِذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا). (٥)

لقد جاء النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم في وقت كانت سياسة الاغواء والتزيين والاحتناك قد وصلت بأصحابها إلى دركات هوة عميقة.

١ . من مداخل الدعوة الخاتمة:

إن الداعي إلى الله تعالى صلى الله عليه وسلم، جاء ليذكر ويغذي الإرادة. ويعمق الإخلاص ويشيع الأخلاق الفاضلة، ويبشر بما عند الله للذين آمنوا في الحياة الدنيا والآخرة. ويحذر دوائر الانحراف والاختلاف والفرقة والضلال من عذاب يوم عظيم. وكانت أصول دعوته تستند إلى أهم الأمور الفطرية، ألا وهو لا إكراه في الدين. فنوح عليه السلام قال في صدر البشرية

(١)سورة المائدة: الآية ١٠٤.

(٢)سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٣)سورة نوح: الآية ٧.

(٤)سورة فصلت: الآية ٥.

(٥)سورة الفرقان: الآية ٦٠.

الصفحة ٤٢

لقومه (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (١). قال المفسرون: أي إذا كنت على بينة من ربي، على يقين ونبوة صادقة، وخفيت عليكم فلم تهدها إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردّها (أن لزمكموها) أي: أنغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون (٢) وقال في الميزان: معناه عندي ما يحتاج إليه رسول الله في رسالته، وقد أوقفتم عليه، لكنكم لا تؤمنون به طغيانا واستكبارا، وليس علي أن أجبركم عليها، إذ لا إكراه في دين الله سبحانه. والآية من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين، وتدل على أن ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع، وهي شريعة نوح عليه السلام. وهذا الحكم باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ (٣).

كان هذا في شريعة صدر البشرية الأول، وفي عصر الرسالة الخاتمة. قالتعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (٤). قال المفسرون: نفي الدين الإجباري.. فالاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم

فيها الاكراه والإجبار. فإن الاكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية، أما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية. (٥)

فالدعوة تقف على أرضية لا إكراه في الدين، والداعية يقف على أرضية الخلق العظيم، قال تعالى لرسوله (وا إنك لعلى خلق عظيم) (٦) ومحاوره صاحب الخلق العظيم لخصومه تشع بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن). (٧)

(١) سورة هود: الآية ٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣ \ ٢.

(٣) الميزان ٢٠٧ \ ١٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٥) الميزان: ٣٤٥ \ ٢.

(٦) سورة القلم: الآية ٤.

(٧) سورة النحل: الآية ١٢٥.

ومن أرضية لا إكراه في الدين حاور صاحب الخلق العظيم خصومه وأخبرهم بما أمر به الله. (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين). (١) قال المفسرون: أمره تعالى أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه، هداه بهداية إلهية إلى صراط مستقيم، وسبيل واضح لا تخلف فيه ولا اختلاف. دينا قائما على مصالح الدنيا والآخرة أحسن القيام. لكونه مبنيا على الفطرة ملة إبراهيم حنيفا، مائلا عن التطرف بالشرك. إلى اعتدالات التوحيد (٢)، وأمره الله تعالى أن يخبرهم بأن طريقه هو طريق العبادة الحق. (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين). (٣) قال المفسرون: أمره تعالى أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه، وسائر به. كما أنه مأمور بذلك، وأمره أن يقول لهم: إنني جعلت صلاتي ومطلق عبادتي ومحياي بجميع ما له من الشئون.. ومماتي بجميع ما يعود إلي من أموره، جعلتها كلها لله رب العالمين. من غير أن أشرك به فيها أحد، فأنا في جميع شئوني في حياتي ومماتي لله وحده. وجهة وجهي إليه، لأقصد شيئا ولا أتركه إلا له ولا أسير في سير حياتي ولا أرد مماتي إلا له. فإنهرب العالمين، يملك الكل ويدبر أمرهم، وقد أمرت بهذا النحو من العبودية، وأنا أول المسلمين لله فيما أراده من العبودية التامة في كل باب وجهة. (٤)

كان هذا مدخل من مداخل دعوة الإسلام العظيم، ولكن جحافل الليلوخفافيش الظلام خرجوا من عالم الاحتناك حيث خيام تلجيم العقول وتعصيب العيون للصد عن سبيل الله بفرسانهم ورجالاتهم وأموالهم.

٢. عواصف الصد عن سبيل الله:

وقفت الدعوة الإسلامية في مواجهة أصحاب السبيل والاختلاف، رافعة

(١)سورة الأنعام: الآية ١٦١.

(٢)الميزان: ٣٩٤ \ ٧.

(٣)سورة الأنعام: الآية ١٦٣ - ١٦٣.

(٤)الميزان: ٣٩٤ \ ٧.

الصفحة ٤٤

هامتها. وقام النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم بإنذار خصوم العبادة الحقوا إخبارهم أن عبادتهم اتباع للهوى، واتباع الهوى ينافي صفة الاهتداء في نفس الإنسان، وبمنايع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقا ثابتا ينتفع به. (قل) إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) (١) وذكرهم بما حرم الله عليهم ووصاهم به. ومما وصاهم به، أن لا يتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا يقبل التخلف والإختلاف، فإن اتباع السبل يفرقهم عن سبيل الله. فيتخلفون فيه فيخرجون من الصراط المستقيم. والصراط المستقيم، لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه. (وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون). (٢)

ووجد الساهرين على برنامج الشيطان أن برنامجهم في مهب الريح، فكانلا بد من توجيه ضربات إلى الداعي إلى الله وإلى منهج الدعوة وإلى الذين آمنوا.

فهذه المحطات الثلاث اتخذها الشيطان هدفا له منذ أن طرده الله ولعنه، ودوائر الصد عن سبيل الله التي سنسلط عليها الضوء في بحثنا هذا هي (دائرة النجس) و (دائرة الرجس) وبالإضافة إلى هاتين الدائرتين يوجد تيار كان من نسيج الدين آمنوا. لكنه نسيج عبي عليهم، وهذا الصنف وضعته تحت عنوان (تيار الذين فيقلوبهم مرض).

أولا - دائرة النجس:

وفي هذه الدائرة يجلس طابور الشرك كله، قال تعالى: (إنما المشركون نجس). (٣) قال في المجمع: كل مستنذر نجس. يقال: رجل نجس وامرأة

(١)سورة الأنعام: الآية ٥٦.

(٢)سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٣)سورة التوبة: الآية ٢٨.

الصفحة ٤٥

نجس وقوم نجس لأنه مصدر. وأدخلت في دائرة النجس الكفار نظرا لأنهم جميعا حزمة واحدة لها هدف واحد حدده برنامج واحد. وإذا كان القرآن قد ضرب على المشركين بالنجس فإنه شبه الكفار بالأنعام لأنهم لم يكونوا أهلا لسماع الحق وتعقله. وأهل هذه الحزمة الواحدة استهدفوا الرسل فرموه بالسحر (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (١) ورموه بالجنون (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (٢))، ورفضوا بشرية الرسول فقالوا (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. (٣))

ووفقا لبرنامج الشيطان استهدفوا الدعوة فقالوا عن القرآن الكريم: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. (٤) (وخرج الذين تقلبوا فينعيم الترف والزينة وتعلقت قلوبهم بحب الدنيا فرأوا السعادة فيها والعذاب فيفقدوها. خرجوا ليجلدوا الذين آمنوا، على اعتبار أنهم خرجوا عن سنة الآباء القومية التي تحمل شذوذ المسيرة الإنسانية من عهد نوح عليه السلام. وتحتال السياط واللهيب سارت الدعوة الحق تضرب بحججها وجوه الجاحدين والظالمين أعداء العبادة الحق. ولم يجد هؤلاء في جمعيتهم من الحجج إلا ما تلقى الشياطين على عقولهم الفارغة. قال تعالى: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون * وقالوا له شاء الرحمنما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم آتيناهم كتابا من قبلهم فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتمدون. (٥) (إن سلتهم قد طفحت بأشواك زينت بلون الورود، لقد جاءهم الشيطان من جهاتهم الأربعة ونصب خيامه على دروب الآمال والأمانى وتغيير خلق الله، وزين لهم الفواحش، قال تعالى: (وا إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

(١) سورة ص: الآية ٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٦.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٥) سورة الزخرف: الآية ١٩ - ٢٢.

عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لاتعلمون. (١))

لقد عبدوا الملائكة، وساروا بلجام الاحتتاك وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. إنه فقه الصم البكم العمي، لأن عبادتهم للملائكة لو كانت بمشيئة الله وبرضاه، ما جاءهم رسول من الله يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأن يوحدوه ولا يعبدوا الشركاء. ثم إنهم لا حجة لهم على عبادة الملائكة، لا من طريق العقول ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها. ولا دليل لهم على حقية عبادتهم سوا أنهم متشبهون بتقليد آباءهم وفي درب آخر من دروبهم فعلوا الفواحش وقالوا وجدنا عليها الآباء والله أمرنا بها. وذلك افتراء على الله وقول بغير علم لعدم انتهائه إلى وحي.

إن الله تعالى أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه، والله جلشأنه لو كان مجبرا لعبده على فعل ما برأ من أفعال المشركين قال سبحانه: (أنا الله برئ من المشركين. (٢) فهو سبحانه لم يتبرأ من خلق أبدانهم وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. قال تعالى: (فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون (٣))، وقال: (قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني برئ مما تشركون. (٤))

إن طابور الشرك والكفر والاحتناك لا علم عنده، لأن المعارف الحقة والعلوم المفيدة لا تكون في متناول البشر إلا عندما يصلح أخلاقه. والطريق الوحيد لإصلاح الأخلاق والحصول على الملكات الفاضلة هو التوحيد الحق في العبادة الحق.

وإذا كان للمشركين والكفار في مكة عمود في دائرة النجس. فإن للمشركين والكفار من أهل الكتاب عمود عتيق في هذه الدائرة. لأنهم حملوا

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٦.

(٤) سورة هود: الآية ٥٤.

برنامج الشيطان وصدوا به عن سبيل الله. ولكن على طريقتهم، فاستهدفوا الرسول والدعوة والذين آمنوا، قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة (١))، فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعدما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن. لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا من لا يخضع للحق ولا ينقاد للحقيقة. وإنما يلغوا ويهدوا بما قدمت له أيدي الأهواء من غير أن يتقيد أو يثبت علما أساس (٢) إن هدفه الصد عن السبيل بالتشكيك في الرسول، أما الدعوة فقد استهدفوها من جذورها. فالنبي صلى الله عليه وسلم أعلن على أسماع الجميع أن دعوته مبنية على الفطرة ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، فقام المشركين من أهل الكتاب بالمتاجرة على حساب أنهم أولى الناس بإبراهيم.

يريدون من وراء ذلك إبعاد الناس عن الدعوة، فنزل قول الله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلاتعتلون. (٣)) قال المفسرون: ضمت كل طائفة منهم إبراهيم إلى نفسها، فتدعياليهود أنه كان يهوديا، وتدعي النصارى أن كان نصرانيا. ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية، إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراة والإنجيل، وقد نزل جميعا بعد إبراهيم عليه السلام. فكيف يمكن أن يكون عليه السلام يهوديا أو نصرانيا. فلو قيل في إبراهيم شيء لوجب أن يقال: إنه كان على الحق حنيفا من الباطل إلى الحق مسلما لله سبحانه. والإسلام الذي وصف به إبراهيم، هو أصلا لتسليم الله سبحانه والخضوع لمقام ربوبيته (ما كان إبراهيم يهوديا ولا

نصرانياولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إنه أولى الناس بإبراهيم للذينا تبوعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين. (٤))

وكما استهدفوا الرسول والدعوة استهدفوا أيضا القوة الإسلامية بعد

(١)سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٢)الميزان: ١٣٠ \ ٥.

(٣)سورة آل عمران: الآية ٦٥.

(٤)سورة آل عمران: الآية ٦٧ - ٦٨.

الصفحة ٤٨

الهجرة، فقام اليهود بتغذية الساحة بالمكائد وإشعال الحرب وكان الغرض من هذه الحروب كسر شوكة المسلمين وتجريدهم من قوتهم لحساب المنافقين ولحساب أهل مكة ومن حولهم الذين أخبر تعالى أنهم لا يهتدون ويستوي عليهما لاندثار أو عدم الانذار. (١)

* حصار دائرة النجس:

لقد استهدف الكفار والمشركين الداعي إلى الله صلى الله عليه وسلم ودعوته والمؤمنين بها. فأما الداعي إلى الله فلم يصل كيدهم إليه لأن الله ينصر رسله ولو كره الكافرون. وأما كتاب الدعوة وهو القرآن الكريم فقد تولى الله حفظه فقال جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون. (٣) (وأما أتباع الدين فإن حفظهم يكون بمقدار اقترابهم من الداعي إلى الله صلى الله عليه وسلم وكتابه. فكلما كانوا أقرب عمهم الأمن والأمان ودخلوا في رحاب النصر والحفظ وكلما ابتعدوا عمهم البغي والاختلاف والافتراق، ودخلوا في خيام برنامج الشيطان. وآيات الكتاب الحكيم التي تحفظ أتباع الدين الحق، آيات كثيرة تحفظهم من وساوس الشيطان وخطواته وتحفظهم من حركة أتباع منهج الشيطان ودسائسهم.

لقد حثهم آيات الله على الاتحاد والأمانة والتقوى والجهاد والدعاء والذكر والصدقة والعلم والفكر والفهم. إلى غير ذلك من الأمور التي تجعل منهم قوة لا تنفذ إليها سهام دائرة النجس. والأكثر من هذا أن آيات الكتاب الحكيم كشفت برنامج الكفار والمشركين الذي يستمد قوته من برنامج الشيطان. وكشف هذا البرنامج للمؤمنين هو في نفس الوقت حجة عليهم يوم القيامة. وأهم الأعمدة التي يقوم عليها برنامج المشركين من أهل الكتاب قوله تعالى: (ولن ترضعنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولن أتبعن أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا

(١)راجع سورة ياسين: الآية ١٠.

نصير (١) (قال المفسرون: إن هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم، ونظموها بأرائهم. ثم أمره تعالى بالرد عليهم بقوله: قل إن هدى الله هو الهدى. أي إن الاتباع إنما هو لغرض الهدى. ولا هدى إلا هدى الله. وهو الحق الذي يجب أن يتبع وغيره - وهو ملتكم - ليس بالهدى. فهي أهوائكم، ألبستموها لباس الدين. وسميتموها باسم الملة.

ففي قوله (قل إن هدى الله).. جعل الهدى كناية عن القرآن، ثم أضيف إلى الله، فأفاد صحة الحصر في قوله (إن هدى الله هو الهدى)، وأفاد ذلك خلومتهم عن الهدى. وأفاد ذلك كونها أهواء لهم. واستلزم ذلك كون ما عند النبيعلما، وكون ما عندهم جهلا. واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم * ما لك من الله من ولي ولا نصير) فانظر إلى ما في هذا الكلام من أصول البرهان العريضة ووجود البلاغة علنايجازه. وسلاسة البيان وصفائه (٢).

إن الدخول في مساحة هؤلاء يترتب عليها أمور على رأسها (ما لك من اللهم ولي ولا نصير) إن مساحتهم بها الزخرف والإغواء والأهواء. والآخذ منهم شيئا لن يأخذه إلا إذا كان حذاؤه قد حمل غبار طريقهم وعقله قد حمل بصمة اخلتكمهم. وإذا كان القرآن الكريم قد حذر من هذه المساحة العريضة التي يترعفيها المشركين من أهل الكتاب. إلا أنه في الوقت نفسه حذر من مساحة أخرييتربع فيها المتخصصون من هؤلاء. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم (٣) (إنه الفريق الناعم الذي يجيد الاختراق، ويمهد الطريق لمساحتها الواسعة كي تفرض سياسات التخويف والتجويح على الأمة، من أجل تنفيذ

(١)سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٢)الميزان: ١ \ ٢٦٥.

(٣)سورة آل عمران: الآية ١٠٠ - ١٠١.

برنامج النجس والعار.

وكتاب الله وهو يكشف هذه الأهداف بين أن مخططات هؤلاء ستتخطم إذا اعتصمت الأمة بكتاب الله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) قال المفسرون: أمر سبحانه بالاعتصام بالحق والإنصات إلى آيات الله، والتدبر فيها وإرجاع ما خفي منها إلى الرسول وسنته. فالآيات وبخت طريق الكفر وسالكه. وأثبتت أن الكتاب

والسنة كافيان في الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.. فقوله تعالى: (وفيكم رسوله) يشمل أيضا وفيكم سنته التي بينكم ما خفي عنكم من تأويل آيات الكتاب.

وكما حذر كتاب الله من المخططات الكبرى لأهل الكتاب، حث المؤمنين على حفظ ثقافتهم الإسلامية في أي مكان تواجدوا فيه. فحذر من ثقافة الآباء والأقارب إن استحبو الكفر. ونهى عن موادة من حاد الله ورسوله ولو قارن أسباب من أسباب المودة كالأبوة والنبوة والأخوة وسائر أقسام القرابة، قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر علنا إيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هو الظالمون (١))، وقال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم (٢)) (إن حفظ الثقافة والعقيدة في الدائرة الأضيق مطلب إسلامي. كما أن حفظها في الدائرة الأوسع فيه دفاع عن الفطرة أمام الشهوات والأهواء المتعددة. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله يهدي القوم الظالمين (٣)) (قال المفسرون: المراد هو النهي عن موادتهم الموجبة لتجاذب الأرواح والنفوس. فإن ذلك يقلب حال المجتمع من السيرة الدينية المبنية على اتباع الحق. إلى سيرة الكفر المبنية على اتباع الهوى وعبادة

(١) سورة التوبة: الآية ٢٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

الصفحة ٥١

الشيطان، والخروج عن صراط الحياة الفطرة (١).

لقد أقام الله حجته على حركة المسلمين على امتداد التاريخ، وقام القرآن الكريم بإظهار الداء وتشخيص الدواء. كي لا تختلط الثقافات وتنتج في النهاية صنفا لا علاقة له بالإسلام أو بأهل الكتاب. صنفا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء مهمته الوحيدة الوقوف في دائرة الاحتكاك يقدم خدماته لمن يلقف رغيفا أو شهوة ثقافية.

ثانيا - دائرة الرجس:

قال تعالى وهو يذم المنافقين (فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم (٢))، وقال سبحانه: (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجسا للرجسهم وماتوا وهم كافرون (٣)) (والرجس هو كل قدر وقد يعبر به عن الحرام والفعل القبيح واللعنة والكفر. قال الزجاج: الرجس في اللغة اسم لكل ما استقدر من عمل (٤)) (والقرآن الكريم اهتم بالمنافقين، فذكرهم نظرا لخطورة العمل الذي عزموا عليه. فذكر مساوئ أخلاقهم، وأكاذيبهم وخدائهم ودسائسهم. والفتن التي أقاموها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وعلنا المسلمين وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران

والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم وقد وعدهم الله أشد الوعيد. ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم جعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم واذهب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار. وليس ذلك إلا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع عدسائهم. فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه. ويكفيك

(١) الميزان: ٣٧٣ \ ٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٥.

(٤) لسان العرب: ١٥٩ \ ١٨.

الصفحة ٥٢

فيهم قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله (هم العدو فاحذرهم. (١))

والنفاق له مدرسة علمها على أهل الكتاب قال تعالى عن المنافقين منهم: (وا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وا إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ريكم أفلا تعقلون. (٢)) وقال تعالى: (وا إذا لقوكم قالوا آمنا وا إذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ. (٣))

فالنفاق تمتد عروقه إلى الماضي السحيق. وهو أول تيار سري على صفحة الجنس البشري. عمل من أجل إعاقة الطريق أمام العبادة الحق لحساب الأهواء المتعددة، وهذا التيار يحتوي بين دفتيه على جميع الأنماط البشرية من الذين استدلهم الشيطان. يحتوي على الرعاع والغوغاء والدهيماء. وفي نفس الوقت يضم أصحاب الملابس النظيفة وإقليات البيضاء، أصحاب الأموال والأولاد وفصاحة اللسان. يقول تعالى: (وا إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وا ين يقولوا تسمع قلوبهم كأنهم خشب مسندة. (٤)) فهم أصحاب أزياء حسنة، وصباحة في المنظر، وتناسب في الأعضاء. إذا رآهم الرائي أعجبت أجسامهم، وا إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الاصغاء إلى قولهم. لحلاوة ظاهره وحسن نظمه، ورغم كل هذا إلا أن الحقيقة، أن هؤلاء كالخشب المسندة. أشباح بلا أرواح، لا خير فيها ولا فائدة، لأنهم لا يفقهون. وكيف يفقه من صد عن سبيل الله بكل ما يملك من الأموال وأولاد. قال تعالى: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم * إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون. (٥)) (أخبر سبحانه بأن أموالهم وأولادهم ليس من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة، بل من النعمة التي تجرهم إلى الشقاء. وأبواب الشقاء مفتوحة لجميع من أعرض عن ذكر الله، قال تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم

(١) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

(٤) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٥) سورة التوبة: الآية ٥٥.

الصفحة ٥٣

القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك آتتآياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. (١))

والمنافقين هرولوا في اتجاه الإسلام لإنجاز برنامج لا علاقة له بالإسلام.

قال تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٢)) (لقد هرولوا إلى الإسلام وهم معرضين عن سبيل الله!! أظهروا الإيمان ليقتربوا من المؤمنين ويحضرون في محاضرتهم ومشاهدتهم. فيسهل عليهم وضع العراقيل المناسبة في طريق كل حركة للدعوة.

ولأن مساحة النفاق تحتوي على الأصناف العديدة من أصحاب العقد النفسية الذين فسدت فطرتهم وعلى أصحاب المصالح والمطامع. فإن القرآن الكريم فضح هذه المساحة التي ظهر أصحابها في صدر العهد النبوي. فمنهم من لا يعرفه إلا الله وحده، قال تعالى: (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم (٣)) (قال المفسرون: وممنفي حولكم، أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي. منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق. لا تعلمه أنتيا محمد نحن نعلمهم (٤))

ومنهم من كان الله تعالى يكشفه للنبي، ومنهم من كان النبي لا يكشفه إلا لخاصة أصحابه. ومن الخاصة حذيفة وعمار رضي الله عنهما. وعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن في أصحابي اثني عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. (٥) " وهؤلاء الاثنى

(١) سورة طه: الآية ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦.

(٢) سورة المنافقون: الآية ١ - ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠١.

(٤) الميزان ٣٧٦ \ ٩.

(٥) رواه الإمامان أحمد ومسلم (كنز العمال ١٦٩ \ ١).

الصفحة ٥٤

عشر ليسوا من العامة والغوغاء. فأمثال هؤلاء كان النبي يكشفهم للخاصة العام. أما حزمة الاثنى عشر الذين لا يدخلون الجنة، فهم من أصحاب برامج الخشب المسندة. برامج الأشباح التي بلا أرواح والتي لا خير فيها ولا فائدة.

لذا يقول حذيفة: " وأشهد الله أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. (١) " واثنى عشر فيهم كفاية لتدمير أمة. كما أن اثنى عشر فيهم كفاية لنجاة الأمة (٢) ألم ترى أن بني إسرائيل كان يكفيهم عشرة فقط من الأبحار يؤمنون برسالة النبي وعلى إيمانهم يدخلون دائرة الأمن. قال النبي صلواته عليه وسلم: " لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود. (٣) " أما الذين كشفهم النبي صلى الله عليه وسلم للخاصة والعامّة. فعن جبير بن مطعم قال:

أصغى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي مال رأسه إلي - وقال: " إن في أصحابي منافقين. (٤) " وعن إياس عن أبيه أنهم عادوا مريضاً مع رسول الله صلواته عليه وسلم وكان المريض مرتفع الحرارة. وعندما قالوا أمام النبي أن المريض أشد حراً، قال لهم: " ألا أخبركم بأشد حراً منه يوم القيامة - وأشار لرجلين من أصحابه مولين أفقيتهما منصرفين - هذينك الراكبين المقفين. (٥) " قال النووي:

سماهما من أصحابه لإظهارهما الإسلام والصحة.

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين. فمن سميت فليقم، قم يا فلن، ثم يافلن. حتى عد ستاً وثلاثين. (٦) وعن ابن عباس قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة، فقال: " أخرج يا فلان إنك منافق. وأخرج يافلن فإنك منافق، فأخرج ناساً منهم فضحهم. فجاء عمر بن الخطاب وهم

(١) رواه الإمام مسلم كتاب صفات المنافقين (صحيح مسلم: ١٢٥ \ ١٧).

(٢) حديث الاثنى عشر الذين من قريش سيأتي في موضعه.

(٣) رواه الإمام البخاري كتاب الهجرة (صحيح البخاري: ٣٤١ \ ٢).

(٤) رواه الإمام أحمد (الفخ الرباني: ٣٣٢ \ ١٩).

(٥) رواه الإمام مسلم (صحيح مسلم: ١٢٨ \ ١٧) كتاب صفات المنافقين.

(٦) السيوطي (الخصائص الكبرى: ١٧٤ \ ٢).

يخرجون من المسجد. فاخترت منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة فظن أن الناس قد انصرفوا. واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم... الحديث (١) فكشفت آيات النفاق على امتداد العهد النبوي كان يخضع لوعي الله تعالى. فالوحي كان يخبر بالبعث، ويخبر بالبعث الآخر ضمن خط عريض وهو يتحدث عن النفاق، نظراً لأن الأمة امتحنه ومبتلية شأنها كشأن الأمم السابقة ليعلم الله كيف يعمل وكيف تختار ويعلم سبحانه الصابرين. إن الله تعالى أخبر عباده عن الشيطان وأهدافه، وكثير من العباد لم يروا الشيطان، وأخبر سبحانه عن المنافقين وصفاتهم وبرامجهم وكثير من الناس لم يعرفوا أسماء المنافقين. والحجة ليستفي الملابس والأموال والأولاد. وإنما هي في الحركة والبرامج التي

بينها الله تعالى في كتابه. يقول تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه هو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (٢). (وقد يقول قائل فيمن أنزلت هذا الآية؟ والجواب عن ابن كثير يقول: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد ذلك (٣). ومعنى الآية: إنه يتكلم بما يعجبك كلامه، مما يشير به إلى رعايته جانب الحق. والعناية بصلاح الخلق وتقدم الدين والأمة. وهو أشد الخصماء لخصومة (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها.. الآية) التولي هو القيادة والسلطان ويؤيد هذا قوله تعالى في الآية التالية: (أخذته العزة بالإثم...).

وهذا يدل على أن له عزة مكتسبة بالإثم الذي يأثم به قلبه غير الموافق للسانه.

والسعي هو العمل والإسراع في المشي، فالمنعى: وإذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل، وأوتي سلطانا وتولى أمر الناس. سعي في الأرض ليفسد فيها - ويمكن أن يكون التولي - بمعنى الإعراض عن المخاطبة والمواجهة، أي: إذا خرج من عندك كانت غيبته مخالفة لحضوره. وتبدل ما كان يظهره من

(١) أورده ابن كثير عن السدي عن أبي مالك (التفسير: ٣٨٤ \ ٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢٤٦ \ ١.

الصفحة ٥٦

طلب الصلاح والخير إلى السعي في الأرض لأجل الفساد والإفساد.. (١).

فهذا الذي يخالف ظاهر قوله، باطن قلبه. إذا سعى في الأرض بالفساد، فإنما يفسد بما ظاهره الإصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم اللهما هو عليه، والتصرف في التعاليم الدينية. بما يؤدي إلى فساد الأخلاق واختلاف الكلمة. وفي ذلك موت الدين وفساد الدنيا. وقد صدق هذه الآيات ماجرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم أكتاف هذه الأمة الإسلامية.

وتصرفهم في أمر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين إلا وبال. وللمسلمين إلا انحطاطا. وللأمة إلا اختلافا فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب. ولا الإنسانية إلا خطفة لكل خاطف.

وقيل: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد..) السعي هنا هو القصد كما قال أخبارا عن فرعون (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى أنا ربكم الأعلى).. فهذا المنافق ليس له همه إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث.. (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) أي إذا وعظ هذا الفاجر، وقيل له اتق الله، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: (وإذا تتلعل عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر، يكادون يسطون بالذنين يتلون

عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم. النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير ". ولهذا قال في هذه الآية:
(فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أي هيكافيته عقوبة هي ذلك. (٣)

إن أطروحة النفاق ترى بوضوح إذا سقطت عليها أشعة منهج العبادة الحق.

لأن المنافقين على امتداد التاريخ الإنساني بعضهم من بعض، يحكم عليهم نوحمن الوحدة النفسية. وهذه الوحدة تضعهم في قالب ذي أوصاف واحدة. ومهمة هذه الطروحات على امتداد التاريخ وضع البشرية على أعتاب الكوارث، لأنبنيانها أسس من ماء الكذب ووضع على شفا جرف هار. لا خير فيه ولا فائدة.

(١)الميزان: ٩٦ \ ٣.

(٢)تفسير ابن كثير: ٢٤٧ \ ١.

الصفحة ٥٧

ثالثا - تيار الذين في قلوبهم مرض:

لقد خلطوا بين هذا التيار وبين المنافقين. وقالوا إنهما نوع واحد منأنماط الإنسانية. والحقيقة غير هذا ولا تلائم سياق بعض الآيات التي ذكر فيهاالذين في قلوبهم مرض. وذلك لأن المنافقين يشاركونهم في آيات أخرى،والعديد من المفسرين قالوا: المنافقون هم الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمنقلوبهم والذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان. ومرض القلب في عرفالقرآن، هو الشك والريب على إدراك الإنسان، فيما يتعلق بالله وآياته. وعدمتمكن القلب من العقد على عقيدة دينية، نظرا لخلط الإيمان بالشرك عند مرضالقلوب. ومن الآيات التي ذكرت الذين في قلوبهم مرض قوله تعالى: (إذ يقولالمنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم. (١) .) ولا معنى للقولبأن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية هم من المشركين، لأن القرآن لم يطلقعلى المشركين اسم الذين في قلوبهم مرض ولم يطلق عليهم اسم المنافقين. ولا معنى للقول بأنهم هم الكفار، لأن الكفر هو موت للقلب لا مرض فيه، قالتعالى: (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله فيالظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون. (٢))

والذي يستحق التسجيل هنا أن هذه الآية نزلت في غزوة بدر. وفيها دليلعلى حضور جمع من المنافقين وضعفاء الإيمان ببدر حين تلاقي الفتتين. وذكرأن ضعاف الإيمان كانوا فئة من قریش أسلموا بمكة، واحتبسهم آباؤهم.

واضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر، حتى إذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة قالوا: مساكين غر هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوهم. (٣) فإذا كان تعريف المنافقين بأنهم الذينأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فإن ذلك لا ينطبق على الفئة التي اضطرت إلى

(١)سورة الأنفال: الآية ٤٩.

(٢)سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٣)تفسير ابن كثير: ٣١٩ \ ٢.

الخروج مع المشركين. لأن هذه الفئة لم يظهروا الإسلام، لأنهم لو كانوا قدأظهروه ما كانوا خرجوا من مكة أصلا. ومن الدليل على أن المنافق غير الذيفي قلبه مرض قوله تعالى في موطن آخر من مواطن القتال: (هنالك ابتليالمؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا * واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضا وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. (١)) قال ابن كثير: حين نزلت الأحزاب حولالمدينة والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله صلى اللهعليه وسلم بين أظهرهم.. فحينئذ ظهر النفاق. وتكلم الذين في قلوبهم مرضبما في أنفسهم. (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض... الآية) أماالمنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتتفس بمايجده من الوسوس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال (٢)قال في الميزان: الذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان من المؤمنين.

وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. (٣) (وفي موطن آخريقول تعالى: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمةذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه منالموت. (٤) (إن هذه الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها همالذين آمنوا. ومن يقول إن المنافقين داخلون فيهم. فهو بقوله هذا يتساهلتساهل غير لائق بكلام الله عزول. فالآية في مثل قوله تعالى في فريق منالمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاتفلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدخشية. (٥) فالمؤمنين هم الذين سألو رسول الله: هلا أنزلت سورة. فإذاأنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها. وأمروا فيها بالقتال. رأيت الضعفاء الإيمان

(١)سورة الأحزاب: الآية ١١ - ١٢.

(٢)تفسير ابن كثير: ٤٧٣ \ ٣.

(٣)الميزان: ٢٨٦ \ ١٦.

(٤)سورة محمد: الآية ٢٠.

(٥)سورة النساء: الآية ٧٧.

ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر. (١)وقال ابن كثير في تفسير الآية:

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين. إنهم تمنوا شرعية الجهاد. فلما فرضه الله عزوجل. وأمر به، نكل عنه كثير من الناس.. ولهذا قال: (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض... الآية) أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء العدو. (٢)

فالمنافق لا يمكن أن يطلب آية كي يقاتل ويقتل. وإنما الذي طلب هم المؤمنون. وعندما نزلت الآية ظهر ضعاف الإيمان منهم. ومن الدليل أيضا علن أن تيار الذين في قلوبهم مرض، تيار منفصل وإن كان يعمل بطريقته الخاصة لعرقلة الطريق سواء كان يدري أو لا يدري. قوله تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا. (٣) ..)

فالآية الكريمة ذكرت فئات ثلاث. المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون. وعلى رؤوسهم لعنة من الله تعالى إذا استمروا على ما هم عليه.

فالمنافق هو الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر، والذي في قلبه مرض هو الضعيف بالإيمان، والمرجفون هم الذين يعملون على إشاعة الباطل لإلقاء الاضطراب والمعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الافساد.

والمرجفون الذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين، لنحرضنك عليهم، ثم لا يجاورونك في المدينة. بسبب نفيهم عنها (سنة الله في الذين خلوا من قبل. ولن تجد لسنة الله تبديلا (٤) فهذه العقوبة من النفي أو القتل سنة الله التي جرت في الماضيين. فكلما بالغ قوم في الافساد وإلقاء الاضطراب بين الناس، وتمادوا وطغوا في ذلك، أخذهم الله كذلك. ولن تجد لسنة الله تبديلا، فتجري فيكم كما جرت في الأمم من

(١) الميزان: ٢٣٩ \ ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٧٨ \ ٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٠ - ٦١.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٢.

قبلكم (١).

وإذا سبقنا الأحداث فإنني أسجل هنا أن قرار النفي واللعن نفذه النبي صلبا عليه وسلم وفقا لما جاء في هذه الآية الكريمة، على الحكم بنالعاص (٢) وظل الحكم في المنفى حتى رده عثمان بن عفان وكانت عودته عمود أصيل فيما جرى من أحداث سنيها في حينه.

وتيار الذين في قلوبهم مرض، نواته الأولى كانت بمكة قيل الهجرة. وجاء ذكرهم في سورة المدثر وهي سورة مكية، تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب بيزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً. (٣).) فإذا كان النفاق قد ظهر في المدنية وهو رأي الغالب الأعم من المفسرين. فإنه لا معنى للقول إن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية هم المنافقون، وذلك لأن السورة مكية.

وقال المفسرون في معنى الآيات: أي ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، يقدر أن على ما أمر به. فليسوا من البشر حتى يرجوا المجرمون أن يقاوموهم، وما ذكرنا عددهم وهو قوله تعالى (عليها تسعة عشر) إلا فتنة للذين كفروا، ليقن أهل الكتاب، بأن القرآن النازل عليك حق. حيث يجدون ما أخبرنا به منعدة أصحاب النار موافقا لما ذكر فيما عندهم من الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون. ماذا أراد الله بهذا مثلاً) أي ما الذي يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر. فهذه العدة القليلة، كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من

(١) الميزان: ٣٤٠ \ ١٦٦.

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ١٨٢ \ ٦٦ أن الحكم كان من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣١.

الصفحة ٦١

الجن والإنس. (١) وقال ابن كثير قولهم (ماذا أراد بهذا مثلاً) أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال تعالى: (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي من مثل هذا - القول - وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين. وله الحكمة البالغة والحجة الدافعة، وقوله تعالى: (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط. (٢)

ومن المعروف أن أهل الكتاب قبل البعثة كانوا يضعون أعينهم على مكة، لعلمهم من كتبهم أن النبي سيبعث من هناك. وبعد نزول الوحي في مكة كالتصافات النبي صلى الله عليه وآله عند أهل الكتاب أثر كبير عند المسلمين.

وكذلك الإخبار بعدد ملائكة النار، وهذا الإخبار وإن كان زاد الذين آمنوا إيماناً.

إلا أن حكمة الله البالغة كشفت من خلاله تياراً كان الارتباب مادته في مكة.

والمتدبر في حركة الواقع المكي عند مبعث النبي صلى الله عليه وآله يجد أنه مجتمع إنساني. والمجتمع الإنساني لا يخلو من أصحاب المصالح، وقد يكون النفاق جلباباً مهما لهؤلاء. وحل النفاق لا تتحصر في المخافة والافتقار، أو الطمع من خير معجل، فإن من علله أيضاً الطمع ولو في نفع مؤجل. ومنها أيضاً العصبية والحمية، ولا دليل على

انتفاء جميع هذه العلل عن أهل مكة أو عن الذين آمنوا بالدعوة قبل الهجرة. فما بين أيدينا من كتب التاريخ والتراجم يذكر فيها أن فيهم من آمن ثم رجع، أو ارتاب ثم صلح. ومن الممكن أن يكون هناك من يرتاب في دينه فيرتد ويكتم ارتداده، كما في قول الله تعالى: (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون. (٣)) فلا يبعد أن يكون في هؤلاء من آمن حقيقة ثم ارتد وكتم ارتداده، فطبع الله على قلبه بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه ويتبع هواه وفقا لبرنامج الشيطان. ويكون بخاتم الطبع قد

(١)الميزان: ٢٠ \ ٩٠.

(٢)الميزان: ٢٠ \ ٩١، ابن كثير: ٤ \ ٤٤٤.

(٣)سورة المنافقون: الآية ٣.

الصفحة ٦٢

دخل تحت الآية الكريمة التي نزلت في مكة وفي المدينة (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنا بالله وبالْيَوْمِ الآخِرِ وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. (١)) ومن الممكن أيضا أن يكون بعض من آمن في مكة، قد آمن طمعا في بلوغ أمنيته التي قد تكون التقدم والاستعلاء. وخصوصا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر في دعوته لقومه أنهم لو آمنوا به واتبعوه كانوا قادة الأرض. وكان الرهبان يخبرون بذلك وفقا لما بين أيديهم من أوصاف الدعوة الخاتمة، فوفقا لهذا الاعلان أن يكون هناك من آمن غير عابثا بقوة المشركين الطاحنة ويعيش على خطر، رجاء أن يوفق يوما لإدارة ربحي المجتمع والعلو في الأرض. ومن الممكن أن يكون في المجتمع بعض المغموين الطموحين السعة الصيت وجذب الأنظار إليهم. فآمنوا بالدعوة التي وجدوا فيها اتجاها جديدا يضيء الفوارق بين الطبقات يمكن لهم أن يعالجوا مشاعر النقص التي يعانونها ويحقق لهم البروز وسعة الصيت والمكانة عن طريق تحدي مواقع النفوذ والسيطرة داخل المجتمع. ومن الممكن أن يكون هؤلاء المغموين ضمن الذين يتعرضوا إلى أي أذى نتيجة معرفة قريش بهم في جاهليتهم، وفهمها لنواياها الحقيقية في الانضمام للدعوة. بحيث أن الصدق والإخلاص والتفاني أمور مستبعدة بالنسبة لهؤلاء لذلك لم يتعرضوا لهم.

وقد يكون ضعاف الإيمان قد هاجروا بعد ذلك من مكة إلى المدينة. ولكن الهجرة لها شروط، ومن أهم شروطها أن تكون في سبيل الله وليس في سبيل هدف آخر، قال تعالى: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلهم وقتلوا أو قتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم (٢)) وقال جل شأنه (والذين هاجروا في

(١)سورة البقرة: الآية ٦ - ١٠، سورة يس: الآية ١٠.

الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر. (١) (فالهجرة الصحيحة هي ما عقد عليه القلب لفق النبي صلى الله عليه وسلم: " إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه. (٢) " وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه (٣) "، والقرآن الكريم لم يضع الذين هاجروا مع الأنبياء في دائرة الحصانة، لأنهم بشر جاءوا ليختبرهم الله في الحياة الدنيا من يومهم الأول إلى يومهم الأخير. ألميهاجر السامري من مصر مع موسى عليه السلام؟ ألم يكن على مقدمة موسى عند عبور البحر وأمامه ملك يرشدهم. فماذا فعل السامري ذلك المهاجر؟ ألم يأخذ قبضة من أثر هذا الملك. وكانت هذه القبضة وبال على بني إسرائيل. لقد ساهم السامري بهذه القبضة في صناعة عجل من ذهب عبده المنحرفين من بني إسرائيل وأشربوا في قلوبهم حب هذا العجل. وكان هذا الحب وبال فيما بعد علنا لجنس البشري.

إن السامري هاجر وبعد الهجرة ظهر ما في نفسه. قال تعالى لموسى عليها السلام عندما ذهب للقاء (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٤))، والفتنة هي الامتحان والاختبار. وعندما عاد موسى عليه السلام وعلم بما حدث. أخبر عنه الله تعالى: (قال فما خطبك يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. (٥))

أنظر إلى قوله (سولت لي نفسي) فالنفس طريق الإنسان إلى ربه. ولقد أقام الله على الإنسان الحجة فيها، فألهمه طريق الفجور وطريق التقوى. فمن انغمس في

(١)سورة النحل: الآية ٤١.

(٢)رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (الترغيب والترهيب: ١٨١ \ ٢).

(٣)رواه أبو داود والنسائي (الترغيب: ١٨١ \ ٢).

(٤)سورة طه: الآية ٨٥.

(٥)سورة طه: الآية ٩٥ - ٩٦.

الشهوات غشى عمله على قوة النفس الهائلة، فيفتح العمل طريق الفجور علنا تساعه. أما من التزم في عمله بما أمر به الله وما نهى عنه، تكون نفسه حظا سعيدا ينتهي إلى ثواب الله، والإنسان لا يظأ موطأ في سيره إلا بأعمال قلبية، هي الاعتقادات ونحوها. وأعمال جوارحية صالحة أو طالحة. وما أنتجه عملها، كان هو زاده غدا. والسامري

سولت له نفسه، فما أغنت عنه هجرته (قالفاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه. (١) ..)

إن الذي في قلبه مرض، في قلبه شهوة. في سبيلها يركب الصعب كماركب السامري الصعب وأسس في نهاية الأمر عقيدة شاذة. وكما ذكر القرآن قصة السامري، لم يستبعد الفكر الحكيم أن يطمع الذي في قلبه مرض في أي أثر محرم عليه حتى ولو كان ضد الأثر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. علنا لرغم من أنه يعلم بنص القرآن إنهن أمهات المؤمنين، فمقتضى هذا النص لا يجوز لصاحب قلب سليم أن يقترب نحو مطمع في أمهات المؤمنين. ولكن عالم مرضى القلوب، عالم متخصص في نهش أي قبضة من أثر أي رسول. ليتاجر به الحساب عالمه الخاص. (٢) قال تعالى: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا) (٣)، قال المفسرون: نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترقيق الكلام مع الرجال.

بحيث يدعو إلى الريبة. ويثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض. وهو فقدان هبة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء (٤)، وقال ابن كثير: في قلبهم مرض. أي دغل. (٥) والدغل بالتحريك: الفساد. والدغل هو أيضا: دخل في

(١) سورة طه: الآية ٩٧.

(٢) كان بعضهم يريد هذا ويفهم من قوله تعالى: (ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أنتنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما * إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله بكل شئ عليما). الأحزاب ٥٣ - ٥٤ (٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

(٤) الميزان: ٣٠٩ \ ١٦.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٨٢ \ ٣.

الأمر مفسد. وأدغل في الأمر أي: أدخل فيه ما يفسده ويخالفه، ورجل مدغلأي: مخاب مفسد. (١)

وبالجملة نقول: إن الذي في قلبه مرض، لا يدخل في دائرة النفاق، لأنهمحسوب على دائرة الذين آمنوا. وكل منافق في قلبه مرض، بمعنى في قلبههدف لا علاقة له بأي هدف من أهداف الذين آمنوا. لأن الإيمان لم يدخل قلبه بصورة من الصورة. وما في قلبه فهو للصد عن سبيل الله ولا غير ذلك، لذلك نقول والله تعالى أعلم إن حديث الارتداد الذي رواه أصحاب الصحاح ينطبق على من كان يجلس في دائرة الذين آمنوا ثم ارتد عنها. ولا ينطبق على المنافق الذي لم يؤمن أصلا حتى يرتد. وفي الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يرد علي يوم القيامة، رهط من أصحابي، فيحولون عنالحوض. فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقري (٢) " فالمنافق لم يؤمن حتى يرتد. إلا إذا كان قد آمن بعد ذلك ثم ارتد. ومن الدليل على بطلان قول من قولوا، إن الحديث يختص بالمنافقين. الحديث الذي رواه ابن عساکر وابن النجار

عن أبي الدرداء أنه لما بلغه الحديث قال: قلت يا رسول بلغني أنك قلت ليكفرن أقوام بعد إيمانهم. قال: نعم ولست منهم (٢) وفي رواية عند البيهقي قال: فأتيت رسول الله فذكرت له ذلك فقال: إنك لست منهم (٤).

إن دائرة النفاق وتيار الذين في قلوبهم مرض. بذرتان في تربة واحدتين من ماء واحد، ولكل شجرة منهما ثمار وأزهار، لا طعم فيهما ولا رائحة. أنبتهما الله من الأرض لحكمة ومن وراء الحكمة هدفا. (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم * فليعلمن

(١) لسان العرب.

(٢) رواه البخاري كتاب الدعوات (الصحيح: ١٤٢ \ ٤).

(٣) كنز العمال (٢٦١ \ ١١).

(٤) رواه البيهقي قاله ابن كثير في البداية: ٢٠٨ \ ٦.

الصفحة ٦٦

الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا * ساء ما يحكمون. (١)

رابعا - جهاز الرجس التخريبي:

إذا كان الشيطان في برنامجه قد استهدف أنبياء الله ورسله والدعوة إلى الله والناس. وإذا كان الكفار والمشركون والمنحرفون من أهل الكتاب قد استهدفوا ببرنامجهم النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ودعوته. فإن دائرة الرجس سارت في نفس الاتجاه. فلقد استهدفوا الرسول فحاولوا اغتياله مرات عديدة واستهدفوا الدعوة بالتشكيك فيها وفي الداعي إليها واستهدفوا القوة الإسلامية المسلحة بتعريضها للهزيمة حتى تتآكل.

١ - * استهداف النبي صلى الله عليه وآله:

محاولات أصحاب برنامج الشيطان، استهدفوا النبي صلى الله عليه وسلم منذ بداية الدعوة. لقد شككوا فيه واتهموه اتهامات شتى وتصدى لهم القرآن ورد كيدهم إلى نحرهم. ثم حاولوا استعمال سياسة القبضة الغليظة، فاستهدفوا الرسول بإلقاء حجارته عليه، ثم محاولة قتله أكثر من مرة في مكة. وبعد هجرته صلى الله عليه وسلم تكررت محاولات قتله بواسطة اليهود ثم بالتركيز عليه أثناء المعارك الحربية كي ينالوا منه صلى الله عليه وسلم ولكن رد الله كيدهم في كل مرة. وبلغت الذروة عندما همت مجموعة تخريبية من المنافقين بمحاولة اغتياله في أيامه الأخيرة. وهذا المحاولة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم، مدونة في كتب التاريخ والتفسير والصاح والمسانيد (٢). وطابور النفاق والذين في قلوبهم مرض، هم الذين قاموا بهذه المحاولة، وكانوا اثني عشر رجلا (٣) وكانت خطتهم أن يقطعوا أتساع راحلته،

(١)سورة العنكبوت: الآية ٢ - ٣ - ٤.

(٢)الميزان: ٢٧٨ \ ٩.

(٣)وفي رواية كانوا خمسة عشر. منهم ثلاثة لم يعرفوا بالخطأ.

الصفحة ٦٧

ثم يلقوا تحت أرجلها بالحجارة كي تقفز به، ثم ينخسوها لتندفع إلى الأمام نحو المنزلق فتلقى رسول صلى الله عليه وسلم من المرتفع إلى المنخفض. فيجهزوا عليه، واختاروا لجريمتهم وقتنا قصيرا قبل الظلام. فإذا تمت الجريمة طواهما الليل ولا يراهم أحد. ثم يعودون ليتوضئوا وليصلوا صلاة المغرب ويصلون فيها على محمد وآل محمد، وروي أن عمار بن ياسر وحذيفة رضي الله عنهما كانا مع النبي أحدهما يقود الناقة والآخر يسوقها. وبينما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اتجاه العقبة، وهو المكان المخطط له أن تقع الجريمة فيه، أخبر جبرائيل عليه السلام النبي بما يدبر له. وفي المكان المحدد، ثم الهجوم وألقيت الحجارة تحت أرجل الناقة، ولكن الناقة لم تتحرك وثبتت على الأرض ثبوت الجبال. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى ناهم. فلما نزل النبي من المرتفع، قال لحذيفة: من عرفت منالقوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدا، إن ظلمة الليل غشيتهم وهم مثلثمون. فقال للنبي: هل عرفت ما شأنهم وما يريدون؟ قال حذيفة: لا يا رسول الله. قال للنبي: فإنهم فكروا أن يسيروا معي حتى إذا صرت في العقبة طرحوني فيها. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال النبي: أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمدا يقتل أصحابه، وسامهم واحدا واحدا (١) وهذه المجموعة التخريبية التي أقدمت على تنفيذ برنامجها الذي يستمد قوته من برنامج الشيطان أشار إليها الإمام مسلم في صحيحه. فعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في أصحابي اثني عشر مناقفا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتيلج الجمل في سم الخياط (٢) "وروي أن حذيفة قال: أشهد أن الاثني عشر حربله ولسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٣) " وروي عن عمار بن ياسر قال: أشهد أن الاثني عشر حربا لله ولسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم

(١) قصة تبوك في صحيح مسلم كتاب المنافقين: ٨ / ١٢٢، وسند أحمد ٥ / ٣٩٠.

(٢) رواه الإمام أحمد والإمام مسلم (كنز العمال: ١٦٩ / ١).

(٣) رواه الإمام مسلم في صفات المنافقين (صحيح مسلم: ١٢٥ / ١٧).

الصفحة ٦٨

الأشهاد (١) " إنها شهادة واحدة، لأصحابي قاد الناقة وآخر ساقها. شهادة مسطورة في الصحاح والمسانيد. تقول إن من الصحابة من لا يدخل الجنة حتيلج الجمل في سم الخياط. وإذا أردنا أن نعرف دوافع الجريمة عند المجموعة التخريبية، فلنقف عند العقوبة ونسلط عليها الضوء القرآني. قال تعالى: * (إنالذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين. (٢) *)

إن المجموعة التخريبية كذبت بآيات الله، واستكبروا عنها، فضربتةما العقوبة التي شهد بها عمار وحذيفة رضي الله عنهما، في كتب الصحاح. وهذه العقوبة ستصيب كل من كذب بآيات الله واستكبر عنها حتى يرث الله تعالنا لأرض لقله جل وعلا: * (وكذلك نجزي المجرمين) * إن التكذيب بآيات الله جريمة تخترق المستقبل من الماضي. * (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون (٣) *)، والاستكبار جريمة ترى آثارها على امتداد الليل. والاستكبار والتكبر منا لإنسان، أن يعد نفسه كبيرا ويضع نفسه موضع الكبر وليس به ولذلك يعد في الرذائل. وفي لسان العرب: الاستكبار، الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا (٤).

٢ - * استهداف الدعوة:

استهدف كتاب الدعوة منذ يوم الانذار الأول، فقالوا أساطير الأولين. وغير ذلك من أقوالهم التي تصدى لها القرآن ونسفها نسفا ورد كيدهم إلى النحرهم. وعندما لم يستطيعوا النيل من كتاب الله، استهدفوا الدعوة من خلال

(١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني: ٢٠٢ / ٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٤) لسان العرب: ص ٣٨٠٨.

حركتها وشعائرها بواسطة المنافقين، لضربها وضرب قوتها في وقت واحد. كان الجهاز التخريبي يدخل للصلاة وهدفه لا يعرف طريق الاهتداء، وبلغت ذروة الاستهداف للدعوة في آخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك عندما قاموا ببناء مسجد مهمته تخريب الصف الإسلامي وبتثاقفة معادية للدعوة، ووضع بذور بواسطتها تظهر الأحزاب والمذاهب بين المؤمنين.. فكل هذا تحتسقف مسجد يرفع عليه الأذان، وهذا العمل اشترك فيه جميع أتباع برنامج الشيطان، من مشركين وأهل كتاب وعلى رأس الجميع قيصر الروم. وقد كان مقدر أن يعمل مسجدهم هذا في الفترة الزمنية التي حدثت فيها غزوة تبوك. لقد فرغوا من البناء قبل الغزوة، ثم وجهوا الدعوة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كي يفتح المسجد بالصلاة فيه. لكن الله عصمه، وبعد العودة من تبوك حدثت محاولة الاغتيال. باختصار كانت هذه الفترة الزمنية، فترة عصبية لا يربحهم الخطورة فيها إلا بتجميع أحداثها.

لقد أقاموا مسجدا، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: * (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين (١) *) (فالإنفاق منهم لغو لا يترتب عليه أثر. وهم فاسقون والله لا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: * (إنما يتقبل اللهم المتقين (٢))، والنقل أبلغ من القبول. وقال فيهم أيضا: * (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم

فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين. (٣) * (وقالتعالى: * (يحلّفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين. (٤) * (لقد كانوا يحاربون معركة سرية غايتها أن ينالوا رضى المؤمنين، وتحت هذه اللافتة يتم المخطط الإجرامي. ولكن آيات الله وقفت لهم بالمرصاد، وأخبرت أن الواجب على كل مؤمن أن يرضى الله ورسوله. ولا يحاد الله ورسوله، لأن في هذا خزيا عظيما. وأخبر سبحانه أن حلّفهم هذا كان من أجل

(١) سورة التوبة: الآية ٥٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٦.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٢.

الصفحة ٧٠

صرف المؤمنين عنهم ليأمنوا الذم، فأمر جل شأنه بالإعراض عنهم لأنهم رجسولا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته، أن يتعرض لرجس النفاق والكذب، وقذارة الكفر والفسق. وأخبر تعالى، إنكم إن رضيتم عنهم، فقد رضيتم عن من لم يرضاه الله عنه. أي رضيتم بخلاف رضا الله، ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عما يسخطه.

فهؤلاء الذين لم يرض عنهم الله بنوا مسجدا لهدف، قال تعالى: * (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين واِرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلّفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون. (١) *)

قال المفسرون: بين الله تعالى أهداف هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو:

*الإضرار بغيرهم * والكفر * والتفريق بين المؤمنين * والإرصاد لمنحارب الله ورسوله. والقصة التي اتفق عليها أهل النقل: إن رجلا يقال له أبو عامر الراهب كان يعيش بالمدينة. وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة فإلى كفار مكة، يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك بعد غزوة بدر، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقداموا يوم أحد. وقام أبو عامر بحفر حفر بين الصفيين، وقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأصيب ذلك اليوم. فجرح وجهه الشريف. وشجر رأسه صلى الله عليه وسلم. ولما فرغ الناس من أحد، ولم ينل المجرمون من النبي ودعوته شيئا، ذهب أبو عامر إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم. فوعده ومناه، فكتب إلى جماعة من أهل النفاق والريب بعدهم ويمنيهم إنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه ويرده عما هو فيه. وأمرهم أن يبنوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٧.

تبوك. وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلفهم فيصليهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقيره وإثباته. فعصم الله رسوله من الصلاة فيه فقال لهم " إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " فلما قفل عليها السلام راجعا إلى المدينة من تبوك نزل عليه جبريل يخبر بالمسجد الضرار (١) كما أخبره بمحاولة الاغتيال. فأمر النبي بهدم المسجد وحرقه، وحرق الرمز كبيتدبر المتدبرون في أحداثه ورماده ودخانته. ويبقى سؤال، هل انتهى المسجد؟

والإجابة في كتاب الله. قال تعالى: * (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم. (٢) * (قال المفسرون: روي أن مكان المسجد الضرار كانت توجد حفرة بها حجر يخرج منه دخان. (٣) والمسجد اليوم مزبلة.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: * (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) * أيشكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا في قلوبهم.

كما أشرب عابو العجل حبه. وقوله * (إلا أن تقطع قلوبهم) * أي بموتهم. (٤)

وقال البيضاوي في تفسير: رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمهم قلوبهم.

فأتباع السامري قال فيهم تعالى: * (واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) (٥) * (وأتباع المسجد الضرار قال فيهم الله * (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) * إن البصمة هنا وهناك على القلوب.

- ٣ استهداف القوة العسكرية:

القتال في الإسلام، عموده الفقري الدفاع عن الفطرة. ولأنه على طريق

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٣٨٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢ / ٣٩١.

(٤) المصدر السابق: ٢ / ٣٩١.

(٥) سورة البقرة: ٩٣.

الفطرة فإنه يكره الاعتداء، قال تعالى: * (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. (١) * (وقال: * (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. (٢) * (القتال في الإسلام له قانون، وهذا القانون للفطرة ومن أجلها.

ولقد دأب أعداء الفطرة في وضع العراقيل أمام القوة الإسلامية حتى لا يشتد ساعدها. في مكة استهدفوا الأجساد التي لم يكتب عليها القتال بعد، أرادوا لها أن تخاف وأن تتوقع. وفي المدينة حشدوا الحشود وتعاونوا مع أعداء الدعوة في كل مكان للقضاء على القوة العسكرية الناهضة، ورد الله كيدهم. وبدأ أصحاب برنامج الشيطان، يعتمدون على ورقة النفاق تلك الورقة التي اخترق أصحابها الصف الإسلامي. واستطاعوا أن يبثوا ثقافتهم بين المسلمين. وكان في الصف الإسلامي سماعون لهم، وهؤلاء السماعون استطاعوا أن يجعلوا من القوة الواحدة فئتين فئة تعطي أصواتها للمنافقين والأخرى ترفض الانصات وتطالب بقتال المنافقين الذين انسحبوا من أرض المعركة. باختصار كان للمنافقين أثراً بالغاً في تعريض القوة المسلحة الإسلامية للعديد من الضربات.

وبإلقاء نظرات على عمليات التخريب الكبرى التي قام بها المنافقون، نجد أنهم كانوا أسرع الناس في التخلف والعودة عن الجهاد، واستئذنان الجنود في التخلف والعودة من غير عذر، جريمة في حق الفطرة. يقول تعالى: * (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٣) *)، فالمؤمن يقف على أرضية العبادة الحق، التي تجعله على بصيرته من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه. ولما كانت معارك الإسلام يتقدمها عمليات للاستطلاع وعليها يتم تقدير الموقف وعليه يتم تنظيم التعاون بين القوات المشتركة. فإن الاستئذنان بعد هذه الإجراءات أو أثناء المعركة نفسها، يترتب عليه إعادة التنظيم وبهذا يكون ضياع الوقت في صالح العدو. أو إتاحة

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٤.

الفرصة للقوات المعادية لتقدم وإجراء عمليات الالتفاف والتطويق في المناطق التي أخليت عن طريق الذين استأذنوا أو انسحبوا. وحركة النفاق كان الاستئذنان الانسحاب أصل أصيل فيهم، قال تعالى: * (إنما تستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون. (١) *) (فالمنافق لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر يكون فاقداً لصفة التقوى، فخروجه مع المؤمنين يكون من باب النفاق. وعلى امتداد خروجه يتردد في دائرة عريضة مادتها التذبذب والارتياب.

فهو يريد مغنماً ما، وفي نفس الوقت لا يريد أن يموت، ثم يأخذ القرار المناسب في الوقت المناسب بما يحقق أمن الفرد وأمن الدائرة.

وفي غزوة أحد، كان مؤسس المسجد الضرار يطوف على جبايرة قريش فيمكة لتعبئتهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم. وعندما تم حشد القوة الإسلامية وبدأ التوجه إلى أحد، انسحب المنافقون وكانت قواتهم تقدر بثلاث الجيش (٢) ولم يؤثر فيهم أي موعظة وإلحاح. ويقول تعالى في اعتذارهم يومئذ:

(* وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلمقتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان. (٣) * (قال المفسرون: رجعالمنافقون أثناء توجه المسلمون إلى أرض المعركة فاتبعهم رجال من المؤمنين يرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة. فإن لم يكن في سبيل الله فليدفعوا عن أولادهم وحریمهم وأنفسهم. فتعللوا قائلين: لو نعلم أنكم تلقون حربالجنناكم. ولكن لا تقاتلون قتالا. وقولهم هذا جعلهم من الكفر الصريحاً أقرب. (٤) وهذا العمل الذي يلتقي مع عمليات حشد مؤسسي المسجد الضراري في نقطة واحدة، كان أحد الأسباب العاملة لانهمام المسلمين يومئذ. وإذا كانت دائرة النجس قد نسقت بصورة أو بأخرى مع الأطراف في مكة يوم أحد فإنهم نسقوا أيضاً مع يهود بني النضير بالمدينة. روي أن بني النضير تأمروا على قتل

(١) سورة التوبة: الآية ٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٣٢ / ١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

(٤) الميزان: ٦٠ / ٤.

الصفحة ٧٤

النبي صلى الله عليه وسلم. فأخبر الوحي النبي ما هم به يهود بني النضير. فبعث إليهم النبي أن أخرجوا من المدينة ولا تساكنتوني بها. فبدأوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي زعيم المنافقين، أن لا تخرجوا فإن معي ألفيني يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم، وسينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم منغطفان. ولم يتركهم حتى أقنعهم وأرضاهم فبعث اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وكبر أصحابه. وساروا إليهم وأحاطوا بديارهم. (قال تعالى: " ألم ترا لى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم للذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتمنا خرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. (٢) *)

لقد ربط القرآن بينهم بأخوة واحدة لاشتراكهم في اعتقاد أو صداقة. ولميف المنافقون بما وعدوا به إخوانهم من أهل الكتاب، لقد ساندوهم فقط بالقول نظراً لأن عدوهم واحد. وكل منهما وقف خلف جدار الآخر، كل طرف يتمنأن ببيادر صاحبه بإتمام المهمة التي عليه بصمات الشيطان. ولما كانت حركة النفاق مهمتها التخريب والتأليب وتعرض الصف الإسلامي القتالي للخطر. فإن الله تعالى زهدهم في الخروج، يقول تعالى: * (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. (٣) * (قال المفسرون:

لو أرادوا الخروج لأعدوا له العدة. ومن الإعداد الاعتقاد الصحيح والإيمان الحق. ولأنهم لم يعدوا العدة ولم يتأهبوا لها، كره الله خروجهم فزهدهم فيهنّلا يفسدوا جمع المؤمنين. (٤)

لقد زهدهم الله في الخروج لأن في خروجهم كارثة، ولم يقتصر خروجهم

(١) الميزان: ٢٠٨ / ١٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ١١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٦.

(٤) الميزان: ٢٩٠ / ٩.

الصفحة ٧٥

على الانسحاب والاستئذان. وإنما كانوا يلقون بالفتن ليفرقوا كلمة المسلمين.

وذلك عن طريق الذين كانوا يسمعون لهم، قال تعالى: * (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين). (١) * (قال المفسرون: وفيكم سماعون لهم: أي مطيعون لهم مستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستصحبونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم).

فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. (٢) وقيل: * (وفيكم سماعون لهم) * السماع: أي السريع الإجابة والقبول. (٣) إذا كان القرآن قد أشار إلى الجماعة أو أفراد يسمعون للمنافقين. فإنه في موضع آخر يبين أن المؤمنين فيوقت ما انقسموا إلى فئتين لكل فئة رأي في المنافقين، قال تعالى مخاطبا المؤمنين: * (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا تريدون أنتهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا). (٤) * (قال المفسرين: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه. فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين. فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. وهم المؤمنون فأنزل الله * (فما لكم في المنافقين فئتين). (٥) * (وقالتعالى منكر على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين، أنه سبحانه أركسهم بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. أتريدون أن تهدوا من لا طريق له إلى الهدى، وهم يودون لكم الضلالة لتستوا أنتم وإياهم، وما ذلك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم). (٦)

فالمنافقون وضعوا العراقيل العديدة، ولكن الذين آمنوا استطاعوا بإيمانهم بالراسخ أن يعبروا هذه العقبات نظرا لتمسكهم بتعليمات النبي صلى الله عليه

(١) سورة التوبة: الآية ٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦١ / ٢.

(٣) الميزان: ٢٩٠ / ٩.

(٤)سورة النساء: الآية ٨٨.

(٥)تفسير ابن كثير: ٥٣٢ / ١.

(٦)تفسير ابن كثير: ٥٣٣ / ١.

الصفحة ٧٦

وسلم. ولم يؤثر كيد النفاق، كما لو يؤثر كيد المشركين من قبل. ولقد حاول النفاق أن يبيث ثقافة القعود عن الجهاد، بعد أن نال المسلمين من أعدائهم كلنيل ولكن هذه المحاولة هي الأخرى باءت بالفشل. وبيث ثقافة القعود وصلنا إلى ذروتها عند التحضير لغزوة تبوك. تلك الغزوة التي حاولوا فيها قتل النبي صلى الله عليه وآله وانتهوا قبلها من تشييد المسجد الضرار. ولقد هدد القرآن الكريم الذين تناقلوا عن الجهاد وقتنذ بالعذاب الأليم إذ لم ينفروا إن شاء الله. قال تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) * ألا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا (1) *.

قال المفسرون: هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر (٢)ومعنا الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم - لميصرح باسمه صونا وتعظيما - اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم. كأنكم لا تريدون الخروج، أفنعمتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة. فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلا قليل (٣)ثم هدهم الله تعالى بالعذاب والاستبدال. ولا يضروه شيئا بتوليهم عن الجهاد.

وإذا كانت ملامح النفاق تبدو واضحة على طريق أحد وتبوك، فإن أخرجوا لاتهم كانت والنبي صلى الله عليه وسلم على فراش المرض. فلقد أمر عليها الصلاة والسلام بأن ينتظم الجيش تحت قيادة أسامة لإنجاز مهمة قتالية، ووضع النبي أكابر الصحابة تحت قيادة أسامة، وأمرهم بالخروج (٤)ولكن النفاق مارس مهمته المعتادة يقول ابن حجر في فتح الباري: (٥)طعن المنافقون

(١)سورة التوبة: الآية ٣٨ - ٣٩.

(٢)تفسير ابن كثير: ٣٥٧ / ٢.

(٣)الميزان: ٢٧٨ / ٩.

(٤)بعث أسامة في البخاري (٣٠٣ / ٢)، ومسند أحمد (الفتح الرباني: ٢٢٢ / ٢١).

(٥)فتح الباري: ١٨٠ / ١٣.

الصفحة ٧٧

في إمارة أسامة. وعندما علم النبي صلى الله عليه وسلم بما قالوا، جلس على المنبر وقال: " إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه في قبل..

وحثهم على الخروج. ولم يخرج البعث إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

- ءجهد الرسول صلى الله عليه وسلم لتيارات الصد الداخلية:

بعد أن هروا أعداء الدعوة إلى أرض الدعوة، ينطقون بألسنتهم شعارات الدعوة وتختزن قلوبهم أوجال الصد عن سبيل الله. بعد أن تذرروا بجلابايا الإسلام سواء كان مصنوعاً من قماش الخوف أو قماش المنفعة، بعد هذا أصبح التصدي لما يرتكبه من جرائم غرض يتخذونه لتشويه الدعوة، تحت شعار أنمحمدا يقتل أصحابه. فشعار مثل هذا وسط قبائل وعصبيات ودوائر عديدة للصد داخلية وخارجية، سيضع بلا أدنى شك عقبات أمام الدعوة يجد فيها برنامج الشيطان متسعاً للانطلاق. ولهذه الأسباب وغيرها كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير بالدعوة بين نفوس من صخر وبين نفوس نقية تقية. والدعوة في الأساس أخروية الثواب، ويقف تحت سقفا كل من قبلها وأدى شعائرها.

والدعوة تتحرك وفقاً لوعي يحركها. وإذا نظرنا إلى حركة الدعوة في مواجهة المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم. نجد أن القرآن الكريم قد حدد هذه الحركة بما يتلائم مع النفس الإنسانية عموماً ليصل بها في النهاية إلى المخزون الفطري. قال تعالى: * (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين). (١) *

فالدعوة تحركت على محاور فيها الرحمة والعفو والاستغفار والمشورة التي تنتهي في نهاية الأمر إلى قرار رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال في الميزان: * (فبما رحمة من الله لنت لهم) *، أصل المعنى: فقد لأن لكم رسولنا

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٥٩.

الصفحة ٧٨

برحمة منا. لذلك أمرناه أن يعفو عنكم ويستغفر لكم ويشاوركم في الأمر. وأني توكل علينا إذا عزم. (١). وعلى هذا الأساس شقت الدعوة طريقها وسط الصخور، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعفو عن بعض أفعالهم غير أن هذا العفو لا يشمل موارد الحدود الشرعية وما يناظرها ولا لغي التشريع. وكان يشاورهم في الأمر، قال ابن كثير:

كان يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطيباً لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه. (٢) ولقد شاورهم يوم بدر وفي مواطن كثيرة على امتداد سيرته صلى الله عليه وسلم. ولا يجب أن يفهم من مشاورتهم في الأمر أن هذه المشاورة في أمور عقائدية أو أمور حسمها الوحي. وإنما المشاورة كما نصت الآية * (في الأمر) * أي الأمر الذي يعزمون عليه. والذي يدخل في إطار الأمور العامة التي تجوز فيها المشاورة. وبعد المشاورة إذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن من أحبه كان ولياً وناصر له غير خاذله. وكان صلى الله عليه وسلم يشاورهم على امتداد المسيرة،

بأنه إنما يفعل ما يؤمر . والله سبحانه عن فعله راض، وهو متوكل على الله. وعليهم أن يتوكلوا عليه لأن الله يحب المتوكلين.

وهكذا ضربت الدعوة وجهة الجحود بالرحمة، وحاصرت جميع الدوائر بالمشورة. وسأقت الجميع إلى التوكل على الله. وأمام هذا العطاء كان أصحابالرقاب الغليظة يعضون على أناملهم من الغيظ لأنهم عجزوا عن اختراق حاجزالرحمة وحاجز المشورة اللذين ينتهيان إلى الله قاصم الجبارين. كانت دوائر الصدتموج بأصحاب المخالب ويرتد فيها صدى قرعة أنياب الحيتان. وأمام العوائقالمخالب أمر الله تعالى بجهادهم. قال تعالى: * (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم ومأواهم جهنم. (٣) * (أما جهاد الكفار الذين تجاهروا بالكفر وخرجوا للصد عن سبيل الله، ففي قتالهم آيات كثيرة ولهذه الآيات تفسير

(١)الميزان: ٥٦ / ٤.

(٢)تفسير ابن كثير: ٤٢٠ / ١.

(٣)سورة التوبة: ٧٣.

الصفحة ٧٩

يبين لماذا ومتى وكيف. فمن أراد فليراجعها في مواضعها، أما قتال المنافقينالذين يرتدون جلاب الإسلام ويدخلون مساجده ويرتلون كتابه، فله شأن آخر.

قال ابن كثير في جهاد المنافقين: عن ابن مسعود قال: بيده فإن لم يستطع فليكفر في وجهه. وعن ابن عباس قال: باللسان. وعن الحسن وقتاد ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. (١) وقال في الميزان عن جهادهم:

المجاهدة بذل غاية الجهد في مقاومتهم، والجهاد يكون باللسان وباليد حتيتنتهي إلى القتال. وشاع استعمال الجهاد في القرآن في قتال الكفار، لكونهممتجاهرين بالخلاف والشقاق. فأما المنافقون، فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف. وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الأمور كيدا ومكرا. ولا معنللجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم.. والمراد بجهادهم - في الآية - مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل الجهد في مقاومتهم. فإن اقتضت المصلحة هجروا ولميخالطوا ولم يعاشروا وإن اقتضت وعظوا باللسان. وإن اقتضت أخرجوا وشرذوا أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردة أو غير ذلك. ويشهد لهذا المعنى عن كون المرادبالجهاد في الآية هو: مطلق بذل الجهد. تعقيب قوله تعالى: * (جاهد الكفار والمنافقين) * بقوله: * (واغظ عليهم) * أي شدد عليهم وعاملهم بالخشونة. (٢)

وقد تعامل النبي صلى الله عليه وسلم على امتداد مسيرته بين دوائر الصدفي الداخل، وفقا لمصلحة الدعوة. وقول الله تعالى لرسوله في شأن المنافقين:

(* لا تصلي على أحد منهم مات أبدا (٣) * (يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفهم بأعيانهم وأنه كان يتصرف التصرف الذي يمنع المنافقين من قطع الشوط الكبير في إفساد الأمر. فكان صلى الله عليه وسلم يخرج بعض المنافقين من المسجد على سمع ومرأى من الجميع تارة، وكان يسر بأسماء بعضهم إلى أصحابه تارة. وكان يسر بأسماء البعض الآخر إلى خاصة

(١) ابن كثير في التفسير: ٣٧١ / ٢.

(٢) الميزان: ٣٢٩ / ٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٨٤.

الصفحة ٨٠

الخاصة من أصحابه تارة أخرى. كل ذلك وفقا لحركة الدعوة وحركة القبائل وثقافتها. وكان في موضع آخر يقول في بعضهم وقد جاءوا به * (دعه. لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه. (١) * (ويقول: * (معاذ الله. أنت سامع الأمم أن محمدا يقتل أصحابه. (٢) * (لقد كان صلى الله عليه وآله يصفح إذا اقتضت المصلحة ذلك أو كما ذكر البخاري، كان يترك قتال المعارضين للتألف وألا ينفر الناس عنه. (٣)

وإذا كانت الغلظة أي معاملتهم بخشونة تقتضيه مصلحة الدعوة في صدرها الأول. فإنهم إذا أظهروا النفاق، بمعنى إذا حشدوا حشودهم للدفاع عن ثقافتهم التي يعبرون عنها بألسنتهم، ووقودها في قلوبهم، فإذا كانت المصلحة في قتالهم قتلوا. ولكن، تحت راية إمام حق، عالم بالتأويل. لأن قتال المسلمين يختلف عن قتال غيرهم، فالقتال أي قتال، فيه دماء، وسبي، وجرحى، وأرامل، إلخ غير ذلك. وهذا كله إذا دار تحت سقف واحد احتاج إلى فقه طويل عريض عال. يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما ذكر ابن كثير: بعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف. سيف للمشركين * (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فقاتلوا المشركين) * وسيف للكفار من أهل الكتاب * (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) *، وسيف للمنافقين * (جاهدوا الكفار والمنافقين) *، وسيف للبلغاة * (فقاتلوا التي تبغي حثثفتى إلى أمر الله) * . قال ابن كثير: وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، قال بذلك ابن جرير. (٤) وكما سارت حركة الدعوة في زمان النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة والمشاورة في الأمر، وجهاد المشركين بما تقتضيه المصلحة ضرب الوحي سورا من الرحمة يحدد كيف يتعامل

(١) رواه البخاري ومسلم عن جابر (كنز العمال: ٢٠٠ / ١١).

(٢) رواه أحمد وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد: ٢٣١ / ٦).

(٣) البخاري (الصحيح: ٣١٢ / ٤).

(٤) ابن كثير في التفسير: ٣٧١ / ٢.

المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف يخاطبونه فليس معنأنه بينهم أو يشاورهم في الأمر اختلاط الأمور وانصهار المكانة. فأرض الدعوة عليها من هو في دائرة الإيمان والإسلام وغير ذلك من دوائر الرجس والقلوب المريضة. وجميع هؤلاء يتحدثون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولأن الحديث مع الأنبياء والرسل يترتب عليه إما الجنة وإما النار أقامت الدعوة جدار من الرحمة، حتى لا تنزل الأقدام وتحبط الأعمال. قال تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله صلى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم. (١) *)

قال ابن كثير: أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله. بل كونوا تبعاله في جميع الأمور.. وقال سفيان: لا تقدموا بقول ولا بفعل. وقال الضحاك:

لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقوله * (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) * قال ابن كثير: هذا أدب ثان أدب الله تعالبه المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين النبي صلى الله عليه وسلم فوق صوتته. وروي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، روى البخاري عن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم ركب بني تميم.

فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، أخي بني مجاشع. وأشار الآخر برجل آخر.

فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافك.

فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم... الآية (٢) *) وقوله تعالى: * (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون *)

(١) سورة الحجرات: الآية ١ - ٣.

(٢) رواه البخاري (الصحيح: ١٩٠ / ٣) والترمذي وقال حسن غريب (الجامع: ٣٨٧ / ٥) وذكره ابن كثير في التفسير: ٤ / ٢٠٦.

أي نهاكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري. ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه فقال: * (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله صلى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) * أي أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا. (١) وقال في

الميزان: * (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) * بين يديالشيء: أمامه. وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري. وإضافته إلى الله ورسوله معاً، لا إلى الرسول. دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله.

وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه ورسوله بإذنه كما قال تعالى: * (إنالحكم إلا لله. (٢) * (وقال: * (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله. (٣) *)

وقوله: * (لا تقدموا) * أي تقديم شيء ما من الحكم. قبال حكم الله ورسوله. إمابالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله. أو إلى فعل قبل أنيتلقوا الأمر من الله ورسوله.. والمعنى: أن لا تحكموا فيما لله ولرسول فيهحكم. إلا بعد حكم الله ورسوله، أي لا تحكموا إلا لحكم الله ورسوله. ولتكنعليكم سمة الاتباع والافتقار. وقوله لا ترفعوا أصواتكم.. " وذلك بأن تكونأصواتهم عند مخاطبته وتكليمه صلى الله عليه وسلم أرفع من صوته وأجهرلأن فيذلك كما قيل شيئين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر. وإما إساءةالأدب بالنسبة إلى مقامه. وهو خلال التعظيم والتوقير المأمور به. وقوله: * (ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) * فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكونصوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه. فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنالتعظيم. فخطاب العظماء بالجهر فيه، كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءةالأدب وقوله * (أن تحبط أعمالكم..) * أي لثلا تحبط أو كراهة أن تحبطأعمالكم. فظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط. فيكون من المعاصي غير

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٧ / ٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٤.

الكفر ما يوجب الحبط. (١)

...والخلاصة: تعددت الدوائر، ولم تجد الدعوة غضاضة في التعامل معجميع الخصوم الذين يقفوا تحت سقفها، كانت تحاور جميع الأطراف دون أنتسمح لأي طرف من السيطرة عليها. وتعامل الدعوة مع القوى المختلفة ومعالأضداد، كان تعاملها يستخلص مصلحة الفطرة في النهاية. وإذا كانت الدعوة قدأحاطت بجميع آيات تحدد كيفية مخاطبة النبي وكيفية دخول بيوته، فإنهاحاصرت دائرة الرجز الحصار الذي يقوقع المنافقين ولا يجعل حركتهم قابلةللتمدد على المستوى الأفقي أو الرأسي. وذلك بفرض نظام يرفض اتخاذ بطانةمن غير الذين آمنوا. كما حددت الدعوة دائرة الطهر، وهذه الدائرة قضى اللهوقضاؤه حق. إن عزة الإسلام مع هذه الدائرة وإن في هذه الدائرة طائفة لا يضرهم من ناوأهم أو من خذلهم أو من عاداهم حتى يأتي أمر الله.

ثالثاً - النور وحصار دائرة الرجس

- امن الذي يدعو ويختار؟:

لا جدال في أن الشيطان ما زال يعمل منذ طرده الله من الجنة وأن مجالعمله هم نرية آدم وإن عمله مستمر بعد الرسالة الخاتمة وحتى يوم الوقتالمعلوم. ولا جدال في أنه استهدف في برنامجه رسل الله عليهم السلامودعوتهم قال تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنسوالجن. (١١) (ولا جدال في أن حزب الشيطان من المناققين قد تدثروا في رداءالإسلام وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم. وحاولوا بث ثقافة العدوانمن تحت مئذنة مسجدهم الضرار. وساروا بين المؤمنين يبيثون الفتن في الوقتالمناسب. ولا جدال في أن الكتاب الذي يقرأه كل من يقف تحت سقف الدعوةالإسلامية هو القرآن الكريم. ولا جدال في هذا وغيره.

فإذا كان الأمر على هذه الصورة. فكيف حصنت برسالة خط القيادة فيها؟

بمعنى أنها لو تركت الأمر لاختيار الأمة فإن بين صفوف الأمة من يقول فيهم اللهجل شأنه: (وا إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشبمسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٢) (بأنه عليك إذا قام واحد من هؤلاء لترشيح نفسه للرئاسة في أي مكان. ألا تراه

(١)سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٢)سورة المنافقون: الآية ٤.

يستحوذ على أغلب أصوات الناخبين. فهو في صباحة من المنظر. وتناسب فيالأعضاء. وإذا سمعه السامع مال إلى الاصغاء إلى قوله: فماذا فعلت الدعوةالخاتمة لسد الطريق أمام أعداء الفطرة الذين يأكلون بأجسامهم وألسنتهم؟ وأيضايعين صفوف الأمة أولئك الذين غمسوا في الترف بما لديهم من أموال وأولاد.

يقول تعالى: (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فيالدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون. (١)) فماذا فعلت الرسالة الخاتمة لسد الطريقأمام التجار الكبار الذين احترقوا التجارة في كل شئ. وأمام أبنائهم الذين ورثوامنهم الشذوذ والدنس والعار، أقول والله أعلم. إن القول بأن الدعوة لم تقمبتحصين هذا الجانب، هو قول فيه تساهل غير لائق بكلام الله وسنة نبيه وحركةالتاريخ. ولو قلت أن الأمة تختار قيادتها وفقا لشروط دقيقة. فإن قولي

هذا يصطدم بحقيقة لا تقبل الجدل تقول: إن سر المنافق في قلبه. ومعنى هذا إن أيشروط في حقيقة أمرها الله تتعدى لأمر الظاهرة، ولأن جسم هذا الأمر لا يبدأ إلا من القلب. فإن الاختيار لا يكون للأمة. وإنما يكون للذي يعلم ما تخفيها الصدور. إلى الله.

إن المسيرة لم تأت لتأكل. إنها لم تأت لتحقيق أهواء فرد ما أو قبيلة ما أو حزب ما. (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بأخريين (٢) (...، إن المسيرة جاءت لهدف ومن ورائه حكمة (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء. (٣)) إنه صراع دائم بين الحق وبين الباطل. بين برنامج الشيطان وبين برنامج الفطرة، بين برنامج يقوض الصراط المستقيم وبين برنامج يحدد الصراط المستقيم. ويسوق الناس إلى ربه. فإذا قرأنا قوله تعالى: (إهدنا الصراط المستقيم (٤) فهذا إقرار منا بأن هداية الطريق له وحده. وإذا قرأنا قوله تعالى

(١) سورة التوبة: الآية ٨٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٣٣.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٦.

الصفحة ٨٧

لرسوله: (إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم (١) (علمنا أن الدعوة طريقها واضح مستقيم والطريق هو الذي يوصل عابريه إلى الله تعالى. أي إلى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبودية لله والقرب. وإذا قرأنا قوله تعالى لرسوله:

(و) إنك لتهدي إلى صراط مستقيم (٢) (علمنا أن الذي يهدي إليه النبي صلى الله عليه وسلم صراط مستقيم، وإن الذي يهديه النبي من الناس. هو هداية من الله سبحانه وتعالى. فهداية النبي هداية الله. وإذا قرأنا قوله تعالى لرسوله:

(و) إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم (٣) (علمنا أن النبي الذي يهدي بهداية الله، هو الذي يدعو إلى هداية الله. إلى الطريق الواضح الذي لا يختلف ولا يتخلف في حكمة. ويصل بسالكيه إلى الغاية المقصودة. وصفة الطريق هي نفسها صفة الحق. فإن الحق واحد لا يختلف أجزاءه بالتناقض والتدافع. ولا يتخلف فيمطلوبه الذي يهدي إليه. فالحق صراط مستقيم، فبعد هذا كله، أقول والله أعلم:

إن الاختيار القيادة وسط هذا الطريق الذي احتوى على جميع الأنماط البشرية.

لا يكون إلا لله ورسوله. لأن الاختيار إذا ترك للأمة فسيترتب عليه ما لم تحمد عقباه. ونحن بين أيدينا نصوصا عديدة تحذر من الأخذ بالصورة، وتبين نهاية الطريق إذا ضرب بالتحذير عرض الحائط ومنها حديث: " إن الله لا

ينظر إلي أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم (٤) " ولا يخفي على أحد أنطريق الشكل والصورة انتهى إلى كارثة. كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بها بعد أن حذر منها، فعن حذيفة قال. قلت يا رسول الله: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت:

يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. (٥) " ...
إن الأمة تدعو إلى عبادة الله. نعم. ولكن داخل سور الأمة من لا يريد

(١) سورة يس: الآية ٣ - ٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٧٣.

(٤) رواه مسلم وابن ماجه (كشف الخفاء ٢٨٢ \ ١٠).

(٥) البخاري (الصحيح ٢٨٠ \ ٢) ك بدء الخلق ب علامات النبوة.

الصفحة ٨٨

ذلك. فإذا اختارت الأمة فلا يستبعد أن يقع اختيارها على إمام ضلالة من الأئمة الذين خاف النبي على أمته منهم. فقد قال صلى الله عليه وسلم: " إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين (١) " ، إن لفظ " إمام " في الحديث يدل أن شروطا عدة انطبقت عليه في قبيلة أو حزب أو غير ذلك... أو يقع اختيارها على منافق تعليم خاف النبي على أمته منه، قال صلى الله عليه وسلم: " أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان. (٢) " وتحذيرات النبي هذه جاءت بعد أن بين صلى الله عليه وسلم جانب الصواب أولا. ولعلمه بأن الاختلاف واقع كما أخبره ربه. حذر من هذه الجوانب وكأنه يدعو إلى الالتزام بما بين - كما سيأتي.

إن الأمة تدعو إلى صراط الله المستقيم. نعم. ولكن والله أعلم أن أقرب الطرق إلى غايات الصراط المستقيم. لا يكون فيمن تركيه الأمة. بل فيمنيزكيه الله. قال تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى (٣)) ، فهو سبحانه أعلم بعباده وهم أجنة في بطون أمهاتهم ويعلم ما هي حقيقة عباده وما هم عليهم في سرهم وإلى ماذا ينتهي أمرهم. فإذا كان الله أعلم من أول أمر. فلا يحق أن يزكى أحد نفسه فينسبها إلى الطهارة. فإله وحده أعلم بمن اتقى. ولا يخف أن تجارة التزكية وجمع المناقب. في كثير منها مدخل للشيطان، فعلى بعض التزكيات و المناقب زين الشيطان لكثير من الناس حركة أصحاب هذه المناقب بعدوهم، والدليل على ذلك ما قاله اليهود في عزيز وما قاله النصارى في عيسابن مريم عليه السلام وغير ذلك من الأمثلة لأجل ذلك سدت الرسالة الخاتمة هذا الباب. فلا تزكية إلا لمن زكاه الله ورسوله.

إن الأمة مدعوة من الله ورسوله إلى الصراط المستقيم، فإذا دعت نفسها

- (١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح (الفتح الرباني ٢٣ \ ٢١).
(٢) رواه ابن عدی (كشف الخفاء ١٦ \ ١).
(٣) سورة النجم: الآية ٣٢.

فيجب أن يكون في الحسبان، إن طاعة النبي وتقديمه على الأنفس هو العملا الذي لا يبور. وغيره يجعله الله هباء منثورا. والذي يدعو نفسه ويعين قافلته التي تقوده. ربما يتعثر في فهم العمود الفقري الذي تقوم عليه الدعوة. إلا وهو القرآن الكريم. والقرآن الكريم به آية ربما تكون والله تعالى أعلم. آية التعجيز لمن رأى أن يختار الطريق لنفسه. قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منهآيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغفيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. (١))

فهذه دائرة أخرى [الذين في قلوبهم زيغ] والزيغ. الميل عن الاستقامة.

ولآية تكشف حال الناس بالنسبة إلى تلقي القرآن بمحكمه ومتشابهه. وإن منهم من هو زائف القلب يتبع المتشابه لهدف هو ابتغاء الفتنة والتأويل. ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب. يأخذ المحكم ويؤمن بالمتشابه. واشتمال القرآن الكريم على المتشابه هو تمحيص القلوب في التصديق به. والكتاب كما يشتمل على المتشابهات. كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين المتشابهات بالرجوع إليها. وقال ابن كثير في معنى الآية: فأما الذين في قلوبهم زيغ أي ضلوا وخروج عن الحق إلى الباطل إنما يأخذون منه المتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة. ابتغاء الفتنة أي الاضلال وابتغاء تأويله أي تحريفه علما يريدونه (٢) وقال صاحب الميزان :ومعنى الآية. يريدون باتباع المتشابهة لضلال الناس في آيات الله. وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن. وما أخذ أحكام الحلال والحرام. حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين. فينتسخ بذلكين الله من أصله. (٣)

وكما ذكرنا أن هذه الآية عمودا فقريا يتحطم عليه كل رأي اختار طريقه

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٥ \ ١.

(٣) الميزان ٢٣ \ ٣.

بنفسه. فكتاب الدعوة لا يمسه أي عقل. فيما أنه كتاب الله. فلا بد أن يختار الله العقل الذي يمسه لينال منه العلم النافع. فالقرآن الكريم حجة الله على خلقه.

وهو يحتوي على برنامج الفطرة والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة. فيه بيان لكل شيء. وجميع الحقائق الموجودة فيه تستند إلى التوحيد. وبما أنه لا يأتيها الباطل ولا يجد إليه طريقا. وبما أنه لا بد أن ينتهي إليه كل رأي ديني. فلا بد أن يكون له عالما يسوق الناس به إلى ربهم. فهو سبحانه مصدر جميع السلطان.

وإليه تنتهي جميع القرارات. وهو مصدر الخلق والتكوين وواهب الحياة ومقوماتها. فكما أن له سبحانه الخلق ولا بداع. كذلك له الأمر والنهي.

وعالم الزيف هو نفسه عالم الرأي. أو ابنا شرعيا للذين اختاروا أن يكونا الكشاف الذي يكشفون به الطريق من صنعهم وبأيديهم. وأنت إذا تتبععت البدع والأهواء والمذاهب الفاسدة. التي انحرف فيها الفرق الإسلامية، عن الحقائق القويم بعد زمن النبي صلى الله عليه وآله. سواء كان في المعارف أو في الأحكام. وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه والتأويل في الآيات. بما لا يرتضيه الله سبحانه. ففرقة تتمسك من القرآن بآيات التجسيم. وأخرى للجبر.

وأخرى للتفويض. وأخرى لعثرة الأنبياء. وأخرى للتنزيه المحصن بنفي الصفات، وأخرى للتشبيه الخالص وزيادة الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك لأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه.

وعلى فروع المتشابه أيضا تسلق المتصوفة وعلماء الكلام. فطائفة ذكرت أن الأحكام الدينية إنما شرعت لتكون طريقا إلى الوصول. فلو كان هناك طريقا أقرب منها. كان سلوكه متعينا لمن ركبه. لأن المطلوب هو الوصول بأي طريقة تيسرت. وأخرى قالت: إن التكليف إنما هي لبلوغ الكمال. ولا معنى لبقائها بعد الكمال بتحقيق الوصول. فلا تكليف لكامل (١) وهكذا وغير ذلك كثير. إن الله تعالى الذي أنزل الكتاب هو وحده الذي يحدد من الذي يتعامل مع هذا الكتاب.

(١) الميزان ٤١ \ ٣.

ولقد كانت الأحكام والفرائض والحدود والسياسات الإسلامية قائمة ومقامة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يشذ منها شاذ. ثم لم تزل بعد ارتحاله صلى الله عليه وسلم تنقص وتسقط حكما حكما - كما سنين - يوما فيومبيد الحكومات الإسلامية. ولم يبطل حكم واحد. إلا واعتذروا قائلين: إن الدين إنما شرع لصالح الدنيا وإصلاح الناس، وما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى أن يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين. إصلاح الدنيا.

والنبا اليوم لا تقبل السياسة الدينية ولا تهضمها. بل تستدعي وضع قوانين ترضيها مدنية اليوم. وإذا تأملت في هذه وأمثالها. وهي لا تحصى كثرة.

وتدبرت في قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) لم تشك في صحة ما ذكرنا. وقضية بأن هذه الفتن والمحن التي سقطت على المسلمين لم يستقر قرارها إلا من طريق اتباع المتشابه وابتغاء تأويل القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أكثر ما أخوف على أمّتين بعدي رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره. (١) "

إن الذي تخوف منه الرسول ما جاء إلا على أكتاف الذين ساروا في موضع غير الموضع. ورأوا أنهم أحق بتحديد العلامات على طريق طويل. ومن العجيب أن الذي يقف في أول الطريق لا يرى ما هي نتيجة مقدمته في نهاية الطريق. أما الذي يقف في نهاية الطريق. عند النتيجة. فإنه يرى المقدمة بمنتهى الوضوح.

إن الأمة إذا كانت هي الأولى بتحديد قائلتها التي تقودها إلى الصراط المستقيم، لا بد أولاً أن تكون على علم بمن يقفون تحت سقفا. ولا بد ثانياً أن تعلم كتابها بالعلم الذي يستقيم معه. ومن آيات الله وأحاديث رسول الله الصحيحة تبين أن داخل الأمة دوائر متعددة لمؤسسات الصد عن سبيل الله.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (كنز العمال ٢٠٠ \ ١٠٠).

الصفحة ٩٢

وداخل هذه المؤسسات اثني عشر رجلاً لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. وشهد حذيفة وعمار رضي الله عنهما... أنهم حزب الله ورسوله في الحياة الدنيا. ومعنى في الحياة الدنيا يفيد أن لكل منهم ثقافة لا تصيب الذين ظلموا خاصة. بل تتعداهم إلى غيرهم إذا تعاملوا عن فحص المقدمات. فإذا كانت الأمة أولى بالاختيار فما هي الضمانات التي لا تجعل واحد من هؤلاء أو من غيرهم من أي دائرة كان أن ينفذ لإحداث الفتنة والتأويل. ثم ما هي الضمانات التي تضمن عدم بغي الأمة واختلافها وافتراقها عن كتاب الله - إن دائرة الرجس لا بد أن يقابلها دائرة طهر. بهذا تقضي الفطرة ويقضي العقل. لقد حاصر كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله برنامج الشيطان وبرامج المشركين والمنحرفين من أهل الكتاب. وكما حاصر هؤلاء حاصر دائرة الرجس.

- ٢ دائرة الطهر:

إن المعارف الحقة والعلوم المفيدة التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة. لا تكون في متناول الإنسان إلا إذا صلحت أخلاقه. وعن أصول الأخلاق: العفة والشجاعة والحكمة والعدالة. ولكل واحدة فروع ناشئة منها وراجعة بحسب التحليل إليها. والأخلاق على امتداد المسيرة الإنسانية. لا يمكن بحال أن تسير بمفردها. بل لا بد من عامل يحرسها ويحفظ دوامها وثباتها. وأن يكون هذا العامل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم. بمعنى أن العامل إذا دار لا يدور إلا مع القرآن. ويظل في حركته وسكونه مع القرآن حتى يوم القيامة. وعندما يقف القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الحوض يكون هذا العامل مع القرآن على الحوض. فالنفس واحدة والحركة واحدة من الابتداء إلى الانتهاء.

إن حركة مثل هذه نطلق عليها هنا [دائرة الطهر].

ولكي نبحث عن هذه الدائرة وعن أصحابها يجب أن تكون البداية مناقرة الكريم ومن الحديث الشريف الصحيح الذي يفسر الآية ويرشد علالمعامل الذي نبحت عنه. ولتكن البداية من قوله تعالى: (إنه لقرآن كريم * في

الصفحة ٩٣

كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون .(١) (إن المس المذكور في الآية الكريمة أوسع من أن يقال لا بد أن يكون من يمسه على طهارة من الخبث أو الحدث.

فلو اقتصر التعريف على هذا. لاحتج به علينا الكفار والمشركون. الذين يشترونا المصاحف في كل مكان لأسباب عديدة. بل إن المصاحف تطبع في العديد من البلاد غير الإسلامية وتتناقلها الأيدي من هنا وهناك. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه في زمن من الأزمنة سيقراً القرآن ثلاثة: مؤمن ومناقفواجر (٢)فالمناقف كافر به. والفاجر يتأكل منه. والمؤمن يؤمن به (٣)، نعمالطهارة مطلوبة ولكن المس الأوسع هو مس العقول له لنيل الفهم والعلم. وفيمعنى (لا يمسه إلا المطهرون) قال أبو العالية: ليس أنتم. أنتم أصحابالذنوب (٤)والمطهرون هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصيوقاندورات الذنوب. أو مما هو أعظم من ذلك وأدق. وهو تطهير قلوبهم منالتعلق بغيره تعالى، وقال في الميزان: وهذا المعنى من التطهير هو المناسبللمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث. فالمطهرون هم الذينأكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهرهم الله من البشر.

قال تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٥) (ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما ذكر بعض المفسرينلكونه تقييدا من غير مقيد .(٦)

والله جل شأنه ذكر أصنافا من عباده. وخص كل صنف بنوع من العلموالمعرفة. لا توجد في الصنف الآخر. كالموقنين، وخص بهم مشاهدة ملكوت

(١)سورة الواقعة: الآية ٧٧ - ٧٩.

(٢)رواه أحمد، وقال الهيثمي رجاله ثقات مجمع الزوائد (٢٣١ \ ٦) ورواه الحاكم وأقرهالذهبي (المستدرک ٥٠٧ \ ٤) وابن حبان والبيهقي (كنز العمال ١٩٥ \ ١١).

(٣)رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٥٠٧ \ ٤).

(٤)تفسير ابن كثير ٢٩٨ \ ٤.

(٥)سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٦)الميزان ١٣٧ \ ١٩.

الصفحة ٩٤

السموات والأرض "، قال تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين (١) (وكالمنيبين وخص بهم التذکر قال تعالى:

(وما يتذکر إلا من ينیب (٢))، وكالعالمین بهم الذي یعقل أمثال القرآن، قالتعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما یعقلها إلا العالمون (٣))، كالأولیاء وهم أهل المحبة الذين لا یلتفتون إلى شیء إلا له سبحانه ولذلك لا یخافون شیئا ولا یحزنون بشیء. قال تعالى: (ألا إن أولیاء الله لا خوف علیهم ولا هم یحزنون (٤) (وكالمقربین .والمجتبین والصالحین والمؤمنین . ولكل منهم خواص من العلم والإدراك یختصون بها . ونظیر هذه المقامات الحسنة . مقاماتسوء فی مقابلها . ولها خواص رديئة فی باب العلم والمعرفة . ولها أصحابالكافرين والمنافقين والفاستقین وغيرهم . وهؤلاء لهم نصیب من سوء الفهمورداء الادراك لآیات الله ومعارفه الحقة .

وعلاقة المطهرین بالقرآن هي علاقة الفاهم للقرآن . أي العالم بمتشابهالقرآن ورده إلى محكمه . ودائرة الطهر تقابل الذين قال تعالى فیهم: (أفلایتدبرون القرآن أم على قلوب أقالها (٥))، وقوله: (أفلا یتدبرون القرآن ولوكان من عند غیر الله لوجدوا فیة اختلافا كثيرا (٦))، فالمطهرین خصهم الله بعلمتأویل الكتاب . لينطلق طریق العلم فی مواجهة أصحاب المقامات السوءوالخواص الرديئة . ویجب أن يفهم . إن طریق إلى فهم القرآن غیر مسدود . فهو حجة على الناس بذاته . ولكن إذا كان للقرآن الدلالة على معانیه والكشف عنالمعارف الإلهیة فإن للمطهرین الدلالة على طریق وهدایة الناس إلى أغراضالقرآن ومقاصده . فبهذا یحافظ العامل على المسیرة وعلى أخلاقها . بعيدا عن

(١)سورة الأنعام: الآية ٧٥.

(٢)سورة المؤمن: الآية ١٣.

(٣)سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٤)سورة یونس: الآية ٦٢.

(٥)سورة محمد: الآية ٢٤.

(٦)سورة النساء: الآية ٨٢.

الصفحة ٩٥

الأفهام التي امتنع علیها التأویل لأن أفهامها غیر مطهرة .

أولا - من هم المطهرون؟

هل هم نساء النبی؟ أم بني هاشم كافة؟ أم أنهم جمیع الأمة؟ إن الذیحدد دوائر الصد عن سبیل الله هو سبحانه الذي یحدد دائرة الطهر . قال تعالى:

(إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا . (١) (لقد قالتعالى فی المنافقین: (فأعرضوا عنهم إنهم رجس (٢))، وقال تعالى (وأماالذین فی قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم . (٣) (والرجس كل ما استقدرمن

عمل. ثم قال تعالى في أهل هذه الآية: (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت تطهير)، وهكذا دائرة أمام دائرة. وإذ هاب الرجس. إزالة كل هيئة خبيثة في النفس. وقوله تعالى: (ويطهركم تطهير) أي تجهيزهم بإدراك الحقي الاعتقاد والعمل. أما من هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

فلقد روى الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة قالت: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود. فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله. ثم قال: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.(٤)"

وفي أسباب النزول. أن الآية نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وعلي فاطمة والحسين رضي الله عنهم خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم. وليعلم طالب العلم أن هذا الحديث ثابت في كتب الأمة بجميع دروبها ومذاهبها. والروايات كثيرة تزيد على سبعين حديثا يروى ما ورد منها من طرق أهل السنة

(١)سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢)سورة التوبة: الآية ٩٥.

(٣)سورة التوبة: الآية ١٢٥.

(٤)صحيح مسلم ك فضائل الصحابة ب فضائل الحسن والحسين (١٩٤ \ ١٥) ورواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرطهما (المستدرک ١٤٧ \ ٧).

على ما ورد من طرق الشيعة. فقد رواها أهل السنة بطرق كثيرة (١)عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائل بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان وعبد الله بن جعفر وعلي والحسن بن علي رضي الله عنهم في قريب من أربعين طريقا.

ثانيا - إعلان الناس بمن هم المطهرون:

علمنا من السيرة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم كان يكرر جوابه على من يسأله أكثر من مرة وربما يكرر الجواب ثلاث (٢)أو سبع مرات (٣)وكان يتحدث بالحديث الواحد في أكثر من موطن. وكل ذلك ليحقق الاستماع والإنصات والفهم لمن حوله كي يبينوا لمن لم ير أو يسمع. وإعلانه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء أهل بيته المطهرون تم في أكثر من موضع ليعلم الناس أنهم هؤلاء في عرف القرآن هم أهل البيت.

آية التطهير نزلت في بيت أم سلمة: وإنما أوردنا حديث عائشة في أول حديثنا عنهم لكونه ورد في صحيح مسلم. ومن بيت أم سلمة روى الحديث أم سلمة وعمر بن أبي سلمة (٤)وزينب بنت أبي سلمة (٥)فمن أم سلمة قالت:

"دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وحسنا وحسينا وعلي خلف ظهره فجللهم بكساء ثم قال " اللهم هؤلاء هم أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: " أنت على مكانك

-
- (١) ابن كثير في التفسير ٣٨٤ \ ٣، البغوي في تفسيره ٥٤٦ \ ٦، ابن جرير في تفسيره ٥ \ ٢٠ وغيرهم.
(٢) كنز العمال ٤٤٥ \ ٤.
(٣) سنن أبو داود.
(٤) روى الترمذي حديثه (الجامع ٣٥١ \ ٥).
(٥) روى ابن عساکر حديثها (كنز العمال ٦٤٢ \ ١٣).

الصفحة ٩٧

وأنت على خير (١) " ، وفي رواية عند أبي حاتم. فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال: " تتحى فإنك على خير (٢) " ، وفي رواية عند الإمام أحمد.

فرفعت الكساء لأدخل معهم. فجذبه من يدي وقال: إنك على خير. (٣) "

وبعد بيت أم سلمة تكرر المشهد في أماكن أخرى، روى الإمام أحمد، عن شداد بن أبي عمار أنه قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي. قالت: توجه إلي الرسول الله صلى الله عليه وسلم. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم حسين وحسين. أخذ كل واحد منهما بيده. حتى دخل فأتى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لفعلهم ثوبه ثم تلا هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...) الآية، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق. (٤) "

وعن إسماعيل بن عبد الله قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرحمة هابطة قال: ادعوا لي ادعوا لي فقالت صافية: من يا رسول الله؟ قال:

أهل بيتي عليا وفاطمة والحسن والحسين. فجئ بهم. فألقى النبي صلى الله عليه وسلم كساء، ثم رفع يده وقال: اللهم هؤلاء آل محمد فصلي على محمد وآل محمد. (٥)

وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم. كان يمر على بيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول: الصلاة أهل البيت " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

(١) رواه الترمذي (الجامع ٣٥١ \ ٥) وأحمد (الفتح الرباني ٢٣٧ \ ١٨) وأبي يعلى والطبراني بسنادين. وذكره ابن تيمية في منهاج السنة (منهاج ٢٥٠ \ ٣) وذكره أيضا في الفتاوى الكبرى ٢٣٠ \ ١، ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب ٢٧ \ ١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٤ \ ٣.

(٣) الفتح الرباني ٣٣٨ \ ١٨.

(٤) رواه الإمام أحمد، وقال في الفتح الرباني قال الهنثي، رواه أحمد وأبو يعلى (الفتح ١٠٣ \ ٢٢).

تطهيرا (١) " ، وقال في الفتح الرباني. قال جماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة أن أهل البيت هم علي وفاطمة والحسن والحسين. وتمسكوا بحديث الكساء وحديث أنس أن النبي كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر (٣) وقال في تحفة الأحوازي: قال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة والكلبي أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي وفاطمة والحسن والحسين. والخطاب في الآية بما يصلح للذكر لا للإناث وهو قوله " عنكم " و " ليظهركم " ولو كان للنساء.

لقال " عنكم " و " ليظهركم (٣) " ، وقال في أسد الغابة أن هذا الحديث. رواها لأوزاعي. ولم يرو في الفضائل حديثا غير هذا. وكذلك الزهري. لم يرو فيها إلا حديثا واحدا. كانا يخافان بني أمية. (٤)

فإذا كان الحديث قد تكرر أكثر من مرة في أكثر من مكان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كي يتذكر من أراد أن يتذكر. وإذ كان قد روي في عالم الخوف. أيام بني أمية. فإنه روى أيضا في أشد الأوقات حديثا كانت الدماء تنزف في كل مكان. فلقد روى أن الحسن بن علي رضي الله عنهما عندما طالبه القوم بإبرام الصلح مع معاوية خطب في الناس وقال: " أيها الناس. إنمانحن أمراؤكم وضيغانكم. ونحن أهل بيت نبيكم الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وكرر ذلك. حتى ما بقي في المجلس إلا من بكى حتى سمع نحيبه. (٥) " وإذ كان الحسن رضي الله عنه قد ذكرهم يوما. فإن علي بن الحسين رضي الله عنهم قد ذكر أهل زمانه أيضا. من أبي الديلم قال. قال

(١) أخرجه الإمام أحمد وقال في الفتح الرباني: أوردته ابن كثير وعزاه للإمام أحمد وأوردته الطيالسي في مسنده (الفتح ١٠٢ \ ٢٢)، ورواه الترمذي الجامع الصحيح ٣٥٢ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي: أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه ابن مردويه (تحفة الأحوازي ٦٨ \ ٩) ورواه الحكم وصححه (المستدرک ١٥٨ \ ٣) ورواه صاحب الغابة (أسد الغابة ٢٢٢ \ ٧).

(٢) الفتح الرباني ٢٢٨ \ ١٨.

(٣) تحفة الأحوازي ٦٧ \ ٩.

(٤) أسد الغابة ٢١ \ ٢.

(٥) ابن الأثير ٢٠٤ \ ٣، تفسير ابن كثير ٤٨٦ \ ٣.

علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل من أهل الشام. أما قرأت في الأحزاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال: نعمولأنتم هم؟ قال: نعم. (١)

فهؤلاء أهل البيت. الذي أذهب الله عنهم الرجس: أي عمل الشيطان وماليس لله فيه رضا. كما قال ابن عباس (٢) الذين قال فيهم النبي: " اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق (٣) " ، وقال فيهم: " اللهم أرض عنهم كما

أنا عنهما مرض (٤) " ، وقال لهم: " رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (٥) " ، وقال: " اللهم هؤلاء أهل فصل على محمد وآل محمد. (٦) "

هؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم. ولم ينزلها إلا الله سبحانه. فإنتهتعالى ذكرها منسوبة إلى نفسه " إنما يريد الله... " وليست الطهارة إلا زوال الرجس من القلب. وليس القلب من الإنسان إلا ما يدرك به ويريد به، فطهارة القلب طهارة نفس الإنسان في اعتقادها وإرادتها وزوال الرجس عن هاتين الجهتين. ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقة من غير ميلان إلى الشك. وثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تماثل إلى اتباع الهوى ونقض ميثاق العلم. وهذا هو الرسوخ في العلم. فإن الله تعالى ما وصف الراسخين في العلم إلا بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا. غير زائغة قلوبهم إلى ابتغاء الفتنة.

إن دائرة الذين في قلوبهم زيغ. ما دخلوا دائرتهم إلا بعد أن ضلوا عن

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٦ \ ٣.

(٢) الفتح الرباني ٢٣٨ \ ١٨.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى (الفتح الرباني ١٠٣ \ ٢٢).

(٤) قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبيد بن الطفيل وهوثقة (معجم الزوائد ٩ \ ١٦٩*).

(٥) رواه ابن عساکر (كنز العمال ٦٤٣ \ ١٣).

(٦) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد (المستدرک ١٤٨ \ ٢)، ورواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٠٣ \ ٢٢).

الصفحة ١٠٠

سبيل الله حيث نسوا هناك يوم الحساب قال تعالى: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (١))، أما الراسخون في العلم فإنهم في شوق إلى يوم الحساب. اليوم الذي يقف فيه التابع والمتبوع أمام جلال الله وعزته. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. إن الراسخين في العلم يعشقون يوم الحساب ويقولون (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد. (٢)) وعلى امتداد الدعوة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. كانت تجر أحداثاً يترتب عليها غرس مفهوم من هم أهل البيت في ذاكرة الذين عاصروا النبي على إعتبار أنهم الجيل الذي سيفتح الأبواب من بعده ووفقاً لحركة هذا الجيل ستسير الحركة على امتداد المسيرة. ومن هذه الأحداث التي غرست مفهوم من هم أهل البيت. أحداث يوم المباهلة وملخص القصة التي وردت في كتب التفسير والحديث والتاريخ. إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: إلى ما تدعوا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وأني رسول الله. قالوا: وماذا تقول في عيسى: قال: إن عيسى عبداً مخلوقاً. يأكل ويشرب ويحدث. قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال. قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبي. فقالوا: نعم. فقال لهم:

فمن أبوه؟ فبهتوا. فأنزل الله: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب... الآية). وقوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين (٣) فقال رسول الله: فباهلوني فإن كنت صادقاً أنزك اللعنة عليهم. وإن كنت كاذباً أنزلت علي. فقالوا: أنصفت

(١) سورة ص: الآية ٢٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦١.

الصفحة ١٠١

فتواعدوا للمباهلة.

فهذا الحدث. لم يكن ليتم في الخفاء، ولأن هذا الاجتماع سيترتب عليهن نتيجة حاسمة. فلا بد أن يشهده كل من سمع بموعده سواء أكان من المكذبين أو من المؤمنين أو غيرهم. وبين هؤلاء يوجد الحبشي والفارسي والرومي والنجراني إلى غير ذلك من الأجناس. باختصار كانت العالمية ممثلة بصورة أو بأخرى لمشاهدة هذا الحدث. ويروي أصحاب التفسير بالمأثور. إن رؤساء النصارى قالوا لبعضهم بعد أن اتفقوا على موعد المباهلة: إن باهلنا بقومه باهله. فإن هليس نبيا. وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله. فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق. فمن هم الذين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا. فقال: " اللهم هؤلاء أهلي. (١) "

فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أهل بيته. قال النصارى: منهؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمه. وهذه ابنته فاطمة وهذان ابناه الحسن والحسين. ففرقوا. فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نعطيك الرضا.

فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وانصرفوا.

قال صاحب تحفة الأحوازي: دعا عليا فنزله منزلة نفسه. وفاطمة لأنها أخص النساء. وحسنا وحسينا فمزلتهما بمنزلة ابنيه صلى الله عليه وسلم (٢)، وسئل يحيى ابن معمر. هل كان الحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم. وإن كانت الإجابة. نعم. فكيف والنبي لم يعقب. وإنما العقب

(١) صحيح مسلم ك، فضائل الصحابة ب، فضل علي، وأصل المباهلة في صحيح البخاري ٨٠ \ ٣. ورواه الترمذي عن سعد بن أبي وقاص، وقال حديث حسن ورواه الحاكم وقاله هذا حديث صحيح على شرط الشيخان (المستدرک ١٥٠ \ ٣).
(٢) تحفة الأحواذي ٣٥٠ \ ٨.

الصفحة ١٠٢

للذكر لا للأنتى. والحسين ولد البنت: قال: قال تعالى: (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس) فأخبر عز وجل أن عيسى من ذرية آدم بأمه. والحسن بن علي من ذرية محمد بأمه (١).

إن حديث المباهلة روي من أحد وخمسين طريقا. وأثبتها أرباب الجوامع في جوامعهم. وأثبتها المفسرون في تفاسيرهم من غير إعتراض أو ارتياب.

كالطبري وابن كثير والسيوطي وغيرهم، وروى القصة أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل وابن إسحاق وابن هشام في السيرة. وغيرهم. وعلى هذانقول بأن مفهوم من هم أهل البيت قد غرس غرسا في ذاكرة العديد على زمان النبي صلى الله عليه وآله. وعلم الجميع أن قوله تعالى: (أبنا) تعني الحسن والحسين. وإن قوله تعالى: (وأنا) تعني كما في حديث جابر:

"رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب (٢) ، وإن قوله تعالى:

(ونسأنا) يعني. فاطمة.

ثالثا - القرآن والمطهرون والحوض:

وبعد تحديد من هم أهل البيت. ربط النبي بينهم وبين القرآن الكريم برباطوثيق. وهذا الرباط غرس غرسا في ذاكرة العديد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. روى الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه.

ووعظ وذكر ثم قال أما بعد: ألا أيها الناس. فإنما إنا بشر يوشك أن يأتيرسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم تقلين أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور.

فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال:

وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في

(١) الحاكم (المستدرک ١٦٢ \ ٣).

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧١ \ ١.

الصفحة ١٠٣

أهل بيتي .(١)

قال النووي: سمى ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما. وقيل لثقل العمل بهما .(٢) وهذا الحديث تحدث به النبي صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع. عند غدِير خم. مما يفيد بأن جمع كبير من صحابة النبي قد سمعوه.

وسنبن ذلك في حينه. وروى أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن أهل بيته والقرآن لن يفترقا حتى يردا على حوضه يوم القيامة وهذا يفيد بأن أهليته على الصراط المستقيم. يسيرون بالطهر إلى غاية عظمي. فمن أراد الوصول فعليه بالسبيل الذي لا يقيضه شيطان. لأنه سبيل القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وسبيل أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. فلا يستطيع الشيطان أن يأتيهم من بين أيديهم أو من خلفهم.

وهو الذي أخذ على عاتقه أن يأتي الناس من بين أيديهم ومن خلفهم. إلا منعصم الله. وأحاديث أهل البيت والقرآن والحوض.

رواها أصحاب السنن وأثبتها المفسرون في تفاسيرهم. فعن أبي سعيد الخدري. قال: قال صلى الله عليه وسلم: إنني تارك فيكم الثقلين. أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي هل بيتوا بهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض (٣)، وفي رواية عن زيد بن ثابت قال

(١) صحيح مسلم ك، فضائل الصحابة ١٧٩ \ ١٥، وفي رواية: قلنا: من أهل بيته نساؤه؟

قال: لا وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده، صحيح مسلم ١٨١ \ ١٥.

وقال النووي في رواية لمسلم: " نساؤه من أهل المدينة " أي الذين يساكنونه ويعلو لهم والمعروف في معظم الروايات في غير مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بيته (النووي شرح مسلم ١٨١ \ ١٥).

(٢) النووي شرح مسلم ١٧٩ \ ١٥ ك فضائل الصحابة ب فضائل علي.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وقال حديث حسن. والطبراني وقال المناوي رجاله موثوقون (الفتح الرباني ١٨٦ \ ١) ورواه ابن أبي عاصم (٦٤٤ \ ٢ كتاب السنة) ورواه ابن أبي شيبة وابن سعد وأبو يعلى. وفيه: وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهم لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (كنز العمال ١٨٦ \ ١).

الصفحة ١٠٤

صلى الله عليه وسلم: " إنني تارك فيكم خليفتين. كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي

وإنهما لا يتفرقان حتى يردوا علي الحوض .(١)

وهكذا حبل من السماء إلى الأرض. سبيل واحد. له مقدمة ونتيجة. وفي رواية عن حبيب بن أبي ثابت وزيد بن أرقم معا قالوا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنني تارك فيكم ما أن تمسكنم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهليتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض

فانظروا كيف تخلفوني فيهما .(٢)

لقد أعلن الرسول هذا على الملأ في حجة الوداع وفي غدِير خَم وفي أكثر من موطن. إنه تارك في أمته من بعده. ثقلين أو خليفتين. من يتمسك بهما لن يضل ومن سار معهما وصل إلى الحوض سالماً ولن يكون مع الذين سيقال فيهما إنهم ارتدوا على أعقابهم فيقول الرسول: سحقاً سحقاً. كما ورد في صحيح البخاري ومسلم. وفي تفسير الحديث قال صاحب تحفة الأحوازي: (كتاب اللهب ممدود) أي هو حبل ممدود من السماء إلى الأرض. يوصل العبد إلى ربه ويتوسل به إلى قربه. (وعترتي أهل بيتي) بيان لعترته. فقله: إني تارك فيكم.

إشارة إلى أنهما بمنزلة التوأمين الخليفتين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنه يوصي الأمة بحسن المخالفة معهما. وإيثار حقهما على أنفسهما، كما يوصي الأب المشفق الناس في حق أولاده. (ولن يفترقا) أي الكتاب والعتره في مواقف القيامة (حتيئدا على الحوض) يعني فيشكرانكم صنيعكم عندي (فانظروا كيف تخلفوني) أي كيف تكونون بعدي خلفاء. أي، عاملين متمسكين بهما. ولعل السر في هذه التوصية. واقتزان العتره بالقرآن. إن إيجاب محبتهم لائح في معنى قوله تعالى:

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فإنه تعالى جعل شكر أنعامه

(١) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (مجمع الزوائد ١٩٣ \ ٩) (الفتح الرباني ١٠٥ \ ٢٢) ورواه الطبراني وسعيد بن منصور (كنز العمال ١٨٦ \ ١٠).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع الصحيح ٦٦٣ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي، رواه مسلم من وجه آخر (التحفة ١٠ \ ٢٩٠).

الصفحة ١٠٥

وإحسانه بالقرآن منوطاً بمحبتهم على سبيل الحصر، فكأنه صلى الله عليه وسلم يوصي الأمة بقيام الشكر... فمن أقام بالوصية وشكر تلك الصنيعة بحسن الخلافة فيهما. فلن يفارقهما يوم القيامة... ومن أضع الوصية وكفر النعمة فحكمة على العكس. فقله: " فانظروا كيف تخلفوني فيهما " النظر بمعنى التأمل والتفكير. أي تأملوا واستعملوا الروية في استخلاف إياكم. هل تكونون خلف صدق أو خلف سوء (١) " ، وقال صاحب الفتح الرباني في شرح الحديث: إن إلتزمتم بأوامر كتابه وانتهيت بنواحيه واهتديتم بهدي عترته واقتديتم بسيرته.

اهتديتم فلم تضلوا (٢)، وقال الزرقاني في شرح المواهب في شرح الحديث: أما الكتاب. فلأنه معد من العلوم الدينية والأسرار والحكم الشرعية. وكنوز الحقائق وخفايا الدقائق. وأما العتره. فلأن العنصر إذا طاب. أعان على فهم الدين.

فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطمهارة. لهذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن علنلوزم اتباع أهل بيته. وإيثارهم أولى الناس برعاية شئون الأمة. ولهذا جعل مثلهم كمثال سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق (٣) ، وقال صاحب التاج الجامع للأصول في شرح

لحديث: يقول النبي صلى الله عليه وسلم أحسنوا خلافتي فيهما باحترامهما والعمل بكتاب الله. وما يراه أهل العلم من آل البيت أكثر منغيرهم (٤).

إن مقدمة هذا كله الاعلان الهام " يا أيها الناس إنني قد تركت فيكم ما أناخذتم به فلن تضلوا بعدي. كتاب الله وعترتي (٥) " وفي معنى العترة، قال في

(١) تحفة الأحوازي في شرح جامع الترمذي (٣٩٠ \ ١٠٠).

(٢) الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد (١٠٤ \ ٢٢).

(٣) شرح المواهب ٨ \ ٢.

(٤) التاج الجامع للأصول ٤٨ \ ١.

(٥) رواه أحمد والطبراني وسعيد بن منصور وابن أبي عاصم عن زيد بن ثابت (كنز العمال ١٧٢ \ ١، ١٨٦ \ ١٠) (كتاب السنة ٢ \ ٢٥١)، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم عنزيد بن أرقم (كنز العمال ١٧٢ \ ١)، (البداية والنهاية ج ٢١ \ ٥)، ورواه أحمد وأبو يعلى

الصفحة ١٠٦

لسان العرب: عترة الرجل أخص أقاربه. قال ابن الأعرابي: العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه. وعترة النبي صلى الله عليه وسلم ولد فاطمة البتول عليها السلام (١)، وقال في مختار الصحاح: العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا يعرف العترة غير هذا، وقال في الفتح الرباني: عترة النبي هم أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (٢) وما ذكرها أصحاب اللغة. ذكرناه فيما سبق من أن عيسى من ذرية آدم بأمه. وأولاد فاطمة من ذرية محمد بأهمهم. وعلاوة على أنهم رضي الله عنهم عترة النبي فإنه أيضا وليهم وعصبتهم، فعن فاطمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل بني آدم ينتمون إلى عصبته إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم (٣) " ، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل بني أب عصبته ينتمون إليها إلا ولد فاطمة. فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقوا من طينتي. ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله. (٤)

رابعا - من حقوق المطهرين:

من الحقوق قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) (٥) ، لقد ذهبوا في هذه الآية كل مذهب. فقال البعض. إن الخطاب لقريش. والأجر المسؤول هو مودتهم للنبي لقربته منهم، وذلك لأنهم كانوا

وابن أبي عاصم عن أبي سعيد الخدري (الفتح الرباني ١١٥ \ ٢٢)، و (كتاب السنة ٦٤٤ \ ٢)، ورواه الترمذي والنسائي وابن أبي شيبه والخطيب عن جابر (كنز العمال ١٧٢، ١٨٧ \ ١) ورواه الطبراني وأبو نعيم عن حذيفة بن أسيد (كنز العمال ١٤ \ ٤٣٥).

(١) لسان العرب ص ٢٧٩٦.

(٢)الفتح الرباني ١٠٤ \ ٢٢.

(٣)رواه الطبراني (كنز العمال ١١٦ \ ١٢).

(٤)رواه الحاكم وابن عساكر (كنز العمال ٩٨ \ ١٢).

(٥)سورة الشورى: الآية ٢٣، السورة مكية والآية مدنية.

الصفحة ١٠٧

يكذبونه. فأمر الله تعالى رسوله. أن يسألهم. إن لم يؤمنوا به فليودوه!! فكيف تعطي قريش الأجر وهم مكذبين له؟ إنهم لم يأخذوا من القرآن شيئا - فالنص (لا أسألكم عليه) أي القرآن فإذا كانوا لم يأخذوا فيكف يعطوا؟ إن الأجر إنما يتيم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر. فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته. إنما يصح على تقدير إيمانهم به. وقيل أيضا:

المعنى. لا أسألكم على دعائي أجرا إلا أن تودوا أقرباءكم. فكيف يكون هذا؟

ومودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام. قال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم(١)). وإن الذي يندب إليه الإسلام هو الحبفي الله من غير أن تكون للقرابة خصوصية في ذلك. نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابة والرحم. لكنه بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال على حبه ذوي القربى. لابعنوان مودة القربى، فلا حب إلا لله عز وجل.

وروى أن المراد بالمودة في القربى. مودة قرابة النبي صلى الله عليه وسلم. وهم عترته. فعن ابن عباس رضي الله عنهما. في قوله (لا أسألكم عليهاجرا) قال. قالوا: يا رسول الله. من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: " علي وفاطمة وابناهما(٢) " ، وروى ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جئ بعلي بنالحسين رضي الله عنه أسيرا فأقيم على درج دمشق. قام رجل من أهل الشام.

فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة، فقال له علي بنالحسن رضي الله عنهما: " أقرأت القرآن؟ " قال: نعم، قال: " أقرأت آل حم؟ " قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) قال: وا إنكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى الإمام أحمد

(١)سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢)رواه الطبراني وقال الهيثمي في موضع رواه الطبراني وتفقوا جميعا وفي بعضهم ضعف(مجمع الزوائد ١٠٢ \ ٧) وقال في موضع آخر رواه الطبراني وفيه جماعة ضعفاء وقدوثقوا (الزوائد ١٦٨ \ ٩)، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (تحفة الأحوازي ١٢٧ \ ٩) (الفتح الرباني ٢٧٥ \ ١٨).

الصفحة ١٠٨

عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لا أسألكم على ما أتيتكم من البيئات والهدى أجرا إلا أن توادوا الله تعالى وأنتقروا إليه بطاعته (١) وقال ابن كثير: كأنه يقول. إن تعملوا بالطاعة التي تقركم عند الله زلفى. وفي رواية لسعيد بن جبيرة معناه: إن تودوني في قرابتي أيتحسنوا إليهم وتبروهم (٢).

وقال البعض. إن آية: (إلا المودة في القربى) منسوخة!!! وردالحسن بن الفضل على الذين قالوا بذلك. فقال: القول بنسخ هذه الآية غيرمرضي. لأن مودة النبي وكف الأذى عنه. ومودة أقاربه من فرائض الدين. وهو قول السلف. فلا يجوز القول بنسخ هذه الآية (٣).

وحدث النبي صلى الله عليه وسلم أمته وساقها نحو الصراط المستقيمفي أكثر من موضع. فعن ابن عباس. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

أحبوا الله لما يغذيكم (أي يرزقكم به) من نعمه. وأحبوني بحب الله. وأحبوا أهليبيتي لحبي(٤) " ، وقال: " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي(٥) " ، وقال: " مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق(٦) "

وبعد أن فرض مودتهم ومحبتهم وبين أنهم أمان للأمة من الظلام ومن الغرق.

أمر بالصلاة عليهم. ليستقيم البدء مع الختام. فقد أمر الله تعالى بالصلاة على

(١) تفسير ابن كثير ١١٢ \ ٤، البغوي في تفسيره ٣٦٤ \ ٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١١٢ \ ٤.

(٣) تحفة الأحوازي ١٢٧ \ ٩.

(٤) رواه الترمذي وحسنه (الجامع الصحيح ٦٦٤ \ ٥)، والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٥٠ \ ٣).

(٥) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن عساكر وابن أبي شيبة ومسدد عن سلمة بن الأكوع (كنز العمال ٩٦، ١٠٢ \ ١٢)، ورواه أبو يعلى والبخاري والحاكم عن أبي ذر (الخصائص الكبرى للسيوطي ٤٦٦ \ ٢).

(٦) رواه البزار عن ابن عباس والزبير (كنز العمال ٩٥ \ ١٢)، ورواه الحاكم وابن جرير والبزار والطبراني عن أبي ذر، وهذا الطريق فيه من قالوا فيه - متروك. رواه.

رسوله في قوله: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما * إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا. (١))

فصلاته تعالى. انعطافا عليه بالرحمة انعطافا مطلقا. لم يقيد في الآية بشئ. وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطافا عليه بالتركية والاستغفار. وقد ذكر تعالى صلته وصلاة ملائكته عليه. قبل أن يقول: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) دلالة على أن في صلاة المؤمنين له. اتباعا لله سبحانه وملائكته. وقد استفاضت الروايات أن طريق صلاة المؤمنين. أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليهم. كما سيأتي. وقوله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله

لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا)، من المعلوم أن الله تعالى منزه من أن ينالها الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان. فذكره مع الرسول وتشريكه في أذائه. تشريف للرسول. وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء. فقد قصده أيضا بالسوء. فقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة. واللعن هو الإبعاد من الرحمة.

والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان.

ويتبعه العمل الصالح. فالإبعاد من الرحمة في الدنيا. تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما في قوله تعالى: (ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) (٢)، وقوله: (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمأبصارهم) (٣)، وأما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب. وقد قالتعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون). (٤) ثم أوعدهم بأنه أعد لهم - أي في الآخرة - عذابا مهينا ووصف العذاب بالمهين. لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله. فقولوا في الآخرة بعذاب يهينهم. (٥)

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦ - ٥٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٣) سورة محمد: الآية ٢٣.

(٤) سورة المطففين: الآية ١٥.

(٥) الميزان ٣٣٨ \ ١٦.

إن طريق الصلاة على النبي وآله. غير طريق إيذاء الله ورسوله وآله. وقد أورد السيوطي في الدر المنثور ما يقرب من عشرين حديثا تدل على تشريك آل النبي معه في الصلاة. وروى مسلم عن بشير بن سعد. قال: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله. فكيف نصلي عليك؟. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال صلى الله عليه وسلم: " قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وعلى آل محمد كما باركت لآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد (١). ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد من هم أهل البيت. فإن البخاري روى حديثا يأمر فيه النبي بالصلاة على أهل البيت. كي لا يظن الناس أن آل والأهل كل منهم في طريق.

وإنما هم واحد. فعن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة. فقال: ألا أهدي لكهدية سمعتها من النبي صلى الله عليه وآله. قال: قلت بلى فأهدها لي.

فقال: سألتنا رسول الله. فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت.

فإن الله قد علمنا كيف نسلم. قال: " قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. (٢)

وروى الحاكم هذا الحديث. قال: وقد روى هذا الحديث بإسناده وألفاظه حرفاً بعد حرف الإمام محمد بن إسماعيل البخاري عن موسى بن إسماعيل في الجامع الصحيح. وإنما أخرجه ليعلم المستفيد أن أهل البيت والآل جميعاً هم (٣) وروى الديلمي عن واثلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع فاطمة وعلياً والحسن والحسين تحت ثوبه وقال: " اللهم قد جعلت صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم إن هؤلاء

(١) تفسير ابن كثير تفسير سورة الأحزاب.

(٢) البخاري ك، بدء الخلق ب يزفون النسلان ٢٣٩ \ ٢.

(٣) المستدرک (١٤٨ \ ٣).

الصفحة ١١١

مني وأنا منهم فاجعل صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك علي وعليهم (١)، وروى ابن عساکر وأبو يعلى عن أم سلمة. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: اتيني بزوجه وابنيك. فجاءت بهم. ثم رفع يده فقال: اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. (٢)

وقال في فتح الباري: قال أحد الهاشميين - من غير أهل البيت - للنبي صلى الله عليه وسلم: اتقصدني وأنت تصلي علي في كل صلاة في قولك اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد. فقال: إني أريد الطيبين الطاهرين ولستمهم (٣).

لقد استقام البدء مع الختام. والتقى عصر إبراهيم عليه السلام مع عصر محمد صلى الله عليه وسلم في صلاة المؤمنين. وكما جرت يد إبراهيم علماً ولأولاده إسماعيل وإسحاق عليهم السلام وهو يدعو لهما كذلك جرت يد محمد صلى الله عليه وسلم على الحسن والحسين وهو يعوذهما بمعوذة إبراهيم. روى البخاري عن ابن عباس. قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين. ويقول: إن أباكما إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة (٤) " ، إن المعوذة التي جرت على الشجرة الإسرائيلية من القديم هي نفسها التي جرت على الشجرة الإسماعيلية من قديم حتى استقرت في الرسالة عن الحسن والحسين.

ويمكن على هذا الضوء أن نفهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم:

"حسين مني وأنا من حسين. أحب الله من أحب حسيناً. حسين سبط من

- (١) رواه الديلمي والطبراني (كنز العمال ٦٠٣ \ ١٣، ١٠١ \ ١٢).
(٢) رواه أبو يعلى وابن عساكر (كنز ١٤٥ \ ١٣).
(٣) فتح الباري \ ابن حجر ١٦٠ \ ١١.
(٤) البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٣٩ \ ٢)، ورواه الحاكم (المستدرک ١٦٧ \ ٣).

الأسباط. (١) "

قال في تحفة الأحوازي: " أحب الله من أحب حسينا " لأن محبته محبة الرسول ومحبة الرسول محبة الله. وقوله: " حسين سبط من الأسباط " أي أمة من الأمم في الخير والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل. وأحدهم سبط. فهو واقع على الأمة. والأمة واقعة عليه (٢) إذا كنا قد فهمنا مغزى المعوذة، ومغزى السبط. فإننا يمكن أن نفهم أيضا معنى الخلفاء فيما رواه أبو هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلف نبي. وإنه لا نبي بعدي. إنه سيكون خلفاء. فتكثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول.

واعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم. فإن الله سائلهم عما استرعاهم (٣) إن قوله:

اعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم " فيه إن الله جعل الخلفاء الحق حقا. وإن هذا الحق عنوان على امتداد الصراط المستقيم. ولا يجوز أن يسقط هذا الحق على خلفاء الجور والملك العضوض. لأن هؤلاء ليس لهم عند الله حقا، فالحق يكون للأنبياء والرسول. ولأولى الناس بالأنبياء والرسول. وأولى الناس بهم.

أعلمهم بما جاءوا به. وبعد هؤلاء للمؤمنين الذين إتبعوا الخط الرسالي للأنبياء والرسول. ثم لمن صالحوا أو عاهدوا إلى غير ذلك، فعلى هذا الطريق تكون الحقوق. أما على غيره فترتع الأهواء وتعوي الذئاب ويسير اللصوص بالليل والنهار فيزينون ويغترون ويحتنون بني الإنسان من أجل سرقة حقوقهم التي جعلها الله لهم كي يعيشوا الحياة السعيدة.

وبعد أن أعلن التطهير، وبعد أن أعلن أن المطهرين مع القرآن الطاهر على

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٦٥٨ \ ٥) وقال في تحفة الأحوازي أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه والحاكم ورواه أحمد (التحفة ٢٨٠ \ ١٠)، (الفتح البراني ١٧٩ \ ٢٣)، وقال ابن كثير رواه أحمد والطبراني والترمذي عن يعلى بن مرة (البداية ٢٠٦ \ ٨)، ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد (المستدرک ١٧٧ \ ٣).
(٢) تحفة الأحوازي ٢٨٠ \ ١٠.

(٣) رواه الإمام أحمد وإسناده صحيح وقال في الفتح رواه الإمام مسلم (الفتح ٥٢ \ ٢٣).

صراط واحد حتى يردا على الحوض. وبعد أن حث الأمة على مودتهم وفيه دليل على أن عبادتهم حتى قيام الساعة هي عبادة الحق لأن الله لم يفرض مودتهم إلا وقد علم أنهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا. وبعد أن أمر تعالى بالصلاة عليهم. لتستقيم الصلاة عليهم مع المودة على طريق واحد وبالصلاة والمودة تغرس في النفوس تعظيم شأنهم. بعد كل هذا طهرهم الله من الصدقة وفرض لهم في الأموال فرضا. لتكون دائرة الطهر بذلك دائرة كاملة تصنع في بياضها قوة في محبتها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الصدقة لا تتبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس (١) " وعن أبي هريرة قال: أخذ الحسين بن علي من تمر الصدقة فجعلها في فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كخ كخ إرمبها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة " رواه مسلم (٢)، وقال النووي: معنى أوساخ الناس إنها تطهير لأموالهم ونفوسهم. كما قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها) فهي كغسالة الأوساخ (٣).

لقد حرم الله تعالى الصدقة على النبي وآله " إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة " رواه مسلم (٤) وعوضه سبحانه سهما من الخمس عوضا بما حرم عليه. وضرب لآله معه سهما عوضا مما حرم عليهم. قال تعالى في صدر سورة الأنفال: (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين). (٥)

والأنفال جمع نفل. وهو الزيادة على الشيء. ولذا يطلق النفل على التطوع

(١) شرح النووي ١٧٩ \ ٧ مسلم باب تحريم الزكاة.

(٢) صحيح مسلم ٥، ١ \ ٧ باب تحريم الزكاة.

(٣) النووي شرح مسلم ١٧٩ \ ٧.

(٤) قال في كشف الخفاء رواه أحمد وابن حبان وأبو داود والحاكم (كشف ٢٣٩ \ ١) ورواه مسلم بلفظ " إنا لا تحل لنا الصدقة "، (صحيح مسلم ١٧٦ \ ٧).

(٥) سورة الأنفال: الآية ١.

لزيادته على الفريضة. وتطلق على ما يسمى فيئا وهي الأشياء من الأموال التي لامالك لها من الناس. كرؤوس الجبال ويطون الأودية والديار الخرية والقرى التي باد أهلها. وتركة من لا وارث له. وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد. وهي لله ولرسوله. وتطلق على غنائم الحرب. كأنها زيادة علما قصد منها. فإن المقصود بالحرب والغزو. الظفر على الأعداء. فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المطلوب والأموال التي غنمها المقاتلون زيادة على أصل الغرض.

فقله: (يسألونك عن الأنفال) يفيد أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكم غنائم الحرب. بعدما زعموا أنهم يملكون الغنيمة واختلفوا فيما يملكها أو في كيفية ملكها وقسمتها بينهم أو فيهما معا. وتخاصموا في ذلك. وقوله: (قل الأنفال لله والرسول) جواب على مسألتهم. وفيه بيان أنهم لا يملكونها وإنما هي أنفال يملكها الله ورسوله فتوضع حيثما أراد الله ورسوله.

وذكروا في تفسير الآية: أي يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم التي غنمتها. وما حكمها وكيف تقسم فقل لهم. هي لله وللرسول يحكم فيها الله عز وجل بحكمه. ويقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم على حسب تشريع الله عز وجل. فاتقوا الله ولا تختلفوا ولا تنازعوا في شأنها لأن ذلك يوجب سخط الله وغضبه عليكم (١) ويعد أن حدد الشرع الحنيف حكم الأنفال.

قال تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن الله خمسها وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله. (٢) ...)

والغنم والغنيمة: إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب. وفي الآية ينطبق على غنيمة الحرب. وذو القربى، قرابة النبي أو خصوص أشخاص منهم على ما تفسره الآثار القطعية. ومعنى الآية والله أعلم: واعلموا أن خمس ما غنمتم أي شيء كان. هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن

(١) تفسير آيات الأحكام \ الصابوني ص ٥٨٩ \ ١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

السبيل. فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر. وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله. لا يشارك لله رسوله فيها أحد. وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها.

فالذي أباح لكم التصرف فيها. ويأمركم أن تؤدوا خمسها إلى أهله.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر من يأتيه مسلما أن يؤدي خمس ما غنم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس: "أمركم أن تؤدوا خمس ما غنمتم (١)"، وروى الشيخان عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس لما أمرهم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده. قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس"، ومعنى هذا أن الخمس حشرعي لأربابه المذكورين في الآية يجب صرفه إليهم. وقد أجمع أهل

القبلة كإفافة. على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه. وإنه لم يعهد بتغيير ذلك إلى أحد حتى دعاه للهاليه. واختاره إلى الرفيق الأعلى. (٢).

وسهم ذي القربى كان رباطاً وثيقاً لهم على امتداد الصراط المستقيم. فالله تعالى كما حصنهم الطهر. جعل سهمهم امتداداً لحسن الطهر. فالمال علم مختلف العصور فتنة سقط فيها الأبحار والرهبان من قبل. وعندما سقطوا فسدت قياتهم. قال تعالى: (إن كثيراً من الأبحار والرهبان ليأكلون أموال الناس

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (الجامع ١٥٣ \ ٤).

(٢) الرسول وسهم ذي القربى في تفسير القرطبي ٨ \ ١٠، تفسير الطبري ١٠ \ ٤، الكشاف للزمخشري ٢ \ ١٥٨، تفسير المنار ١٠ \ ١٥، الأموال أبي عبيد ٣٢٥، أحكام القرآن للجصاص ٣ \ ٦٠، فتح القدير للشوكاني ٢ \ ٢٩٥، سنن النسائي الفئ ٧ \ ١٢٠، شرح مسلم النووي باب حكم الفئ ١٢ \ ٨٢.

الصفحة ١١٦

بالباطل. (١) " قال المفسرون: إن أهم ما يقوم به المجتمع الإنساني على أساسه. هو الجهة المالية التي جعل الله لهم قياماً. فجميع المآثم والمساوئ والجنايات والتعديت والمظالم تنتهي بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصبوسائر التعديت المالية. وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف والإسراف في المأكول والمشرب والملبس وغير ذلك وينتهي إلى الاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم. وتنتهي جميع هذه المفاست التي ذكرناها. بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حياة الأموال واقتناء الثروة والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملكة المميزة لأخذ المال بالحق من أكله بالباطل فإذا اختل ذلك، وأذعننا لنفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال. فشى الفساد وشاع الانحطاط الأخلاقي في المجتمع وانقلب المحيط الإنساني إلى محيط حيواني لا هم له إلا بطنه وما دونها. ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية. ولا تفقه فيه محكمة ولا إصغاء إلى موعظة.

والأحوا والرهبان الذين تعود إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع. كانوا أكثرهم يأكل أموال الناس بالباطل. لتظاهرهم بالزهد والتنسك. وعلى ظلام الباطن وزخرف الظاهر توغلو في سبيل الباطل ومنعوا الناس عن سبيل الله.

وسدوا الطريق على الحكومة الدينية العادلة التي غرضها إصلاح الناس. وتكوين مجتمع حي فعال يليق بالإنسان الفطري المتوجه إلى سعادته الفطرية. ولسد الطريق أمام هذه العقبة التي نفذ منها الشيطان. فرض الله تعالى لرسوله وأهل بيته المال الحق الطاهر، ليواجه خط المال الباطل الدنس للذين يصدون عن سبيل الله، ودائرة القربى الخاصة بسهم ذي القربى. دائرة واسعة بعض الشيء.

فهي تشمل القيادة ومن حولها من بني هاشم ومن بني المطلب الذين كانوا

ينصرون منهج الفطرة كتفا بكتف مع بني هاشم. وهذه الدائرة التي تحدد الخطأ لأول فيها ثم الخط الثاني لم يتم بتعيين من فيها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد رفض النبي أن يدخل فيها عثمان بن عفان أو غيره ممن لا ينطبق على شروطها. روى الإمام البخاري عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلنا يا رسول الله. أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهممناك بمنزلة واحدة. فقال: إنما بنو المطلب وبني هاشم واحد (١)، وروى أبوداود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم القرى في بني هاشم وبني المطلب. وترك بني نوفل وبنيعبد شمس. فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم.

فقلنا: يا رسول الله. هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم. فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة. فقال صلى الله عليه وسلم: إنا وبني المطلب لا نفرق في جاهلية ولا إسلام وإنا نحنهم شيء واحد وشبك بين أصابعه (٢). قال ابن قدامة في المغني: شارك بنو المطلب بني هاشم بالنصرة (٣). إنه حكم الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إنما أنا قاسم وخازن الله يعطى (٤) " ، وكان يقول: " ما أعطيكم ولا أمنعكم. أنا قاسم أضعيحت أمرت (٥) " ، ولأن الطريق طريق حق يواجهه طريق باطل. ولأن هناك منيعمل لمنع الناس عن سبيل الله ويأكل أموالهم بالباطل. حذر النبي صلى الله عليه وسلم من عثرات الطريق وقال: " إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة. (٦) "

(١) صحيح البخاري (١٩٦ \ ٢) ك الجهاد والسير.

(٢) أبو داود حديث رقم ٢٩٨٠.

(٣) المغني ٦٥٧ \ ٢.

(٤) رواه البخاري (الصحيح ١٩٠ \ ٢) ك الجهاد والسير.

(٥) رواه البخاري (الصحيح ١٩٢ \ ٢) ك الجهاد والسير.

(٦) رواه البخاري (الصحيح ١٩٢ \ ٢) ك الجهاد والسير.

إن للدعوة التي يستمد رجالها المال من الناس لا تدوم. وإنما تدوم الدعوة التي يعطينها الله ويقسم لها رسول الله. والدعوة التي تستمد وقودها من الناس الذين تعصف بهم الأهواء كثيرا ما يحتك الشيطان قيادتها. أما الدعوة التي يفرض فيها الله على أتباعها فروضا يترتب عليها ثواب وإما عقاب. هي دعوة تصل من أخذ بحبلها وسار على صراطها إلى حوض الذي قسم ما أمر الله به صلى الله عليه وسلم، لهذا لم يكن المال في الإسلام وجاهه وإنما هو من أجل رسالة. لم يكن المال في الإسلام وقودا يوضع في بيت المال. لينال منه هذا ليشعل النار على ذلك ولم يكن زادا

يتزود به كل راشي وكل مرتشي فيالحكم. إنما المال في الإسلام سدا لطريق الفتن. لهذا وضع في أيدي أمينة حرمت عليها الصدقة. لتفتح طريقا للفطرة في عالم مملوء بالرجس والبخس.

خامسا - من مناقب أهل البيت:

لما كان أهل البيت هم ذروة الأمة الخاتمة. فإن الله تعالى وضعهم في دائرة خاصة بهم. لهم فيها ما ليس لغيرهم ليكون في ذلك لفتنا لأنظار الأمة إليهم. ونحن سنقتبس من نورهم بعضا من مناقبهم التي يحتاجها هذا الموضوع.

*من مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من صلى مع النبي بعد خديجة علي بن أبي طالب (١)، وعن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم علي (٢)، وعن سلمان قال: أول هذه الأمة ورودا على نبيها. أولها إسلاما علي بن أبي

(١) رواه أحمد. وقال في الفتح الرباني: أورده الطيالسي في سنده والهيثمي عن علي وقالوا أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حية العرض وقد وثق (الفتح ١٢٢ \ ٢٢٣)، ورواه الترمذي وقال حديث غريب (تحفة الأحوازي ٢٣٩ \ ١٠٠).
(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (الجامع ٦٤٢ \ ٥) ورواه أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني ١٢٢ \ ٢٣) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٦ \ ٣).

الصفحة ١١٩

طالب (١) وعن علي قال: كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني وا إذا سكت - أي عن السؤال ابتدأني (٢)، وعن عبد الله بن جعفر قال:

قال صلى الله عليه وسلم: " علي أصلي وجعفر فرعي (٣) " ، وعن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم. أخى بين الناس وترك عليا حتبقي آخرهم لا يرى له أخا. فقال يا رسول الله: أخيت بين الناس وتركتني.

قال: ولم تراني تركتك. تركتك لنفسك أنت أخي وأنا أخوك. فإن ذكر كأحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيها بعد إلا كذاب (٤). عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: " أنت أخي في الدنيا والآخرة (٥)، وقال ابن كثير في هذا الحديث. كان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام (٦).

من مناقب فاطمة رضي الله عنها:

خطب أبو بكر وعمر فاطمة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم " هي لك يا علي (٧) " ، وقال صلى الله عليه وسلم: " إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي (٨) " ، وروى الإمام مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة:

يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين. أو سيدة نساء هذه

- (١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠٢ \ ٩)، ورواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ١٤٤ \ ٣)، ورواه الحاكم والخطيب (كنز العمال ٦١٦ \ ١١).
- (٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب (الجامع ٦٣٧ \ ٥) وقال في تحفة الأحواز رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه والحاكم ورواه أبو نعيم في الحلية وسعيد بن منصور (تحفة الأحوازي ٢٢٥ \ ١٠) (كنز العمال ١٢٠ \ ١٣).
- (٣) رواه الطبراني في الكبير. ورواه الضياء بسند صحيح (كنز العمال ٦٠٢ \ ١٣).
- (٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلى عن علي (كنز العمال ١٤٠ \ ١٣) (تحفة الأحوازي ١٢٢ \ ١٠).
- (٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب (الجامع ٦٣٦ \ ٥).
- (٦) البداية والنهاية ٣٣٦ \ ٧.
- (٧) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٠٤ \ ٩).
- (٨) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩ \ ٢٠٤).

الأمّة (١١)، وعن أنس قال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من نساء العالمين - مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون (٢)، ورواها الإمام مسلم عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما فاطمة بضعة مني يؤذيها ما آذاها (٣)" ، وروى البخاري: "فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني (٤)" ، وروى الحاكم: "فاطمة شجنة مني بسببني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها (٥)"

فإذا كان الذي يؤذي فاطمة يؤذي رسول الله. وإذا كان ما يغضبها يغضبه.

وإذا كان ما يقبضها يقبضه. فعلى ذلك يمكن أن نفهم قول الله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة (٦)) ، فمن المعلوم أن الله لا ينالها الأذى ولكنه شارك الرسول في إيذائه تشريفاً للرسول. وإشارة إلى أن من قصده رسول الله بسوء. فقد قصده أيضاً بالسوء. لهذا قال لفاطمة ما قال. وقالعلي بن أبي طالب: "إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك (٧)" ، وقال: "يا علي من فارقتي فارق الله ومن فارقتك يا علي فارقتني (٨)" ، وقال: "من آذى علياً

(١) صحيح مسلم في فضل فاطمة (٦ \ ١٦)، ورواه البخاري بلفظ "أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين (الصحيح ٢٨٤ \ ٢)، ورواه الحاكم بلفظ مسلم بزيادة "ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين" وقال هذا إسناد صحيح ووافقه الذهبي (المستدرک ١٥٦ \ ٢).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث صحيح (الجامع ٧٠٣ \ ٥) ورواه الحاكم وقال هذا الحديث في المسند لأبي عبد الله أحمد بن حنبل (المستدرک ١٥٧ \ ٢).

(٣) صحيح مسلم ٣ \ ١٦، باب فضل فاطمة.

(٤) صحيح البخاري ك بدء الخلق ب مناقب قرابة النبي ٣٠٢ \ ٢.

(٥) الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٣ \ ١٥٤).

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

(٧) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٣ \ ٩).

(٨) رواه البزار (كشف الأستار ٢٠١ \ ٣) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٥ \ ٩)، ورواه الحاكم وصححه (المستدرک ١٢١ \ ٣).

الصفحة ١٢١

فقد آذاني (١) " ، وقال للحسن والحسين: " من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني (٢).

إنه خط واحد، لا مجاملة فيه لأحد. فالذين يؤذون الرسول يؤذون الله.

والرسول قام بتحديد دائرة. فمن تقدم إليه بأذى. فإنه يكون في حقيقة الأمر قدخالف الطريق كله. وحمل الفطرة على ما لا يجب أن تحمله.

*من مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما:

عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " هما ريحانتي من الدنيا (٣) " ، وعنا سامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هذان ابناي وابنا ابنتي.

اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما (٤) " ، وفي هذا الحديث أطلق عليهما لفظ البنوة التي أطلقها القرآن في قوله تعالى: (تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم)، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة (٥) " ، وعن حذيفة: قال النبي

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه (الزوائد ١٢٩ \ ٩).

(٢) رواه ابن ماجه وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات (١٤٠٦ \ ٣) (كنز العمال ١١٦ \ ١٢) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (١٦٦ \ ٣ المستدرک) وقال الهيثمي رواها أحمد والبزار (الزوائد ١٧٩ \ ٩).

(٣) رواه البخاري ك بدء الخلق ب مناقب الحسن والحسين (٣٠٦ \ ٢) وأحمد والترمذي عن ابن عمر. وابن عساكر وابن عدي عن أبي بكر. والنسائي عن أنس (كنز العمال ١١٤، ١١٣ \ ١٢) ورواه البزار عن سعد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٨١ \ ٩).

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب (الجامع ٦٥٦ \ ٥)، وقال في تحفة الأحواز رواه الحاكم وصححه وابن حبان في صحيحه (التحفة ٢٧٤ \ ١٠) ورواه البخاري ك بدء الخلق ب مناقب المهاجرين ٣٠٦ \ ٢ الصحيح.

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (الجامع ٦٥٦ \ ٥) وقال في كشف الخفاء أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم (كشف الخفاء ٤٢٩ \ ١) وقال في تحفة الأحوازي هذا الحديث مروى عن عدة من الصحابة من طرق كثيرة ولذا عده السيوطي

الصفحة ١٢٢

صلى الله عليه: " جاءني جبريل بشرني أن الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة (١) " ، وبما أنهما في الجنة فلا يمكن أن يكون من قتلها في الجنة أيضا.

لأن الجنة لا يدخلها القاتل الذي ساعد وساهم في تقييض الصراط المستقيم.

بدليل أن الشيطان الذي أخذ على عاتقه تقييض الصراط المستقيم. لعنه الله وأخرجه من الجنة.

سابعاً - تحذيرات:

بعد اكتمال الدائرة التي ستقف في مواجهة دوائر الصد عن سبيل الله. وبعد أن بين الله تعالى العترة الطاهرة الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وأنذروا ذي القربى هم من حرم الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم نكاحه.

وبعد أن فرض مودتهم من البداية إلى النهاية. ولم يفرض الله مودتهم إلا لعلمها المطلق بأنهم لا يرتدون عن الدين أبداً ولا يرجعون إلى ضلال أبداً. ومودتهم لا يأتي بها أحد مؤمناً مخلصاً إلا استوجب الجنة لقوله عز وجل: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى. (٣))

وبعد أن فرض سبحانه الصلاة على رسوله والحق رسوله آلهبه. وفي بعض الروايات أن قوله تعالى: (يس والقرآن الحكيم (٣))، روى أنيس اسم من أسماء النبي (٤) وروى في قوله تعالى: (سلام على آل

= من المتواترات (تحفة ٢٧٢ \ ٣) وقال الهيثمي رواه أحمد وأبو يعلى ورجالها رجال الصحيح (الزوائد ٢٠١ \ ٩٠).
(١) رواه البخاري والضاية في المختارة بسند صحيح (كنز ١٢٠ \ ١٢) وابن سعد والحاكم (كنز ١١٣ \ ١٢) وأحمد والترمذي وقال حديث حسن والنسائي وابن حبان في صحيحه (كنز ١١٣ \ ١٢).
(٢) سورة الشورى: الآية ٢٢ - ٢٣.
(٣) سورة يس: الآية ١.
(٤) حلاء الأفهام \ ابن القيم ط دار الكتب العلمية بيروت.

الصفحة ١٢٣

يس (١))، أن آل يس هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٢)، وقيل: إن الله تعالى لم يقل سلام على آل نوح ولم يقل سلام على آل إبراهيم ولا قال سلام على آل موسى وهارون وقال: "سلام على آل ياسين" يعني آل محمد لأنهم حراس العقيدة الخاتمة التي ترتبط بالقرآن وتلتقي معه عند حوض النبي يوم القيامة. وقيل أيضاً إن الله تعالى ذكر الرجوع إليهم فيما خفي على الناس في قولته تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. (٣) (إن القول بأهل الذكر في هذه الآية ليس اليهود والنصارى كما يزعم البعض. لأن هذا القول أن يدعونا إلى دينهم للاحتكام إليه، وإن المعنى: إن الذكر هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك مبين في كتاب الله عز وجل. قال تعالى: (فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولا يتلوا عليكم آيات اللهيينات (٤))، وقال البعض: المراد بالذكر بالذي أنزله هو الرسول. سمي به لأنه وسيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق. وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول. بعثه من علم الغيب. وإظهاره لهم رسولا من عنده. بعدما لم يكونوا يهتمون كما في قوله تعالى: (وأنزلنا الحديد. (٥) (وقال البعض: يحتمل أن يكون "رسولا" منصوباً بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولا

يتلو عليكم "، ويكون المراد بالذكر المنزل إليهم القرآن، وقال البعض: إن " رسولا " هوجبريل. ولكن ظاهر قوله " يتلو عليكم... " يخالف ذلك. والخاصة: إن الروايات التي فسرت الآية بينت أن الذكر رسول الله وإن عترته أهله. وروى في قوله عز وجل: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) (٦)، (إن الآية مكية وعلى هذا فالمراد بقوله: " أهلك " بحسب وقت النزول خديجة زوج

(١) سورة الصافات: الآية ١٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠ \ ٤، البغوي في تفسيره معالم التنزيل ١٦٤ \ ٧ ط المنار ١٣٤٧ هـ.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٣.

(٤) سورة الطلاق: الآية ١٠ - ١١.

(٥) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٦) سورة طه: الآية ١٣٢.

الصفحة ١٢٤

النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب، وكان من أهله وفي بيته أو هما وبعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا فإن القول بأن أهله جميع متبعيه من أمته غير سديد. وروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظل يأمر أهله بالصلاة في مكة والمدينة حتى فارق الدنيا. وفي الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شده أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا (وأمر أهلك بالصلاة) وروى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجيء إلى باب علي وفاطمة ثمانية أشهر، وفي رواية تسعة أشهر ويقول: " الصلاة تحمكم الله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا... (١) "

وبعد أن فرض سبحانه لذي القربى نصيبهم من المال. فقرن سهمهم مع سهمه وسهم رسوله. فجعلهم بذلك في خير. وجعل الناس في خير دون ذلك.

ورضي لهم ما رضي لنفسه. واصطفاهم فيه فبدأ بنفسه ثم ثنى برسوله ثم بذى القربى. (واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن لله خمس وللرسول ولذيق القربى (٢)). (فهذا النصيب من الفئ والغنمة حقا لهم إلى يوم القيامة في كتاب الله الناطق. بخلاف اليتامى والمسكين الذين ورد ذكرهم في الآية. فإن اليتيم إذا انقطع يتمه خرج من الغنائم ولم يكن له فيها نصيب. وكذلك المسكين إذا انقطعت مسكنته لم يكن له نصيب من المغنم ولا يحل له أخذه. ولكن سهم ذى القربى إلى يوم القيامة. قائم فيهم للغني والفقير منهم. لأنه لا أحد أغنى من الله عز وجل. فجعل لنفسه منها سهمًا ولرسوله سهمًا. فما رضي لنفسه ولرسوله رضي لهم. وكذلك الغني ما رضي منه لنفسه ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم رضي لذي القربى. وكذلك الصدقة. فكما نزه سبحانه نفسه ونزه رسوله. نزه أهل بيت النبي عنها. فقال: (إنما

الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من

(١) أخرجه ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

الصفحة ١٢٥

الله (١) ، فلا يوجد في شئ من ذلك أنه عز وجل سمى لنفسه أو لرسوله أولادي القريبى. لأنه لما نزه نفسه من الصدقة ونزه رسوله نزه أهل بيته. بل حرمها عليهم لأن الصدقة محرمة على محمد وآله. وهي أوساخ أيدي الناس. لا تحللهم. لأنهم طهروا من كل دنس ووسخ. فلما طهرهم الله عز وجل. رضي لهما رضي لنفسه وكره لهم ما كره لنفسه.

بعد كل هذا التطهير. وبعد رباط القرآن الذي لا ينفك عنهم حتى يوم القيامة.

بعد كل هذا حذر ثم حذر وحذر. فقال: " سبعة لعنتهم ولعنهم الله " ومنهم:

"المتسلط على أمتي كالجبروت ليزل من أعز الله، ويعز من أذل الله عز وجل.

والمستحل من عترتي ما حرم الله عز وجل (٢) " ، وعن زيد بن أرقم. أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين. أنا حرب لمنحاربتهم وسلم لمن سالمتم (٣).

قال في تحفة الأحوازي: أي أنا محارب لمن حاربتهم. جعل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه نفس الحرب مبالغة كرجل عدل (٤)، وعن أبي

(١) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني له طريق عن عائشة إسناده حسن (كتاب السنة ٢٤ \ ١).

(٣) رواه الترمذي وقال حديث غريب. وقال في تحفة الأحوازي. قول الترمذي صبيح مولم سلمة ليس عوف ذكره ابن حبان في الثقات. ورواه أحمد والطبراني عن أبي هريرة وفيه تليد بن سليمان وفيه خلاف (التحفة ٣٧٢ \ ١٠) (الفتح الرباني ١٠٦ \ ٢٢) (كنز العمال ٩٦، ٩٧ \ ١٢)، (مجمع الزوائد ١٦٩ \ ٩)، ورواه الحاكم وقال هذا حديث حسن من أحاديث أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ورواه الحاكم أيضا عن طريق زيد بن أرقم (المستدرک ١٤٩ \ ٣)، وقال في كنز العمال، رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن زيد بن أرقم وأحمد والطبراني والحاكم عن أبي هريرة (كنز العمال ٩٦ \ ٩٧ \ ١٢)، ورواه الضياء بسند صحيح عن زيد بن أرقم، ورواه عنه ابن أبي شيبة وابن حبان في صحيحه (كنز العمال ٦٤٠ \ ١٢)، وذكره ابن كثير في البداية، وقال رواه أحمد (البداية ٣٨ \ ٥).

(٤) تحفة الأحوازي ٣٧٢ \ ١٠.

الصفحة ١٢٦

سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يبغضنا أهلالبيت أحد إلا أدخله الله النار. (١) "

وعلى ذلك تكون الحجة قد أقيمت. فإله سبحانه هو الذي حذر منخطوات الشيطان. وهو سبحانه الذي بين أهداف المشركين في دائرة البخس.

وهو سبحانه الذي بين أهداف المنافقين في دائرة الرجس. كما بين أهداف تيارالذين في قلوبهم مرض. وتيار الذين في قلوبهم زيغ. ولما كانت الأمة ستجدمشاكل على الطريق يضعها أناس من جلدتهم يتكلمون بألسنتهم ويدعون إلبالنار من أجابهم قذفوه فيها. ولما كان عدم وجود دليل للأمة يرشدها معكتاب الله إلى الطريق الحق. يعتبر حجة لهم يوم القيامة. أقام الله حجته حتى لا يكون للناس عليه حجة يوم القيامة، ولا إكراه في الدين. فالحق حق وإن تركهالناس. والباطل باطل وإن التزموا به.

(١)رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ١٥٠ \ ٢).

الصفحة ١٢٧

رابعاً - النور والولاية

بعد تحديد دائرة الطهر. هل كان لهذه الدائرة ذروة بعد الرسول صلى اللهعليه وآله سلم؟ بمعنى هل كان فيها الرجل الذي يبلغ عن الرسول من بعده أمأن الدائرة وجدت ليتبارك بها الناس فيحمل أحدهم الحسن ويقبل الآخر الحسينويبتسم الجميع في وجه فاطمة وعلي رضي الله عنهما؟ فإذا كانت الإجابة. أنالدائرة بركة. ولا يوجد ما يسمى بالخلافة. ولم يقوم الرسول بتعيين من يبلغ منبعده. فإن من خالف يقول: فهل من المعقول أن يجعل النبي صلى الله عليهوسلم أصحابه دون استثناء قوة للبشر وفي أصحابه دائرة المنافقين وتيار الذينفي قلوبهم مرض؟ كيف وقد أظهرت حركة التاريخ أن الصحابة اختلفوا فيالرواية والقيادة والسيره والأخلاق، وفي طريق الهداية والإرشاد وفي كل شئ.

وسبب هذا الاختلاف أن المحتاج إلى التعليم والإرشاد. أصبح قريناً للقرآن الذيلا يستغني عن المفسر العالم به. ولو كان القرآن لا يحتاج إلى تأويل لأجمعالناس على مدلوله ولم تفترق الأمة. وإذا كانت الخلافة ليست أصلاً إسلامياً. ولميامر الرسول بها. فلماذا قامت بعده؟ بمعنى لماذا أوصى الذين جاءوا من بعدهوحتى يومنا هذا بمن يخلفهم. هل كان معاوية بن أبي سفيان أحرص على الدعوةمن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها لابنه من بعده وسار بها بعد ذلكلتستقر في إناء الكسروية والقيصرية؟ لماذا حرصوا على الخلافة ولم يتركوا الأمرقتداء بسنة رسول الله إذا اعتبرنا أنه ترك أمته كهباء ضائع في خلاء. وحاشاه أن

الصفحة ١٢٨

يفعل ذلك فإذا قيل: إن الخلافة مجرد اجتهاد وتطبيق ارتضاه المسلمون الأوائل.

وإنها تقوم على الاجماع أو الانتخاب. فإن من خالف يقول: إذا كانت الخلافة بالاجماع فما معنى عقد أبي بكر لعمر رضي الله عنهما. وما معنى وصية عمرو جعلها شورى، وما معنى جعل الخلفاء إياها كسروية. إن كل حلقة تختلف عن الأخرى. وانتهت الحلقات إلى الجبرية حيث الاجماع الذي على رأسه السيف.

وكل حلقة لم تحقق الاجماع الكامل ويوم السقيفة شاهد بخروج سعد بن عبادتومن معه على هذا الاجماع وعلى امتداد التاريخ تشهد الأحداث أن الاجماع لم يتحقق يوماً وأن المعارك بين المسلمين وبين أنفسهم كان عمودها الفقري الخروج على الحكم وطلب الكرسي. فأين الاجماع في هذه الأحداث؟ وإذ كانت الخلافة بالانتخاب. فمن المعلوم أن الأمة ليست متفقة في الرأي وأن لكفرد فيها رأي يخالف الباقيين. فأى انتخاب؟ وهل المرشح الذي تخرج دنائره من بيت المال لتلمع في عيون الناخبين. هل يكون هذا مرشحاً، مهمته السير بالدعوة الحق على الصراط الحق. هل اللائحة التي تحافظ على الأهواء وتزين وتغوي الناخبين بأحقية حزب ما أو قبيلة ما. وما يقابلها من لوائح تزين وتغوي بالأموال والقرب والجاه. هل هذه اللوائح. لوائح حق تسيير بالدعوة الحق على الصراط الحق. أن الخليفة بحكم العقل والنقل مطلوب منه المحافظة على كيان الإسلام.

وإزاحة الشبهات وقطع دابر الكفار والمنافقين ونشر الأحكام الإلهية. فهل يا تري يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بهذه الصفات المذكورة وهل في وسعهم لاتجاه والاتفاق على اختياره. مع الوضع في الاعتبار أن في الأمة دوائر عديدة هدفها الصد عن سبيل الله. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن فيأتمته أئمة مضلون ومنافق عليم اللسان إلى غير ذلك. فهل يمكن للناس تفادي كل هذا؟

فإن قيل: إن الخلافة في عصورها المتأخرة تختلف عنها في عصورها الأولى حيث كان الصحابة يتحرون الدقة. وهم بالاجماع أهل عدل وصلاح.

ويموت الرسول صلى الله عليه وسلم. لم يعد هناك منافقون ولم يعد لتيارالذين في قلوبهم مرض وجود. فإن المخالف يقول: إذا كانوا جميعاً عدو. فبمن

نقتدي. بأبي بكر رضي الله عنه. أم بالصحابة الذين تخلفوا عنه وعلى رأسهم سعد بن عبادة الذي قال يوم السقيفة: " لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي (١) " ، وكان سعد لا يصلي معهم (٢) ألم يكن سعد يعلم أن من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية؟. هل نقتدي بسعد بن عبادة أم بعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وعمر أمر يوم السقيفة بقتل سعد وقال: " اقتلوه اقتلوه. ثم قام على رأسه وقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندرعضوك (٣)، وعندما تكاتفوا على سعد. قال قائل فيما روى البخاري: " قتلتمسعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله (٤)، وبعد ذلك قال سعد لعمر في خلافتهبعد وفاة أبو بكر " والله لقد كرهت جوارك (٥) "، وخرج سعد مهاجراً إلى الشام ولم يلبث إلا قليلاً. حتى قتل. وقيل: إن الجن هم الذين قتلوه. (٦) !!

وبمن نفتدي بخلافة أبي بكر رضي الله عنه. أم بقول علي بن أبي طالبه: " أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً (٧) " ، وفي رواية عند البخاري قال: " ولكنك استبدت علينا بالأمر. وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيباً (٨) " ، أم بوصف عمر فيما بعد لخلافة أبي بكر بأنها فلتة ومن عاد إليها فيجب قتله (٩)، وبمن نفتدي يوم جعلها عمر بعد إصابته شوري بين ستة روى أنهم من أهل الجنة. فقد قال: " إن خالف اثنان لأربعة فاقتلوا الاثنين. وإن خالف ثلاثة فاقتلوا الثلاثة الذين ليس فيهم

(١) الطبري ٢١٠ \ ٣.

(٢) الطبري ٢١٠ \ ٣.

(٣) الطبري ٢١٠ \ ٣.

(٤) البخاري (الصحيح ٢٩١ \ ٢) لبدء الخلق.

(٥) ابن سعد في الطبقات (كنز العمال ٦٢٨ \ ٥).

(٦) راجع ابن كثير وابن الأثير في أحداث السقيفة.

(٧) مروج الذهب \ المسعودي (١ \ ٤١٤).

(٨) البخاري (الصحيح ٥٦ \ ٣) ك المغازي.

(٩) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٥٩ \ ٢٣) وابن أبي شيبة (كنز العمال ٦٤٩ \ ٥)، الطبري (٢٠٠ \ ٣).

الصفحة ١٣٠

عبد الرحمن بن عوف (١) بمن نفتدي بمن يأمر بقتل أهل الجنة أم بمن بقي من أهل الجنة. وما رأي المسلم لو سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمريقول: اقتلوا أهل الشورى الذين روى بأنهم من أهل الجنة. فأبي رضا وأياجماع في الشورى، وكيف يكون مختاراً من تهدد بالقتل؟ وبمن نفتديبعثمان بن عفان أم بالذين خرجوا عليه وهم صحابة. وفيهم من ألب عليه.

وفيهم من قال: " اقتلوا نعتلاً فقد كفر " وفيهم من كان يلعنه كما سنبين ذلك فيحينه... بمن نفتدي بأمر المؤمنين عائشة رضي الله عنها أم بالناكثين وفيهم صحابة. أم بالقاسطين وفيهم صحابة. أم بالمارقين وفيهم صحابة. أم بعلي بنأبي طالب ومن معه وهم صحابة. بمن نفتدي. بمعاوية ابن أبي سفيان أمبعمر بن العاص وهما من الصحابة؟ من المسؤول عن الدماء التي أريقت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بمدة قليلة. والذين كانوا في صدر المسؤوليةجميعاً من الصحابة، ويبقى السؤال قائماً. هل أوصى الرسول الأكرم لأحدأصحابه بأن يبلغ من بعده. أم ترك الأمة كهباء ضائع في خلاء بعد جهاد طويلفي عالم الحرب والسياسة والنفس. هل تركها لتسنقر بعد ذلك عند أقدام يزيد بنمعاوية ومن على شاكلته. حيث تقطع رؤوس الذين آمنوا وتجلد ظهورهم بكلقسوة وبلا أدنى رحمة. وينتهي الأمر بأن تدخل الأمة في دوائر الذين سبقوهاوتتبع سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع؟ إن الذي يقول بذلك. يكون قد تساهلتساهلاً كبيراً في حق الله وحق كتابه وحق رسوله.

نحن لا نقلل من شأن الصحابة رضي الله عنهم. ولكن هناك حقيقة لا يجب أن نتعمى عنها: هي إن النبي صلى الله عليه وسلم أوجب محبة أصحابه ليطاعتهم لله. فإذا عصوا الله وتركوا ما أوجب محبتهم. فإن النبي لا يجامل أحداً.

لقد قيل. أنه صلى الله عليه وسلم أشاد بالصحابة وأنهم كالنجوم وعلالهدى. وليس معنى ذلك أن أهل الشام على هدى. وإنما بهداهم حاربوا علي بن أبي طالب وأن قاتل عمار بن ياسر على هدى، والصحيح

(١) قصة الشورى الطبري (٣٣ / ٥).

الصفحة ١٣١

في عمار أن الفئة الباغية تقتله. وقال القرآن: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى الأمر الله (١)، وهذا يدل على أنها ما دامت موصوفة بالمقام على البغي. فهيمفارقة لأمر الله. ومن فارق أمر الله لا يكون مهتدياً. فكيف يكون كل واحد منالصحابة على هدى ولا يخطئون والله تعالى يقول لرسوله: (قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (٢)) وقال: (ولقد أوحى إليك وإلى الذين منقبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٣))، فكيف يقول الرسول هذا ونحن نقول الصحابة لا يخطئون؟! إن خير القرون التي جاء ذكرها في الحديث. تصدرها القرن الذي دارت أحداثه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه الأحداث هي شر الأحداث. ففي هذا القرن قتل الحسين.

واجتاحت خيول يزيد المدينة. وحوصرت مكة. وشرب الخلفاء الخمرورارتكبوا الفجور وأريقوا الدماء. وقتل المسلمون وسبي الحرير. واستبعد أبناء المهاجرين والأنصار. وما كان هذا إلا بسياسة من بعض الصحابة وما جرى لإلتحت أعينهم. ولكي لا تختلط الأمور فنحن نعرف هنا ما هي الصحبة.

- تعريف من هو الصحابي:

الصحبة لغة. هي المعاشرة، وتطلق على المعاشرة في الزمن القليلوالكثير. ولذلك يقال صحبت فلانا حولاً وشهراً ويوماً وساعة. وتقع الصحبة بين المؤمن والكافر. كما تقع بين المؤمن والمؤمن. قال تعالى في محاوراة بينمؤمن وكافر: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت الذي خلقك (٤))، وقالتعالى لكفار المشركين (ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عنالدهوى (٥))، وقال سبحانه لهم: (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير

(١) سورة الحجرات: من الآية ٥١.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٤) سورة الكهف: الآية ٣٧.

لكم (١) ،) واسم الصحبة يطلب أيضا بين العاقل وبين البهيمة. فالعرب سمو الحمار صاحبا فقالوا:

إن الحمار مع الحمار مطية * فإذا خلوت به فبئس صاحب

وسمو الجماد مع الحي صاحبا فقالوا في السيف:

زرت هنذا وذاك غير اختيان * ومعى صاحب كتوم اللسان

وأطلقت كلمة الصحابي على كل من أسلم في حياة النبي ولقيه مسلما.

ومن هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون الذين كانوا يعملون على إحداث الاضطراب في المدينة. ومنهم الذين قال فيهم تعالى: (ومنهما الذين يؤذون النبي (٢) ،) وقوله: (ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون (٣) ،) وقوله: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . (٤) (فإذا كان في الصحابة من يبطن الكفر ويظهر الإيمان بنص الكتاب. فكيف يجوز الاقتداء بكل فرد منهم دون أن يوثق بإيمانه ويعرف صحة إسلامه ورسوخ عقيدته.

لقد قال تعالى في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم: (محمد رسول الله الذين معه أشداء على الكفار) إلى قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيم (٥) ،) فقوله تعالى: " منهم " أي لو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين والذين في قلوبهم مرض. أو منهم الذي آمن أولا ثم أشرك وكفر كما في قوله تعالى: (إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى) إلى قوله تعالى: (ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم

(١) سورة سبأ: الآية ٤٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٤.

(٥) سورة الفتح: الآية ٢٩.

بسيماهم (١) ،) أو منهم الذي آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك. ومن أهل الإفك من هو صحابي بدري. وقد قال تعالى: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢) ،) فأمثال هؤلاء لا يشملهم وعد المغفرة والأجر العظيم الذي وعد الله في صدر الآية.

وقال تعالى: (إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق أيديهم فمننكث فإنما ينكث على نفسه(٣))، فمن ينكث لا معنى للقول بأن له عند الله أجرا عظيما. ولقد دلت الحوادث أن هناك من نكث بيعته. وبالجملة الصحابة ناسكغيرهم - مع فضل الصحبة - فيهم العدول الثقة والقادة الهداة. وشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مالك. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد: " هؤلاء أشهد عليهم " فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ألسنا يا رسول الله إخوانهم. أسلمنا كما أسلموا.

وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بلى ولكن لأدري ما تحدثون بعدي " فبكى أبو بكر ثم بكى ثم قال: ائنا لكائنون بعدك.(٤) !

لقد كان في الصحابة أعظم الرجال في تاريخ البعثة إذ لم يكن في تاريخ الإنسانية منهم عبدة بن الحارث. وعمير بن أبي وقاص. وعائل بن أبي البكير.

ومهجع مولى عمر بن الخطاب. وصفوان بن بيضاء. ومبشر بن عبد المنذر.

وسعد بن خيثمة. وحارثة بن سراقة. وعمير بن الحمام بن الجموع. ورافع بنالمعلي. ويزيد بن الحارث. وغير هؤلاء من أبطال بدر. وحمزة بنعبد المطلب. وعبد الله بن جحش. ومصعب بن عمير. وشماس بن عمر.

والحارث بن أنس وعمر بن معاذ. وعمار بن زياد بن السكين، وعمرو بن

(١)سورة محمد: الآية ٣٠.

(٢)سورة النور: الآية ٢٣.

(٣)سورة الفتح: الآية ١٠.

(٤)موطأ مالك كتاب الجهاد ص ٣٧١.

الجموح، وخلاد بن عمر بن الجموح، وعتبة بن الربيع، ومالك بن سنان والدأبي سعيد الخدري. وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر. وأويس بن ثابت، وغيرهؤلاء من شهداء أحد. وأبو ذر الغفاري. وعمار بن ياسر. وأبو أيوب الأنصاري. وخزيمة بن ثابت. وسلمان الفارسي. وأبو سعيد الخدري. وزيد بنأرقم، وبريدة الأسلمي، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بنعباس، والمقداد وأبو الهيثم التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، والبراء بنعازب. وزيد بن صوحان، وحذيفة بن اليمان، وعمران بن حصين، وأبو رافع مولى رسول الله.

وغير هؤلاء من الصحابة العظام، وفي الصحابة من نكث ومن مرق ومنغى. وفيهم من لعبت به الأهواء، وفيهم من خرج عن الحق، وفيهم من رجعليه. والنفاق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. لم ينتهي بموته. ولمينقطع بمجرد انقطاع الوحي. ومن قال بأن النفاق قد انتهى بعد موت الرسول.

فعلية أن يقول لنا. هل كانت حياة الرسول سبياً في نفاق المنافقين. وموته سبياً في إيمانهم وعدالتهم، وحتى صاروا أفضل الخلائق بعد الأنبياء. كيف انقلب تدواثرهم وحقائقهم بعد وفاته. وأصبحوا ثقلاً مع القرآن كما قال البعض. إن في الكتاب العزيز وسنة النبي المطهرة ما يثبت بقاء المنافقين على نفاقهم بشهادة حذيفة رضي الله عنه وسنين ذلك في موضعه. لقد كان النبي وهو بين أصحابه يود أن يلقى إخوانه كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وددت أني رأيت إخواني - قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد (١) "، وفي رواية: " وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني أنا إليهم بالأشواق (٢) " ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: " مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم

(١) رواه مسلم (الخصائص الكبرى للسيوطي ٢٦٠ \ ٢).

(٢) رواه أبو يعلى وأبو الشيخ عن أنس. وابن عساکر عن البراء (كنز العمال ١٨٤ \ ١٢) رواه أحمد بلفظ " وددت أني لغيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني (كنز العمال ١٦٤ \ ١٢).

الصفحة ١٣٥

آخره (١) " ، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحصر الخبر في جهة. لقد أقام الحجة وبلغ عن ربه وهو في شوق إلى إخوانه وربما يكون عندهم الخير كما كان في عهده صلى الله عليه وسلم. فالمقياس الحقيقي لا يكون أبداً بالمتاريف والشعارات. وإنما باقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم. فهنا وهنا فقط يكون الخير. ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة. قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس خير؟ قال: أنا ومن معي. فقيل له: ثم من؟

قال: الذي على الأثر. قيل له: ثم من يا رسول الله؟ قال أبو هريرة: فرفضهم رسول الله. (٢)

إن الذين مع النبي هم الذين لن يقال لهم عند الحوض سحقا سحقا.

لأنهم بدلوا وغيروا وارتدوا بعده كما في الأحاديث الصحيحة. روى البخاري يوم مسلم: " أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني. ثم يحال بيني وبينهم (٣) " ، وفي رواية " ليردن على الحوض رجال ممن صحبني ورآني فأقول أي رب أصحابي أصحابي. فليقالن إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (٤) " ، وفي رواية: " فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا. (٥) "

وقوله صلى الله عليه وسلم: " سحقا " أي بعد بعدا ومكان سحيق

(١) رواه الإمام أحمد عن أنس ورواه الترمذي وقال: حسن غريب. وقال في كشف الخفاء:

رواه الترمذي وأبو يعلى والدارقطني والخطيب وابن حبان في صحيحه وقال ابن حجر:

حديث حسن له طرق (الفتح الرباني ٢٠٣ \ ٢٣، كشف الخفاء ٢٥٨ \ ٢).

(٢) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني الحديث صحيح الإسناد (الفتح ٢١٩ \ ٢٣) وقال فيالفتح رواه مسلم بإسنادين.
(٣) البخاري (الصحيح ك. الدعوات باب الصراط ١٤١ \ ٤) مسلم (الصحيح ٥٣ \ ١٥) لهالفضائل ب حوض نبينا صلى
الله عليه وآله.

(٤) رواه أحمد (١٩٥ \ ١١ الفتح الرباني) ومسلم (الصحيح ٦٥ \ ١٥) ك الفضائل ب حوضنبينا صلى الله عليه وآله.

(٥) رواه مسلم (الصحيح ٥٦ \ ١٥) ك الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله.)

الصفحة ١٣٦

بعيد. فيه دليل على أنهم ليسوا عصاة. لأن العصاة يشفع لهم. وفي هؤلاء وغيرهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثلي كمثل رجل استوقد ناراً.

فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقمن في النار يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمهن فيها. فذلك مثلي ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار. هلم عن النار! هلم عن النار! فتغلبوني فتقتحمون فيها. (١)

إن الدعوة الخاتمة جاءت لتقييم حجتها وتذكر الناس بمخزون الفطرتوتدعوهم للتفكر في الآيات من حولهم وتسوقهم إلى الصراط المستقيم كيبنفادوا العقبات التي وضعها الشيطان ومؤسساته على الأرض وفي الأهواء. إنالشيطان دق أوتاد خيمة مهمتها عبادة السلف الصالح. ولقد سقط العديد داخلهذه الخيمة منذ فجر التاريخ وعلى هذه العبادة نشأت عبادة الأوثان. وعبادةالسلف كانت سببا أساسيا في منع الباحثين والدارسين عن سلوك طريق العلم.

لقد وجد الباحثون أن السلف كان ينتقد بعضه بعضا. بل يقتل من خالفه فيالرأي من معاصريه. فلما جاء الخلف رفع راية تحرم النقد ولو كان للنقد جذورفي كتاب الله. وعندئذ أغلق الباحثون والدارسون على أنفسهم الأبواب. وطويتصفحات العلم والمعرفة. وجرت الفتنة فلم تصب الذين ظلموا خاصة. بلتعدتهم إلى الحاضر والمستقبل. تلقى بالتعصب الذميمة وتهلك ضحاياها في كل عصر. وتشد في كل وادي آلهة جدد.

وما زال السؤال يجري: هل أوصى النبي صلى الله عليه وسلم لأحدأصحابه بأن يبلغ من بعده ويسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. هل صرحالرسول باسم الخليفة من بعده؟ أم كانت هناك رموز وإيماء وكناية وتعريض.

وكان للرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك عذر لا نعلمه نحن. خشية منفساد الأمر أو إرجاف المنافقين. أم أن الرسول لم يوص ولم يصرح ولم تكنهناك رموز وإيماء. وترك أمته كي يسوقها معاوية وعمر بن العاص وبسر بن

(١) رواه البخاري كتاب الدعوات (الصحيح ١٢٧ / ٤) وأحمد والبيهقي والترمذي عن أبيهريرة. واللفظ لأحمد (الفتح الرباني ٢٨٤ / ٢١، وكنز العمال ١٧٧ / ١).

الصفحة ١٣٧

أرطأة وأبو الأعور السلمي ومروان بن الحكم والجماح بن يوسف؟ وإذا كانتالإجابة: نعم تركها لهؤلاء الصحابة العدول التي إذا أصابوا لهم أجران وإذا أخطأوا فلهم أجرا واحد. فنقول: وهل تستقيم مقدمات بدر وأحد مع هذاالنتيجة؟

الله. وفي النهاية جعله مختاراً. له أن يختار أي طريق يسلك. وعلى سلوكه سترتب الثواب والعقاب يوم القيامة. فالفائز هو فقط من احترم المخزون الفطري وما زوده الله به واتبع الهدى الذي جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام، فهذا الهدى الذي جاء به الأنبياء يرشده ويسوقه إلى الصراط المستقيم الذي يتقن الشيطان في كل عصر ومكان في وضع العراقيل عليه. فالهدى يتعامل مع كل حالة وفقاً للزمان والمكان. ولهذا تتابع الرسل عليهم السلام في كل زمان ومكان من أجل أن يسدوا منافذ الشيطان الذي أمهل الله حتى يوم الوقت المعلوم. ومن أجل هذا تحتم على من أراد الفوز بالنجاة والثواب أن يقف تحت ولاية الله ورسوله. لأنها الولاية الوحيدة التي في ظاهرها وباطنها الرحمة وتقود من استظل بها إلى ساحة القرب يوم القيامة، ومن فضلها سبحانه على خلقه أنه حذر من اتخاذ الشيطان ولياً. ونهى عن مودة اليهود والنصارى - يعني نهى المحبة والاتحاد معهم - لأن هذا الطريق بكل ما عليه منرموز يصب في النهاية في ساحة الخاسرين.

الصفحة ١٣٩

والقرآن الكريم أخبر بولاية الله وأن الأمر كله إليه سبحانه في أكثر من موضع منه قوله تعالى: (أم اتخذوا من دونه أولياء فإله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) (١) الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير (١) ، قال المفسرون: إنه تعالى ولي تتحصر فيه الولاية. فمن الواجب على من يتخذه ولياً. أن لا يتعداه إلى غيره. إذ لا ولي غيره. وقوله: (وهو يحيي ويميت) حجة على وجوب اتخاذه تعالى وحده ولياً. لأن الغرض من اتخاذ الولي والتدين له. هو التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة. ولما كان ذلك فإن المثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله. فهو وحده الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم. وعلى هذا فهو الذي يجب أن يتخذ ولياً. وأن لا يلتفت الناس إلى أولياء من دونه لأنهم أموات غير أحياء ولا يشعرون أياً يبعثون.

وقوله تعالى: (وهو على كل شيء قدير) حجة أخرى، على وجوب اتخاذه تعالى ولياً دون غيره، لأنه من الواجب في باب الولاية. أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤون من يتولاه وأموره. والله تعالى على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه. فهو المالك والقادر على ما ملكه وأقدره عليه. فهو سبحانه الولي لا ولي غيره تعالى، وقوله سبحانه: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله)، حجة أخرى على كونه تعالى ولياً لا ولي غيره، فالاختلاف ربما كان في عقيدة في أن الإله واحد أو كثير، أو كان في نبوة أو إمامة. وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة.

أمور المعيشة. فاختلافات الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون.

والله تعالى هو المالك لكل شئ. لا مالك سواه. فكل شئ بوجوده وآثار وجوده قائما به تعالى. فله سبحانه الحكم والقضاء بالحق قال تعالى: (كل شئها لك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون(١))، وقال (والله يحكم ما يريد(٢))، فالولي الذي يعبد يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه،مصلحا لما فسد من شؤون مجتمعهم، سائقا لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين. والحكم في ذلك كله إلى الله عز وجل. فهو الولي الذي يجب أن يتخذ وليا لا غير.

وبعد أن أقام الله الحجج في الآية أمر النبي أن يقول لهم: (ذاك الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب) إعلاما لهم بأنه تعالى هو الولي معترفا له بالربوبية التي هي ملك التدبير راجع إلى حكمه في كل واقعة تستقبل الإنسان في مسير حياته ففي هذا كله تكمن الإنابة وتظهر (عليه توكلت وإليه أنيب أنيب) أي أرجع في جميع أموري إليه. تكويننا وتشريعنا. (فاطر السماوات والأرض. جعل لكم من أنفسكم أزواجا...)، أي أنه تعالى موجب الأشياء وفاطرها من كتم العدم إلى الوجود. وقد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها. وهذا خلق وتدبير. وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج، وبصير لما يعمل به خلقه من الأعمال. وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض! وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق ممن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير. فهو الرب المدبر للأمور ليس مثله شئ.

إن الله هو الولي. (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون(٣))، إن الله هو الولي: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور(٤))، إن الله هو الولي: (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي

سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢)سورة المائدة: الآية ١.

(٣)سورة السجدة: الآية ٤.

(٤)سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

المتقين(١))، (ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا(٢))، إنه سبحانه مصدر جميع السلطات وإليه تنتهي جميع القرارات. وهو مصدر الخلق والتكوين وهاج الحياة ومقوماتها فكما أن له سبحانه الخلق والإبداع، كذلك له الأمر والنهي.

- ٣ ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لقد شرع الله ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل ولاية الرسول على المؤمنين شرط في الإيمان بالله. قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله (٣))، فالإخلاص لله في دينه خطوته الأولى لا تكون إلا بحبه تعالى. ومن أراد أن يخلص في عبوديته على الحب فعليه أن يتبع هذا الشريعة التي هي مبنية على الحب، ولا حب حقيقي إلا في اتباع سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأخذ عنه والتأسي به. فمقدمة ولاية الرسول هي الحب الذي هو في الحقيقة الوسيلة الوحيدة لارتباط كل طالب بمطلوبه وكل مریدبمراده. فالواجب على من يدعي ولاية الله بحبه. أن يتبع الرسول حتى ينتهيك إلى ولاية الله له بحبه. والآية ذكرت حب الله دون ولايته. لأنه الأساس الذي تبني عليه الولاية. وإنما ذكر حب الله تعالى فحسب لأن ولاية النبي والمؤمنين تؤول بالحقيقة إلى ولاية الله.

وباب الحب هنا إعجاز بخلق الباب أمام المتأخرين في دوائر الرجس والبخس ويشرهم بالعذاب الأليم إذ لم تخضع قلوبهم وتخضع وولاية الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان خيطها الأول يبدأ من القلوب. فإن هذا الخيط يمر في عالم المشاهدة حيث العلم وبيان المعارف الإلهية التي أنزلها الله للناس.

لتدخل الولاية من باب الحجة. قال تعالى: (وأنزّلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

(١) سورة الجاثية: الآية ١٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

الصفحة ١٤٢

نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون (١) قال المفسرون: إن القصد بنزول هذا الذكر إلى عامة البشر. وإنك والناس في سواء. ولقد اخترناك من بين الناس لتوجيه الخطاب وإلقاء القول. ولا نملك بهذا قدرة غيبية أو إرادة تكوينية إلهية. بل الأمرين:

أحدهما: أن تبين للناس ما نزل تدريجياً إليهم. لأن المعارف الإلهية لا ينالها الناس بلا واسطة فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين والتعليم. وهذا هو غرض الرسالة. ينزل الوحي فيحمله الرسول. ثم يؤمر بتبليغه وتعليمه وتبيينه. والثاني: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصروا إن ما جئت به حق من عند الله.

فالأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك على مدى حياتك مناليتم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة، وغير ذلك كانت جميعاً أسباباً قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة. لكن الله أنزل إليك ذكراً تتحدى به على الجن والإنس. مهيمناً على سائر الكتب السماوية. والتفكر فيك نعم الدليل الهادي. على أنه ليس لك فيما جئت به صنع، ولا لك من الأمر شيء. وإن الله أنزله بعلمه وأيدك لذلك بقدرته.

فالرسول الله صلى الله عليه وسلم له الولاية في أن يبين للناس ويربي الأمة ويحكم فيهم ويقضي في أمرهم. لأن الله الذي أنزل الكتاب. علمه أحكامه وشرائعه. والرسول بهذه الولاية يبيث الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة لتكتمل للبشرية ويستقيم حالهم في دنياهم وأخراهم. فيعيشون سعداء ويموتون سعداء.

ولأنه صلى الله عليه وسلم كذلك أوجب الله الأخذ عنه والتأسي به وفرض طاعته طاعة مطلقة. لأن طاعته طاعة لله. قال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (ص))، ومن اتخذ الرسول مولى له. له يصل إلى الكمال في الحب والطاعة إلا إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه قال تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

الصفحة ١٤٣

أنفسهم (١))، روى البخاري عن أبي هريرة. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرعوا إن شئتم " النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم (٢) " ، وقال المفسرون: إنه أولى بهم منهم.

ومعنى الأولوية. هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أدنى منه.

فالمحصل: إن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة. فالنبى أولى بذلك من نفسه. ولو دار الأمر بين النبى وبين نفسه فيشئ من ذلك. كان جانب النبى أرجح من جانب نفسه. وعلى هذا فإذا توجهشئ من المخاطر إلى نفس النبى. فليقله المؤمن بنفسه ويفده نفسه. وليكن النبى أحب إليه من نفسه. وأكرم عنده من نفسه. ولو دعت نفسه إلى شئ والنبى إلى خلافه. أو أرادت نفسه منه شيئاً وأراد النبى خلافه. كان المتعين استجابة النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته وتقديمه على نفسه.

فمن قدم نفسه على النبى فهو في الحقيقة غير مؤمن حتى يقدم النبى على نفسه وبحسب إيمانه فقط من وقت تأخره وتقدم النبى. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه خاض هذه التجربة. فيما رواه البخاري عن عبد الله بن هشام قال:

كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر. فقال له عمر: يا رسول الله أنت أحب إلي من كل شئ إلا من نفسي. فقال النبى: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبى: " الآن يا عمر (٣) " ، فتقديم النبى على النفس والولد والوالد والقبيلة والحزب وأي مصلحة هو مفتاح الإيمان الحقيقي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده

والدهوالناس أجمعين(٤) " ، ولأن النبي جعل نفسه هي نفس علي ابن أبي طالبرضي عنه في قوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا

(١)سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢)تفسير ابن كثير ٤٦٨ / ٤.

(٣)البخاري ك الإيمان والنذور (الصحيح ١٤٩ / ٤) وتفسير ابن كثير ٤٦٧ / ٤.

(٤)رواه أحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس (كنز العمال ٣٧ / ١).

الصفحة ١٤٤

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم(١) ، روي عن جابر قال: " أنفسنا وأنفسكم " رسولالله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب (٢)تقديم خط دائرة الطهر لأصحاب الكساء والمباهلة الذين فرض الله مودتهم والصلاة عليهم وجعل لهمسهما مع سهمه وسهم رسوله في مال الله، فتقديم هؤلاء، هو في حقيقة الأمرتقديم للرسول. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتتأكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله. وعترتي أحب إليه من عترتهوزيتي أحب إليه من ذريته.(٣) "

وولاية الله ورسوله. إذا كانت في أعمال المؤمنين. لا يحق للمؤمنين أنيعتبروا أنفسهم أصحاب الاختيار. وكيف يكون المؤمن صاحب اختيار في دائرتوليها الله ورسوله. إن الله ولي عبده المؤمن. لأنه يلي أمره ويدبر شأنه. فيهديهإلى صراطه المستقيم. ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي. وينصره فيالحياة الدنيا وفي الآخرة. المؤمن في دائرة ولاية الله ورسوله. لا يرى لغير اللهاستقلالاً في التأثير. ويقصر الملك والحكم فيه تعالى. فلا يخاف إلا إياه أو مايحب الله ويريد أن يحذر منه أو يحزن عليه... قال تعالى: (وما كان لمؤمنولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومنيعصي الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.(٤))

والخلاصة: ذكر سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم من الولاية التيخصه الولاية التشريعية. وهي القيام بالتشريع والدعوة وتربية الأمة والحكم فيهموالقضاء في أمرهم، قال تعالى: (إننا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بينالناس بما أراك الله(٥))، وقال تعالى: (وا إنك لتهدى إلى صراط مستقيم(٦))،

(١)سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٢)تفسير ابن كثير ٣٧١ / ١.

(٣)رواه الطبراني والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي يعلى عن أبيه (كنز ٤١ / ١).

(٤)سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٥)سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٦)سورة الشورى: الآية ٥٢.

وللنبي صلى الله عليه وسلم الولاية على الأمة في سوقهم إلى الله والحكمفيهم والقضاء عليهم في جميع شؤونهم وله عليهم الإطاعة المطلقة. فترجعولايته إلى ولاية الله سبحانه بالولاية التشريعية. ونعني بذلك أن له صلى الله عليه وسلم التقدم عليهم. بافتراض الطاعة. لأن طاعته طاعة لله. فولايته ولاية الله كمايدل عليه بعض الآيات السابقة كقوله... (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، الآية.

وقوله: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) الآية. وهذاالمعنى من الولاية لله ورسوله هو الذي تذكره الآية للذين آمنوا بعطفه على اللهورسوله في قوله تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمونالصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون(١)) ، فالولاية في هذه الآية واحدة. هي لله سبحانه بالأصالة. ولرسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا بالتبع وبإذن منهتعالى.

ولما كان الذين آمنوا لهم الولاية بالتبع لرسول الله وبإذن من الله. فإنلذين آمنوا الذين يحملون الولاية شروط أهمها أن يكون فيه نص إن الرجس لايعرف له طريقا وإن الطهارة له رداء إلا أنه سيتعامل مع كتاب الله الذي لا يمسهإلا المطهرون والذي يكون فيه نصوص بأنه على علم بأحكام القرآن وشرائعه.

ولأنه بعلمه سيرفع الاختلاف بين الناس. وأن يكون هذا العلم قد أخذ من رسولالله، فعن علي بن أبي طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أولى الناسبالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به. ثم تلى قوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيمالذين اتبعوه وهذا النبي(٢)) ، وقال صلى الله عليه وسلم: " إن للقرآن مناراكمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى عالمه(٣) " ، وأن تكون فيهنصوص تثبت بأن يتمتع بقوة العفة والشجاعة والحكمة. لأن من يمتلك هذاتكون لديه ملكة العدالة.

(١)سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٢)اللالكائي (كنز العمال ٣٧٩ / ١).

(٣)رواه الطبراني (مجمع الزوائد ١٨٧ / ١).

ومن أهم الشروط أيضا أن تكون حرمة جزء لا يتجزء من الدعوة. بمعنأن أخطر أعداء الدعوة هم المنافقون. فيجب أن يكون على علم بحركتهم. ولايتحقق هذا العلم إلا بنص قاطع بأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. فالإخبار بأن المنافق يبغضه فيه أن النص من عند الله العليم بذات الصدور. وفيهأن سياسته تحت ضوءها ستظهر جحافل النفاق. فإذا قطع الطريق على سياستهفحدث ولا حرج. لأن النفاق عاجلا أو آجلا سيشق طريقه إلى سنن الأولين.

فأخذ بذيلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. فالإخبار بأن حبه رداء على المؤمن حجة على المنافق في نهاية الطريق. وإن عذاب الله أليم شديد.

باختصار يجب أن تكون فيه نصوص صريحة صحيحة متفق عليها عند أهل القبلية. تبين أن الله اختاره في مواطن وأن الرسول أعطاه الولاية. وأن تكون حركته تسير مع أخبار الرسول بالغيب عن ربه سيرا واحدا. بمعنى أن الرسول قد أخبر بأن أمته ستفترق وأنها ستتبع سنن اليهود والنصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع. وأمة اليهود وضعت أول بذور الافتراق يوم اتخذوا العجل وكادوا أن يقتلوا نبي الله هارون. وظل خط العجل يعمل من بعد موسى وهارون عليهما السلام. فإذا كان هذا الشذوذ سينتقل إلى الأمة بصورة أو بأخرى. فلا بد أن تكون هناك نصوص قاطعة. بأن حركة ولي رسول الله في أول الطريق هي نفسها حركة هارون في أول الطريق. وعلى هذا يتم التطابق بين أمم استخلفها الله لينظر كيف يعملون. يتم التطابق بين فعل ولي الله وهارون وبين حركة أمة فتية أخبر رسولها بالغيب عن ربه أنها على أثر الماضين سائرة إلا من رحم الله. وعلى هذا النص إذا وقفنا في آخر الطريق. ونظرنا إلى أول الطريق. سنعلم أن النص حقوسنرى شعاع النور رغم السحب الداكنة.

- ؛ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هذا العنوان وضعت عند ما لم أجد أحدا غير علي بن أبي طالب ينطبق عليهما ذكرت سابقا. فعلي رضي الله عنه فيه نصوص قاطعة. قرآن يفسره حديث.

وحديث يشهد للحديث الذي فسر القرآن. وحركة تاريخ تشهد للحديث وللنص

الصفحة ١٤٧

القرآني. وأمام القرآن والحديث والتاريخ والواقع لم يجد الباحث إلا أن يكتب هذه الحقيقة. وما وجدناه من نصوص سنقدمه على امتداد هذا البحث. كل في موضعه.

أولا - علي بن أبي طالب والعلم:

قدمنا فيما مضى كيف أنه من أهل الكساء. ومن الذين باهل بهم النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأنه كنفس النبي وأول من أسلم وأول من صلى معه صلى الله عليه وسلم. أما ما ورد في علمه فإن البداية عندنا من قولهن تعالى: (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (١))، فهذه الآية إشارة إلى طوفان نوح. والجارية هي السفينة.

والمحمول في الحقيقة أسلاف الدين في السفينة. لكون الجميع نوعا واحدا ينسب حال البعض منه إلى الكل. وضمير (لنجعلها) للحمل باعتبار أنه فعله.

والمعنى: أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمرا تتذكرون به. وعبرتمعتبرون بها وموعظة تتعظون بها: وقوله تعالى: (وتعيبها أذن واعية) المرادبوعي الأذن لها. تقريرها في النفس وحفظها فيها. لتترتب عليها فائدتها وهياتذكر والاتعاض. وفي الآية إشارة إلى الهداية الربوبية.

وروى الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم عن علي بن أبيطالب (٢)، وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت ربي أنيجعلها أذن علي. قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت عن رسول الله شيئاًفنسيته. (٣)

وانظروا الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بردة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١)سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٢)كنز العمال ١٧٧ / ١٣.

(٣)تفسير ابن كثير ٤١٣ / ٤.

الصفحة ١٤٨

وسلم لعلي: إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك. وأن تعي وحقلك أن تعي. فنزلت هذه الآية: (وتعيبها إذن واعية).

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. يا علي. إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي. فأنزلت هذه الآية:

(وتعيبها أذن واعية) فأنت أذن واعية لعلمي.

وهذا الحديث روي من عدة طرق. بلغت ستة عشر حديثاً. فإذا كانتالبداية مع آية تدل على أن ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم لا ينسأه. فإندخوله على النبي لأخذ العلم أمر لا جدال فيه، روى الإمام النسائي عن علي بنأبي طالب. قال: كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتية فيها، فإذاأتيتة استأذنت إن وجدته يصلي فتتحنح دخلت. وإن وجدته فارغاً أذن لي...

وفي رواية - كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليلومدخل بالنهار. (١)

وعلي رضي الله عنه، تربي في بيت النبوة. فالذي سهر على تربيته هو النبيصلى الله عليه وسلم. وأصح ما ورد من الأخبار. إن النبي أخذ علياً من أبيهوهو صغير. وأخذ العباس طالباً. ليخففاً عن أبي طالب ثقلهم. ومن بيت النبوةشوق علي بن أبي طالب طريق العلم حتى قيل فيه في رواية صحيحة " أفضلناعلي (٢) " ، وشهد أكثر من واحد أن علياً كان أدرى الناس بعد رسول الله بالقرآن.

عن أبي الطفيل قال: قال علي: " سلوني عن كتاب الله فإنه ليس فيه آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل (٢) " ، وعن سليمان الأحمسي.

(١) النسائي باب السهو ٢ / ١٢.

(٢) قال في كشف الخفاء رواه البخاري في التفسير وأبو نعيم عن ابن عباس. والحاكم عن ابن مسعود: ورواه البغوي في شرح السنة عن أنس، ورواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن ابن عباس وعبد الرزاق عن قتادة، وروى البخاري، وأبو نعيم عن عباس قال عمر:

على أقضانا (كشف الخفاء ١٨٤ / ١).

(٣) الطبقات الكبرى ٣٣٨ / ٢.

الصفحة ١٤٩

قال علي: " إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا صادقا (١) " ، وفي رواية: " والله ما تركت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا صادقا (٢) " ، وفي خلافته كان رضي الله عنه يقول: " أسألونيقبل أن تفتقدوني (٣) " قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: قد أجمع الناس كلهم أنه لم يقل أحد من الصحابة ولا أحد من العلماء هذا غير علي بن أبي طالب عليه السلام.

وشهادة النبي لعلي بأنه أكثر أمته علما وردت في أحاديث كثيرة ومنها حديث " أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب " ، الذي رواه ابنعدي عن ابن عباس وابن عساكر عن جابر، والذي تعددت طرقه، فإن القوم ضعفوه ولهم أسبابهم في تضعيف الأحاديث الواردة في علي بن أبي طالب، وكذلك حديث " أنا دار الحكمة وعلي بابها " الذي رواه الترمذي عن علي ورواه بعضهم عن ابن عباس. فلقد قالوا فيه ما قالوا (٤) ونحن هنا نقدم حديثا لا خلاف عليه يشهد لعلي بالعلم والحلم وهذا الحديث.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: وجدت في كتاب أبي بخط يده هذا الحديث: عن معقل بن يسار. قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها: " أوما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلما وأكثرهم علما وأعظمهم علما (٥) " ، فهذا الحديث أثبت سبقه إلى الإسلام. وأثبت له العلم والحلم.

وكفى بهما لإثبات ملكة العدالة.

(١) الطبقات الكبرى ٣٣٨ / ٢.

(٢) تاريخ الخلفاء، السيوطي ١٧٣.

(٣) راجع ابن كثير في البداية والنهاية ٢٥٨ / ٧.

(٤) الحاكم (المستدرک ٤٦٦ / ٢)، ابن حجر في الإصابة (٥٠٩ / ٢)، فالسيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٢٤.

(٥) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ١٣٣ / ٢٣) (مجمع الزوائد ١٠١ / ٩) ورواه ابن جرير عن علي بسند صحيح (١١٤ / ١٣ كنز العمال)، ورواه الخطيب في المتفق عن بريدة (كنز العمال ١٣٥ / ١٣).

ثانيا - أضواء على اختيار الله لعلي:

لقد كان للصحابة مناقب، ولكن مناقب علي بن أبي طالب فاقت جميع المناقب. لأن طرفها الآخر كان الله ورسوله. وكان وراء المناقب هدف من ورائه حكمة سنتركها لفظنة القارئ.

روى الطبراني عن جابر. لما سأل أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم أنبيني لهم مسجدا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليقم بعضكم فيركب فحركها فلم تتبعه. فرجع ففقد. فقام علي. فلما وضع رجله في غرز الركاب وثبت به. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي ارخ زمامها وأبنوا علمدارها فإنها مأمورة. (١)

والذي نشير إليه في هذا الحديث أن الناقة مأمورة. وأن الذي أمرها هو خالقها. وعن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبواب شريعة في المسجد. فقال يوما: سدوا هذه الأبواب إلا باب علي. فتكلم في ذلك الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي. وقال فيها نكلم وأني والله ما سددت شيئا ولا فتحتة. ولكني أمرت بشئ فاتبعته. (٢) وفي رواية عن ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم: " ما أخرجتكم من قبل نفسي. ولا أنا تركته. ولكن الله أخرجكم وتركه إنما أنا عبد مأمور. ما أمرت به فعلت. إن اتبع إلا ما يوحى إلي. (٣) "

(١) رواه الطبراني في الكبير (كنز العمال ١٣٩ / ١٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١١٨ / ٢٣)، وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١١٤ / ٩) ورواه الضياء في المختارة بسند صحيح (كنز العمال ٥٩٨ / ١١) ورواه الحاكم مؤاقره الذهبي (المستدرک ١٢٥ / ٣).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ٦٠٠ / ١١).

وهذا الحديث رواه تسعة من الصحابة (١)، ورغم صحته حكم عليه ابن الجوزي بأنه لا يصح لأنه يعارض حديث ورد في أبي بكر. ولقد تصدى غير واحد من الأئمة لابن الجوزي لتساهله والحكم على الأحاديث الصحيحة بالوضع. وقال ابن كثير: هذا الحديث لا ينافي ما ثبت في البخاري في حق أبي بكر. (٢)

والذي نحب أن نشير إليه في هذا الحديث إن الله هو الذي سعى وهو الذيفتح، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم عند النبي. فجاء علي. فلما دخل علي بن أبي طالب خرجوا. فلما خرجوا تلاوموا، فقال بعضهم لبعض:

والله ما أخرجنا فارجعوا. فلما رجعوا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " والله ما أدخلته وأخرجتكم ولكن الله أدخله وأخرجكم. (٣) "

في هذا الحديث. الله هو الذي أخرج وأدخل. وعن جابر قال: دعارسول الله صلى الله عليه وسلم عليا يوم الطائف، فانتجاه. فقال الناس: لقدطالت نجواه مع ابن عمه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما انتجيتته ولكن الله انتجاه(٤) "، قال في تحفة الأحوازي: ناجاه سارة وخصه بمناجاته. وقوله: " ماانتجيتته " أي ما خصصته بالنجوى. ولكن الله انتجاه: أي. إني بلغتعن الله ما أمرني أن أبلغه إياه. على سبيل النجوى. فحينئذ انتجاه للهولا انتجيتته، وقال الطيبي: كان ذلك أسرار إلهية وأمور غيبية جعله من

(١)نظم المتواتر في الحديث المتواتر / الكتاني ص ١٩٢.

(٢)قال في تحفة الأحوازي. حكم ابن الجوزي على هذا الحديث بالوضع. لأنه يعارضحديث أن النبي أمر بسد الأبواب إلا باب أبي بكر. ورد ابن حجر عليه وقال: لحديثعلي طرق كثيرة بلغت بعضها حد الصحة وبعضها مرتبة الحسن (التحفة ٢٣٧ / ١٠)وعاب على ابن الجوزي لتساهله في وضم بعض الأحاديث بالوضع الشيخ ابن الصلاحوقال: لا يعبا بما قاله ابن الجوزي. كما عقب عليه الحافظ السيوطي بكتاب أسماهانكت البيدعات في الرد علي الموضوعات. (البداية والنهاية ٣٤٢ / ٧).

(٣)رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١١٥ / ٩).

(٤)رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٩ / ٥) وأورده ابن كثير في البداية (البداية ٣٥٧ / ٧).

الصفحة ١٥٢

خزانها (١)، وفي رواية عند الطبراني أن الذي قال: طالت نجواه مع ابن عمه.

أبو بكر رضي الله عنه. فعن جندب بن ناجية. قال أبو بكر: يا رسول الله. قدطالت مناجاتك عليا منذ اليوم. فقال رسول الله: ما انتجيتته ولكن الله انتجاه(٢) "

وفي هذا الحديث أيضا الله هو الذي انتجاه، وعن أبي هريرة، أنرسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية رجلا يحب اللهورسوله يفتح الله على يديه. قال عمر بن الخطاب ما أحببت الإمارة إلا يومئذ.

قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها. فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثموقف ولم يلتفت. فصرخ. يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتىشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإن فعلوا ذلك. فقد منعوا منكدماءهم وأموالهم لا يحقها على الله (٣)وروى ابن جرير بسند صحيحوالضياء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر فسار بالناس فانهزم حتى رجع إليه. وبعث عمر فانهزم بالناسحتى رجع إليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسولهيفتح الله له ليس بفرار الحديث (٤)، وروى ابن كثير في البداية: " بعث النبيصلى الله عليه وسلم أبو بكر فلم يكن فتح. ثم بعث عمر فلم يكن فتح...

الحديث "، وقال رواه ابن إسحاق والبيهقي (٥)، ومن بعض الروايات يستفاد أنهبعد هزيمة أبي بكر وعمر رضي

الله عنهما. وعندما سمعا قول الرسول

(١) تحفة الأحوازي (٢٣١ / ١).

(٢) رواه الطبراني (كنز العمال ١٣٩ / ١٣).

(٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٣٢ / ٢٣) ورواه الإمام مسلم بلفظ " رجل يحب لله ورسوله ويحبه الله ورسوله (الصحيح ١٧٦ / ١٥)، ورواه الترمذي مختصراً عن سعد وحسنه (تحفة الأحوازي ٢٢٩ / ١٠).

(٤) ابن جرير والبيهقي بسند صحيح ورواه ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه والبزار والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الدلائل (كنز العمال ١١٢ / ٣) (البداية والنهاية ٣٣٧ / ٧).

(٥) البداية والنهاية ١٨٦ / ٤.

الصفحة ١٥٣

صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: " لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه لله ورسوله "، أراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أن ينال كل واحد منهما هذاه المرتبة، وهذا أمر طبيعي فالجميع يريدون إرضاء ربهم ونيل رضاه، ولكن الرسول أعطاها لعلي. ورغم هذا فإن فضل الذين لم يأخذوا الراية لا يستطيع أن ينكره أحد.

ومن الروايات التي تثبت أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد كررا المحاولة لأخذ الراية ما ثبت في إصحاح كما ذكر ابن كثير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: " لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه لله ورسوله بفرار يفتح الله على يديه "، فبات الناس يدركون أيهم يعطاها حتى قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. فلما أصبح أعطاها علياً ففتح الله عليه. (١) فهذه الرواية تثبت أن عمر قد أراد أن يقوم بالمحاولة مرة أخرى. بعد المحاولة الأولى التي وردت في الصحاح عن بريدة بن الحصيبي قال: حاصرنا خيبر. فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له. ثم أخذه من الغد عمر فخرج ولم يفتح له. وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إني دافع اللواء غدا إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

لا يرجع حتى يفتح له... " الحديث (٢).

فالحديث يبشر بأمرين:

الأول: إن الراية غدا سيأخذها رجل يحب الله ورسوله. ولهذا ود كل فرد أن يكون هذا الرجل. حتى أنهم تسارعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الراية فهزها. ثم قال: " من يأخذها بحقها. فجاء فلان!! فقال: أنا، فقال للنبي: امض. ثم جاء رجل آخر! فقال: أنا. فقال: امض. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي كرم وجهه محمد لأعطينها رجلاً لا يقر. فجاء

(١) أخرجه مسلم (البداية والنهاية ٣٣٧ / ٧).

(٢) أخرجه أحمد والنسائي (البداية والنهاية ٣٣٨ / ٧).

الصفحة ١٥٤

علي فانطلق حتى فتح الله عليه .(١)

والثاني: فإن الحديث بشر بالنصر وكان لهذا التبشير أثره على الصحابة، فعن أبي بريدة بن الخطيب قال: فبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غدا (٢)، فالبشارة الأولى والثانية كانت لهدف من ورائه حكمة وفيهما إعجاز حيث أخبر النبي بفتح ما زال في عالم الغيب.

وعلى الرغم من أن الحديث الماضي يخبر صراحة أن الله تعالى يحب عليا. إلا أن بعض علماء الحديث ضعف حديث الطير، فعن أنس قال: أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طائر. فقال النبي: اللهم انتني بأحب الخلق إليك وإلي يأكل معي من هذا الطير. فدخل علي بن أبي طالب. فقال:

اللهم والي (٣) فهذا الحديث كما قال ابن كثير: صنف الناس فيه وله طرق متعددة. ورواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفسا. وقد جمع الناس في هذا الحديث مصنفات منهم أبو بكر بن مردويه والحافظ أبو الطاهر محمد بن أحمد ورأيت فيهم مجلدا في جميع طرقه وألفاظه لابن جرير الطبري (٤)، فعلى الرغم من كل هذا وضعه ابن الجوزي في الموضوعات ورفضه ابن كثير. لسبب واحد يكمن في القلب ولا يستند على أي أساس علمي قال ابن كثير في هذا السبب: وبالجملة ففي القلب من صحة هذا الحديث وإن كثرت طرقه (٥)، وفي هذا الحديث قال

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٥١ / ٦)، وقال ابن كثير رواه أحمد وأبو يعلى (البداية ٣٣٩ / ٧).

(٢) رواه أحمد (البداية ٣٣٨ / ٧).

(٣) رواه الترمذي وقال حديث غريب وقال: وقد روى من غير وجه عن أنس وعيسى بن معمر والسدي إسماعيل بن عبد الرحمن وسمع عن أنس بن مالك، ورأى الحسين بن علي، وثقه شعبة وسفيان الثوري وزائده ووثقه يحيى بن سعيد القطان (الجامع ٦٣٦ / ٥) وقال الهيثمي رواه البزار والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة (الزوائد ١٢٦ / ٩) ورواه ابن عساکر عن ابن عباس وعن أنس بطرق مختلفة ورواه ابن النجار (كنز العمال ١٦٧ / ١٣).

(٤) البداية والنهاية ٢٥١ / ٧.

(٥) البداية والنهاية ٢٥١ / ٧.

صاحب تحفة الأحواذي: الحديث له طرق كثيرة كلها ضعيفة. وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وأما الحاكم فأخرجه في المستدرک وصححه، وحديث الطير له طرق كثيرة جدا أفردتها بمصنف ومجموعها يوجب أن يكون للحديث أهل (١).

ثالثا - أضواء على قيادة علي:

مما سبق علمنا أن اختيار الله تعالى لشخص علي بن أبي طالب قد حدث في أماكن عديدة على امتداد الرسالة المحمدية. ففي المسجد سد النبي جميع الأبواب إلا باب علي. وعند بناء قباء لم تسر الناقة إلا بعلي. وفي ميدان

من ميدان الحرب ناجى رسول الله عليا. وفي منزل الرسول أخرج الله أناس وأدخل عليا. وفي خير أخذ الراية عليا. فهذه الأحداث تدل حركتها على أن هناك ضوءا محددًا على شخص محدد وهذا الضوء يبتغي ثقافة محددة للناس. وعلى امتداد هذا الطريق كان هناك طريق آخر يسير بجانبه. هدفه أيضا الوصول إلى هذه بثقافة التي ينبغي في النهاية تكوين ر أي عام. ومن أحاديث هذا الطريق. الحديث الصحيح عن علي قال: لما نزلت هذه الآية: (وأندر عشيرتك الأقربين (٢))، جمع النبي عشيرته. فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا. فقال له النبي: من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي أهلي. فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحرا. من يقوم بهذا. فعرض الرسول هذا عليهم واحدا واحدا. فقال علي: أنا (٣)، وفي رواية: أيكم يباعدني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي. فلم يبق إليه أحد فقامت إليه وكنت أصغر

(١) تحفة الأحواذي ١٢٤ / ١٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حبة العرفي وقد وثقه. ورواه ابن جرير وصححه والضياء وصححه، ورواه الطحاوي (كنز العمال ١٢٩ / ١٣) وذكره ابن كثير في التفسير (٣٥٠ / ٣).

الصفحة ١٥٦

القوم (١)، وفي رواية: " قال النبي: من يباعدني على أن يكون أخي وصاحبيو ليكم من بعدي. فمددت وقلت: أنا أباعدك. وأنا يومئذ أصغر القوم. فباعدني على ذلك (٢)، وفي رواية عند ابن إسحاق وابن جرير وابن حاتم وابن مردويه وأبو نعيم أن النبي قال عندما بايعه علي: " إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن نسمع ونطيع لعلي. (٣) "

فالآية تصرح بإنذار العشيرة الأقربين. ولم تصرح بإنذار قريش. والعشيرة الأقربين إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم، وفي مجمع البيان " عشيرة الرجل.

قربته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشره، " وخص عشيرته وقربته الأقربين بالذكر. تنبيهها على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية. ولا مهانة ولا مساهلة. فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي وأمه. ولا بين الأقارب والأجانب. فالجميع عبود الله والله مولاهم.

وإنذار العشيرة الأقربين. كان هو المقدمة الأولى لإلقاء الضوء على علي بن أبي طالب - ضوء في مركز الدائرة التي قدر لها أن تتسع شيئا فشيئا.

اتساع يواكب حركة الدعوة ويضع في اعتباره النفس القبائلية العشائرية التي ترفض فرض أي قيادة عليها وفقا للتصور الجاهلي. وإذا كان علي بن أبي طالب قد أصبح بعد مبايعته الرسول رأس القوم رغم صغر سنه (٤) فإنه بنص آية أخرجنا من آلنا إلى مرتبة أعلى، قال تعالى لرسوله: (إنما أنت منذر ولكل قوم

(١) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٧٤ / ١٣) (الفتح الرباني وقالإسناده (٢٢٤ / ٢٠).

(٢) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز ١٧٥ / ١٣) وذكره ابن كثير في التفسير (٢٥٠ / ٢).

(٣) (كنز العمال ١٣٣ / ١٣) تفسير ابن كثير (٢٥٠ / ٢).

(٤) من العجيب أن هناك العديد يرفضون كون عليا رغم صغر سنه هو رأس القوم. في حين أن هؤلاء الراضين يخضعون لفقهاء يجيز ولاية الفاسق. بل وعلى امتداد التاريخ الإسلامي كانوا يبائعون لابن الخليفة وهو في بطن أمه.

الصفحة ١٥٧

هاد (١) ، قال المفسرون: إنما أنا وأنت يا محمد هاد تهديهم من طريقا لا تدار. وقد جرت سنة الله في عباده أن يبعث في كل قوم هاديا يهديهم. والآية تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدي الناس إلى الحق. إما نبي منذر وإما هاد غيره يهدي بأمر الله. وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبونعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار. قال: لما نزلت: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر. وأومأ بيده إلى منكب علي فقال: " أنت الهادي يا علي بكيهتدي المهتدون من بعدي (٢) " ، وروى الحاكم عن بريدة الأسلمي قال: " دعارسل الله صلى الله عليه وسلم بالطهور وعنده علي بن أبي طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد علي بعدما تطهر. فألصقها بصدره ثم قال: " إنما أنت منذر " ويعني نفسه. ثم ردها إلى صدر علي ثم قال: " ولكل قوم هاد " ثم قال له:

أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء وأشهد على ذلك إنك كذلك. وفي تفسير ابن كثير عن علي قال: " ولكل قوم هاد " الهادي رجل من بني هاشم. قال الجنيد: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣).

لقد كان الضوء يتسع شيئا فشيئا. اتسع بيوم المباهلة وبيوم الكساء وبيوم سد الأبواب إلا باب علي. وبيوم إن دعا الكتاب إلى مودة نو القربى وسهم ذيل القربى. إلى غير ذلك. حتى جاء اليوم الذي وضع فيه حول علي منقبه من أعظم المناقب لأن عليها تدور الحركة الواسعة للدعوة الإسلامية. روى الإمام مسلم عن علي قال: " والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبي الأمي إلي. أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (٤) " ، وعن أم سلمة قال: كان رسول الله

(١) سورة الرعد: الآية: ٧.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٥٠٢ / ٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٠٢ / ٢.

(٤) رواه مسلم ك الإيمان ب حب علي بن الإيمان (الصحيح ٦٤ / ٢)، وأحمد (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣) وابن أبي شيبه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن أبي عاصم (كنز العمال ٢٠ / ١٢) (كنز ٥٩٨ / ١١).

الصفحة ١٥٨

صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن (١) "، وعن أبي سعيد الخدري قال: " إنا كنا نعرف المنافقين نحن معشر الأنصار يبغضهم علي بن أبي طالب (٢) "، فهذه المنقبة هي عين المواجهة بين الدعويين دائرة الرجس التي تسترت بجلباب الدين وما هي من الدين.

وبدأت دائرة الضوء تتسع. حتى كان يوم تبوك. اليوم الذي عزم فيه التيار التخريبي لدائرة الرجس ودائرة البخس على اغتيال الرسول. وافتتاح المسجد الضرار. وفتح الأبواب لاستقبال الغزو الخارجي الذي تحمل أعلامه جيوش قيصر (٣) وما بين أيدينا من روايات. يؤكد أن المنافقين ما كانوا يريدون علي بن أبي طالب في المدينة. لقد استعملوا أسلوب الحرب النفسية ضد علي عندما علموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيخلفه على المدينة. ولكن النبي قطع عليهم حبل تفكيرهم ووضع حول علي منقبة ارتبطت بمنقبة لا يجعلها منافق ولا يبغضه مؤمن برباط وثيق. قال له النبي كما وردت في صحيح مسلم " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي (٤) "، وفي رواية عن ابن عباس: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست مني أنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي (٥) "، وفي رواية: " إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي في كل مؤمن بعدي (٦) ".

لقد أشاعوا أن النبي ترك عليا بين النساء والصبيان كما ورد في أحاديث

- (١) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٥ / ٥) ورواه أحمد (الفتح الرباني ١٢١ / ٢٣).
- (٢) رواه الترمذي وقال حديث غريب (الجامع ٦٣٥ / ٥). ورواه الخطيب عن أبي ذر بلفظ: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بثلاث: بتكذيبهم الله ورسوله. والتخلف عن الصلاة. وببغضهم علي بن أبي طالب (كنز العمال ١٠٦ / ١٣).
- (٣) ذكرنا ذلك فيما سبق عند الحديث عن دائرة الرجس.
- (٤) رواه مسلم (الصحيح ١٧٤ / ١٥).
- (٥) رواه الإمام أحمد (الفتح ٢٠٤ / ٢١) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٣ / ٣).
- (٦) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناد حسن ورجاله ثقات (كتاب السنة ٥٦٥ / ٢).

الصفحة ١٥٩

صحيحة وأشاعوا غير ذلك كما ورد في تاريخ الطبري، قال علي للنبي: " زعم المنافقون إنك إنما خلفتني إنك استنقذتني وتخفت مني "، فقال له النبي:

كذبوا... أما ترضي يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيبعدي (١). " لقد كان عليا مقياسا لما يجري على طريق تبوك. به يظهر النفاقويشع. ووجوده في المدينة في غياب الرسول صلى الله عليه وسلم يحددالخدانق بدقة. فأى ثقافة تخرج من المسجد الضرار لا يرضى عنها علي فهيتقافة نفاق. وأي حشد في اتجاه المدينة لا يرضى عنه علي فهو حشد نفاق. وأيمعارض يعارض أمرا لعلي فهو في دائرة النفاق. كما ذكر أبو سعيد الخدري " كنانعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم علي بن أبي طالب.(٢) "

"حديث المنزلة رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم. وقال ابنعساكر. وقد روى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعةمن الصحابة منهم عمر بن الخطاب وعلي وابن عباس وغيرهم. وقد تقصى ابنعساكر هذا الحديث في ترجمة علي في تاريخه فأجاد وأفاد وبرز مع النظراءو الأشباه والأنداد.(٣)

ولقد ناقش العديد من الأفاضل هذا الحديث على خلفية أن هارون (ع) مات قبل موسى (ع) وتركوا لفظ " منزلة " وهو الذي يدور عليه الحديث. ومنزلةهارون ينبغي أن تناقش في ضوء الآيات القرآنية وليس في ضوء التواريخالإسرائيلية. فقد قال تعالى: (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل منبعده(٤))، فالآية تخبر أن موسى عليه السلام جاءهم بالبينات. واتخاذهم العجلمن بعده، استمرارا لفعالهم. فهم في الحقيقة اتخذوا العجل في حياة موسى.

وهارون عليه السلام كان عليه شعاع من الضوء في حياة موسى عليه السلام.

(١)تاريخ الأمم والملوك ١٤٤ / ٣.

(٢)سبق التخریج.

(٣)البداية والنهاية ٢٤٢ / ٧.

(٤)سورة البقرة: الآية ٩٢.

الصفحة ١٦٠

فقبل ذهاب موسى لميقات ربه قال لأخبره كما أخبر تعالى: (قال موسى لأخيههارون أخلفني في قومي وأصلح(١))، فهارون عليه السلام نبي وخليفة(أخلفني في قومي) والشعاع الذي حول علي بن أبي طالب يطول منزلة الخلافةالتي تقلدها هارون بنص الحديث الذي رواه الشيخان ولا يطول منزلة النبوة حيثلا نبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب المسجد الضرار في بنيإسرائيل نصبوا العجل في دائرته. ولما حاول هارون الاصلاح استضعفوه. قالهارون عليه السلام كما أخبر تعالى: (إن القوم استضعفوني وكادوايقتلونني(٢))، ولأن القاعدة الأساسية في دين الفطرة أنه لا إكراه في الدين،وأن الله غني عن العالمين. فإن هارون بعد أن أقام عليهم الحجة اعتزل هو ومنأمّن معه. وبعد عودة موسى عليه السلام قال لأخيه كما أخبر تعالى: (قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا بن أم لا تأخذبلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين

بني إسرائيل ولم ترقب قولي (٣))، لقد عمل هارون من أجل المحافظة على الرمز والشعار الإسلاميو كفى به في عالم المعابد الضرار.

أما موسى عليه السلام. فلقد كان له رأي فيهم بعد أن خرجوا عن خط الخلافة الذي حدده. قال لهم فيما أخبر الله: (قال بئسما خلفتموني منبعمدي .(٤) ثم دعا موسى ربه: (قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين .(٥) (أما الذين اتخذوا العجل فضربهم الجزاء العادل بعد أن أشربوا في قلوبهم حب العجل، قال تعالى: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين(٦))،

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٣) سورة طه: الآية ٩٢ - ٩٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥١.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٥٢.

الصفحة ١٦١

فهذه منزلة هارون أخو موسى عليهما السلام وعلى هذا يجب أن تقاس منزلة علي بن أبي طالب أخي رسول الله - كما جاء في الحديث الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم علي: " أنت أخي وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسول الله لا يدعيها بعد إلا كذاب.(١) "

فموسى عليه السلام في أول الأيام يتلقى كلمات ربه جل وعلا وخلف أخاه هارون بعده على قومه. ومحمد صلى الله عليه وسلم في البعثة الخاتمة ذهب ليضرب من أجل. كلمة ربه. وخلف أخاه عليا بعده على قومه. وبعد عودة موسى عليه السلام أبلغه هارون بالأحداث فحرق العجل ونسفه في اليم نسفا.

وبعد عودة محمد صلى الله عليه وسلم حرق المسجد الضرار. وبعد موسجرى حب العجل في الدماء، وبعد محمد صلى الله عليه وسلم جرت الريبة في قلوب الذين اتخذوا المسجد الضرار. والله في خلقه شؤون.

ومناقب علي بن أبي طالب ومنزلته لم تقف عند تدمير المسجد الضرار.

فالأحاديث الصحيحة تبين أن دائرة النور حول علي بدأت تتسع على شكل لميسبق له مثل بعد تبوك. ويبدو والله أعلم أن هناك أحداثا جرت بعد فشل عملية اغتيال الرسول وثقافة المسجد الضرار، فمجموعة التخريب التي تتكون من اثني عشر رجلا والتي حملت على عاتقها عملية قتل الرسول. كان من بينهم رجال من قريش. والأحداث بعد ذلك تقول أن الأمور حول مكة لم تكن تجري على الوضع الطبيعي.

ومن المعروف أن فتح مكة كان في العام الثامن الهجري. وفي هذا العام دخل الإسلام مجموعة تسترت برداء الإسلام وكان لها الأثر البالغ في إيجاد الانحرافات التي حفرت في الجسد الإسلامي حفر نازفة سنتعرض لها في حينه، وبعد فتح مكة وفي العام التاسع كانت فورة النفاق. حيث دبرت حادثة اغتيال

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن بلفظ " أنت أخي في الدنيا والآخرة " (الجامع ٦٣٦ / ٥) ورواه أحمد عن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده (٢٢٢ / ١٠ تحفة الأحوازي) ورواه أبو يعلى عن علي (كنز العمال ١٤٠ / ١٣) ورواه الحاكم عن ابن عمر (٥٩٨ / ١١ كنز).

الصفحة ١٦٢

الرسول وبناء المسجد الضرار. وعلى إثر هذه التطورات كان للدعوة موقفها الجازم من خدمة النفاق والشرك. فقبل نزول سورة براءة كانت سيرة الرسول. أن لا يقاتل إلا من قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده. وقد كان أنزل عليه في ذلك: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً)، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقاتل أحداً قد تنحى عنها اعتزله. حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين. من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة إلى مدة. ومنهم: صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو. فقال تعالى: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) (١)، لقد جعلهم في مأمن من هذه البرهة من الزمان. وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء. وأخبرهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك فإذا انتهت المدة ولم يستقروا على الأصلح. فالفناء (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) (٢)، فالبراءة بعد العهد لا بد أن يكون سببها التعدي من جانب المخلوق. وسورة براءة نزلت بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم من عزوة تبوك سنة تسع من الهجرة. وكان الصحابة يسمونها السورة الفاضحة. نظراً لأنها كشفت المخططات ووضعت الجهاز التخريبي في مأزق كما يستفاد من رواية ابن عباس في صحيح مسلم. فعن سعيد بن جبير قال. قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: التوبة!!

بل هي الفاضحة!! ما زالت تنزل. ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحداً إلا ذكر فيها. (٣)

فما هي الأحداث التي أدت إلى نزول الوحي بقوله تعالى: (كيف يكون

(١) سورة التوبة: الآية ١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥.

(٣) رواه مسلم (كنز العمال ٤٣٠ / ٢).

الصفحة ١٦٣

للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلى قوله تعالى - قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم (١) (...، ومن المعلوم أن أبا عامر مؤسس المسجد الضرار كان على علاقة وطيدة بمشركي المغرب والمنافقين في كل مكان. ولقد اتفق مع الجميع على أن يتوجه إلى قيصر الروم ويحثه على غزو المدينة، وعلى امتداد هذا المساحة تمت محاولة اغتيال الرسول وبناء المسجد الضرار ويبدو أن هناك مؤامرة اتفق عليها الحاقدون على الإسلام في مكة بعد فتحها وطائفة المشركين وتيارات النفاق - والدليل على ذلك فورة الصد عن سبيل الله التي تحدثت القرآن السنة عنها بعد فتحة مكة. تلك الفورة التي اختفت وراء جدار يرتدي ثياب الإسلام. ومن الدليل أيضا أن هذه الفورة استهدفت علي بن أبي طالب أيضا.

وذلك حينما أشاعوا يوم أن تركه النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يوم ذهابها إلى تبوك. إن النبي تركه مع النساء والصبيان وأنه قد استنقله وتخفف منه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر مشركي مكة بعد صلح الحديبية. أن لهم يوما من علي بن أبي طالب حيث سيقان لهم على تأويل القرآن كما قاتلهم على تنزيله.

وستحدث عن هذه الأخبار في حينه. فدائرة الحقد على الإسلام كانت تختزني ذاكرتها ما تخبئه لهم الأيام. وظل اتباع هذه الدائرة يكيدون للدعوة في حياة الرسول وبعد مماته صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس فضلا على كراهيتهما لأصيلة للدعوة.

ومن الواضح أن دائرة الرجس ودائرة الدنس. اتفقتا على ثقافة يقتحمون بشذوذاها المجتمع الإسلامي. ويتبين هذا من الحكم الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب إلى المشركين. حيث قال: " لا يطوفن بالبيتعريان"، وكانت سنة العرب في الجاهلية عندما يقصدون البيت الحرام. إن مندخل مكة وطاف البيت في ثيابه. لم يحل له إمساكها. وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف. فكان من جاء إلى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يرده.

ومن لم يجد من يعيره ولم يكن إلا ثوبا واحدا. طاف بالبيت عريانا.

(١) سورة التوبة: الآية ٧ - ١٤.

الصفحة ١٦٤

والأحاديث الصحيحة تخبر بأن الفترة الأخيرة - بعد تبوك - إن امرأة طافت بالبيتعريانة وأشرف لها الناس. فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على عنقها. وقالت شعرا:

اليوم يبدو بعضه أو كله * فما بدا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف هرول إليها جماعة من الناس. ومن هذا يظهر والله أعلم أن فروع التأمير كانت كثيرة، وعندما نزلت السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بها مع أبي بكر إلى المشركين. فلما خرج أبو بكر

نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في طلب أبي بكر. فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات - وفي رواية - قال أبو بكر يا رسول الله نزل في شيء؟

قال: لا ولكن جبريل جاءني فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك (١)، وفي الدر المنثور أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة علي النبي صلى الله عليه وسلم. دعا أبا بكر رضي الله عنه ليقراها على أهل مكة. ثم دعا لي فقال لي: ادرك أبا بكر فحينما لقيت فخذ الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي فقال: يا رسول الله نزل في شيء؟ قال: لا ولكن جبريل جاءني فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك (٢).

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث

(١) رواه الإمام أحمد (البداية والنهاية ٢٥٨ / ٧، في تفسير ابن كثير ٣٣١ / ٢)، ورواه بلفظ آخر الترمذي وحسنه، (الجامع ٢٧٥ / ٥)، وقال في الفتح الرباني، الحديث سنده صحيح وله شواهد كثيرة تعضده منها عند البخاري والإمام أحمد أيضا من حديثاً هريرة ومنها حديث أنس عند الترمذي وحديث ابن عباس عنده أيضا (الفتح الرباني ١٥٧ / ١٨).
(٢) الفتح الرباني، وقال: وقال الهيثمي رجاله ثقات. وأورده ابن كثير في التفسير والحافظ السيوطي في الدر المنثور وروى نحوه الترمذي وحسنه (١٥٨ / ٧).

علياً رضي الله عنه على أثره. فأخذها منه. فكان أبا بكر وجد في نفسه فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي رافع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله ببراءة إلى الموسم. فأتى جبريل عليه السلام. فقال: إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك، فبعث علياً رضي الله عنه على أثره. حتى لحق بهين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم.

فذهاب علي بن أبي طالب، علاوة على أنه لا يؤدي عن النبي إلا هو كما ورد في الحديث الصحيح عن حبشي بن جنادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي (١) " ، إلا أنه يستقيم مع الأحداث حيث فورة النفاق، وحيث إخبار النبي لقريش يوم الحديبية بأن لهم من علي بن أبي طالب يوماً فعن رعي بن علي، أن النبي قال لهم يومئذ: يامعشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين.

قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله؟ قال: هو خاصف النعل.

وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها (٢).

لهذا نقول أن بعث علي بن أبي طالب بسورة براءة له أبعاد متعددة. فأبويكر لم يثبت أن له قتل في الإسلام. ولم يكن رضي الله عنه مشهورا بالشجاعة وولقاء الحروب. وأيضا لم يكن جباناً ولا خواراً. وإنما كان رجلاً عاقلاً ذا رأي وحسن تدبير، والآيات تحمل منهاجاً لا مهادنة فيه ولا مساهلة. فأعطوا لها لأببيكر أولاً ثم أعطوا لها لعلي بعد ذلك فيه تلويح بالعصا الغليظة.

وحول هذا الحديث أدلى كل منهم بدلوه، فقال البعض: إن النبي بعث علياً بالسورة لأن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس منهم. إلا هو أو

(١) سبق التخريج.

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٣٤ / ٥) وابن جرير وصححه والضعفاء (كنز العمال ١٧٢ / ١٣).

الصفحة ١٦٦

المتقدم من رهطه. فإذا كان كذلك. فهل يجوز أن يجري النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته وأحكامه على عادات الجاهلية؟ ثم لو كانت سنة عربية جاهلية فما وزنها في الإسلام وما هي قيمتها عند النبي، وقد كان ينسج كل يوم سنة جاهلية وينقض كل حين عادة قومية. ثم إذا كانت سنة عربية ومعروفة للنيقبيل بعثه أبا بكر بسورة براءة. فما باله لم يعتمدها في الابتداء، ويبعث إليهم بمنيجوز أن يحل عقده من قومه؟ هل نسيها النبي حين سلم الآيات إلى أبي بكر.

وعندما خرج أبو بكر ذكر النبي ما نسيه. هل يجوز ذلك وهو صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى في مكارم الأخلاق واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم وحسن التدبير. ثم إذا كانت سنة عربية فلماذا لم يذكر النبي ذلك عندما رجع إليهم أبو بكر ليسأله. وقال له: إنه أوحى إلي أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني.

إن كلمة " أوحى إلي " أو " أخبرني جبريل " في الحديث. هي المحك في الحديث. والذي يمكن أن يقال عند الجمع بين الروايات. أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلم إلى أبي بكر السورة. بإذن الله. إلا أنه لم يأمر بأدائها ولا كلف قراءتها على أهل الموسم. سلمت إليه وأمر بالتوجه إلى أن يأذن الله فيها. وقد قال البعض: إن الفائدة في ذلك ظهور فضل علي بن أبي طالب ومرتبته. ولكن كما قيل أن ظهور الفضل في مساحة الأحداث كلها علاوة على المناقب التي وضعت حول علي على امتداد الرحلة أوقع من ظهوره في هذه المساحة الضيقة. فعلي لم يذهب ليبلغ براءة فقط

وإنما ليبلغ أحكاما أيضا. فهو يبلغ كلمة الوحي وكلمة الرسول عن الوحي. فعن زيد بن يثيع قال سألتنا عليا بأي شيء بعثت في الحجة.

قال: بعثت بأربع أن لا يطوف بالبيت عريان. ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر. ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا (١).

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٧٦ / ٥) وأحمد وابن جرير بسند صحيح (الفتح الرباني ١٥٩ / ١٨).

الصفحة ١٦٧

من هذا نعلم أن علي بن أبي طالب كان يتحرك في ساحة واسعة تجري عليها أحداث متعاقبة في العام التاسع الهجري، ترى ماذا يقول أصحاب الرأي القائل أن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس إلا المتقدم من رهطه. إذ قلنا لهم. إذا كان علي بن أبي طالب هو الذي أناب عن الرسول في حل عقده من قومه. باعتبار أنه المتقدم في رهطه والذي يؤدي عنه. فمن غير علي بن أبي طالب بعد وفاة الرسول يحسم ما أعلنه علي على القوم في حياة الرسول. والسنة العربية تقول أن التفاوض لا يكون إلا مع الرئيس أو المتقدم من رهطه.

وخصوصا أن الآيات التي رفعت الأمان في سورة براءة عن المشركين لم تهمل أي طريق يرجى فيه الوصول إلى الهداية. قال تعالى: (وا إن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (١)) قال ابن كثير: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم استأمنك فأجبه إلى طلبه حتى يسمع القرآن ففرّوه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله. ثم اعط الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره. وإنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الأمان لمن جاء مسترشدا (٢).

إذا فهناك عقود أمان. فإذا كان علي بن أبي طالب حل عقد رسول الله منقومه - فحسب عادة العرب - من الذي ينظر في عقود الأمان الجديدة. فيتمها إلمدتها أو يحلها؟ لهذا نقول أن القول بأن بعث علي بن أبي طالب بسورة براءة فخرجت شجرته من عادات العرب. قول لا يلتفت إليه لما سيرتب عليه مناقشال.

(١) سورة التوبة: الآية ٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣٧ / ٢.

الصفحة ١٦٨

- حجة الوداع وإعلان الولاية:

في العام التاسع الهجري كانت فورة التفاور والشرك. فمن تحت جلبابا لإسلام تحركت دائرة الرجس لتأكيد للإسلام. ومن تحت لافتة المعاهدات تحركت دائرة البخس لتعرقل المسيرة. ولكن الله رد كيدهم في نحورهم بإنزالسورة براءة التي جعلت جميع دوائر الصد عن سبيل الله تقف لتحكم المخزونالفطري عند كل إنسان فيهم. وإلا فالسيف، ولا يتصور عاقل أن دوائر الصد بعدسورة براءة. قد ألقوا بسلاحهم وهروا في إتجاه الإسلام تائبين عابدين. فقد يكون هناك من أسلم وحسن إسلامه. وقد يكون هناك من أسلم إلي حين تأتيهاالفرصة. أو أسلم ثم ارتد وكتب ارتداده أو لم يسلم أصلا، وهرب حتى يشتدعوده. فهؤلاء وغيرهم لم ينتهوا بنزول سورة براءة أو برحيل النبي صلى الله عليهوسلم. لأن جذورهم في الأرض منذ أن طرد إبليس اللعين. وفي كل جيلتخرج الفروع وأوراق الفتنة من الجذور، ثم يستأصلها الله من عنده أو بأيديالذين آمنوا، ثم تخرج لتستأصل ليكون استئصالها عنوانا لهزيمة الباطل علنامتداد التاريخ الإنساني. وسورة براءة أشارت إلى أعلام هؤلاء، قال تعالى:

(فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم(١))، وكان حذيفة بعد وفاة الرسوليقول: " ما قوتل أهل هذه الآية بعد(٢)) ، وقوله تعالى: (وقاتلوا المشركين كافةكما يقاتلونكم كافة(٣))، وكما أن جذور هؤلاء ممتدة في طين الشذوذ.

فكذلك جذور البغي. فالبغاة لم يقاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم. لأنجذورهم في عهدهم لم تكن قد أخرجت فروعها العتية بعد. والقرآن أخبر بهمفقال تعالى: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله(٤))، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم بمقتضى هذه الآية. إنه سيكون بغي. ولذا أخبر عن

(١)سورة التوبة: الآية ١٢.

(٢)أخرجه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٤٢٦ / ١) وسيأتي الكلام عنه في موضعه.

(٣)سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٤)سورة الحجرات: الآية ٩.

أعلامه. وأقام الحجة على كل من له عيني ولسانا وشفنتين. ودثرت حجتهاالتاريخ كله. كما أخبر عن ربه بكيفية قتال المشركين كافة. وحذر من اتباعسننهم التي تقود من ركبها إلى الوحل. فإذا كان امتداد المسيرة أمام الرسولفيالعالم الغيب. امتدادا مكشوفًا. وعلى امتداده يرى الرسول العوائق والسحبالداكنة. إذا كان هذا ثابتًا فكيف يسوغ لمتوهم أن الدين لا يحتاج إلى حافظيحفظه حق الحفظ. الدين الذي يحتوي على جميع ما يتعلق بالمعارف الأصليةوالأصول الخلقية والأحكام الفرعية العامة بجميع حركات الإنسان وسكناته. ليسفي حاجة إلى حفظ من الذين أخبر الله عنهم أنهم يقاتلون الإسلام كافة؟ هذاالدين ليس في حاجة إلى قيادة تأمر المسلمين كافة بقتال من يقاتلونهم كافة. هلالأمة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانيةومستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يديرها ومجر يجريها... إن الحشراتقطرت على أمير. وفي عالم النحل والنمل وفي عالم الطيور والوحوش ألف ألفدليل.

وبأي غرر يمكن أن يعتذر إلى الباحث في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. حيث يرى أنه كان إذا خرج إلى غزوة. خلف مكانه رجلا يدير رحبالمجتمع. ألم تر أنه خلف عليا مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك؟ ويؤمر رجالا على السرايا والجيوش التي يبعثها إلى الأطراف. لقد كان في حياته يفعل ذلك. وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته في حين أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. يفيد بأن تعيين حارس للدين بعد موته أشد والضرورة إليه أمس ثم أمس. والنبي صلى الله عليه وسلم هو القائل:

"الإسلام والسلطان أخوان توأمان. لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلامأس (١)والسلطان حارث. وما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع(٢) " ، قديقال: لقد كان الحفظ في أيدي أهل الحل والعقد. فنقول: ونحن لا نقلل من وزن أهل الحل والعقد ولا من هيبتهم. ولكن الأحاديث الصحيحة أشارت إلىوجود أئمة ماضين في بطن الزمان يتكلمون بألسنتنا ويدعون إلى النار. ونحن

(١)أس / أي أصل البناء.

(٢)رواه الديلمي (كنز العمال ١٠ / ٦).

الصفحة ١٧٠

ليست لدينا القدرة على تمييز الصالح من الطالح. إنما القادر هو الله. والناظر فيالتاريخ والمنتدبر في الأحداث بعد رحلة النبي صلى الله عليه وسلم يرى كمن دائرة إسلامية اجتمع فيها أهل الحل والعقد من المسلمين على ما اجتمعوا عليه. ثم سلكوا طريقا يهديهم إلى رأيهم. فلم يزيديا إلا ضلالا. ولم يزداسعادهم المسلمين إلا شقاء. ولم يمكث الاجتماع الديني بعد النبي صلى الله عليه وسلم. دون أن عاد إلى امبراطورية ظالمة. إن التاريخ أمامناوالأحاديث التي تخبر بما في بطن التاريخ إذا انحرفت الأمة بين أيدينا. والقرآنشاهد على الحديث وعلى حركة التاريخ. فليبحث الناقد في الفتن الناشئة منذقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما استتبعته من دماء مسفوكة. وأعراض مهتوكة وأموال منهوبة. وأحكام عطلت. وحدود أبطلت. ثم ليبحثالناقد في منشئها وأصولها وأعرافها... وسيرى أن الأسباب العاملة فيها تنتهي إلما رآه أهل الحل والعقد من الأمة. ثم حملوا ما رأوه على أكتاف الناس. وقد يقال: إذا كان الطالح له أثر فإن هذا لا يعني أن الصالح في أهل الحل،والعقد ليس له أثر. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاورهم في الأمر في قوله تعالى: (وشاورهم في الأمر. فإذا عزمت فتوكل على الله(١))، فنقول:

لقد كان في الصحابة عظماء أفاضل قاتلوا وقتلوا في سبيل الله ومنهم من انتظردوره ليفدي الدين بما عاهد الله عليه. ولكن من الذي كان يشاورهم؟ إنه الرسولالأعظم الذي لا ينطق عن الهوى. ويخطئ من يظن أن مشاورته كانت عن قلة في علم ما. فمعاذ الله أن يكون هذا في من وضع الله على عاتقه تعليم البشرية.

لقد كانت المشاورة أحيانا فيما يتعلق بحركة الدعوة بين القبائل. وأحيانا لإرساء قاعدة التآلف بين القلوب. وفي الآية الكريمة. أشركهم الله بالنبي في المشاورة" وشاورهم في الأمر " ثم وحده في العزم " فإذا عزم فتوكل على الله ". إنالمشاورة حق فطري. والذي يسوق الناس إلى الصراط المستقيم أمر فطري.

ودائرة العزم لا يجلس فيها إلا من كان على علم بكتاب الله. وإلا فالطريق إلى

(١)سورة آل عمران: آية ١٥٩.

الصفحة ١٧١

اختلاف الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة. طريق مفتوح. لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه "، فإذا كان للطالحاترا على امتداد التاريخ. فإن هذا يؤيد وجود الصالح. ولا شك في هذا. لأنوجود الصالح حجة على وجود الصالح. والصالح في دائرة العزم لا بد أن يشيرا إليه نص. فكم من إنسان، فرادى ومجتمعين. ظنوا أنهم يحسنون صنعا.

وبصنيعهم تربوا في دائرة الصلاح. وفي الحقيقة إنهم في دائرة الأخرينأعمالا. والسبب أنهم ضلوا. والضلال لا يستقيم مع الصلاح. ولأن الله تعاليقول: (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين(١))، فإنهتعالى أولى بتحديد من يسوق الناس إلى صراط الله بعد رحيل رسوله. وخاصة أن الدوائر في حياة رسوله قد تكاثفت على عرقلة المسيرة التي يختبر الله تعاليناس فيها لينظر كيف يعملون. فالذي يختبر لا بد أن يحدد الطرق ويقيمالحجج. حتى لا يكون للناس على الله حجة. أما أن نقول إن الأمر كله في أيديأهل الحقل والعقد. فإن هذا القول فيه تساهل كبير. ونحن هنا سنتتبع مكان القمةفي موضعين: في حجة الوداع. وفي غدِير خم. لنرى بماذا أخبر رسول اللهصلى الله عليه وسلم.

أولا - حجة الوداع:

في العام التاسع الهجري، كانت فورة الشرك والنفاق. وكان علي بن أبيطالب في المدينة وكان من الرسول بمنزلة هارون من موسى عدا النبوة. وفيهذا العام نزلت سورة براءة وقرأها علي بن أبي طالب وما معها من أحكام علناًهل مكة وما حولها. وجاء العام العاشر الهجري وفيه بعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع وفي هذاالعام نزلت سورة المائدة فكانت آخر ما نزل من القرآن. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما خرج إلى حجة الوداع من المدينة. خرجإليها علي بن أبي طالب من اليمن وقال: لبيك يا هلالا كإهلال

(١)سورة القلم: الآية ٧.

النبي (١)، وحضر الحج في هذا العام نحو أربعين ألفا من المسلمين (٢)، ورويان عليا أتى من اليمن بهدي بلغ مجموعها مع ما أتى مع النبي صلى الله عليه وسلم مائة. فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين. ثم أعطعليا فنحر ما تبقى. وأشركه في هديه. ثم أمر من كل بدنة ببضعة (قطعة من اللحم) فجعل في قدر. فأكل هو وعلي من لحمها وشربا من مرقها (٣)، ورويان النبي صلى الله عليه وسلم عندما هم بذبح الهدي قال: إدع لي أبا حسن.

فدعى له علي. فقال: خذ بأسفل الحرية. وأخذ رسول الله بأعلاها ثم طعنا بها البدن. فلما فرغ ركب بغلته وأردف عليا (٤)، وعندما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس. كان علي بن أبي طالب يعبر عنه (أي يبلغ حديثه) - عليهما السلام -، قال القارئ: وقف علي حيث يبلغه صوت النبي صلى الله عليه وسلم فيبلغه للناس ويفهمهم من غير زيادة ولا نقصان.

كان علي بن أبي طالب يبلغ عنه والناس بين قائم وقاعد. والناس شاهدوا الرسول وعلي منذ بداية الشعائر ينحر معه، وتباركة في الهدى ويأكل معه. ويعبر عنه، ومن قبل سمعوا بقصة تبليغ براءة وبمنزلة هارون من موسى. وبغضالمنافقين لعلي. وقبل ذلك سمعوا يوم خبير أن عليا يحبه الله ورسوله. وشاهدوا يوم أن ناجاه رسول الله وطالت نجواه. وعابنوا يوم أن سد النبي جميع الأبواب إلا باب علي. وعلموا وشاهدوا حديث الكساء وحديث المباهلة. وتأكدوا أنعليا أقدمهم سلما وأكثرهم علما وأوسعهم حلما. وأن سيفه لا تخشى في اللهومة لائم. كل هذا وغيره علموه وشاهدوه. فأى إشارة من النبي إلى علي يجب أن تفهم على بساط الفطرة. لأنها لن تفهم على طريق الحفائر والارتباب والجدال للعقيم. فإذا وقف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وقال فيما رواه

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (البداية والنهاية ١٣٠ / ٥).

(٢) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ١٣٧ / ٥) (تفسير ابن كثير ٧٧ / ٢).

(٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٨١ / ١١)، ورواه ابن حبان (البداية ١١٨ / ٥).

(٤) رواه أبو داود (البداية ١٨٩ / ٥).

جابر بن عبد الله. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفته وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: " يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي (١) " ، إن هذا الاعلان لا يحتاج إلى جدل طويل على بساط الفطرة. حيث أن الساحة عليها دائرة رجس لا بد أن تجابها دائرة تطهير. وإذا علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيحجة الوداع فيما روي عن يحيى بن آدم السلولي، وكان

قد شهد يوم حجة الوداع. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي(٢) " ، فهذا الاعلان أيضا لا يحتاج إلى جدل طويل.

لأنه من قماشة واحدة بدأت عندما نزل قوله تعالى: (وأندر عشيرتك الأقربين)، لقد كانت البداية من هنا. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم منذ البداية لعشيرته كما ورد في الحديث الصحيح " أياكم يباعدني على أن يكون أخيو صاحبني ووارثي(٣) " ، فلم يبق إليه أحد وقام علي بن أبي طالب وبايعه عند ذلك. وليس هذا من قماشة حديث: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " ، وذلك بعد أن اتسعت دائرة الضوء وفقا لحركة الدعوة. ثم ألا يتفق ذلك مع قماشة يوم تبليغ سورة براءة حيث قال النبي: " جاءني جبريل فقال، لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك " فما الغرابة إذن في فهم الموقف يوم حجة الوداع. حيث قال النبي: " علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي "، وجميع ذلك من نسيج قوله تعالى يوم المباهلة. (وأفسنا وأنفسكم).

فإذا كان هذا البلاغ قد تم في حجة الوداع. وإذا كان في نفس الحجة قد نزل عشية يوم عرفة (٤)، قوله تعالى: (اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم فلا

(١) رواه أبو داود والنسائي أحمد (البداية والنهاية ١٩٨، ١٩٩ / ٥).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٦٢ / ٥) والنسائي (كنز العمال ١٧٢ / ١).

(٣) أخرجه أحمد (الفتح الرباني ١٢١ / ٢٢) والترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٢٩٩ / ٢) وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٢٥٧ / ٥.

(٤) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٧٤ / ١٣) وقال في الفتح الرباني رواه أحمد وإسناده ص (الفتح ٢٢٤ / ٢٣).

تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً (١) ، علمنا أن الكفار قد يأسوا في اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتم فيه نعمته. فماذا كان يريد الكفار قبل أن يضربهم اليأس؟ لقد كان الذين هوالمبغوض عند دوائر الصد من سبيل الله. فالشيطان منذ اليوم الأول وضع فيبرنامجه عرقلة الصراط المستقيم. وعلى امتداد التاريخ سارت جحافل الليل نحو هذه الغاية. فحاولوا في الرسالة الخاتمة هدم البنيان الرفيع من أسرتين المؤمنين. وبت النفاق في جماعتهم وإلقاء الخرافات بينهم لإفساد دينهم. فببداية الأمر صدوا بالمال والجاه والجلد بالسياط والطرده من الأوطان. ثم طوروا الصد إلى محاولة قتل النبي. لقد كانوا يرون أنه ملك في صورة النبوة. وسلطنة في لباس الدعوة والرسالة. ولقد كان موته آخر ما يرجونه في زوال الدين وموت الدعوة. وذلك لأنه لا عقب له. ومن لا عقب له في قانونهم إذا مات أو قتلانقطع أثره ومات ذكره وذكر دينه. على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة. فهؤلاء مما بلغ أمرهم. فإن ذكرهم يموت بموتهم وقوانينهم تدفنهم في قبورهم. ولذلك

كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " دعوه، فإنه رجل أبتّر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى: (إن شأنك هو الأبتّر). (٢))

فإذا كانت ثقافة الكفر تنطلق من هذا المفهوم. فكيف يكون الحال إذابلغهم قول النبي " علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي"، أو تحديد النبي لدائرة الطهر التي لا تفارق القرآن ولا يفارقها. ألا يكون اليأس لهم عنواناً على امتداد التاريخ الإنساني. وذلك لأن الصراط المستقيم أصبح له من يسوق الناس إليه بعد وفاة الرسول. ثم سُلِّدَ إغلاق الباب في وجوههم إكمالاً للدينوا تماماً للنعمة وإقامة للحجة. لينظر الله كيف تعمل الأمة الخاتمة تحت قانون سنة الابتلاء الجارية. فقولته تعالى: (فلا تخشوهم واخشون)، يفيد هذا

(١) سورة المائدة الآية ٣، نزول الآية يوم عرفة رواه أحمد والشيخان والترمذي (الفتح الرباني ١٢٦ / ١٨).
(٢) سورة الكوثر: آية ٣.

الصفحة ١٧٥

المعنى. قال المفسرون: أي لا موجب للخشية بعد يأس الذين كنتم في معرض الخطر من قبلهم. فأنتم في مأمن من ناحية الكفار. ولا ينبغي لكم مع ذلك الخشية منهم على دينكم. فلا تخشوهم واخشوني. فالدين مصون من اللطم المتوجه من قبلهم. وإنه لا يتسرب إليه شئ من طوارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم. وإن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة.

ورفضهم هذا الدين الكامل المرضي. ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها بالنقمة ويذيقهم لباس الجوع والخوف. ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية من قوله: (فلا تخشوهم واخشون)، فعليه أن يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الإسلامي اليوم. ثم يرجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أصول القضايا وأعرافها. لقد يأس الكفار عندما أيقنوا أن الدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم خرج عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي. إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي. والحامل الشخصي عمود فقري للحامل النوعي. ولقد ضربهم اليأس عندما علموا أن الدين خرج من صفة الظهور والحدوث. إلى صفة البقاء والدوام. وصفة الظهور والحدوث. إلى صفة البقاء والدوام. وصفة الظهور والحدوث. إلى صفة البقاء والدوام. وفي عالم اليأس قرقت أنياب الحيتان. وسرى صوتها ليلاً في الوادي الواسع العريض.

ثانياً - يوم غدير خم:

بعد حجة الوداع عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هو ومن معه. وكان قد أحت يوم الحج على التمسك بالكتاب والعترة وحذر الأمة من الاختلاف والافتراق وقتل بعضهم بعضاً. وفي هذا الحج أخذ الناس عنه صلى الله عليه وسلم مناسكهم. وما أعلنه الرسول وما حث الناس عليه، كان علمستوى المساحة الواسعة للأمة. وهذه المساحة تختلف عن المساحة الأم.

بمعنى أن الأمور التي تتعلق بالقيادة لا تعلن إلا في دائرة مساحة القيادة. لذا نراه صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة عندما نزل قوله تعالى: (وأندر عشرتك الأقربين) لم يأت بأفراد المساحة الواسعة وإنما تحدث أمام ناس

الصفحة ١٧٦

بأعينهم. وقال كما في الحديث الصحيح: "أيكم يبإيعني على أن يكون أخيو صاحبى ووارثى"، كما مر من قبل. والأمور التي تتعلق بالقيادة بعد حجة الوداع تقام الحجة فيها على ساحة القيادة أولاً. وهذه المساحة هي رؤوس قريش بالمدينة. وذلك لأن قريشا هي النواة التي تدور حولها المساحة الواسعة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم (١)" ، وفي رواية: "صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم (٢)" ، فقريش بذور منها شجر. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب. (٣)"

والنبي في طريقه من حجة الوداع. كان على علم تام من ربه. مما سيحدث لأمته من بعده. كان يعلم أن في أمته من سيستمع كما استمتع الذين من قبلهم وسيخوض كما خاضوا. وسيترتب على ذلك الحبط والخسران والبغى والافتراق، وكان يعلم أن مقدمة هذا كله ستكون من دائرة قريش وليس من الدائرة الواسعة، لذا نراه صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وجه إشاعات من الضوء على سبيل الخير ليهرع الناس إليه، فأوصى بالكتاب والعترة، وأعلن أن علياً منه وهو منه ولا يؤدي عنه إلا هو أو علي. وهذا الاعلان. هو نفس الاعلان يوم سورة براءة في العام التاسع الهجري. وبعد أن سلط الضوء على سبيل الخير. سلطه على الجانب الآخر كي يحذر الناس من مقدمات الوقوع قبل الوقوع. ثم بين كيفية النهوض بعد الوقوع. كما سنبين فيما بعد. ومن أشعة الضوء على الجانب الآخر من قريش. عن أبي مطير قال:

أخبرني من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يعظ الناس ويأمرهم وبينهاهم فقال: أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء. فإذا

(١) رواه البخاري عن ابن عمر ك بدء الخلق ب، مناقب قريش (الصحيح ٢٦٤ / ٢) وابن أبي عاصم عن أبي هريرة (كتاب السنة ٥٢٤ / ٢).

(٢) رواه أحمد عن علي وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٢٦ / ٢٤).

(٣) رواه البخاري ك الآداب (الصحيح ٧٧ / ٤) وصححه الترمذي (الجامع ٥٩٦ / ٤).

الصفحة ١٧٧

تجأحت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه (١)" ، فهو في حجة الوداع كان يعلم أن قريشا ستدفع لتشتري الدين من الناس. أليس هذا في حاجة إلى إقامة حجة دافعة عليها؟ وفي رواية: "خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كانا هو رشا فاتركوه. ولا أراكم تفعلون. يحملكم على ذلك الفقر والحاجة. ألا إن رحي بني مرج قد دارت.

واين رحي الإسلام دائرة. واين الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار. وستكون عليكم أئمة أن
أطعنموهمأضلوكم. واين عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال.

كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير. موت في طاعة.

خير من حياة في معصية (٣)، قال صاحب عون المعبود في شرح سنن أبوداود: معنى حديث ترك أخذ العطاء.
إذا رأيت قريش تخاصموا على الملك.

وتقاتلوا عليه. وقال كل واحد منهم: أنا أحق بالملك أو الخلافة منك. وتنازعوا في ذلك وأصبح هذا العطاء عن
دين أحدكم، أي يعطوه لكم عوضا عن دينكم.

فاتركوا أخذه. (٣) "

باختصار الحديث عن القيادة لا يكون تفصيله إلا على أرضية قريش. فإذا كان علي ولي كل مؤمن بعد رسول
الله. فلا بد أن يعلن هذا أولا عند الأعقاب التي ستتصارع على الملك ليكون في ذلك حجة عليها. ومن أراد أن يفهم
هذا المعنى عليه أولا أن يسلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في قوم من البشر وليسوا من الملائكة. وهذا القوم
كان النبي يتعامل معه وفقا لمصلحة الإسلام وكان لا يخاف إلا على الدعوة. ومن الدليل على ذلك. أن زيد بن حارثة
كان عبدا للنبي صلى الله عليه وسلم. ثم حرره واتخذه ابنا له.

وكان تحت زينب بنت جحش بنت عمه النبي. وكان النبي يعلم من ربه أن زينب ستكون من أزواجه. فجاء زيد
إليه واستشاره في طلاقها. فنهاه النبي عن

(١) رواه أبو داود حديث ٢٩٥٨.

(٢) رواه الطبراني عن معاذ، وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ٢١٦ / ١).

(٣) عون المعبود ١٧٣ / ٨.

الطلاق. ثم طلقها زيد بعد ذلك وتزوجها النبي. يقول تعالى: (واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك
عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما اللهم بيده وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (١))، أي: لم قلت أمسك
عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ إن النبي قال هذا خوفا من المنافقين والذين في قلوبهم مرض. ولقد
أخفى في نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره. عابه الناس وطعن فيه تيار الذين في قلوبهم مرض. فيؤثر
ذلك أكثرا سينا في إيمان العامة وحركة الدعوة. والنبي صلى الله عليه وسلم لم تكن خشية للناس خشية على نفسه. بل
كانت خشية في الله. وهذا الخوف ليس خوفا مضموما لأن الخوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله تعالى. ومن

المعلومان الله تعالى. فرض للنبي أن يتزوج زينب زوج زيد. ليرتفع بذلك الحرج منالمؤمنين في التزويج بأزواج الأدياء.

ألم يكن هذا الخوف على أرضية الصحابة؟ نعم كان على أرضيتهم لأن كل من سمع من النبي أو رآه فهو صحابي. فالنبي خاف من بعضهم على الدعوة.

فإذا كان قد خاف منهم في موقف كهذا. فكيف بموقف يترتب عليه قيادة هم مناصحها في غليان؟ لقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في بشر فيهم الصالحوالطالح والمحسن والمسيء. والنبي صلى الله عليه وسلم كان ينتظر الوقتالمناسب الذي يعلن فيه ولاية علي بن أبي طالب أمام قريش ومن حولهم فيالمقام الأول لأنهم خميرة الاختلاف وطلب الملك.. وفي أثنه ذلك نزل قولتهتعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغترسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي الكافرين). (٢)

فالآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبي. وكان النبي يخاف الناس منتبليغه ويؤخره إلى حين يناسبه. ولولا مخافته. لم يحتاج إلى تهديده بقوله:

وإن لم تفعل فما بلغت رسالته "، النبي كان يخاف ولكن لم تكن مخافته على

(١)سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٢)سورة المائدة: الآية ٦٧.

نفسه. وكيف يخاف على نفسه وهو الذي بلغ عن ربه. (الذين يبلغونرسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا لله(١) ، كيف وهو الذي بلغ قولتهتعالى: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين(٢))، كيف؟ وهو الذي تلى قولتهتعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناوقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل(٣))، إن النبي لم يخف على نفسه. وإنما يخافأن يتهموا الدعوة اتهاما يفسدها ويترتب على ذلك اختلافها واخترامها، وقد علممن ربه أن هذا سيحدث. ولذا فهو صلى الله عليه وسلم يأخذ بأسباب النجاقلقيم الحجة. فهو يخاف على الدعوة وعلى الذين قدر لهم أن يعيشوا في زمانه،يرى فيه الإنسان الخير والشر فلا يدري أيهما يركب. والله في عباده شئون. قال المفسرون: قوله: " وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " تفيد التهديدبظاها. وإعلامه صلى الله عليه وسلم وإعلام غيره ما لهذا الحكم منالأهمية. فالكلام في صورة التهديد. لبيان أهمية الحكم. بحيث أن هذا الحكم لم يصل إلى الناس. ولم يبرح حقه. كان كأن لم يبرح حق شيء من أجزاءالدين. والتهديد كما في ظاهر الآية. لا يعني أن القرآن يذكر في حق النبياحتمال أن يبلغ الحكم أو لا يبلغ. حاشا ساحة النبي صلى الله عليه وآلهمن ذلك. فالله تعالى يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته). (٤)

فإذا كانت سورة المائدة آخر سور القرآن نزولا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فما هو هذا الحكم النازل؟ إذا كان يختص بالوضوء والصلاة.

ناهيا قد توضحوا وصلوا. وإذا كان يختص بصيام رمضان وإيتاء الزكاة. فالناس صاموا من قبل وزكوا. وإذا كان يختص بتعليم الناس مناسك الحج. فالرسول قد فرغ من حجة الوداع وأخذ الناس عنه مناسكهم والجميع تحت مظلة لا إله إلا الله

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٢.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

الصفحة ١٨٠

محمد رسول الله. فما هو هذا الحكم الذي واكبه تهديد من الله تعالى إذا لم يبلغ؟ قال المفسرون: لم يصرح القرآن بلم هذا الشيء الذي أنزل على النبي من ربه. وعبر عنه بالعنت وإنه شيء أنزل إليه. إشعارا بتعظيمه ودلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله صنع ولا له من أمره شيء. ليكون هذا البرهان على عدم اختيار من النبي في كتمانته وتأخير تبليغه. ويكون له عذر في إظهاره على الناس.

وتلويا إلى أنه مصيب في ما تفرس منهم وتخوف عليه. وإيحاء إلى أنه مما يحب أن يظهر من ناحيته صلى الله عليه وآله ولسانه وبيانه.

هذا عن الحكم. أما قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) (١)، قال المفسرون: أخذ لفظ الناس. اعتبارا بسواد الأفراد. الذي فيه المؤمن والمنافق الذي في قلبه مرض. وقد اختلطوا من دون تمايز، فإذا خيف خيف منعامتهم. والعصمة في الآية. بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجهة إلى النبي أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه.

والذي يجب أن تذكر به إن طريق تبوك في العام التاسع الهجري. أنت جماعة من اثني عشر رجلا، أخبر الحديث الصحيح أنهم لن يدخلوا الجنة حتيلج الجمل في سم الخياط وإهم حرب على الله وعلى رسوله في الحياة الدنيا (١)، وأن الطريق من حجة الوداع إلى المدينة وزمنه ومكانه ضمن الحياة الدنيا...

وأية سورة المائدة التي نحن بصدها. ذهب في أسباب نزلها إلى كالمذهب. فهناك من قال إنها مكية. وهذا القول لا يلتفت إليه. لأن الآية بتمامها لا تنطبق على الأحداث التي ذكرها. فلم يكن من شأن اليهود ولا النصارى عهد النبي صلى الله عليه وسلم. أن يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يجعلهم يسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين. ولم يكن من شأن كفار قريش ومشركي مكة أن يفعل النبي ذلك أيضا. وهم أغلظ جانبا وأشد بطشا وأسفك للدماء

وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب. فهؤلاء لم يمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن تبليغهم أو أخره. وإنما تعامل معهم على امتداد الرحلة بالذي تظهره كتب التفسير والحديث والتاريخ. وهؤلاء قد يأتي منهم خطر. ولكن هذا الخطر لا يأتي إلا بعد أن يتآكل الأساس. وتآكل الأساس مهمة المنافقين والذين في قلوبهم مرض - في المقام الأول - لقد رد ابن كثير على القول بأن الآية مكيفة فقال في تفسيره: إن هذه الآية مدينة. بل هي من أواخر ما نزل بها. (١)

وقول ابن كثير بأن الآية آخر ما نزل. قد يفتح الأبواب على سؤال هو، ما هو الحكم الذي أنزل الله في آخر آية نزلت على رسوله وقال له: (وإن لمنفعلاً فما بلغت رسالته) إن القول بأن هذا الحكم يتعلق بالطهارة والغسل والتكفين. قول لا يلتفت إليه. وعلى أي حال. فهناك نبذة من الأخبار تدل على نزول هذه الآية في حق علي بن أبي طالب يوم غدِير خَم. وقبل أن تقدم أحداث يوم غدِير. حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه أئمة الحفاظ عن جمع من الصحابة " من كنت مولاه فعلي مولاه " نقلها الضوء على الحديث ورواته.

قال ابن كثير في البداية: لما تفرغ النبي من بيان المناسك ورجع إلى المدينة. خطب خطبة عظيمة الشأن في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. بغدير خم تحت شجرة هناك. فبين فيها أشياء. وذكر في فضل علي بن أبي طالب وأمانته وعدله وقربه إليه. وأزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه. وقد اعتنى بأمر حديث غدِير خَم أبو جعفر الطبري فجمع فيه مجلدين وأورد فيها طرقه وألفاظه. وكذلك الحفاظ الكبير أبو القاسم بن عساکر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة. (٢)

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حديث من كنت مولاه. سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون صحابياً. شهدوا به لعلي بن أبي طالب عندما

(١) تفسير ابن كثير ٧٩ / ٢.

(٢) البداية والنهاية ٤٠٨ / ٥.

نوزع أيام خلافته. وصرح بتواتر هذا الحديث العديد من العلماء... وقال ابن حجر: حديث من كنت مولاه، كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد وأكثر أسانيداً صحيح وحسن (١)، وقال الألباني في كتاب السنة:

حديث من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه حديث صحيح جاء من طرق جماعة من الصحابة. خرجت أحاديث سبعة منهم.

ولبعضهم أكثر من طريق واحد. وقد خرجتها كلها وتكلمت على أسانيدھا فيسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢).
وحديث الغدير رواه جمع من الصحابة منهم: زيد بن أرقم، ومالك بن الحويرث، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو أيوب الأنصاري.
وجريير. وجندب الأنصاري، وطلحة وغيرهم، وسجل هذا الحديث في كتبهما العديد من الأئمة والحفاظ منهم: أحمد بن حنبل والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والضياء وابن أبي شيبة. وابن جرير. وابن عساكر وأبو نعيم وموسموية والخطيب والبزار وأبو يعلى والطبراني وابن رهوية. وابن أبي عاصم والمحملي وأورده الهيتمي في مجمع الزوائد في سبع صفحات.

وذكر الفخر الرازي عند تفسيره الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، قال: نزلت هذه الآية في فضل علي بن أبي طالب. فلما نزلت أخذ النبي بيده وقال: " من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعادي من عاداه"، فلقبهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: " هنيئا لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة"، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي (٣) وروى الواحدي في كتابه أسباب النزول عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية: (يا أيها الرسول بلغ...)، يوم غدير خم في

(١) نظم المتنائر من الحديث المتواتر / الكتاني ص ١٩٤.

(٢) كتاب السنة / ابن أبي عاصم تحقيق نصر الدين الألباني ٥٦٦ / ٢.

(٣) الفخر الرازي ص ٤٨، ٤٩ / ١٢.

علي بن أبي طالب.

وغدير خم يقع على الطريق بين مكة والمدينة. وهو على بعد ثلاثة أميال من الجحفة. وهناك حكمة بالغة في اختيار هذا الموقع لإقامة الحجة على قريش من حولهم. فالمنطقة صحراوية إلا من بعض الشجر. وقيل، كان هناك غيطة الغدير مضاف إليها، فالمكان معد لاستقبال من أراد الراحة من عناء سفر طويل.

واختيار هذا المكان لإبلاغ الحكم النازل. كي يكون المكان فريدا لإعلان حكم فريد. بمعنى. لو أعلن الحكم في حجة الوداع مثلا. وسئل الناس بعد ربع قرن على سبيل المثال. ماذا قال الرسول في حجة الوداع: سيقولون. قال كذا عند الحلق والتقصير وذبح الهدى ورمي الجمار وأوصى بكذا وكذا، وأما إذا كانا المكان قد خصص لحكم واحد كغدير خم. فلو قيل: ماذا قال الرسول في الغدير؟ فلن تكون هناك إلا إجابة واحدة على سؤال محدد. وهذا ما فعله علي

بن أبي طالب أيام خلافته فكان لا يقول إلا " نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدِير خم ما قال لما قام (١) " ،،فإفراد المكان بحكم. لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وأما حديث الغدير فإننا نسوق منه ما رواه الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه. قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنع عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور.

فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال:

وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. (٢)

هذه رواية مسلم وفيها الخطوط العريضة. ومنها نعلم أن النبي يودع ويخبر

(١)رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠٤ / ٩).

(٢)رواه مسلم ب فضائل علي (الصحيح ١٧٩ / ١٥) وأحمد (الفتح الرباني ١٨٥ / ١) وابن أبي عاصم (كتاب السنة ٦٤٤ / ٢).

الصفحة ١٨٤

بأنه أوشك على الرحيل من هذه الحياة الدنيا. ولهذا أوصى بالطريق الذي يسوق الناس إلى الصراط الذي يوصلهم إلى ربهم حيث السعادة الحقيقية، وروى الإمام النسائي رواية بزيادة: " إني قد تركت فيكم الثقلين. كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال: الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (١)، وعن عمرو ذي مر وزيد بن أرقم معا. روى الطبراني: " من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأعن من أعانه (٢) " ، وروى ابن جرير عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس. إنهدق نبأني اللطيف الخبير. إنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر النبي الذي قبله.

وايني لأظن إني موشك، وإن أدعى فأجيب. واني مسؤول، وإنكم مسؤولون.

فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بغلت ونصحت فجزاك الله خيرا. قال:

ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق ونار جهنم حق وأن الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها. وأن الله يبعث من في القبور.

قالوا: نشهد بذلك وقال: اللهم فاشهد. ثم قال: أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين. وأنا أولى بالمؤمنين

من أنفسهم. فمن كنت مولاه فعلي مولاه.

اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. أيها الناس. إني فرطكم وأنتم واردون عليا الحوض. حوض عرضه ما بين بصرى وصنعاء. فيه عدد النجوم قدحان منفضة. وإني سألتكم حين تردون علي عن الثقلين. فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

(١) قال ابن كثير رواه النسائي وقال الذهبي وهذا حديث صحيح (البداية والنهاية ٢٠٩ / ٥) ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله (المستدرک ١٠٩ / ٣) ورواه الطبراني عن ابن عمر وابن أبي شيبة عن أبي هريرة وأحمد والطبراني وسعيد بن منصور عن أبي أيوب. والحاكم عن علي وأبو نعيم عن سعد (كنز العمال ٦١٠ / ١١)، وقال ابن كثير رواه أحمد وهذا إسناد جيد رجاله ثقات (البداية ٢١٢ / ٥).
(٢) رواه الطبراني (الزوائد ١٠٤ / ٩) والخطيب في الأفراد عن علي (كنز ١٣١ / ١٣) والبزار وابن جرير وقال الهيثمي رجال إسنادهم ثقات (كنز العمال ١٥٨ / ١٣).

الصفحة ١٨٥

الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم. فتمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا. وعترتي أهل بيتي. وإني قد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. (١)
ولقد وردت روايات تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ البيعة لعلي. كان يذكر كل من يدخل عليه خيمته أو من يراه في منطقة الغدير.

عن جابر بن عبد الله قال: كنا بالجحفة بغدير خم. وثم ناس كثير من جهينة ومزينة وخفار. فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خباء أوفسطاط. فأشار بيده ثلاثا. فأخذ بيد علي. فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه (٢) وعن البراء بن عازب أن عمر بن الخطاب لقي بن أبي طالب بعد ذلك فقال:

هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة. (٣)
باختصار. شهد الغدير إعلان الحكم. وسمعه قريش ومن ناصرهم.

لنفرد المكان بهذا الحكم لتكون الحجة دامغة، وشاء الله أن تتفق الأمة على صحة هذا الحديث. وإذا كانت مقدمة الطريق مكة. حيث كانت حجة الوداع.

فإن مقدمة الطريق شاهد من فيها وسمع البلاغ الذي يستقيم مع المساحة الواسعة. وشاء الله أن يشهد غدير خم ما أعلنه الرسول في مكة أمام هذه المساحة مضافا إليه ما أعلنه أمام قريش، أوائل الناس في الخير والشر كما ورد في الحديث. قال ابن كثير: قال الذهبي: وجدت نسخة مكتوبة عن ابن جرير

(١) رواه ابن جرير الطبري (كنز العمال ٣٩٠ / ٥) والطبراني (كنز العمال ١٨٩ / ١) وابن أبي عاصم عن علي باختصار (كتاب السنة ٦٠٥ / ٢) وقال في كنز العمال رواه ابن راهويه وابن جرير وابن أبي عاصم والمحاملي في أماليه عن علي وإسناده صحيح (كنز العمال ١٤٠ / ١٣) ورواه ابن عساكر (البداية والنهاية ٢٤٩ / ٥).
(٢) رواه البزار (كنز ١٣٧ / ١٣) وقال ابن كثير قال الذهبي إسناد حسن (البداية والنهاية ٢١٣ / ٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبه (كنز العمال ١٣٤ / ١٣) ورواه أبو يعلى (البداية والنهاية ٢١٠ / ٥)، وقال ابن كثير رواه ابن ماجه عن البراء وقد روى هذا الحديث عن سعد وطلحة وجابر وأبي سعيد الخدري وجرير وعمر وأبي هريرة (البداية ٢٥٠ / ٥).

الصفحة ١٨٦

عن عائشة بنت سعد سمعت أباها يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الجحفة. وقد أخذ بيد علي فخطب يوم قال: "أيها الناس إني وليكم.

قالوا: صدقت. فرفع يد علي فقال: هذا وليي والمؤدي عني. وإن الله مولى منوالاه ومعادي من عاداه (١)، لقد استقام البدء مع الختام. ففي حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤدي عني إلا أنا أو علي (٢)" ، وفي غدیر خم قال كامر: "هذا وليي والمؤدي عني"، لقد استقبلت مساحة القيادة الاعلان التام للبدء والختام. ودارت الرحي.

ثالثا - الحجة على من لم يشهد الغدير:

لم يكن إعلان النبي في غدیر خم في خطبة واحدة. وإنما بعد خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل صلى الله عليه وسلم من قبيلة إلى قبيلة على امتداد الغدير وجاءوا إليه من هنا وهناك وهو في خيمته. وذكرهم وأخذ البيعة لعلي كما يستفاد من الأحاديث الواردة. وبعد وصول ركب النبي إلى المدينة بأيام. وصل أفراد سرية اليمن. التي بعثها النبي إلى هناك تحت قيادة علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد. وكان علي قد فارقهم لحضور حجة الوداع وعاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى شهد يوم الغدير.

ويوم أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا إلى اليمن. روي عن أبي رافع أنه قال: لما مضى علي قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا رافع الحق ولا تدعه من خلفه. وليقف ولا يلتفت حتى أجيئه" فأتاه. فأوصاه بأشياء فقال: يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلا خيرا لك مما طلعت عليها الشمس (٣). "ولقد كان لهذا الدعاء أثرا بالغا فيما بعد. فلقد كان مع علي في هذه الرحلة من يبغضه أشد البغض. وعندما عادت القافلة وأراد بعضهم أن يشكوا عليا لرسول الله. خرجوا من عند النبي وحب علي يجري في عروقهم مجرى

(١) قال ابن كثير رواه ابن جرير وقال شيخنا الذهبي وهذا حديث حسن (البداية ٢١٣ / ٥).

(٢) تم تخرجه من قبل.

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١٠٧ / ١٣).

الصفحة ١٨٧

الدم. وسجل التاريخ لهؤلاء أعظم الأثر على امتداد الرحلة بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء بريدة الأسلمي والبراء بن عازب وعمران بن حصين وغيرهم، وروي أن خالد بن الوليد كان على رأس المبغضين لعلي والمحرضين عليه (١)، فعن البراء قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشين فأمر على أحدهما علي بن أبي طالب، ومع الآخر خالد بن الوليد. وقال: إذا كان القتال فعلي (٢). فافتتح علي حصنا فأخذ منه جارية. فكتب معي

خالد كتابا إلى النبي يشي به. فقدمت على النبي فقرأ الكتاب. فتغير لونه. ثم قال: " ماترى في رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " قلت: أعوذ بالله من غضب الله وغضب الرسول. وإنما أنا رسول، فسكت النبي (٣)، وبعد هذه المقابلة كان البراء من المخلصين لعلي.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة قال: أبغضت عليا بغضا لم يبغضها أحد قط، وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا على بغضه علي - هو خالد (٤) - فبعث هذا الرجل على خيل فصحبته ما أصبحه إلا على بغض عليا. فأصبنا سببا.

فكتب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابعث إلينا من يخمسه. فبعث عليا، فأخذ منه جارية. فكتب الرجل - خالد - إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت: ابعتني فبعثني مصدقا. فجعلت أقرأ الكتاب. وأقول: صدق. فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يدي ولكتاب. وقال: أتبغض عليا؟ قلت: نعم، قال: لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حبا، فوالذي نفسي بيده. لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة. قال فما كان من الناس أحد بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلي من علي.

(١) قتل علي يوم بدر أخوه قيس بن الوليد ثلاثة من أبناء أعمامه.

(٢) أي إذا كان قتال فالقيادة لعلي.

(٣) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٨ / ٥) وابن أبي شيبة (كنز ١٣٤ / ١٣).

(٤) صرح باسمه في رواية أخرى عند الإمام أحمد (الفتح الرباني ٥٥ / ١٧)، وأيضا (كنز العمال ١٣٥ / ١٣).

قال عبد الله بن بريدة: فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث غير أبي بريدة (١)، وعن بريدة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا بريدة. أأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت:

بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه - (٢) وفي لفظ - من كنت مولاه فعلي مولاه (٣)، وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقفني علي فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي. وإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي. (٤) "

وعن عمرو بن شاس الأسلمي قال: خرجت مع علي إلى اليمن. فجأفاني في سفري ذلك. حتى وجدت في نفسي عليه. فلما قدمت أظهرت شكايته في المسجد. حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخلت المسجد ذات غدوة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه. فلما رأني أبدى عينيه (أي: حدد إلي النظر) حتى إذا جلست قال: يا عمرو والله لقد آذيتني! قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى عليا

(١) رواه أحمد (الفتح ٥٦ / ١٧) والبخاري في مختصرا (الصحيح ٧٣ / ٣) وأبو نعيم (كنز العمال ١٣٥ / ١٣) وقال في الفتح أقسم ابن بريدة أنه تلقى هذا الحديث من والده بريدة مباشرة، وهو يفيد أن والده تلقاه من النبي مباشرة بغير واسطة يشير بذلك إلى علو السنن (الفتح ٢١٤ / ٢٢).

(٢) رواه أحمد وقال في الفتح قال الهيثمي رجال أحمد ثقات. وقال في موضع آخر رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢١٣ / ٢١) ورواه ابن حبان وسموية والحاكم (كنز العمال ٦٠٩ / ١١).

(٣) رواه أحمد وقال في الفتح رواه أحمد والنسائي والحاكم وقال الهيثمي في موضع رجاله موثقون وفي موضع رجاله ثقات، وفي آخر رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢١٣ / ٢١)، ورواه ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم (كنز العمال ١٣٤ / ١٣)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ١١ / ٣).

(٤) رواه أحمد وأورده الهيثمي وقال رواه الترمذي باختصار ورواه أحمد والبزتر باختصار وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وبغية رجاله أحمد رجال الصحيح. وقال في الفتح أقسم ابن بريدة أنه تلقى هذا الحديث من والده (الفتح الرباني ٢١٤ / ٢١).

فقد أذاني. (١)

وروى الحافظ البيهقي: أن سعد بن مالك كان فيمن خرج مع علي إبناليمين وأصابه من علي بن أبي طالب بعض الغلظة والتضييق. وذلك منعهم من استخدام إبل الصدقة. فاستخدموها فذمهم ولامهم. يقول سعد: فلما جاء -علي- عرف في إبل الصدقة أنها ركبت. فذم الذي أمره ولامه فقلت: أما إن لله علي أن قدمت المدينة وغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذكرن رسول الله ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق. فلما قدمنا المدينة. لقيت أبا بكر خارجا من عند رسول الله. فلما رأيته وقف معي. ورحب بي وسألني وسأله. وقال: متى قدمت؟ قلت: قدمت البارحة. فرجع معي إلى رسول الله!!

وقال أبو بكر: هذا سعد بن مالك بن الشهيد. فقال النبي: انذن له. فدخلت.

فحييت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياني. وسلمت عليه وسألني عن نفسي وأهلي. فأخفى المسألة. فقلت: يا رسول الله. لقينا من علي بن أبي طالب ما لقينا منه! حتى إذا كنت وسط كلامي. ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي فخذي وكنت منه قريبا. وقال: سعد بن مالك بن الشهيد!! مه بغض قومك لأخيك علي. فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله. قال سعد: فقلت نفسي: ثكلتك أمك سعد بن مالك. ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم. وما أدري لا جرم. والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية. (٢)

وعن عمران بن حصين. قال: بعث رسول الله سرية وأمر عليها علي بن أبي طالب. فأحدث شيئا في سفره فتعاقد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمران: وكنا إذا قدمنا من

(١) رواه أحمد (الفتح ١٢٠ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني باختصار والبخاري وأحمد ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه (الزوائد ١٢٩ / ٩)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ١٢٢ / ٣)، ورواه ابن أبي شيبة وابن سعد والبخاري في تاريخه والطبراني (كنز العمال ١٤٢ / ١٣) وقال ابن كثير رواه غير واحد. (البداية والنهاية ٢٤٧ / ٧).

سفر بدأنا برسول الله فسلمنا عليه. قال: فدخلوا عليه. فقام رجل منهم. فقال:
يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثاني فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا.
فأعرض عنه. ثم قام الثالث فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال: يا رسول
الله إن عليا فعل كذا وكذا قال: فأقبل رسول الله على الرابع وقد تغير وجهه. وقال:

دعوا عليا - دعوا عليا - دعوا عليا. إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي. (١)

وهكذا أقيمت الحجة على سرية اليمن. التي قال النبي فيها لعلي عند بدايته رحلته " يا علي لأن يهدي الله على
يديك رجلا خيرا لك مما طلعت عليه الشمس " ولقد صدق رسول الله وانتقل رجال من دائرة البغض إلى دائرة الحب.
وظل النبي يحيط بقيادة علي بن أبي طالب بالرعاية وتسليط الضوء عليها ليقوم الحجة الدامغة. ولم تكن الحجج من
نصيب سرية اليمن وحدها بعد غدير خم وإنما شملت آخرين فعن سعد بن أبي وقاص قال: كنت جالسا في المسجد
أنا ورجليني معي. فنلنا من علي بن أبي طالب. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله غضبان. يعرف في وجهه الغضب.
فتعوذت بالله من غضبه. فقال: ما لكموما لي!! من آذى عليا فقد آذاني (٢)، وعن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى
عليا الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا خطيبا فسمعته يقول: أيها الناس لا تشكوا عليا!! فوالله إنه
لأخشن في ذات الله. أو في سبيل الله. (٣)

وعن وهب ابن حمزة قال: سافرت مع علي بن أبي طالب من المدينة إلى مكة. فرأيت منه جفوة. فقلت: لئن رجعت
فلقيت رسول الله صلى الله عليه

(١) رواه الترمذي وحسنه، والنسائي وأبو يعلى (البداية ٣٤٥ / ٧).

(٢) قال الهيثمي رواه أبو يعلى والبزار باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير محمود بن خدش وقنان وهما
ثقتان (الزوائد ١٢٩ / ٩)، وذكره ابن كثير وقال رواه أبو يعلى (البداية ٣٤٧ / ٧).

(٣) رواه أحمد (الفتح ٢٠ / ٢٣) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٤ / ٣) وأبو نعيم في الحلية (كنز ٦٢٠ / ١١) وقال
ابن كثير تفرد به أحمد (البداية ٣٤٦ / ٥).

وسلم. لأنال من قال: فرجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عليا فقلت عنه. فقال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم: " لا تقولن هذا علي. فإن عليا وليكم بعدي. (١) "

ولكي يكتمل تصور (هو وليكم بعدي) ويرسخ في الأذهان. تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم آية من سورة
المائدة آخر سور القرآن نزولا. وكان آية في علي بن أبي طالب. قال تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين

آمنواالذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذينآمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.(٣))

قال المفسرون: اشتمل قوله تعالى من السياق. على ما يدل على وحدة مافي معنى الولاية المذكورة فيه. حيث تضمن العد في قوله: (الله ورسوله والذينآمنوا)، وأسند الجميع إلى قوله " وليكم " وظاهره كون الولاية في الجميع بمعنواحد. ويؤيد ذلك أيضا قوله في الآية التالية: (فإن حزب الله هم الغالبون)،حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزبا لله. لكونهم تحت ولايته.

فولاية الرسول والذين آمنوا. إنما هي من سنخ ولاية الله.. ولو كانت الولاية المنسوبة إلى الله في الآية. غير المنسوبة إلى الذين آمنوا. كان الأنسب أن تفرد ولاية أخرى للمؤمنين بالذكر. رفعا للالتباس. كما وقع في نظيرها قال تعالى:

..قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين(٣))، فكرر لفظ الإيمان. لماكان في كل من الموضوعين. لمعنى غير الآخر.

على أن لفظ (وليكم) أتى به مفردا وقد نسب إلى الذين آمنوا وهو جمع.

وقد وجهه المفسرون بكونه الولاية. ذات معنى واحد، هو الله سبحانه علنا لإصابة ولغيره بالتبع... والروايات تدل على أن الآيتين نازلتان في علي بن أبيطالب. فقوله تعالى: (والذين آمنوا)، إطلاق للجمع وإرادة للواحد. وقد كثر

(١)رواه أبو يعلى (البداية ٣٤٦ / ٧).

(٢)سورة المائدة: الآية ٥٦.

(٣)سورة التوبة: الآية ٦١.

في القرآن الحكم أو الوعد والوعيد للجماعة. والحقيقة حسب أسباب النزول للمفرد كقوله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو(١))، وقوله تعالى: (لقدسمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء(٣))، وقوله تعالى: (الذينيظاهرون - من نسائهم ثم يعودون لما قالوا(٣))، وقوله تعالى: (يا أيها الذينآمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(٤))، وقد صح في أسباب النزول أنالمراد به حاطب بن أبي بلتعة في مكاتبته قريش. وقوله تعالى: (يقولون لننرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل(٥))، وقد صح أن القائل عبد الله بنأبي سلول. وقوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار(٦))، وقد وردأنها نزلت في علي بن أبي طالب، وقوله تعالى: (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرقفعسى(٧))، والقائل هو عبد الله بن أبي، وهذه الآية واقعة بين الآيات المبحوثعنها نفسها إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت بلفظ الجمع ومصداقها حسب أسباب النزول مفرد.

أما الحديث الذي يشهد بأن الآية نزلت في علي بن أبي طالب. فقد اتفق على نقله من غير رد أئمة التفسير بالمأثور. واتفق عليه أحمد والنسائي والطبراني والطبري وعبد بن حميد وغيرهم من الحفاظ وأئمة الحديث. فعن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بين راعع وساجدوقائم وقاعد. وإذا مسكين يسأل. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: ذلك الرجل القائم، قال:

- (١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.
- (٢) سورة آل عمران: الآية ١٨١، والقائل يهودي اسمه قخاص (تفسير ابن كثير ٤٣٤ / ١).
- (٣) سورة المجادلة: الآية ٢ و ٣، والذي ظاهر هو أوس وكان تحتها ابنة عم يقال لها خولة (تفسير ابن كثير ٣٣٠ / ٤).
- (٤) سورة الممتحنة: الآية ١، نزلت في حاطب بن أبي بلتعة (تفسير ابن كثير ٣٤٥ / ٤).
- (٥) سورة المنافقون: الآية ٨، والقائل عبد الله بن سلول (تفسير ابن كثير ٣٧١ / ٤).
- (٦) سورة البقرة: الآية ٢٧٤، نزلت في علي بن أبي طالب (تفسير ابن كثير ٣٣٦ / ١).
- (٧) سورة المائدة: الآية ٥٢، نزلت في عبد الله بن أبي (تفسير ابن كثير ٦٨ / ٢).

على أي حال أعطاك؟ قال: وهو راعع، قال: وذلك علي بن أبي طالب. قال: فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون). (١)

وقال ابن كثير، قال ابن جرير. الآية نزلت في علي بن طالب تصدق وهو راعع (٢)، وروى الطبراني: بطريق إلى عيسى بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بنعلي بن أبي طالب قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي قال: " نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا...) الآية، فخرج رسول الله فدخل المسجد والناس يصلون بين راععوقائم وإذا سائل. فقال: يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً. فقال: لا إلا ها ذاالرااعع - لعلي - أعطاني خاتمه. (٣)

إنها المنقبة التي جمعت أحداث الغدير. منقبة تفرد بها علي فتصدق وهو راعع. ليستقيم هذا التفرد. مع تفرد الغدير بحديث واحد وحدث واحد. فإذا قيل: ماذا قال النبي في الغدير؟ تردد صدى الإجابة مع إجابة سؤال: من الذي تصدق وهو راعع؟ إنه موقف التفرد وسط مواقف كثيرة، فلقد روى عن ابن عباس قال: " نزلت على ثلاثمائة آية. (٤) " وعنه. قال: " كان لعلي ثماني عشرمنقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة (٥) "، وإذا لا خلاف على أن منقبة علي بنأبي طالب في هذه الآية واحدة من هذه المناقب التي لم يتمتع بها غيره.

إن ظلال ولاية الله ورسوله والذين آمنوا، يلتقي مع ظلال وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. وتحت هذا الظلال ينتهي الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة. ولقد قامت الحجة في أول الطريق وشاع حديث الكساء

(١) رواه ابن مردويه (تفسير ابن كثير ٧١ / ٢).

(٢) تفسير ابن كثير ٧١ / ٢.

(٣) رواه الطبراني (البداية والنهاية ٣٥٨ / ٥).

(٤) تاريخ الخلفاء / السيوطي ص ١٦١.

(٥) تاريخ الخلفاء ص ١٦١.

الصفحة ١٩٤

والمباهلة والمنزلة والولاية بين الناس. والماضي زاد للحاضر. والقرآن حثلى النظر إلى الماضي كي يتبين الإنسان في الحاضر خطأه. لأن الماضي لا يعمل فيه برنامج واحد ولم يكن ملكا لدائرة واحدة. فالنظر والتدبر فريضة حثلا يلد الحاضر مستقبلا كسيحا. نكون نحن بالنسبة إليه ماضيا وحنما في عالم الكساح لن يكتب للذين لم يتدبروا الخلود.

الصفحة ١٩٥

خامسا - النور بين التحذير والتبشير

في بداية الطريق غرس الله تعالى في الإنسان ما يهديه سلوك الصراط المستقيم. وبعث سبحانه الأنبياء والرسل كي يسوقوا الناس نحو ربهم بعيدا علنا لأشواك وخيام الشذوذ التي أقامها الشيطان وأولياؤه. فالدين الذي يأتي بهرسل الله عليهم السلام هو الطريقة الوحيدة التي تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي والحياة الدائمة الحقيقية. ومن رفض الدين فقد أعرض عن الذكر والعبادة التي من أجلها خلق الله الإنسان. وعلى هذا يدخل بأقدامه في دائرة الضنك حيث ضيق المعيشة في الدنيا ثم في دائرة العمى يوم القيامة. والله تعالى لا يظلم الناس. والعذاب الذي يرونه في الدنيا وسيرونه في الآخرة هوننتيجة طبيعية لأعمالهم.. ومنذ فجر التاريخ تأتي الأمم وتجري عليها سنة الابتلاء والامتحان. تلك السنة الإلهية التي لا يستثنى منها المؤمن والكافر والمحسن والمسيء. وتحت هذه السنة يمتحن الله تعالى البشر. بكل جزء من أجزاء العالم وكل حالة من حالاته التي لها صلة بالإنسان ليعلم سبحانه كيف وإلى أين سيوجه الإنسان إرادته واختياره. ومن هو المحسن ومن هو المسيء، ومن الصابر ومنالقانط إلى غير ذلك، وما من امتحان يفتح إلا وفيه حجة من الله ترشد إلى طريق الحق لأن الله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه.

وبني إسرائيل أمة من الأمم التي اختبرها الله تعالى وفي البداية قال لهم موسى عليه السلام كما أخبر تعالى:
(قال عسى ريكم أن يهلك عدوكم

الصفحة ١٩٦ _____

ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون.(١))

وأقام عليهم موسى وهارون الحجة تلو الحجة، وجاء من بعدهما أنبياء لبني إسرائيل فكذبوا من كذبوا وقتلوا من قتلوا. في نهاية المطاف فاز من بني إسرائيل من فاز ولعن من لعن. والحجة على رأس الجميع يوم القيامة. والأمة الخاتمة، يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون.(٢))

ولما كان الاستخلاف يخضع لسنة الامتحان الإلهي، فما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء إلا وحدد جانب الهدى فيه، وهو يخبر عنبره جل وعلا. فإذا كان الله هو الذي يجري الامتحان على عباده، فهو الذي يبين النجاة من كل شيء إلى عباده. قال تعالى لرسوله: (ليس لك من الأمر شيء.(٣))

فالضعف والقوة والإخزاء والإغاضة وغير ذلك ليس للنبي فيه ضلع، والأمر فيه لله.

وقال تعالى لرسوله: (واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم.(٤))

ومن العجيب أن يقول القوم أن الأمر لهم في تنصيب ما يشاؤون، ومعاختيارهم، ولأن الأمر لهم ركب على أعناق الأمة أغيلمة قريش الذين مهدوا للسفهاء وأولاد الزنا أصحاب أطروحات الاغواء والتزيين والاحتناك.

ومن الأعجب، إن الله تعالى يقول لرسوله: (استقم كما أمرت)، وهم لا

(١)سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

(٢)سورة يونس: الآية ١٣ و ١٤.

(٣)سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

(٤)سورة الشورى: الآية ١٥.

الصفحة ١٩٧ _____

يطبقون أن يقال لهم اتقوا الله. وجمعوا فريقا من الناس وقالوا: هؤلاء رمز للاستقامة والعدالة، وإذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران، وإذا قتل فهو القاتل تحت عنوان: سيدنا قتل سيدنا من أجل سيدنا رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا الخلط أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقيم الحجة بعد أن أقام القرآن حجته على أن الجميع - سيدنا وغير سيدنا - يخضع للسنة الإلهية لا ابتلاء والامتحان، وتحت هذه السنة لا ينبغي للناس أن يزكوا أنفسهم لأن الله أعلم بالمتقين.

- النبي يحذر من أصول الفتن:

في غدير خم وعلى امتداد الرحلة أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة على قريش ومن والاهم وعلى سكان العاصمة الإسلامية أن القيادة محصورة في دائرة لا تأكل الصدقة. ولهذه الدائرة ذروة كما لكل شئ ذروة، وعندما يحث النبي على شئ ويبالغ في الحث عليه إشارة إلى أن المحذر منه سيقتع. والنبي كان يعلم من ربه أن الأمة مختلفة من بعده ولأن الاختلاف واقعا محالة فبث الحجة بطرق مختلفة ضرورة والله لا يظلم الناس.

في البداية خلق سبحانه آدم للخلافة في الأرض، وقبل أن يخلقه قال للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة). (١) لم يقل في الجنة وإنما في الأرض، وبعد خلق آدم نهاه الله عن شجره وحذره من شيطان. وانطلق آدم وزوجه عليهما السلام في الجنة باختيارهما. لم يدفعا للهبوط إلى الأرض لممارسة واجب الخلافة. لأن الله لا يظلم أحدا. وهو سبحانه قادر على خلقهما ودفعهما نحو الأرض. ولكن لكل شئ هدف ومن وراء الهدف حكمة. فلو حدث هذا ما ظهر النفاق الشيطاني وبرنامجه، وما ظهرت دائرة العزم والاختيار عند الإنسان. وآدم وزوجه عليهما السلام كانا منذ

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

الصفحة ١٩٨

البداية من المخلصين الذين لا يقدر عليهم الشيطان بشرك أو نحوه. ولم يجد الشيطان منفذا يؤكد من التزيين لهما سوى أن يقسم بالله أنه لهما من الناصحين (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين). (١)

وما كان آدم يظن أن هناك من يقسم بالله كذبا في هذا العالم الطاهر التقى.

وحدث ما حدث. وخرجا من الجنة وفقا لعزمهما واختيارهما ليمارسا واجبا للخلافة في الأرض التي من أجلها خلقا. والله تعالى قبل خلق آدم علم بعلمه المطلق أن خلقه سيسلكون هنا ويتركون هناك، ولو شاء سبحانه ما فعلوا هذا أو ذلك. لأن كل شئ تحت سلطانه ولا يستطيع أحد من خلقه أن يلفظ من قول إلا بإذنه، وعلى الأرض ضتاب الله على آدم وزوجه واصطفاه وبعث إلى ذريته الأنبياء والرسل. وفي بحور البشرية لبس القسم ألف وجه. وكان مادة أساسية لعرقلة الطريق أمام الذين عطلوا ملكة البصيرة والتفكر في ملك الله الواسع العريض. والأمة الخاتمة جزء من المسيرة البشرية. عرضة لعواصف القسم والدجل. لهذا بث النبي الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة. واختلاف الأمة

ورد في آيات كثيرة من القرآن وروي عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أتاني جبريل فقال: يا محمد إن أمتك مختلفة من بعدك. (٢) "

ودائرة الاختلاف لن تكون على مائدة طعام وإنما على الرأس. لأن منملك الرأس وضع يده على كل بساط. فعن خالد بن عرفطة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنكم ستبتلون في أهل بيتي من بعدي. (٣) "

فالاختبار هنا وليس في مكان غير هذا. والاختبار هنا لأن الكتاب هنا.

والله لا يختبر إلا فيما أمر ونهى. وما ربك بظلام للعبيد. ولما كان علي بن أبي طالب هو رأس أهل البيت فإنه ضمن المادة التي تختبر الأمة فيها. فعنه أنه قال:

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١٢٤ / ١١).

الصفحة ١٩٩

إن مما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الأمة ستغدر بك بعدي. (١) "

والنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، سأل ربه أن لا يفرق أمته، وأن لا يجعل بأسهم فيما بينهم. ولكن الله الذي يعلم ما تحتويه طينة كل إنسان من خلقه أبي عليه. روي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرور فأعطانيها. وسألتها أن لا يجعل بأسهم فيما بينها - وفي رواية - وسألته أن لا يلبسهم شيئاً فأبعلني. (٢) "

فالباب الذي منعه الله غمرته الحجج من كل مكان، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحذر من الاختلاف والافتراق والبغي والاستكبار والإنكار وغير ذلك وتحث على الطاعة والوحدة والأخلاق والاستقامة وغير ذلك لا يخلو منها مصدر إسلامي. ونحن هنا لا نسلط ضوء الحجة إلا على دائرة الجيل الأول في القرن الهجري الأول. لأن على حركة هذا الجيل دارت العجلة آخذة من ورائها في كل زمان الماضي والحاضر وهي تتقدم نحو المستقبل.

ولأن الجيل الأول هو العجينة التي سيأكل من خبزها الجميع ما ترك النبيابا إلا وتكلم فيه، عن أبو زيد قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا

(١) رواه البيهقي وقال ابن كثير ابن كثير سنده صحيح (البداية ٢١٨ / ٦) ورواه البزار بسند صحيح والحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ١٤٠ / ٣).
(٢) رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ١٤ / ١٨) وأحمد (الفتح ٢١٥ / ٢٣) وأحمد وابن ماجه بسند صحيح (كنز ١٢١ / ١١) والترمذي والنسائي وابن حبان والضياء عن خباب (كنز ١٢٣ / ١١).

الصفحة ٢٠٠

أحفظنا. (١) "

كان النبي يعلم من ربه أن الفتنة إذا انطلقت فلن تنطلق إلا من عند الذين سمعوا منه وشاهدوه. وإنها ستسير بوقودهم على امتداد التاريخ، ولهذا كان يشيرو ويحذر. فعن أسامة قال: أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطم (٢) من أطام المدينة ثم قال: هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم بمواقع القطر. (٣) " والتشبيه بمواقع القطر أي أنها كثيرة وتعم الناس. وقال النووي: وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم... وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم (٤) لأن ما أخبر به وقع.

وإذا كان النبي قد أشار إلى مواقع الفتن على ساحة المدينة الواسعة فإن صلى الله عليه وسلم أشار إليها في ساحة أضيقي. فعن أم سلمة قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول: لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن؟ لا إلا إلا الله ما أنزل الليلة من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجر، يريد به أزواجه... يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة. (٥) "

وقيل في المعنى: كاسية من نعم الله، عارية من الشكر الذي تظهر ثمرته في الآخرة (٦)، ومن ساحة بيوت النبي حيث المساحة الضيقة، أشار عليه الصلوات والسلام إلى ساحة أضيقي، روى البخاري عن عبد الله قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: ها هنا الفتنة، ها هنا

(١) رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ١٦ / ١٨) وأحمد (الفتح ٢٧ / ٢١).

(٢) الأطم / القصر أو الحصن.

(٣) رواه البخاري ك الحج (الصحيح ٣٢٢ / ١)، ومسلم (الصحيح ٧ / ١٨).

(٤) شرح مسلم ٧ / ١٨.

(٥) البخاري ك اللباس (الصحيح ٣٣ / ٤) والترمذي وصححه (الجامع ٤٨٨ / ٤) وأحمد (الفتح ٢٤ / ٢٣).

(٦) فتح الباري ٢٣ / ٦٠.

الصفحة ٢٠١

الفتنة، ها هنا الفتنة. من حيث يطلع قرن الشيطان. (١) "

- ٢ الرسول ونظرات على واقع بعيد:

لم يكن النبي يحذر من الفتن فقط وإنما كان يبين لمن حوله أن الفتنة إذا هبت انطلق دخانها في سماء العصور والدهور. وعلى امتداد هذه المسيرة يدون لها ثقافات وقوانين لا تخدم إلا أنصار الشذوذ الذين لا هم لهم إلا التعقيم علنور الفطرة والصد عن السبيل. وفي نهاية المطاف يستخدم المسيح الدجال هذا الأوراق لصالحه.

والدجال أعظم فتنة منذ ذرأ الله نرية آدم وما من نبي إلا وحذر قومها الدجال، ولقد حذر نوح قومه منه ليس على أساس أنه خارج فيهم. لأن نوح كان يعلم من ربه أنه يخرج في الأمة الخاتمة. وإنما حذرهم من نسيج الشذوذ.

لأن كل نسيج من هذا يتلقفه الشيطان ويلقيه على رأس البشرية من جيل إلى جيل، حتى يستقر عند الدجال آخر الزمان، والنبي حذر أصحابه على هذا النحو، لأن الدجال خارج في الأمة الخاتمة لا محالة. فعن حذيفة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأننا لفتنة بعضكم بعضاً أخوف عندي من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال." (٢)

فالشذوذ حلقات، وحلقات الشذوذ يصنعها أصحاب القسم الزائف، أي الأئمة المضلين، فعن أبي ذر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

"غير الدجال أخوف على أمتي؟". ()

قلت: يا رسول الله أي شيء أخوف على أمتك من الدجال؟

(١) رواه البخاري (فتح الباري شرح صحيح البخاري حديث رقم ٣١٠٤ ص ٢٤٣ / ٦ ط دارالريان).

(٢) رواه أحمد والبخاري وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).

قال: "الأئمة المضلين." (١)

فهؤلاء الباب الذي يدون عنده القانون ذو الغلاف المزخرف، الخارج عنهم عن الدين، ولأن الدين غلافه في عالمهم. يكون القابض على الجمر.

والنبي صلى الله عليه وسلم حدد ثلاث فتن: الأولى فيها موت والثانية فيها قتل والثالثة فيها الدجال، ومن نجا عند الباب نجا عند الدجال. عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة من نجا منها فقد نجا.

من نجا عند موتي فقد نجا، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوماً وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه فقد نجا.

ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا. (٢)

فعند موته صلى الله عليه وسلم تحدث أحداث من نجا منها فقد نجا، فهذه الأحداث باب وهذا الباب يوصل إلى الحلقة الثانية. حيث الخليفة المظلوم. فمن وقف في دائرة المظلوم الذي يعطي الحق ثم يأتيه القتل وهو مظلوم فقد نجا، وكم من خليفة قتل على امتداد التاريخ الإسلامي. وكل حزب وكل قبيلة تقسم أن خليفته قتل مظلوماً. ولكي لا تضيع الحقيقة لصالح الدجال فلا بد لتحديد الخليفة أن يقال: خليفة من؟ فإن قيل: خليفة الله، قلنا: ما البرهان؟ إذا نسب أي شيء إلى الله لا بد أن يكون عليه دليل.

ألم تر أن المشركين كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا أن الله أمرهم بهذا. ألم ترأنهم عبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولم يكن لهم دليل على هذا وذلك.

ألم ترى أن عبادة الأصنام دخلت من باب التقرب إلى الله والله برئ من المشركين.

(١) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني إسناده حسن (الفتح ٢٦ / ٢٣).

(٢) رواه الطبراني والخطيب وأحمد والضياء بسند صحيح عن عبد الله بن حوالة (كنز ١٨٠ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرک ١٠١ / ٣).

الصفحة ٢٠٣

ألم تر أن دأب القرآن التمييز بين الحق والباطل والعلم والجهل والجهاد والقعود وغير هذا حتى يكون لكل شيء معالمه ولا تختلط الأوراق. حتى النبوة لا بد أن يكون عليها من الله برهان، والإمامة قال تعالى فيها لإبراهيم عليها السلام: (لا ينال عهدي الظالمين). (١) (وعلى هذا لا بد أن يحدد للناس من العادل ويكون عدله حجة بذاتها على الظالمين).

وكذلك الخلافة. فالخلافة عنه تعالى منزلة. وما دامت عنه تعالى فهو سبحانه الذي يحدد دائرتها. فكم من دائرة إنسان في مهمتها الصد عن السبيل وكلدائرة لها أسماؤها الرنانه. وإذا كان الشيطان قد زخرف قاموس الأسماء وخرجنه تباعه من يدعي الألوهية والنبوة ومراتب الصلاح فلا بد أن يقابل هذا الدوائر الحق التي تشير للناس نحو دوائر الزيف وتسوقهم إلى الصراط المستقيم.

والقرآن أشار إلى دائرة الخلافة وكيف نسبها الله إلى نفسه. فداوود عليها السلام كان رسولا. وبمنزلة الرسالة كان يحق له أن يدخل أي دائرة من دوائر الهدى ولكنه لم يدخل إلا بإذنه، قال تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق). (٢)

فالخلافة ليست وجاهة، لا بد للخليفة أن يتخلق بأخلاق الله. ويريدو يفعل ما يريد الله. ويحكم ويقضي بما يقضي به الله. والله يقضي بالحق وأنيسلك سبيل الله ويسوق الناس إليه ولا يتعداه. ولا يتبع في قضائه الهوى هو بالنفس لأنه يضل عن الحق. ولهذا وصف النبي الخليفة المظلوم الذي يقتل مظلوماً وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه.

ودائرة الخلافة لا يجب أن تفترق عن القرآن ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنيهما لن يتفرقا حتى يردا علي

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة ص: الآية ٣٦.

الصفحة ٢٠٤

الحوض. (١) "

والدائرة الثانية في الحديث دائرة الخليفة الذي يقتل مظلوما، تمهد للدائرة الثالثة التي يتربع فيها الدجال. والطريق بين الدائرتين يجلس فيه القاتل. أي قاتل الخليفة المظلوم. فمن تبين هذه الحقيقة بعد قتل الخليفة. فقد نجا مثل الذين نصروا الخليفة المظلوم في حياته. فعن عبد الله بن مسعود. قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله. كيف تقول في الرجل أحببوا ولم يلحق بهم؟ فقال النبي: المرء مع من أحب (٢)، أما من وضع على عينيه الغمامة ومر على الخطيئة مر الكرام. فيجيبه أبو العرس بن عميرة. قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا عملت الخطيئة في الأرض كان منشدها فكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها (٣)، فمن غاب عنها ورضي وشارك لآي شهدها ورضي وإن بعدت المسافة وبعد الزمان بينهما.

والفتنة في كل حلقة لا بد من أن تترك أثرا لها على القلوب. فمن أنكر لا يتعكر قلبه. ومن رضي تعكر قلبه ودخل على فتنة الدجال وهو يهمل للدجال مغديا له بالروح والدم والمال. وعن أثر الفتن على القلوب. يقول حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تعرض الفتن على القلوب. فأبى قلباً نكرها. نكنت في قلبه نكته بيضاء. وأي قلب لم ينكرها نكنت في قلبه نكته سوداء. حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا. لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مريدا كالكوز مجفيا. لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا.

إلا ما شرب من هواه (٤) " ، ومن أجل هذا لا بد من البحث عن الحقيقة. لأن الحلقة القادمة هي حلقة الدجال. ومن دخل عليها وهو عارف بحقيقتها فقد

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (الزوائد ١٩٣ / ٩).

(٢) رواه البخاري كالأدب (الصحيح ٧٧ / ٤).

(٣) رواه أبو داود حديث ٤٣٤٥.

(٤) رواه أحمد (كنز العمال ١١٩ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرک ٤٦٨ / ٤).

الصفحة ٢٠٥

نجا. أما الذي يدخلها ليجت عن الحقيقة بداخلها، فلن ينفعه إيمانه لأن للآيات لا ينفع فيها إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل. قال تعالى: (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون(١))، وهذه الآيات حددها النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. الدجال والدابة. وطلوع الشمس من المغرب"، رواه الترمذي وغيره (٢).

فالنبي صلى الله عليه وسلم حذر من أصول الفتن وهو يشير إلى بيوت أصحابه. وحذر من فتنة قومه وفتنة قتل الخليفة القائم بالحق. وبين أن الفتنة كبرها وصغيرها يقود إلى الدجال. كان يحذر وفي التحذير حجة كي لا يفتتح الباب.

- ٣ النبي يحذر من رموز الفتن:

بعد أن بين النبي المكان والزمان الذي تهب منه الفتن، وبعد أن بين إلى أين توجه الفتن. خوفهم من رموز الفتن. كي ترعد أيديهم إذا حاولوا فتح الباب.

وأخبرهم بأنهم (بعده) سيختلفون بعد أن جاءهم العلم وأنهم سيحرصون على الإمارة (٣) وأن حرصهم عليها يقودهم إلى سنن الذين من قبلهم. وأن الطريق سينتهي بهم إلى حيث لا قيادة وأن كانت هناك قيادة. فلن يدري القاتل في أي شئ قتل. ولن يدري المقتول في أي شئ قتل (٤) ونحن هنا سنقدم نخبة من الأحاديث التي فيها كلمة (بعدي) فلعلها تفيد الباحث عن الحقيقة. وقبل ذلك نقدم هذه النخبة لتكون فاتحة عن عمران بن حصين قال: قال النبي صلى الله عليه

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٢) راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

(٣) رواه البخاري ك الفتن (الصحيح ٣٣٥ / ٤).

(٤) رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ٣٤ / ١٨).

وسلم: " أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن. يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره(١) " ، ومن العجيب أنهم يقولون. أن الرسول ترك الأمر هكذا في الرياح. كيف وهو كان يخاف أن يأتيهم يرى أن أحق بهذا الأمر من غيره؟ هل يترك القرآن ليتلعب به الناس؟ هل يترك الأمر حتى يناله سفهاء قريش ويتسموا بأمراء المؤمنين وهم في بطون أمهاتهم؟ كيف؟ وهو الذي بلغ الرسالة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء نهارها وليلها سواء.

وإذا كان الأمر هكذا فكيف يترك النبي هؤلاء يزحفون إلى النار وهو المبعوث رحمة للعالمين. لا بد أن يقيم عليهم الحجة أولاً ثم ليزحفوا وقتماشواوا. ويوم القيامة لا يفيد الندم ولا يكون لهم على الله حجة. وهذه الحقيقة ترى في حديث أبي هريرة. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يوشكر رجل أن يتمنى أنه خر من الثريا ولم يل من أمر الناس شيئاً (٢) " ، ومن دائرة الرجل ينتقل التحذير إلى دائرة أوسع. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليتمنين أقوام ولوا هذا لأمر أنهم خروا من الثريا وأنهم لم يولوا شيئاً (٣) " ، وينتقل التحذير إلى دائرة المرتزقة الذين يجيدون الأكلوالهتاف على موائد الرجال وأقوامهم. فعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويل للأمرء وويل للعرفاء وويل للأمناء. ليتمنين أقوام يوماً للقيامه. أن نواصيهم معلقة بالثريا فيجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لن يلواعملا. (٤) "

وإذا كان النبي يحذر الناس من القيادة ويحذر الأمرء والعرفاء والأمناء.

فهو المقصود من هذا أن الدولة لا تعرف النظام. وأن الدولة ينبغي أن تكون بلا

(١) رواه الطبراني في الأوسط (كنز ٢٠٠ / ١٠).

(٢) رواه الحاكم وأقره الذهبي (كنز العمال ١٧ / ٦).

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٩ / ٢٣).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٣ / ٢٣).

الصفحة ٢٠٧

رأس. كيف، وهل أمة بلا رأس تكون جديرة بقيادة العالم. كيف وكان النبي يبعث الأمرء والأمناء والعرفاء في أعمال الدولة. أن العديد فهم من الحديث إنهدعوة للتورع. وكثير منهم تورع حتى لا يتمنى يوماً أن يتجلجل بين السماء والأرض وأنه لم يلي عملا. والحديث له أهداف أوسع. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يذهب أهل الجيل الأول في أمر ليس من حقهم. وحذر من حذوهم. فعن المقدم بن معد يكره. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضرب على منكبه. ثم قال له: " أفلحت يا قديم إن مت ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً (١) " ، فإذا كان الصحابة كلهم عدول ثقات. فمن أولى منهم بالقيادة، ولماذا يحذرهم النبي ومما كان يخاف عليهم؟ لقد كان النبي يحث أصحابه علناً لا ينازعوا الأمر أهله. فعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. " عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك.

وأثره عليك. وأن لا تنازع الأمر أهله (٢) " ، فإذا كنا قد علمنا أن الأمر كله لله.

فعلينا أن نعمم أن أهل الأمر لا يحددهم غير الله. ولذلك كان أبو أيوب الأنصاري يبكي أيام بني أمية. وكان رضي الله عنه قد شهد المشاهد مع علي بن أبي طالب. وعندما سئل عن بكائه. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبكوا على الذين إذا وليه أهله. ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله (٣) " ، ثم إذا كان أحد أحياء قريش من

الذين لم يشر إليهم النبي بولاية الأمر. هم أهل الدين. فلماذا طالب النبي الأمة باعتزالهم. روى الشيخان عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وآله: " يهلك أمتي هذا الحي منقريش "، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم(ع) " ، لو

(١) رواه أبو داود الحديث ٢٩٢٣.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده حسن ورجال ثقات (كتاب السنة ٤٩٣ / ٢).

(٣) رواه أحمد (الفتح ٢٢ / ٢٣) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٥١٥ / ٤)، والطبراني (الزوائد ٢٤٥ / ٥) (٤) رواه البخاري ك بدء الخلفة (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ومسلم ك الفتن (الصحيح ٤١ / ١٨) وأحمد (الفتح ٢٩ / ٢٣).

الصفحة ٢٠٨

كانوا أهل الدين فهل يجوز اعتزال الدين؟

إن النبي كان يخوفهم من فتح الباب. لأن الله أبي عليه أن لا يلبسهم شيعاويذيقهم بأس بعضهم بعضا. وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أن الحق سيكون غربيا، فعن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا قيس عسبان مد بك الدهر. أن يليك بعدي ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم(١) " ، وعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله. حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره " ، وقوله:

"ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله. حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره(٢) " ، وقوله: " ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل " ، لا بد أن يكون عليه دليل على أنه من الله. ومهمته يجب أنتكون محصورة في إقامة مؤسسات القسط والعدل بدلا من مؤسسات الظلم والجور. وقد ورد هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم. بأن القادم. هو المهدي. من عترته. من ولد فاطمة رضي الله عنها ومهمته يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا(٣)، وأوصافه في كتب الحديث فمن أرادها فليراجعها(٤)، هناك فدائرة الظلم زوالها على يدي المهدي الذي من عترته الرسول. والمهدي سيقا تل الدجال آخر الزمان. وزاد المهدي من زاد علي بن أبي طالب. فمن تزود نجا من فتنة الدجال.

وبعد أن بين النبي لأصحابه أن الجور لا يلبث بعده إلا قليلا وكلما طلع برأسه. توارى العدل إلى الظلال. أخبرهم بدائم العضال فعن أبي هريرة قال.

(١) رواه الطبراني عن قيس بن خوشة (كنز العمال ١٩٠ / ١١).

(٢) رواه أحمد (الفتح ٢٢ / ٢٣) وقال الهيني فيه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وبقيه رجاله ثقات (الزوائد ١٩٦ / ٥).

(٣) أبو داود ١١٧ / ٤، وابن ماجه ٢ / ١٣٦٨، الحاكم ٤ / ٥٥٧.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنكم ستعرضون على الإمارة.

وستكون ندامة يوم القيامة. فنعم المرضعة وبئست الفاطمة(١) " ، قال بعضهم:

نعم المرضعة. لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذة الحسية. وبئست الفاطمة. عند الانفصال عنها وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة(٢)، والحرص على الإمارة سيجعل للحريص أنياب ومخالب. فيزرع الجلادين في كل مكان. وسيأتي بالفقهاء علماء اللسان فيفصلون له الفتوى التي تحقق له الأمن والقداسة. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأصحابه فيما رواه مسلم: " يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستتون بسنتي.

وسيقوم فيها رجال قلوبهم قلوب شياطين في جثمان أنس(٣) " ، هؤلاء الرجال.

من أي دائرة جاءوا؟ على أي حال ما دامت قلوبهم قلوب شياطين فلا علاقة لهم بالذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وعن حذيفة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سيكون بعدي عليكم أمراء يأمرونكم بما لا يفعلون.

فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد علي الحوض(٤) " ، من صدقهم وأعانهم لن يرد على الحوض. فإذا سألنا. من الذي يرد على الحوض؟ فإن الإجابة تكشف لك حقيقة هؤلاء الأمراء الكذبة. وعنكعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

اسمعوا. هل سمعتم؟ أنه سيكون بعدي أمراء. فعن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض.

ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه. وهو وارد على الحوض(٥) " ، إسمعوا، إسمعوا. من الذي يرد علي

(١) البخاري ك الأحكام (الصحیح ٢٢٥ / ٤).

(٢) فتح الباري (٢٢ / ٣٢).

(٣) مسلم (الصحیح ٦ / ٢٠) ط اسطنبول.

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وفيه إبراهيم بن قيس وثقه ابن حبان وبقيته رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٤٧ / ٥).

(٥) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٢٥ / ٤) ورواه أحمد عن خباب (الفتح الرباني =

الحوض، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني تارك فيكم خليفتين - وفيرواية ثقلين - أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإني ما يفرقا حتى يردا علي الحوض. (١) "

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه سيلي أمركم من بعدني رجال يطفئون السنة ويحدثون بدعة. ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها " ، قال ابن مسعود: كيف بي إذا أدركتهم؟ قال: يا ابن أم عبد. لا طاعة لمن عصى الله (قالها ثلاث مرات) (٢) ، يطفئون السنة، والإطفاء إما عدم تدوينها. أو تدوينها وعدم معرفة مراميها أو ترجيح الرأي عليها. فعلى كل هذا وغيره يترتب الإطفاء.

وإذا كان هذا الحديث قد أخبر عن أمراء يؤخرون الصلاة فعند البخاري حديث ضياع الصلاة في عهد بني أمية، أحد عهود القرن الأول. (٣) إذا كان النبي قد قال عند تأخير الصلاة لا طاعة لمن عصى الله. فإنه صلى الله عليه وسلم قد قال في عهد ضياع الصلاة. اعتزلوهم. ولكل مرحلة فقه وعلم.

وأخيرا نأتي إلى حديث حذيفة. كان يسأل النبي عن الشر مخافة الوقوع فيه. قال للنبي فيما رواه البخاري وغيره: " يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر. فجاء الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم (٤)، فهذا الحديث سجل وقوع الشر، حلقة وراء حلقة. ويسأل حذيفة عن هذا الشر. ما هو؟ قال النبي: فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا. تأتيكم مشبهة كوجوه البقر لا تدرون أيا من أي (٥) " ، فهل يصح أن يترك الرسول أمته دون أن

-
- (٢٣ / ٣٠ = وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات وأخرجه أحمد وابن حبان (كتاب السنة ٢٥٢ / ٢).
(١) تم تخريج الحديث فيما سبق ورواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوير جاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).
(٢) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني حديث صحيح (الفتح ٢٩ / ٢٣).
(٣) سيأتي الحديث عنه في حينه.
(٤) البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق ب علامات النبوة.
(٥) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٨ / ٢٣).

يبين لهم النجاة من هذه الفتن التي تعصف أول ما تعصف بحبل الصحابة. والله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه، (ما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون (١)) ، وحذيفة لم يسأل النبي عن الشر مرة واحدة. وإنما كان يحب أن يسأل عنه على فترات كما تدل رواياته.

وفي هذه الروايات يقول النبي عن دعاة الشر " دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها " فيقول حذيفة: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال: " هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا (٢) " ، ويسأل حذيفة: وما العصمة من ذلك؟ قال: السيف.

فقلت يا رسول الله: ثم ماذا يكون؟ قال: إن كان الله خليفة في الأرض فضر يظهرك وأخذ مالك فأطعه. وإلا فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال النبي: ثم يخرج الدجال (٣)، فهذه الرواية. قال له: " إن كان الله خليفة في الأرض " وفيه أن البحث فريضة. فقد يكون خليفة الله كهارون في عالم السامري ". فعالم السامري كان عالم واسع عريض. ولا يضر هارون أنه يقف على الأرضية الأضيق في أعين الناس. والأرضية الضيقة لها علم وفقه. وقد يكون الصمت فيها دواء. وقد يكون آخر الدواء الكي وهذا أمر يحدده خليفة الله.

إن لكي شئ علم. ألم تر أن الله رفع نبيه عيسى عليه السلام. وكان في الإمكان خسف الأرض. بمن أرادوا قتله. ولكن هذا تم لهدف ومن وراء الهدف حكمة.

منها امتحان الذين آمنوا بعيسى عليه السلام. فعيسى أخبر وصيه وتلاميذه بأنه سيرفع وأخبر القاعدة العريضة أيضا بذلك وقال لهم: إنه حيث يكون فلنستطيعوا الوصول إليه. ومن المعلوم أن أعداءه لا يستطيعون الوصول إلى السماء. وبعد الرفع جاء الامتحان. كانت الحجة كلمة وصرخة تلميذ. أن الذيعلى الصليب ليس عيسى. فمن استمع نجا، ومن صدق ما يشاهده هلك. وهناتبرز قيمة الوصية والأوصياء. وكلمة الوصي أصدق مما تراه العيون. ولكننا جماهير تركت الوصي والتلاميذ. وانساقوا وراء من يظنون أنه المسيح. ولم

(١) سورة التوبة: الآية ١١٥.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق.

(٣) رواه أبو داود حديث ٤٢٤٤.

الصفحة ٢١٢

يلبث الجور بعد المسيح إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتى ولد في الجور من لا يعرف غيره. و شاء الله أن يجتمع عيسى بن مريم والمهدي المنتظر في عصر واحد. ليخوضا ملاحم الدجال (١).
لقد أمر النبي حذيفة أن يبحث عن الإمام الحق ثم قال: " وإلا فمت وأنتعاص بجذل شجرة. قال: ثم ماذا؟ قال النبي: ثم يخرج الدجال "، فهل بشجرة هنا رمزا لمبايعة حق وخصوصا أن الدجال على الأبواب. ولكن أي شجرة هذالتي يتم مبايعتها وما الناس والكلام إلا شجر. وورد عند البخاري بعد أن قال النبي لحذيفة بأن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال حذيفة: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال النبي. فاعتزل تلك الفرق كلها. ولو أن تعص بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك (٢) "، وعدم وجود الجماعة والإمام وارد. فنحن في زماننا نرى ما نرى. فكل شئ غائب عنا. وغدا يأتي الله بأمره فهل هذه الرواية تختص بزماننا هذا. وكما ذكرنا أن أسئلة حذيفة للنبي كنت بين الحين والحين ولم تكن واحدة. إن الفرق كلها أمر النبي باعتزالها. ولكننا لا اعتزال والوقوف في العراء يكون قريبا من دائرة الموتة الجاهلية لحديث البخاري وغيره " من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية (٣) "، فمابالك بعدم وجود جماعة أصلا والحديث أشار بهذا والنبي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يدفع إنسان

إلى العراء أو يجعله قريبا من الموتة الجاهلية. لذا نجد هفي حديث حذيفة يقول بعد أن أمر باعتزال الفرق: " ولو أن تعص بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " فعند الشجرة يمكن أن يأتي الموت ولكن ليس موتا جاهليا. وعلى هذا والله أعلم أن الشجرة رمزا للجماعة، من فارقها فيالعصر الذي يقصده الحديث تكون ميته ميتة الجاهلية. وبين الإمام والجماعة فيالحديث خط مستقيم يصل إلى الشجرة. والبحث في أصول الشجرة، يقتضي منا

(١) راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق.

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك الفتن.

الصفحة ٢١٣

أن نضع هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " علي أصلي (١) " ...، وقوله: " إنالناس اليوم كشجرة ذات جنى. ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات أشواك (٢) " ، وكل إنسان يبحث عن شجرة.

وكما علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذر من أصول الفتن. فأخبر أن الفتن من بعده ستكون كثيرة وستنتهي إلى الدجال وأن السلطة ستكون كخيمة على بركة من الدماء. الجميع يتصارع من أجل الوصول إليه. ولذا حذر صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى لا ينازعوا الأمر أهله. لأن المنازعة ستفتح الأبواب لما هو أشد وافتك. إذا كنا قد علمنا ذلك. فيجب أن نعلم هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد تيارا بعينه وهو تيار بني أمية. وحذر منه أشد التحذير.

وأخبر أن هذا التيار سيصل إلى السلطة. والوصول إلى السلطة لا يأتي في يومئيلة. فإذا كان سيصل مثلا في مرحلة منتصف الطريق. فلا بد أن تكون مرحلة أول الطريق قد مهدت له ووضعت له الركائز التي يرتكز عليها دينيا. ثم يقوم هو بدوره فيضع الركائز ويمهد لمن يأتي في نهاية الطريق.

وتحذير النبي لأصحابه من الفتن حتى لا يفتحوا الباب لهذا التيار. تعد مرحلة التحذير بالقول إلى مرحلة التحذير بالفعل حيث قام النبي صلى الله عليه وسلم بنفي الحكم بن العاص الذي تعتبر ذريته آخر حكام بني أمية وظلالحكم بن العاص في المنفى. حتى رده عثمان بن عفان سليل بني أمية فيخلافته. ونفى النبي للحكم كان من باب الأخذ بالأسباب وإقامة الحجة، وبمعنأن النبي علم من ربه أن الحكم باب من أبواب الفتن وأن في صلبه من سيركبعلى رقبة الأمة. وأن الأمة ستكون لأبنائه شيعة. فأخذ النبي بالأسباب وأزالأصل العقبة من البداية وهو يعلم أن الأمة سلتى به وستقيم عليه فسطاطا. وإذا كان الحكم بن العاص حلقة أخيرة في الفتنة. فإن النبي لم يكتف بالتحذير منالحلقة الأخيرة فقط. وإنما حذر من الحلقة الأولى لبني أمية التي عليها سيأتي

(١) رواه الطبراني والضياء بسند صحيح (كنز ٦٠٢ / ١١).

أبناء الحكم. باختصار حذر من الشجرة الأموية كلها. وقد أراه الله تعالى من أخبار هذه الشجرة الشيء الكثير الأمر الذي جعله صلى الله عليه وسلم لم يرضاحكا حتى مات صلى الله عليه وسلم.

ففي سورة الإسراء. وبعد أن تحدث سبحانه عن الآيات التي يرسلها لعباده. وعن ناقة ثمود التي قتلها الجاحدون وبعد أن أخبر سبحانه أنه يرسل بالآيات للتخويف والإنذار. قال تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا. (١))

ولا ندري ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن التي جعلها فتنة للناس. ولا يوجد في القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعبها. قالوا: إنها شجرة الزقوم! التي جاء ذكرها في قوله تعالى: (أم الشجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين (٢))، فالشجرة في الآية وصفت بأنها فتنة. أي عقاب للظالمين. فكيف يقال أن العقاب ملعون والله تعالى لم يلعن الشجرة فلو كانت الشجرة ملعونة لكونها تخرج فيأصل الجحيم وسببا من أسباب عذاب الظالمين. لكانت النار، وكل ما أعد للهيها للعذاب ملعونة، وهذا لا يصح لأن الله أعد لها ملائكة للعذاب فقال تعالى:

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة (٣))، وقد أثنى الله تعالى على ملائكة النار، فقال تعالى: (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. (٤))

وبما أن الشجرة جاء ذكرها بين الآيات التي يخوف بها الله عباده. ومنها آية الناقة. فإن الرؤيا والشجرة المشار إليهما في الآية أمران سيظهران على الناس.

أو هما ظاهران. يفتتن بهما الناس فيشبع بهما فيهم الفساد. ويتعرف فيهما الطغيان والاستكبار. وذيل الآية: (ونخوفهم مما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا،)

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ٦٢ - ٦٣.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٤) سورة التحريم: الآية ٦.

يشير إلى ذلك ويؤيده. بل وصدر الآية أيضا يؤيده قال تعالى: (واذ قلنا لكان ريك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا...)، والمعنى: وذكر التثبت فيما ذكرنا لك في هذه الآيات أن شيمة الناس والاستمرار في الفساد والفسوق. واقتداء أخلافهم بأسلافهم في الإعراض عن ذكر الله وعدم الاعتناء بآيات الله. وقد قلنا لك أن ريك أحاط بالناس علما. وعلم أن هذه السنة ستجري بينهم كما كانت تجري ولم نجعل الشجرة الملعونة في القرآن التي تعرفها بتعريفنا.

وما أريناك فيالمنام من أمرهم. إلا فتنة للناس، وقد أحطنا بالناس. (ونخوفهم فما يزيدهما إلا طغيانا كبيرا)، أي تخوف الناس فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا ولا أيطغيان كان. بل طغيانا كبيرا. أي إنهم لا يخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه بل يجيبوننا بالطغيان الكبير. فهم يببالغون في طغيانهم ويفرطون فيعنادهم مع الحق.

وذكر غير واحد من المفسرين أن الله تعالى في هذه الآية يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم. بأن الذي أراه من الأمر وعرفه من الفتن. قد جرت عليه سنة الله فهو سبحانه يمتحن عباده بالمحن والفتن. ويؤيد هذا ما ورد منأحاديث بأن المراد بالرؤيا في الآية. هي رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم في بني أمية. والشجرة شجرتهم. أما القول بأن الشجرة ملعونة هي شجرة الزقوم. فلا معنى له. لأنه لا ذنب للشجرة. وهل وجودها في أصلالجحيم عقابا للظالمين يستحق اللعن. كيف؟ والذي سيسوق الظالمين إليها ملكة لا يعصون الله. ويفعلون ما أمرهم به الله. أما الرؤيا التي أراها الله لرسولهفعلن الحسن قال: فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساء ذلك (١) " ...، وروى أبو بكر ابن خزيمة عنسعيد بن المسيب في قوله: " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس "، قال:

(١) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٧١ / ٣) وقال ابن كثير رواه الترمذي عنالقاسم بن الفضل وقد وثقه يحيى بن سعيد وغيره، ورواه ابن جرير والحاكم والبيهقي(البداية ٢٤٣ / ٦).

الصفحة ٢١٦

رأى ناسا من بني أمية على المنابر فساء ذلك (١).

هذا عن مقدمة بني أمية. أما خاتمهم الحكم بن العاص. فقد روى أبويعلى. رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه كان بني الحكم ينزون علمنبره وينزلون فأصبح كالمتغيظ. فقال: ما لي رأيت بني الحكم ينزون على منبرينزو القردة. فما رؤي رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا بعدذلك حتى مات(٢) " ، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآلهوسلم: " أريت في منامي كأن بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبري كماينزو القردة.(٣) "

أما كون الشجرة شجرتهم ما رواه مطعم قال. كنا مع النبي فمر الحكم بنالعاص فقال النبي: ويل لأمتي مما في صلب هذا (٤)، وعن ضمرة ابن حبيبقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ويل لأمتي من هذا وولد هذا(٥) " ، وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحكم: " إن هذا سيخالفكتاب الله وسنة نبيه وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء ويعضكم يومئذشيعة.(٦) "

أما كون هذه الشجرة ملعونة. ما روى عن عبد الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن عنده. ليدخلن عليكم رجل لعين فوالله ما زلتوجلا أتشوف خارجا وداخلا حتى دخل فلان - يعني الحكم - وروى الإمامأحمد: " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلانا وما ولد من صلبه " ، وفي

(١) أبو بكر بن خيثمة (البداية والنهاية ٥٠ / ١٠).

(٢) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير مصعب بن عبد الله وهو ثقة - قاله الهيثمي (الزوائد ٢٤٤ / ٥) والحاكم وصححه (المستدرک ٤٨٠ / ٤).

(٣) والبيهقي وابن عساكر وأبو يعلى (كنز العمال ٣٥٨ / ١١) والحاكم (كنز ١١٧ / ١١) وقال ابن كثير رواه يعقوب بن سفيان (البداية ٥٠ / ١٠، ٢٤٣ / ٦).

(٤) رواه ابن عساكر (كنز ١٦٧ / ١١).

(٥) ابن عساكر (كنز ١٦٧ / ١١). (الإصابة ٢٩ / ٣).

(٦) رواه الدارقطني (كنز ١٦٦ / ١١) وابن عساكر (٣٦٠ / ١١)، والطبراني (كنز ١٦٧ / ١١).

الصفحة ٢١٧

رواية للبخاري: " لعن الله الحكم وما ولد على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (١) "، وروى البخاري أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال لمروان ابن الحكم: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك (٢) " ، وروى أن عبد الله بن الزبير قال وهو يطوف بالكعبة " ورب هذا البيت الحرام والبلد الحرام أن الحكم بن أبي العاص وولداه ملعونين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (٣) " ، وروى أن الحسن قال للمروان بن الحكم: " لقد لعنك الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك (٤) " (وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك أنكما الشجرة الملعونة في القرآن. وباختصار: روى أصحاب التفاسير كالطبري وغيره عن سهل بن ساعد وعبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وسعيد بن المسيب أن هؤلاء هم الذين أنزل فيهم قوله تعالى: (وما جعلنا الرؤيا) إلقوله: (والشجرة الملعونة في القرآن). أما كون النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ بالأسباب ونفاه. وذلك بعد أن ارتكب الحكم بن أبي العاص الجريمة التي يستحق عليها هذه العقوبة.

وكما نعلم أن الله لا يظلم الناس شيئا. فلقد خلق الإنسان ليمارس واجبا بالخلافة في الأرض. ولم يخرج أحدا من الجنة إلا عندما ارتكب آدم وزوجها الخطأ الذي استحقا عليه الإخراج من الجنة. وعندما ارتكب الشيطان الجريمة التي استحق عليها الطرد واللعن. وهناك فرق بين الإخراج والطرد واللعن.

والحكم بن أبي العاص ارتكب الجريمة التي استحق عليها النفي واللعن. وما

(١) قال الهيثمي رواه أحمد والبخاري بنحو رواية البخاري وعنده رواية كرواية أحمد ورجال أحمد الصحيح (الزوائد ٢٤١ / ٥).

(٢) قال الهيثمي رواه البخاري وإسناده حسن (الزوائد ٢٤١ / ٥).

(٣) رواه ابن عساكر (كنز ٣٥٨ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرک ٤٨١ / ٤).

(٤) رواه أبو يعلى (الزوائد ٢٤٠ / ٥) وابن سعد وابن عساكر (كنز ٣٥٧ / ١١) وذكره ابن كثير في البداية (٢٨٠ / ٨).

الصفحة ٢١٨

كانت الجريمة إلا لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وروى عن حماد بن سلمة.
إن أصحاب النبي دخلوا عليه وهو يلعن الحكم بن أبي العاص فقالوا: يارسول الله ما له. قال: دخل على شق
الجدار وأنا مع زوجتي فكلح في وجهي.

فقالوا: أفلا نلعنه نحن؟ قال: لا فإنني أنظر إلى بنيه يصعدون منبري وينزلونه.

فقالوا: يا رسول الله ألا نأخذهم؟ قال: لا ونفاه (١)، وروى أن سبب نفيه غير ذلك. وهو أن الحكم كان من المرجفين
في المدينة ويبلغ فيها أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد نفاه النبي عندما أمره الله بنفي من كانت ههنا أعماله.
وقد وردت هذه الجرائم وعقوباتها في سورة الأحزاب (٢)، وقد أخبر النبي بأن من الأمة من سيتعهد بني أمية وبني
الحكم حتى يبلغوا ثلاثين رجلا في رواية أربعين. ثم يكون الحديث انطلقهم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وآله: " إذا بلغ بنو أبي فلان ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولا (٣) ودين الله دخلا (٤)، وعباد الله
خولا (٦) (٥) وفي رواية إذا بلغ بنو العاص ثلاثين (٧) "...، وفي رواية إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين (٨) "...، ويبدو والله
أعلم أن هذا العدد يتعلق بعدد رجالهم في المناصب القيادية في الدولة. بمعنى إذا فتح لهم الباب وتولي " ثلاثون "
أو أربعون منهم المناصب فعلوا هذه الأشياء. وحركة التاريخ تؤيد هذا الرأي كما سيأتي في حينه.

- فرسول وإقامة الحجة على القريب والبعيد:

إذا كانت المسيرة بعد النبي وبنص الأحاديث الصحيحة. ستبدأ بفتن تنطلق

(١) الإصابة ٢٨ / ٢٠٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.

(٣) أي يكون المال لقوم دون قوم.

(٤) أي يدخلوا في دين الله أمور لم ترد في كتاب الله وسنة رسوله.

(٥) أي يستخدمون الناس ويستعبدوهم.

(٦) رواه أحمد (الفتح ٣٢ / ٢٣٢) (٧). (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني (كنز ١٦٥ / ١١١).

(٨) رواه الطبراني والبيهقي (كنز ١٦٥ / ١١) (البداية ٢٥٨ / ٨).

من بيوت الصحابة. وإذا كانت الأحداث ستأتي على رقاب العباد برجال قلوبهم مقلوب الشياطين في جثمان أنس
كما في صحيح مسلم. وبدعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها كما ورد في صحيح البخاري. ثم تنتهي
الأحداث بقذف الأمة نحو سنن الأولين ففسير عليها شبرا بشبر وذراعا بذراع. وفي النهاية يكونون غطاء كغطاء السيل
لا قيمة لهم ولا وزن. القاتل فيهم لا يدري فيما قتل والمقتول فيهم لا يدري فيما قتل. إذا كان هذا كله قد دخل من

تحت لافتة القيادة فكيف يقال أن الشريعة قد تكلمت في كل شئ عدا القيادة. وكيف يستقيم قول كهذا مع ما رواه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله: " وأيم الله، لقد تركتم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء. (١) " قال البعض: إن الناس أدرى بشؤون دنياهم. وإن اختيارهم للقيادة ينضوي تحت قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) (٢) ، وقول البعض بهذا. لا يحقق أي دفع لدائرة الرجس. فتحت سقف شؤون دنياهم يجلس أيضا المناققين والذين في قلوبهم مرض وشؤون دنياهم لا تنسى أنها قابلة للاختراق من جهة الشيطان بفقته التزيين والإغواء. باختصار ستكون المسيرة غير محمودة العواقب. ولهذا لا بد من مرشد لها حدده الله الذي أخذ على نفسه فتح طريق العبادة وهداية الناس إليه. ثم إن القول بأن الأمر كان شورى في اختيار الخليفة. أمر لا يمكن إثباته.

وذلك لأن اختيار الخليفة على امتداد المسيرة لم يكن له وجد واحد ولم تتوفر الشورى فيه إلا فيما ندر. وعلى سبيل المثال. فإن يوم السقيفة لم يشهده رجل من بني هاشم بل لم يشهده من المهاجرين عدد لا يتعدى خمسة أفراد على أكثر الروايات وأصحها. ويوم السقيفة كان بحق يوم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حيث توعد سعد بن عبادة مرشح الأنصار وهتف كما جاء في الصحيح " اقتلوا

(١) رواه ابن ماجه (كنز ٣٧٠ / ١١) وابن أبي عاصم، وقال الألباني له متابع قوي عند الإمام أحمد (كتاب السنة ٢٧ / ١).
(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

الصفحة ٢٢٠

سعدا " ، فأبي شورى ترى هنا؟ وقد اعترف عمر فيما بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بأن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقال من عاد إلى مثلها فاقتلوه كما جاء في الصحيح، فإذا كانت البيعة أن عادت على نفس الصورة فجزاء من يقدم عليها القتل. فما القول في هذا؟ وأبو بكر رضي الله عنه وهو على فراش الموت أو صلعم بن الخطاب من بعده ولم يشاور المهاجرين والأنصار عند اتخاذ هذا القرار. وعمر بن الخطاب وهو على فراش الموت جعلها شورى في ستة من أهل الجنة كما ورد في الحديث، ووضع نظاما للاختيار وأمر رضي الله عنه بقتل من عارض إختيار الأغلبية. فمن هذا وذلك لا ترى ما تعارف عليه من الشورى. وفي أيام معاوية وبني أمية. عندما أراد البيعة لولده يزيد. روى أنه جاء بأفصح فقهاءه. وجمع رؤوس القبائل. ووقف الفقيه المحنك وأشار إلى معاوية وقال:

أنت أمير المؤمنين. فإن مت فيزيد. فمن أبي هذا وأشار إلى السيف. وعلى هذا جاء أولاد الحكم بن أبي العاص في القرن الأول الهجري. وعلى هذا أفتنا المحنكون بولاية الفاسق فهل الفاسق يسوق الناس إلى رب العالمين؟ إذا كانت الإجابة نعم، فما معنى قوله تعالى: (والله لا يهدي القوم الفاسقين) (١) ، وكيف يسوق الفاسق الناس إلى رب العالمين؟ إذا كانت الإجابة نعم، قال تعالى: (ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) (٢) ، ولا يرض عنهم: (فإن الله لا يرض عن القوم الفاسقين) (٣) ، وكيف يتم وضعهم على رقبة الأمة. والله قد حذر من المناققين وما

الفاسقين إلا عمال في دائرة الرجس قال تعالى: (نسوا الله فسيهم إن المنافقين هم الفاسقون(٤))، كيف تستأنمه الأمة والله تعالى لميستأنم الفاسق على نأ قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا(٥))، لقد جعل المحنكون من الشذوذ قاعدة استرضاء منهم لخط نصب

(١)سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٢)سورة النور: الآية ٤.

(٣)سورة التوبة: الآية ٩٦.

(٤)سورة التوبة: الآية ٦٧.

(٥)سوره الحجرات: الآية ٦.

خيمته ومن داخلها اتخاذ مال الله دولا. ودين الله دخلا وعباد الله خولا. وجميعذلك تحت شعار الشورى. والحقيقة أن ولاية الفاسق التي أقرها المحنكون فيها تساهل طويلوعريض. لأن الذي أدلى دلوه كي يخرج لنا فيه فاسقا. كان عليه أولا أن يحنن بئر نظيف ليخرج لنا بأخر وقد قال تعالى: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقالا يستنون(١))، نعم قد يكون الفاسق في الذروة ولكن وفقا للقاعدة النبويةحيث قال صلى الله عليه وسلم في قریش: " الناس تبع لقریش في هذا الشأنمسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم(٢) " ، وقال: " صالحهم تبعلصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم(٣) " ، فالناس لا بد لهم من شجرة يستظلونبظلها. وهناك شجرتان، وللناسق شجرة وذروته، أما قوله تعالى: (وأمرهمشورى بينهم)، قال المفسرون: أي أن الأمر الذي يعزمون عليه فيما بينهميتشاورون فيه لاستخراج صواب الرأي بمراجعة العقول. وصواب الرأي تمتصهالعقول من قوله تعالى: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه(٤))، فهذه دائرةأصحاب الشورى، والقرآن الكريم كما سلط الضوء على الذين أمرهم شوربيينهم. سلطة أيضا على الذين فرقوا أمرهم بينهم ووضعهم في دائرة مغلقة عليهمقال تعالى في الصنف الذي رفض الأمة الواحدة والدعوة الواحدة للسبيل الحق(فقطعوا أمرهم بينهم زيرا كل حزب بما لديهم فرحون)، ولأن لهذا الحزبائر على امتداد السيرة لا يكل ولا يمل. قال تعالى لرسوله: (فذرهم فيغمرتهم حتى حين * أیحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فيالخيرات بل لا يشعرون(٥))، فأصحاب هذه الآية قطعوا أمرهم. وجعلوا كلقطة منه كتابا. ثم التقط كل حزب قطعه وانطلق فرحا يقرأ في قطعه كتابه.

(١)سورة السجدة: الآية ١٨.

(٢)رواه البخاري (الصحيح ٢٦٤ / ٢) وسبق تخريجه.

(٣)رواه أحمد ورجال ثقات (الفتح ٢٢٦ / ٢٤) سبق تخريجه.

(٤)سورة الزمر: الآية ١٨.

(٥)سورة المؤمنون: الآية ٥٤ - ٥٥ - ٥٦.

وفي عالم الزخرف والزينة والإغواء يرقصون طربا لما عندهم من مال وبينين.

وهم في الحقيقة لا يشعرون ماذا ينتظرهم في نهاية الطريق. إنهم قد يرون بداية الطريق أو وسطه. أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن تجيئ. وإذا كان القرآن قد سلط الأضواء على الذين أمرهم شورى بينهم والذين قطعوا أمرهم بينهم، فإن الله تعالى أمر دائرة الإيمان وفيها الذين أمرهم شورى بينهم. أمرهم أمرا واحدا لا اختيار فيه حتى يوازنوا بينه وبين أمرهم فقال جل وعلا: (وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا. (١) فكيف يكون هناك اختيار والله ورسوله قد اختار. وفي هذا الاختيار قمة الحرية الحقيقية التي توفر للإنسان إنسانيته الحقّة. حتى نعود إلى من حيث بدأنا ونقول:

رُئى علم النبي صلى الله عليه وسلم بما سيحدث في النهاية يقتضي أن يقيم عليه الحجة في البداية. وإقامة الحجة سنة إلهية يترتب عليها الثواب والعقاب. ألم ترى أن الله أقام الحجة على خلقه وهم في عالم الذر. أقامها عند أول أعتاب خلق البشرية. لعلمه أن المسيرة ستنتج المؤمن والكافر والمحسن والمسيء، قال تعالى: (وا إذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (٢) فإذا كان سبحانه قد أقامها في البداية في عالم الغيب. فإنته تعالى قد أقامها على امتداد العصور. وإن كانت الحجة قد سدّت الأبواب فيوجوه البعض. فإنها فتحتها أمام آخرين. والنبي ما سد شيئا ولا فتحه. ولكنهم أمر بشئ فاتبعه وهو في هذا عبدا مأمورا. ما أمر به فعله. إن يتبع إلا ما يوحى إليه. والنبي ما أدخل أحدا وما أخرج أحدا. ولكن الله هو الذي أدخل هذا وأخرج هؤلاء. وذلك لأن المستقبل به أصحاب شجرة خبيثة. والشجرة الخبيثة لا بد أن يقابلها شجرة طيبة، والمستقبل فيه دائرة رجس لا بد أن يقابلها دائرة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

طهر. والمستقبل به الذين في قلوبهم زيغ الذين يريدون الفتنة المتشابهة. ولا بد أن يقابلهم الراسخون في العلم فبعد أن أشارت الأحاديث التي بها كلمة (بعدي) إلى مواقع الفتن. إلى مقدماتها ونتائجها وبداياتها ونهاياتها.

أشارت أحاديث أخرى إلى مواقع الأمان. لتقوم الحجة ويظهر التبشير والتحذير على صفحات التاريخ. وعن هذه الأحاديث عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: " أنت وليي في كل مؤمن بعدي (١) "، وعن عمران بن حصين قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي (٢) "، وعن بريدة الأسلمي قال: قال النبي صلى الله عليه وآله في علي: فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي. وإنهمني وأنا منه

وهو وليكم بعدي (٣)، وعن بريدة أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا بريدة إن عليا وليكم بعدي. فأحب عليا فإن يفعل مايؤمر (٤) " ، وعن أنس قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا علي أنتتبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي .(٥) " وعن وهب بن حمزة قال: قال

(١)رواه أحمد ورجاله ثقات غير أبي بلج وهو ثقة وطيه لين (الفتح ١١٦ / ٢٣) وقال ابنكثير رواه أبو داود الطياليسي (البداية ٣٤٦ / ٧) ورواه ابن أبي عاصم وقال الألبانيصحيح (كتاب السنة ٢٦٣ / ٥).

(٢)رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني: إسناده صحيح ورجاله ثقات على شرط مسلموالحديث أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم وأحمد من طرق أخرى. وقال الترمذيحديث حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي (كتاب السنة ٥٦٥ / ٢)، ورواه ابن جرير بسند صحيح (كنز العمال ١٤٢ / ١٣) وابن أبي شيبة بسند صحيح (كنز العمال ٦٠٨ / ١١)، والطبراني وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني فيالأوسط وباختصار في الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح (الزوائد ١٠٩ / ٩).

(٣)رواه أحمد وقال في الفتح الرباني. رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأسانيد الكبيررجاله رجال الصحيح ورجال أحمد ثقات (الفتح ١١٧ / ٢٣)، ورواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٦٠٨ / ١١).

(٤)رواه الديلمي (كنز العمال ٦١٢ / ١١).

(٥)رواه الديلمي (كنز العمال ٦١٥ / ١١).

الصفحة ٢٢٤

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقولن هذا لعلي فإن عليا وليكمبعدي(١) " ، وعن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست نبيا. إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنتخليفتي في كل مؤمن من بعدي.(٢) "

والمعروف أن أظهر منازل هارون بعد موسى. وزارته له. وخلافته عنه.

واشترآكه في الأمر معه. قال سبحانه حاكيا عن نبيه موسى: (فاجعل لي وزيرامن أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري)، إلى قوله تعالى: (قدأوتيت سؤلك يا موسى(٣))، وقال تعالى: (وقال موسى لأخيه هارون أخلصني قومي وأصلح(٤))، والنبي صلى الله عليه وسلم عندما نزل قوله تعالى:

(وأذر عشيرتك الأقربين)، قال لهم كما ذكرنا من قبل في رواية صحيحة: " إنهذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم واسمعوا له وأطيعوا "، وعندما اتسعت الدائرةكما ذكرنا قال: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى "، ثم اتسعت الدائرة فبعثه بسورة براءة وقال كما ذكرنا في رواية صحيحة: " ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي "، وعندما اتسعت قال: " من كنت مولاه فعلي مولاه "، وعلي بحكم نضمنزلة هارون من موسى. خليفة الرسول في النواة التي تدور حولها القربوالقبائل. ولعلي ابن أبي طالب على الأمة جمعاء فرص الطاعة كما كان لهارونبالنسبة إلى أمة موسى. ومن وحيث طاعته لا يكون مأمورا، وها نحن قد أوردنا نخبه من الأحاديث الصحيحة التي توجب الطاعة. فأبي حجة بعد ذلك.

ولقد قام النبي بتحسين هذه الطاعة فعن عبيد الله بن عباس قال: نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي فقال: يا علي أنت سيد في الدنيا سيد في الآخرة. حبيبك حبيبي. وحبيبي حبيب الله. وعدوك عدوي وعدوي عدو الله.

(١) رواه ابن كثير في البداية (٣٤٦ / ٧).

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده حسن ورجاله ثقات (كتاب السنة ٥٦٥ / ٢).

(٣) سورة طه: الآية ٣٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

الصفحة ٢٢٥

والويل لمن أبغضك بعدي (١)، وعن أم سلمة قالت: أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أحب عليا فقد أحبني. ومنأحبني فقد أحب الله. ومن أبغض عليا فقد أبغضني. ومن أبغضني فقد أبغض الله (٢)، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا علي من فارقتني فارق الله ومن فارقك يا علي فارقني (٣)، وعن علي قال. قال ليلانبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضائك (٤)، أليس في هذا كله سوق للناس نحو الطاعة؟ وعن عمرو بن شاس الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا عمرو والله لقد آذيتني. قلت:

أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى عليا فقد آذاني (٥)، وعن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن نالوا من علي:

" ما لكم وما لي. من آذى عليا فقد آذاني (٦) " ، أليس في هذا تحسين للخليفة وسوق للناس إلى صراط المستقيم؟

ألم تجمع الأمة على حديث من كنت مولاه فعلي مولاه؟ فما جزاء منأهان ولي الله وسلطانة؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من أهان لي وليا

(١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين. وأبو الأزره بإجماعهم ثقة. وإذاتفرد الثقة بحديث فهو على أصلهم صحيح. والحديث سمعه يحيى بن معين بن أبو الأزره فصدقه واعتذر إليه إن كان قد رماه بالكذب (المستدرک ١٢٨ / ٣) وأورده ابن كثير في البداية ٣٥٦ / ٧.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ١٣٢ / ٩).

(٣) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٥ / ٩).

(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٢ / ٩).

(٥) رواه أحمد (الفتح ١٢٠ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني باختصار والبزار أصغر منه. ورجال أحمد ثقات، ورواه ابن حبان (الزوائد ١٢٩ / ٩)، ورواه ابن أبي شيبة وابن سعد وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم (المستدرک ١٢٢ / ٣) (كنز العمال ١٤٢ / ١٣).

(٦) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ١٢٩ / ٩) ومر سابقا.

الصفحة ٢٢٦

فقد بارزني بالعداوة(١) " ،... ، وقال: " من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله(٢) " ، وقال: " أول فرقة تسير إلى السلطان في الأرض لتذله يذلهم الله يوم القيامة .(٣) " وقال صاحب تحفة الأحوازي: من أهان من أعز الله وألبسه خلعة السلطنة أهانه الله. وسلطان الله في قوله: (إنا جعلناك خليفة في الأرض (٤) (فالله هو الذي جعل. وإضافة السلطان إلى الله أضافت تشريف كبيت الله وناقة الله (٥) ولأنه سلطان الله. فمن خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية كما ورد في صحيح البخاري .(٦) ولأنه هذا السلطان في مركز النواة. فهو العمود الفقري للجماعة ومن فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية، كما ورد أيضا في البخاري (٧)، وعن حذيفة من فارق الجماعة شبرا خلع ريقه الإسلام من عنقه (٨)، فإذا لم يكن هذا كله تحصينا للخليفة وحثا للناس كي يكونوا يدا واحدة وسوقا لهم نحو الصراط المستقيم. فأبي كلام بعد ذلك يجدي؟

"من كنت مولاه فعلي مولاه" ، ألا يستشف عن هذا النص إمارة أي إمارة.

فإذا كانت فيه. فكيف نفهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله.

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم في الطب عن أبي أمامة. ورواه ابن عساكر عن أنس بلفظ " من أخاف لي وليا فقد بارزني بالمحاربة (كنز ٢٢٩ / ١) ، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن عائشة بلفظ " من أذى لي وليا فقد استحل محاربتني " (كنز ٢٣٠ / ١) ورواه الطبراني عن ابن عباس بلفظ " من عادى لي وليا فقد ناصبني بالمحاربة(كنز ٢٣١ / ١).

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني حديث صحيح (كتاب السنة ٢٨٩ / ٢) ورواه الترمذي عن أبي بكر (كنز ١٨٢ / ١).

(٣) رواه الديلمي عن حذيفة (كنز ٢١٥ / ١).

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

(٥) تحفة الأحوازي ٤٧٦ / ٦.

(٦) البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك. الفتن.

(٧) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٢٢ / ٤).

(٨) ابن أبي شيبه (كنز ٢٨٤ / ١).

ومن أطاع أميري فقد أطاعني. ومن عصى أميري فقد عصاني(١) " ، ألا ينطبق هذا النص على أي شيء مما ذكرناه في علي بن أبي طالب؟

والخلاصة: لقد حذر الله تعالى من دائرة البخس التي يعمل بداخلها حكومة دينية تتخذ الدين ستارا. وهدف هذه الحكومة رد الذين آمنوا بالله عندئذ ووضعهم على أرضية لا علاقة لها بالصراط المستقيم. وحذر تعالى مندائرة الرجس التي يعم بداخلها طابور خامس تلتقي أهواؤه في الخطوط العريضة مع أهواء حكومة الأعباء وعباقره الأوثان. ولما كانت الحكومة التي تواجهها الحكومة. فقد أمر تعالى بأن يكون المؤمنون كلهم يدا واحدة. ولما كان لكل شيء

ذروة أعلن النبي ولاية علي بن أبي طالب على رأس الحكومة الدينية. فإذا نظرت ولم تجد الرأس. فلا تسأل في خاتمة الطريق كيف اتبعت الأمة سنننا لأولين التي صممها أحبار الحكومة الدينية وأشرف على تنفيذها جميع الخدم والعبيد.

- خاتمة المطاف عند الحوض يوم القيامة:

بعد أن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن وكيفية النجاة منها.

وبعد أن قام قبل ذلك بإغلاق الباب الذي تهب منه أعاصير الفتن أخذاً بأسباب النجاة مع علمه بأن الأمة مختلفة بعده. فليس معنى أن الموت قد كتب علينا لإنسان. أن يجلس الإنسان في انتظاره. ولكن عليه أن يأخذ بأسباب الحياة الكريمة التي تحقق له الحياة السعيدة في الآخرة. والنبي قدم كل سبب يؤدى للنجاة من يوم يجد المرء فيه ما قدمت يداه. والذي أخذ بسبب في الدنيا سيستلقه حتى يرد على الحوض يوم القيامة. وعند الحوض سترى وجوه الجميع ولن ينجو إلا الذي أخذ بالكتاب والعترة، كما أخبر النبي، ومن يشفع له صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن ماجه في باب الخطبة يوم النحر

(١) رواه البخاري ك الأحكام (الصحيح ٢٣٣ / ٤) وأحمد بسند صحيح (الفتح ٤٠ / ٢٣) وابن أبي عاصم بسند صحيح (كتاب السنة ٥٠٧ / ٢).

الصفحة ٢٢٨

ص ٦٢٩ / ٣٢ أن حديث الحوض كان في حجة الوداع، أي ذكره النبي يوم أن أمر الأمة أن تأخذ بالكتاب والعترة. ومن العجيب أن بعض الأحاديث قد أشارت إلى رجل يظهر عند الحوض يخبر النبي بما حدث بعده. وفي أحاديث أخرى كشف النقاب عن هذا الرجل لنتبين أنه علي بن أبي طالب الذي زوده الله بخاصية أنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق كما ورد في مسلم وغيره، ولنتتبع الأحاديث حتى نصل إلى ما ذكرنا.

روى الشيخان عن سهل. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أنا فرطكم على الحوض من ورد وشرب ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليردن علياً أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم (١)، وفي رواية عن عبد الله:

"أقول يا رب أصحابي أصحابي. فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (٢)، وفي رواية عن أبو هريرة، فيقول، "إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدمهم القهقري (٣)، وفي رواية عن أسماء " فيقال: هل شعرت ما عملوا والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم (٤) " ، وفي رواية عن ابن عباس:

"فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. (٥) "

فهذه الروايات هي صلب هذا الحدث الخطير. وفي روايات أخرى ظهرت الإشارة إلى الرجل. روى البخاري عن أبي هريرة قال. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بينما أنا قائم، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم. خرج رجل من بيني وبينهم. فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله. وقلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري. ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم.

-
- (١) البخاري ك: الدعوات (الصحيح ١٤١ / ٤). مسلم ك الفضائل ب الحوض (الصحيح ٥٣ / ١٥) وأحمد (الفتح ١٩٢ / ١).
(٢) البخاري ك الدعوات (الصحيح ١٤١ / ٤) مسلم ك الفضائل ب الحوض (الصحيح ٥٩ / ١٥) وأحمد والبيهقي عن ابن سعود (كنز ٤١٨ / ١٤).
(٣) البخاري ك الدعوات (الصحيح ١٤٢ / ٤) ب الصراط.
(٤) رواه مسلم عن أسماء وأحمد ومسلم عن عائشة (كنز العمال ٤١٩ / ١٤).
(٥) البخاري في تفسير سورة الأنبياء (الصحيح ١٦٠ / ٣) مسلم (١٩٤ / ١٧).

الصفحة ٢٢٩

خرج رجل من بيني وبينهم. فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله.
قلت: ما شأنهم. قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري. فلا أراه يخلص منهم ألا مثل همل النعم. (١). ففي هذه الرواية ظهر رجل شاهد عليهم.

وكلما ذهب زمرة وجاءت أخرى فالرجل شاهد ولا يغادر موقعه. وفي رواية أخرى أشير إلى الرجل بصورة أخرى فعن أم سلمة " فصرخ صارخ فقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول سحقا سحقا (٢) " ، وفي رواية حدد زمن هذا الرجل، بأنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم. فعن أم سلمة رضي الله عنها. قالت قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس بينما أنا على الحوض. جنبكم زمرا (أي جماعات) فتفرقت بكم الطرق. فناديتكم: ألا هلموا إلى الطريق (أي اقبلوا) فناداني مناد من بعدي فقال: إنهم قد بدلوا من بعدك. فقلت: ألا سحقا سحقا - (٣) وفي رواية - فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي (أي بعدا بعدا. أو مكانا سحيقا أو بعيدا. (٤))

وبنظرة سريعة على بعض الأصناف التي تدخل تحت بند سحق يمكن أن نحدد طبيعة من هو الرجل أو الصارخ أو المنادي الذي ورد ذكره في الأحاديث.

بمعنى أن المكان الذي به الجاني حتما سنجد فيه ما يشير إلى المجني عليه أو إلى الشاهد. فليُنظر في الأصول مرة أخرى. هذا هو حديث الثقلين يوم غدير خم ورواه غير واحدة وفيه " إنني تارك فيكم خليفين " ، وفي رواية " ثقلين " - أحدهما أكبر من الآخر - كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعترتي أهليتي وإني لئن يفترقا - حتى يردا علي الحوض - (٥) وفي رواية - وإن اللطيف الخبير خبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني

-
- (١) البخاري (الصحيح ١٤٢ / ٤) ك الدعوات ب الصراط.
(٢) رواه أحمد بسند صحيح والطبراني (كنز العمال ٤٣٦ / ١٤).
(٣) رواه أحمد وقال في الفتح إسناد جيد (الفتح الرباني ١٩٧ / ١).
(٤) فيه إشارة إنهم غير عصاة لأن العاص يشفع له النبي. وهؤلاء أبعدهم.
(٥) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن والطبراني عن أبي سعيد، وقال المناوي رجالهموثقون (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).

فيهما - (١) " وفي رواية: وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله . ورغب فيه . ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي - (٢) وفي رواية - إنني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض. إن الله مولاي. وأنا ولي كل مؤمن. من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم والي من والاه وعاد من عاداه. (٣)

من هذا نعلم أن الأقدام الثابتة عند الحوض يوم القيامة هي الكتاب والعترتة على رأس أهل البيت علي بن أبي طالب. فالشاهد أو المجني عليه في هذا الدائرة. ثم لننظر نظرة سريعة أيضا في أصناف الذين سيقال لهم سحقا لنعرف من أي دائرة هم - عن خباب قال: إنا لنعوذ على باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ننتظره أن يخرج لصلاة الظهر إن خرج علينا. فقال: " اسمعوا " فقلنا:

سمعنا. ثم قال: " اسمعوا " فقلنا: سمعنا. فقال: " إنه سيلي عليكم أمراء فلاتعينوهم على ظلمهم. فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد على الحوض - (٤) " وفي رواية - اسمعوا. هل سمعتم؟ إنه سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم (٥) فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علنا الحوض - (٦) " وفي رواية - سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم

-
- (١) رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبي شيبة وابن سعد عن أبي سعيد (كنز ١٨٦ / ١).
(٢) رواه مسلم والصحيح ١٧٩ / ١٥) ك فضل الصحابة.
(٣) رواه الطبراني والحاكم عن زيد بن أرقم (كنز ١٨٧ / ١).
(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٣٠ / ٢٧) وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات أخرجه أحمد وابن حبان (كتاب السنة ٣٢٢ / ٢).
(٥) قال في تحفة الأحوازي (فمن دخل عليهم) أي العلماء وغيرهم، (وأعانهم على ظلمهم) أي الافتاء ونحوه (فليس مني ولست منه) أي بيني وبينهم براءة ونقص ذمة (التحفة ٥٣٧ / ٦).
(٦) رواه الترمذي عن كعب بن عجرة وصححه (٥٢٥ / ٤) وقال في تحفة الأحوازي أخرجه النسائي وأحمد (التحفة ٥٣٧ / ٦).

بكذبهم وأعانهم على فجورهم فليس مني ولست منه ولا يرد علي حوضي. (١) "

من هذه الأحاديث نرى أن هناك رؤوس وقواعد طواغيت ورعاع. مادتهم الكذب وهدفهم الفجور وبين هذا وذاك (رحماء) وغوغاء، وهؤلاء لا علاقة لهم بالكاتب. لأن الكتاب له هدف. ولا علاقة لهم بالعترة لأن العترة ظاهرة وهؤلاء خرجوا من بحيرات الفجور والدنس. فطردهم من على الحوض شئ طبيعي.

لأنهم بغضوا الطهر والنقاء. بغضوا حكم الكتاب وحركة العترة. ومن كان شأنه هذا كانت النار مثواه، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار (٢) " ، وعن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا دبر يوم القيامة عن الحوض (٣) " ، وعن أنس قال صلى الله عليه وآله: " لا يشربه أحد أخفر ذمتي ولا قتل أهل بيتي (٤) " ، ألم تقرأ من قبل الحديث الذي ذكرناه عن زيد بن أرقم قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي وفاطمة والحسن والحسين: " أنا حرب لمن حاربتهم وسلم لمن سالمتم (٥) " ، فلا عجب أن يطردوا عند الحوض. لأن الحجة قامت عليهم في الدنيا فضربوا بها عرض الحائط. ثم نعود مرة أخرى لنعرف من هو الرجل، أو المنادي، أو الصارخ الذي

(١) رواه ابن أبي عاصم بن كعب بن عجرة وقال الألباني حديث صحيح (كتاب السنة ٢٥٣ / ٢).

(٢) رواه الحاكم عن أبي سعيد وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ١٥٠ / ٣).

(٣) رواه الطفراني (كنز العمال ١٠٤ / ١٢).

(٤) رواه ابن مردويه (كنز العمال ٤٢٦ / ١٢) وابن عدي (كنز العمال ٤٣٥ / ١٤).

(٥) تم تخريجه سابقا، رواه الترمذي عن زيد بن أرقم، والترمذي وابن ماجه والحاكم عن يزيد أيضا. وأحمد والطبراني والحاكم عن أبي هريرة. ورواه الضياء بسند صحيح وابن أبي شيبة (الجامع الصحيح ٦٩٩ / ٥) (تحفة الأحوازي ٣٧٢ / ١٠) (المستدرک ١٤٩ / ٣) (كنز العمال ٩٦، ٩٧ / ١٢، ١٣ / ٦٤٠)، (الفتح الرباني ١٠٦ / ٢٢)، (البداية والنهاية ٣٨ / ٥).

جاء ذكره عند البخاري وأحمد وغيرهما. ولنبدأ من عند طرد الإبل الغريبة من على حوض النبي. روى مسلم عن أبي هريرة قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لأؤدون عن حوضي رجالا كما تذاذ الغريبة من الإبل (١) " ، ومعناه: كما يؤدون ساقى الناقة الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله (٢)، وهذا الحديث من جنس الحديث الذي رواه أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله غافر إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله (٣) " وبالجملة، بعد النظر في الروايات الواردة في الحوض ونحن نبحت عن الصارخ. وجدنا أنه علي بن أبي طالب عليه السلام.

روى الطبراني قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا علي معك يوم القيامة عصا من عصي الجنة تذود بها المنافقين عن حوضي. (٤) وعن علي قال: أنا أنود عن حوض النبي صلى الله عليه وآله بيدي هاتين القصيرتين. الكفار والمنافقين. كما تذود السقاة غريبة الإبل عن حياضهم (٥) ، وعن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سألت ربي أن تسقي أمتي من حوضي فأعطاني. (٦) "

وروى، إن معاوية بن خديج كان يسب علي بن أبي طالب. يوم أن كانا لسب ثقافة أمر بها معاوية ابن أبي سفيان. فلقبه الحسن بن علي فقال له: أنتالساب لعلي! أما والله لتردن على الحوض. وما أراك أن تردده. فتجده مشمرا لإزار على ساق يزود عنه. لا يأتي المنافقون نود (كذا) غريبة الإبل. قولالصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افتري (٧)

(١) رواه مسلم (الصحيح ٦٤ / ١٥) ك الفضائل ب الحوض.

(٢) مسلم شرح النووي ٦٤ / ١٥.

(٣) رواه أحمد والحاكم والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٢ / ١٦).

(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي رواه ثقات (الزوائد ١٣٥ / ٩).

(٥) رواية الطبراني في الأوسط (الزوائد ١٣٥ / ٩) (كنز العمال ١٥٧ / ١٣).

(٦) رواه شاذان وقال السيوطي لهذا الحديث شاهد (كنز ١٥٢ / ١٣).

(٧) رواه ابن أبي عاصم. واختلف أحد رواة الحديث وهو علي بن أبي طلحة. وقال

الصفحة ٢٣٣

فالرجل والصارخ والمنادي الذي جاء ذكره في الروايات عند البخاري ومسلم وأحمد. وهو علي بن أبي طالب وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (١) " ، وذهب صلى الله عليه وسلم يوما إلى القبور. فقال فيما رواه الحسن: السلام عليكم يا أهل القبور. لو تعلمون ما نجاكم منه مما هو كائن بعدكم. ثم قال لأصحابه:

هؤلاء خير منكم. إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئا.

وخرجوا وأنا الشهيد عليهم. وإنكم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون من بعدى (٢)، وروى الإمام مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للشهداء أحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر الصديق: ألسنا يا رسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى، ولكن لا أدري ما تحدثون بعد. فبكى أبو بكر ثم بكى.

ثم قال: ائنا لكائون بعدك (٣).

إن الطريق إلى الحوض. هو نفسه الصراط المستقيم... الذي يكافح الشيطان وأعوانه من أجل أن يعرقلوا المسيرة البشرية التي خلقها الله لتسير إليه بعبادته سبحانه، والذين ارتدوا على أدبارهم القهقري هم في الحقيقة الذين سقطوا في شباك الشيطان. قال تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم (٤) ، فالارتداد على الأدبار.

الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال. وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ. وتسويل الشيطان لهم. أي زين لهم ما تحرص النفس عليه. وصور القبيح لهم

الألباني: إن علي بن أبي طلحة سالم مولى بني العباس، وأخرج له مسلم وأصحاب السنن إلا الترمذي، وهو ليس مولى بني أمية كما وقع في الإسناد وافق عليه الإمام أحمد بن حنبل وأبو حاتم (كتاب السنة ٣٦١ / ٢).

(١) رواه مسلم (كنز ٤٠٨ / ١١).

(٢) رواه ابن المبارك عن الحسن مرسلًا (كنز ١٧٩ / ١١).

(٣) موطأ مالك. كتاب الجهاد ص ٣٧١.

(٤) سورة محمد: الآية ٢٥.

الصفحة ٢٣٤

في صورة الحسن. والطرده من على الحوض عقوبة شديدة يتذوقها الذين ارتدوا على أدبارهم قبل أن يذوقوا عذاب النار. قال تعالى: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار. (١) (فقد بين تعالى جزاء عمل هذا النمط البشري وعاقبة أمرهم بقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة وسوء الدار " واللعن: الإبعاد من الرحمة والطرده من كل كرامة. وليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل ورفض الحق النازل من الله، وليس للباطل إلا البوار.

إن للمؤمنين سبيل فمن سلكه شرب ونال الثواب العظيم. ومن ارتد القهقري فله الجهة التي ارتد إليها، قال تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساء تمصيرا (٢) ، وقيل: المراد بمشاققة الرسول بعد تبين الهدى. فخالفته وعدم إطاعته. وعلى هذا فقولته: " ويتبع غير سبيل المؤمنين " بيان آخر لمشاققة الرسول.

والمراد بسبيل المؤمنين. إطاعة الرسول. فإن طاعته طاعة الله. قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله. (٣))

(١) سورة الرعد: الآية ٢٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

الصفحة ٢٣٥

سادسا - غروب الشمس والقمر

مما سبق علمنا منزلة علي بن أبي طالب. فهو من بني هاشم كالقمر فيكبد السماء. وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم لبنيهاشم: " إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا(١) " ، ومن بنيهاشم اخترق هذا التكليف والأمر جدار القبيلة. إلى دار الأمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبا أمته " علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي(٢) " ، وقال: " من كنت مولاه فعلي مولاه(٣) " ، وقال لعلي: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي(٤) " ، إلى غير هذا من الأحاديث التي تلقفتها الأمة بالقبول وصحتها علماء الحديث.

فعلي بن أبي طالب له مكانه الواضح الظاهر في منطقة المركز. ثم في جميع مناطق الاتساع التي تنشأ نتيجة لحركة الدعوة. وهذا المكان تم تأمينه بوضع علامات تحذيرية من حوله. كي يعلم كل من يريده بسوء أن الأمر لن يكون سهلا عندما يقف التابع والمتبوع أمام الله تعالى يوم القيامة. ويكفي من

-
- (١) حديث قوله تعالى: (وأندر عشيرتك الأقربين) رواه أحمد وابن جرير وصححه الطحاوي والضياء بسند صحيح، وتم تخريجه من قبل راجع (كنز العمال ١٢٩- ١٣٣، ١٧٤، ١٧٥ / ١٣) (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣) (المستدرک ٢٥ / ٣).
- (٢) تم تخريجه والحديث صحيح راجع (جامع الترمذي ٦٣٥، ٦٣٦ / ٥) (كنز العمال ٦٣٦، ٥٩٩، ٥ / ٥).
- (٣) تم تخريجه والحديث صحيح راجع (الفتح الرباني ٢١٣ / ٢١) (كنز العمال ٦٠٩ / ١١، ١٣٤ / ١٣) (المستدرک ١١٠ / ٣) (الزوائد ١٠٤ / ٩).
- (٤) رواه مسلم وغيره وتم تخريجه من قبل راجع (صحيح مسلم ١٧٤ / ١٥).

علامات التحذير قوله صلى الله عليه وسلم لعلي وفاطمة والحسن والحسين:

"أنا حرب لمن حاربتهم وسلم لمن سالمتم(١) " ، وخطابه صلى الله عليه وسلم أمته قائلا: " أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي.

أذكركم الله في أهل بيتي(٢) "

ولما كان من مهام الإنسان خلافة الله في الأرض - فإن هذه المهمة فيجوهرها مادة للابتلاء. وعلى امتداد التاريخ الإنساني. رفضت أقوام الأنبياء والرسل. وكان العمود الفقري للرفض أنه من بين هذه الأقوام من كان يزعم أنها لأجدر والأحق بقيادة المسيرة. وهذا في حد ذاته خروج عن واجب الخلافة.

وترتب على هذا الزعم أن انحرفت قوافل الضلال وتاهت في أودية عبادة الماد بجميع أشكالها - وظهر في الوجود آلهة من الأصنام والأوثان والبشر. ومن ينظر يتدبر تحت أقدام هذه الآلهة المتعددة. يجد أن السبب الرئيسي لوجودها هو رفض خليفة الله في الأرض. وإذا عدنا بالذاكرة إلى الخلف لنلنقط مشهد وحركة من أعماق الوجود لندلل

به على ذلك. فلنقف أمام قصة آدم عليه السلام وموقف الشيطان الرجيم منه فآدم عليه السلام خليفة. والشيطان خارج على هذا الخلافة. ولكل منهما منهاج له مقدمة وعليها نتيجة.

والأمة الخاتمة بين لها رسولها صلى الله عليه وسلم المقاعد الأولين فيها. وذلك كما بينا من قبل. ولما كان التشريع يبنى على أساس أنه لا إيجاب في دين الله. وإنما لا إيجاب في الأفعال. وإنما التكليف مجعولة على رفق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم أولاً، وهي متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون في الفعل والترك ثانياً. والمكلفون إنما يثابون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير أو شر اختياراً. فإنه لا معنى للقول بأن التكليف أهمل مصالح العباد في تعيين الخليفة الذي يسوق الناس إلى الله تعالى، ويعبر بهم الحياة الدنيا

(١) رواه أحمد وتم تخريجه من قبل راجع (المسند ٢ / ٢٤٢) (المستدرک ١٤٩ / ٢) والحديث صحيح.

(٢) رواه مسلم وتم تخريجه من قبل. راجع (صحيح مسلم ١٧٩ / ١٥).

الصفحة ٢٣٧

بما يوافق الكمال الأخروي الحياة الدائمة الحقيقية. وكيف يهمل التكليف هذا.

وفي الإهمال إلغاء لآدم وبرنامج آدم، وفي الإلغاء ضياع للسعادة الحقيقية التي لا يصل إليها إلا عندما يكون مؤمناً بالله وكافراً بالطاغوت. وبضياع السعادة الحقيقية يفسد دين الإنسان الفطري ولا تتعادل قواه الحسية الداخلية.

وعندما يفسد الدين الفطري يميل الإنسان إلى قوة من القوى ويتبعها. ويؤدي هذا الميل إلى طغيان تلك القوة. ويعلو هبل بل ألف هبل.

ولا معنى أيضاً للقول بأن الإنسان خلقه الله تعالى كحصاة في الطريق تلهو بها كل قدم. وإنما على عباقرة القبائل في كل عصر أن يستخدموه في أي عمل شاءوا وكيف؟ وهل جاءت الأصنام والأوثان إلا من طريق الفراعنة والقيصرية والأكاسرة. أصحاب المقاعد الأولى التي زخرف الشيطان حولها. إن التسليم لفقهِ الحصى الذي تلهو به كل قدم. يعني إبطال معرفة الحسن من القبيح.

ويعطل الثواب والعقاب. وكيف يكون هذا والتكاليف متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون في الفعل والترك. ويثاب المكلفون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير أو شر اختياراً. والقرآن الكريم أخبر بأن الكفار والمشركين سيُعترفون يوم القيامة بأنهم إنما أشركوا واقتروا المعاصي بسوء اختيارهم واغترارهم بالحياة الدنيا، إن فقهِ الحصى وضعه علماء الشذوذ والترفيح ليخدم سياسة الاحتكاك لأن من أبوابه دخل الجلادون ليمارسوا واجب الاستكبار الذي دور أوتاده الشيطان. وفقهِ الحصى والحجارة مهمة تبرير أعمال المنافقين والفساق والمشركين والكفار. ونسي عباقرة هذا الفقهِ أن الله تعالى عندما تبرأ من المشركين لم يتبرأ سبحانه من خلق ذواتهم أو ألوان بشرتهم. وإنما تبرأ

منشركهم وقبائحهم. وتحت سقف التبرير دخل علماء الحجارة من باب القضاء والقدر. ومن هذا الباب قتلوا المقاومة والتصدي للشر عند أكثر الناس: بحجة أن الله أجبر العباد على أفعالهم. أو أن الأنبياء والرسل عليهم السلام قد يريدون لذويهم أن يكونوا على المقاعد الأولى في أممهم. ولكن الله تعالى يريد غير ذلك لأن الناس سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب. ولهذا سبق القضاء وجاء الفراعنة والقيصرية. لقد كان هذا الباب من فقه الحصى والحجارة. من أخطر الأبواب

على المسيرة البشرية. وكيف يجلس الفراعنة في دائرة الفحشاء والمنكر ثم يقال بعد هذا إن الله أمر بذلك؟ إن البرنامج الذي يأمر بالسوء والفحشاء حذر الله تعالى الجنس البشري منه. وما قال أتباع هذا البرنامج ذلك إلا ليحتموا وراء جدار من الزينة ليغويوا الناس ويدعونهم إليه. أما القول الحق في هذه المسائل ماروي عن الإمام الصادق. وقد قيل له: هل فوض الله الأمر للعباد؟ فقال: إن الله أكرم من أن يفوض إليهم. فقيل له: فأجبر الله العباد على أفعالهم؟ قال: الله أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه. وروي عنه أنه قال: إن الله عز وجل أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله أعز من أن يريد أمرا فلا يكون. وعنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله. ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه.

وبيان هذا كله فيما روي عن الإمام الرضا. قال: إن الله عز وجل لم يطع بإكراه. ولم يعص بغلبة ولم يهمل عبادة في ملكه هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله منها صاددا ولا منهلعا. وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحلفوه فليس هو الذي أدخلهم فيه. ثم قال الإمام الرضا: من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه - أي من جادله.

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أين المركز من الدائرة. وأحاط أمتعلمنا بأن اختيار الأمة سيكون حول هذا المركز. ونهى عن إيذاء أهل المركز أو حريهم وأمر بالالتفات حولهم. واختبار الناس بالناس سنة إلهية جارية. قالتعالى: (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (١))، وقال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أنيقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا

وليعلمن الكاذبين(١) (١)، ففي الآيات مرتكزات ودوائر. وحول هذا وذاك يجري الامتحان الذي سيزترتب عليه الثواب أو العقاب. قال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين(٢) (٢)، وبما أن الأمة الخاتمة من الناس وعليها يجري الاختبار. وبما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بما هو كائن وما سيكون. وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها حتى لا يكون للناس على الله حجة. فإننا سنلقي الضوء هنا على معالم العقبات التي لم تمكن أهل البيت من القيام بواجب الخلافة.

وفي البداية إذا سألنا: ما هي العوامل التي أدت إلى ابتعاد أهل البيت عن القيادة، رغم ما أحيط حولهم من مناقب وتبشير وتحذير؟ فإن الإجابة لا بد لها من مقدمة. نقول فيها: إن الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها. ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولا بسها. وكما قال ابن أبي الحديد: بل لعلا لحاضرين المشاهدين لها. لا يعلمون باطن الأمر فيها... ولأن الأمر كذلك.

فنحن هنا نقوم بترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات ونستعمل مقدمات حقيقية يقينية لاستنتاج معلومات تصديقية واقعية. وفي مجال البحث عن الحقيقة نعلم أن الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها أولها أي يقاس آخرها على أولها فحسب البدايات تكون النهايات، وعمودنا الفقري في البحث هنا الحديث الشريف، وفيه نسلط الضوء على التاريخ وحركته وتحت الضوء تظهر المعلومات وبحديث آخر ترتب هذه المعلومات، وفي النهاية نحصل على مقدمة حقيقية يقينية على ضوءها يفتح التاريخ أبوابه لنستنتج المعلومات التصديقية الواقعية.

والمقدمات الحقيقية التي يمكن أن يستند عليها لاستنتاج الأسباب التي أدت إلى إبعاد أهل البيت عن ممارسة واجب الخلافة مقدمات كثيرة. ولكننا سنسلط الضوء على وجه المجتمع أولاً فعلى الوجه ترى ما نريده من مقدمات.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢ - ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

- ١ من معالم الغروب:

بيننا فيما سبق أن الصحابة قوم من الناس. لهم ما للناس وعليهم ما عليهم. ليس لهم على غيرهم من المسلمين كبير فضل إلا بمشاهدة الرسول ومعاصرته لا غير. بل وربما كانت ذنوبهم أفحش من ذنوب غيرهم. لأنهم شاهدوا الأعلام والمعجزات. ويكفي أن فيهم اثني عشر رجلاً حاربوا الله ورسوله في الحياة الدنيا. وإن فيهم أصحاب المسجد الضرار. وفيهم من قال فيهم عمر بن الخطاب عندما استأذنه الزبير في الغزو: ها أنا ممسك بباب هذا الشعبان يتفرق أصحاب محمد في الناس فيضلوهم. وسنذكر بعض الآيات الكريمة.

التي تبين حاله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كيف كانت. وقد بينا ذلك ونحن نتحدث عن دائرة الرجس والذين في قلوبهم مرض لأن هؤلاء هم أصحاب المصلحة في عرقلة الطريق وإضلال الناس. وهؤلاء كان لهم موقف ثابت من الرسول ودعوته على امتداد الزمان. وبما أن علي بن أبي طالب أقرب الناس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ القسط الأكبر من العداة ووضع العراقيل أمام خطاه. ونحن لن نعرف حجم هذه العراقيل. إلا إذا وضعنا أيدينا على طبيعة القوم في عهد النبوة. فتخاذلهم وحبهم للدنيا والرسول في وسطهم.

يفسح الطريق لفهم تخاذلهم وحبهم للدنيا عندما جاء دور علي بن أبي طالب.

وآيات تخاذلهم في الحروب كثيرة في كتاب الله. فالقرآن يشهد بأنهم التوا عليه صلى الله عليه وسلم يوم بدر وكره لقاء العدو حتى خيف خذلانهم وذلك قبل أن تتراءى الفتتان. قال تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعدما تبين لهم كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون (١))، قال المفسرون: المعنى: إن الله تعال يحكم في أمر الأنفال بالحق مع كراحتهم لحكمه. كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجا يصاحب الحق. والحال أن فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك ينازعونك في الحق بعدما تبين لهم إجمالا. والحال إنهم يشبهون جماعة يساقون إلى

(١) سورة الأنفال: الآية ٥ - ٦.

الصفحة ٢٤١

الموت. وهم ينظرون إلى ما أعد لهم من أسبابه وأدواته... ومن هذا نعلم أن المجتمع كان فيه من يجادل في الحق. وعلى هذا لا يكون من العسير أن يجادل هؤلاء علي بن أبي طالب أو غيره إذا كانوا قد جادلوا الرسول. ويوم أحد شهد القرآن أنهم عصوا أمره صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشعب في الجبل. وهو الموضع الذي خاف أن تكرر عليه منه خيل العدو من ورائه. وهم أصحاب عبد الله بن جبير. فإنهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدم به إليهم. وروى أصحاب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: " إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم " ولكنهم رغبوا في الغنيمة عندما شاهدوا النساء يشتدون على الجبل وقد بدت أسواقهنوخلخلهن رافعات ثيابهن (١) ففارقوا مركزهم، حتى دخل الوهن على المسلمين بطريقهم. لأن خالد بن الوليد كر في عصابة من الخيل فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه فما أحس المسلمون بهم إلا وقد غشوهم بالسيوف من خلفهم فكانت الهزيمة. وذلك قوله تعالى: (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة (٢))، وعن ابن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا. حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد (٣).

والذين يحبون الدنيا لا يمكن بحال أن يلتقوا مع علي بن أبي طالب علن خط واحد له هدف واحد. والذين يحبون الدنيا لم تنته حياتهم. بموت الرسول صلى الله عليه وآله. بل استمر عطاؤهم على خنادق الصدح حريا لله ولرسوله في الحيا الدنيا. ولم تكن المعصية يوم أحد فقط. وإنما كانت أيضا في غزوة تبوك. فبعد أن أكد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الأوامر. خذلوهم وتركوه. كما بينا من قبل أساليبهم في ضرب القوة العسكرية للدعوة. وهذا

(١) تفسير ابن كثير ٤١٤ / ١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤١٣ / ٢.

الصفحة ٢٤٢

النمط البشري نزل فيه قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (١)، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين. وفيها أوضح دليل على أن أصحابه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ويخالفون أمره وهذا النمط المتخاذل عاتبهم الله ووبخهم بقوله تعالى: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون). (٢)

كان هذا في ميادين القتال، وفي داخل المسجد لم يختلف الأمر كثيرا.

فالذين أحبوا الدنيا في المعركة أحبوا أيضا والرسول صلى الله عليه وسلم قائم يخطبهم يوم الجمعة. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية. ويكشف أنهم لم يقدرها حق قدرها ولا نزلوها منزلتها. ولقد اتفقت الروايات على أنه ورد المدينة غير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فضرِب أصحاب التجارة بالطبول والدف لإعلام الناس. فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبي قائما يخطب وذلك في قوله تعالى: (وا إذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوا قائما) (٣)، أيسبغ على هذا النمط بعد ذلك أن يصادر الحكمة والبلاغة وأنتترك من هو دون الرسول إذا قام فيهم أو ساقهم إلى ما فيه سعادتهم الحقيقية.

ومن دائرة حب الدنيا ننقل إلى دائرة تفسير النصوص وفيها نرى أن العديد منهم كان يفتح أبواب الرأي والنبي في وسطهم. ولقد حذرهم النبي من هذا.

لأن هذا الباب إذا فتح فسيدخل منه أمور لم يرد لها ذكر في الكتاب والسنة.

روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع أصوات رجلين اختلفا في آية. فخرج يعرف في وجهه الغضب وقال: "إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في

(١)سورة التوبة: الآية ٣٨.

(٢)سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٣)البخاري ك البيوع (الصحيح ٢ / ٢) ابن كثير في التفسير ٣٦٧ / ٤.

الصفحة ٢٤٣

الكتاب (١) " ، وفي رواية عند الإمام أحمد قال النبي لبعض أصحابه: " ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض . بهذا أهلك من كان قبلكم (٢) " ، وروى الإمام مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " أيتلعب بكتاب الله وأنا بينا أظهركم (٣) " ، وروى ابن أبي عاصم أنه قال لهم: " ألهدا خلقتم؟ أم بهذا أمرتم.

لا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض. انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه (٤) " ، وروى الدارقطني: إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من باب البيت وهو يريد الحجرة. فسمع قوما يتراجعون بينهم في القرآن. يقولون: ألم يقل الله في آية كذا وكذا. فقال لهم: أبهذا أمرتم. أبهذا عنيتم إنما هلك من قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعضه بعضا أمركم الله بأمر فاتبعوه ونهاكم عن شيء فانتهاوا. (٥)

فهل انتهوا؟ إن التاريخ يقول إن المسيرة شهدت للرأي أعلاما. واتفق علنأ الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أطبقوا إطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك. كإسقاطهم سهم ذوي القربى إسقاط سهم المؤلفه قلوبهم. وهذان الأمران يدخلان في باب الدين وفيهما نصوص صريحة. وقد عملوا بأرائهم أمورا لم يكن لها ذكر في الكتاب والسنة.

وعملوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص، حتناستحالت الشريعة وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة. وأكثر ما يعملون بأرائهم فيما يجري مجرى الولايات والتأشير والتدبير ونقرير قواعد الدولة. وما كانوا ليقفوا مع نصوص الرسول صلى الله عليه وسلم وتدبيراته

(١)مسلم ك العلم (الصحيح ٢١٨ / ١٦).

(٢)أحمد عن ابن عمر (كنز العمال ١٩٣ / ١).

(٣)مسلم (الصحيح ١٧٥ / ١).

(٤)ابن أبي عاصم. وقال الألباني إسناده حسن وأخرجه أحمد وابن ماجه (كتاب السنة ١٧٧ / ١).

(٥)الدارقطني وابن عساكر (كنز العمال ٢٨٣ / ١).

الصفحة ٢٤٤

إذا رأوا المصلحة في خلافها. كأنهم كانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظا، وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله. وتقدير ذلك القيد " افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة (١) " ، وهكذا حذر النبي من تأول غير الراسخين في العلم. لأن تأولهم يفتح الأبواب للذين في قلوبهم زيغ. فيدقون أوتاد الفتوى يقيمون خيام الهلاك التي أقيمت من قبل

للأمام السابقة. وكما حذر النبي من الأري والتأويل الذي لا يستند على كتاب الله وسنة رسوله. حذر أيضا من السلوكي طريق الخشوع الزائف. لأن هذا النوع من الخشوع من فضيلة ضرب كتاب الله بعضه ببعض. فأصحاب الخشوع الزائف شربوا من إناء الذين فيقلوبهم زيغ. ولأن حركة أصحاب الخشوع الزائف تضيق الطريق أمام أصحاب الخشوع الحق. بتليبس الأمور على الناس فإن النبي صلى الله عليه وآلهعاتب أصحاب هذا الخشوع ووبخهم وذمهم في أكثر من موضع. روى الإمام البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله رخص في أمر فتنزه عنه ناس من الناس فبلغ ذلك النبي فغضب ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه.

فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٢)، وروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة فصام حتى بلغ كراع الغميم (٣) وصام الناس معه فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام وإن الناس ينظرون فيما فعلت. فدعا بقدر من ماء بعد العصر فشرّب والناس ينظرون إليه. فأفطر بعضهم وصام بعضهم. فبلغه أن ناسا صاموا فقال: أولئك العصاة (٤)، وروى الإمام أحمد: إن النبي صلى الله عليه وسلم وعظ الناس. فرفع رجل صوته بالبكاء. فقال النبي: من هذا الذي لبس علينا إن كان صادقا شهر نفسه وإن كان كاذبا محقه الله (٥) ، وروى أحمد أيضا عن ابن الأدرع قال: انطلقت مع

(١) ابن أبي الحديد ٨٠٧ / ٣.

(٢) البخاري ك الآداب (الصحيح ٦٦ / ٤) مسلم (الصحيح ٩٠ / ٥).

(٣) موضع بين مكة والمدينة.

(٤) الترمذي وصححه (الجامع ٨٠ / ٣).

(٥) أحمد في كتاب الورع ص ٧٩.

رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا على رجل يصلي مجهرا بالقرآن. فقال للنبي: عسى أن يكون مرثيا. قلت: يصلي يجهر بالقرآن (١) !!، فترك النبي صلى الله عليه وسلم يدي ثم قال: إنكم لن تتألو هذا الأمر بالمغالبة. (٢) وروى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله أعتم ذات ليلة العشاء حتى رقد الناس واستيقظوا. فجاء عمر بن الخطاب وأنذر الناس بالصلاة وصاح: الصلاة. وفي رواية: قال عمر: نام النساء والصبيان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما كان لكم أن تتذروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة "، وذلك حين صاح عمر (٣) ومن الطريف قول بعضهم: أن صياح عمر كان لغيرته على الدين وذلك عندما وجد أن النبي لم يخرج للصلاة وأنا للنساء والصبيان قد ناموا.

وروى الإمام البخاري ومسلم أن رجلا اشتكى للنبي أن يتأخر عن الصلاة من أجل فلان (٤) الذي يطيل بهم في الصلاة. فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أيها الناس إن منكم منفريين. فأيكم ما صلى بالناس فليوجز فإن

فيهما الكبير والضعيف وذا الحاجة (ه) " ، من هذا نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلمواجه كل صور الخشوع الزائف أو المبالغ فيه أو الذي لا يستمد وقوده من النبيصلى الله عليه وسلم. وذلك لأن تحت هذه المظلة تنتعش تركية النفوس. وتركيةالنفوس بغير حق واضح. سلاح فعال يستخدم في أعمال الصد عن سبيل الله.

فأصحاب دائرة الذين في قلوبهم مرض أو زيغ إذا ضربوا كتاب الله بعضهمبعض. احتذى تلاعبهم بالنصوص بملابس الخشوع الزائف. وهنا تكمنالخطورة. وذروة التحذير من هذا النمط البشري. كانت فيما رواه أبو سعيد

(١)أي إنه رجل صالح.

(٢)رواه أبو يعلى وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٦٣٢ / ٦).

(٣)مسلم عن عائشة وابن عمر كتاب المساجد. وقت العشاء (١٣٧ - ١٣٨ / ٥ الصحيح)(٤) في رواية أنه معاذ بن جبل.

(٥)رواه البخاري كك الأحكام (الصحيح ٢٣٦ / ٤).

الصفحة ٢٤٦

الخدري. أن أبا بكر رضي الله عنه. جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: يا رسول الله: إني مررت بوادي كذا وكذا، فإذا رجل تخشع حسن الهيئةيصلي. فقال له النبي: اذهب إليه فاقتله. فذهب إليه أبو بكر. فلما رآه على تلكالحال كره أن يقتله. فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله رأيته يصلي متخشعا فكرهت أن أقتله. فقال النبي صلى الله عليه وسلمعمر: اذهب فاقتله. فذهب عمر فرآه على تلك الحال التي رآه أبو بكر فكره أنيقتله فرجع فقال: يا رسول الله رأيته يصلي متخشعا فكرهت أن أقتله فقال النبي:

يا علي اذهب فاقتله فذهب فلم يره فرجع علي فقال: يا رسول الله إني لم أره،فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوزتراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتىيعود السهم في فوّه فاقتلوهم هم شر البرية. (١)

وهذا الرجل المتخشع الحسن الهيئة هو ذو الندية. وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى هذا المارق من قبلفي المسجد كما في حديث أنس عند أبي يعلى. ويومئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله ولكن خشوعه غر الشيخين أبو بكر وعمر. كان هذا في المرةالأولى. ثم جاءت الثانية عندما رآه أبو بكر يصلي في بعض الأودية. فأخبر النبيأمره فوراً بقتله. وفي هذا دليل على أن الخاشع محكوم عليه من قبل. ولكنرياء هذا المارق بتخشعه في صلاته غر بشيخين مرة أخرى فكرها قتله وأثراستحياءه. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم من ربه أن هذا الخاشع المارقسيكون له فقه خاص به مهمته الصد عن الإسلام بالإسلام وعن الكتاب بالكتاب.

ولما كان الأمر متعلقا بالإسلام وكتابه فإن الله تعالى أخبر رسوله أن نهاية هذا المارق ستكون بيد أعلم الناس بالأعلام وكتابه علي بن أبي طالب.

ولقد قاتله علي بن أبي طالب فيما بعد وهو بين أتباعه. وعندما قتله أعلن علقواته الحقيقة الكبرى ومفادها أن هذا الرجل لم يكن إلا شيطان من

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٢٧ / ٦) وابن كثير في البداية (٢٩٩ / ٧).

الصفحة ٢٤٧

الشياطين. وذلك فيما ذكره ابن كثير أن سعد بن أبي وقاص قال بعد موقعة النهروان " قتل علي بن أبي طالب شيطان الردهة (١) " ، وقال علي بعد الموقعة:

" أخبرني خليلي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم ثلاثة أخوة من الجن هذا أكبرهم (٢) " ، وظهور الشياطين على هذه الصورة أمر غير مستغرب. فلقد روى الإمام مسلم " إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث. (٣) "

وروى مسلم أيضا: " إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان يوشكأن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا (٤) " ، ولما كان ظهور الشياطين حقيقية. ولما كانوا سيحدثون الناس بأحاديث يكذبون فيها على رسول الله. ويقرأون عليهم قرآنا ليشتعل الجدل ويأتي الاختلاف والافتراق. كما في قوله تعالى: (واِنَّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم (٥)) ، ولما كانوا سيظهرون بلباس الخشوع ويصلون وسوف يغتر بخشوعهم الكثير. كان من عدل الله تعالى أنه قطع الطريق عليهم بتحديدته تعالى دائرة الطهر التي يجلس فيها الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وأهل هذه الدائرة لا يكذبون كما أنهم أعلم الناس بكتاب الله. ولقد فرض الله مودتهم. وأهل هذه الدائرة يتعاملون مع الدنيا علما أنها قطرة إلى الآخرة. ولا يأكلون في الدنيا إلا ما فرضه الله لهم من سهم ذي القربى كما أنهم دخلوا دائرة الأمان وذلك لإخبارهم أنهم سيكونون مع النبي صلى الله عليه وآله عند الحوض، وسيكونون معه في مكان واحد في الجنة. من هذا كله يمكن القول بأنه يستحيل عليهم أن يكذبوا فأى غنيمة ينالوها إذا كذبوا. أما الشياطين وأتباعهم فالكذب نقطة ارتكاز في نفوسهم. لأنهم

(١) ابن كثير في البداية (٢٩٨ / ٧).

(٢) رواه أحمد وقال في فتح الباري سنده جيد وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى ورجاله ثقات (فتح الباري ٢٩٩ / ١٢) ، وأخرجه الحاكم (المستدرک ٥٣٣ / ٤).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٩ / ١ ط اسطنبول).

(٤) رواه مسلم (الصحيح ١٠ / ١ ط استانبول).

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

يريدون وا إذا أعطوا لا يشبعون فالنبي أمر بقتل المارق يوم إن كان متخشعا في صلاته. وكان يعلم من ربهان هذا المارق له يوم مؤجل وما فعل النبي هذا إلا من باب الأخذ بالأسباب.

بعد أن علم أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده. ولقد أخذ صلى الله عليه وسلم بالأسباب فحذر الناس من الإمارة لأنه علم أن الأمة ستسند الأمر إلى غير أهله. وحذر من بني أمية ونفى الحكم بن أبي العاص لما علم من ربه ما يضره للدعوة. وبعد أن شاهدتهم ينزون على منبره نزو القردة. ويوم فتح مكة. أهدر النبي دم عبد الله بن أبي السرح وأمر بقتله ولو وجد متعلقا بأستار الكعبة. وذلك عندما علم من ربه أن ابن أبي السرح ستجري على يديه فتن تقود إلى فتن حالكة الظلام. فماذا فعلوا مع ابن أبي السرح. لقد فر هذا الرجل إلأخيه من الرضاعة عثمان بن عفان. وغيبه عثمان عنده حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما اطمئن أهل مكة. فاستأمنه له فصمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طويلا. ثم قال: نعم فلما انصرف عثمان قال النبي لمنحوله: ما صمتت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأ إلي يا رسول الله. فقال النبي: إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة أعين (١) وبعد وفاة النبي توارى ذو الندية وابن أبي السرح وبني أمية وبني الحكم وراء أشجار الزينة. يدنون فقههم بعد أن محيت آثار التحذير منهم وذلك عندما منع الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه رواية الحديث. وألغى سهم المؤلف قلوبهم الذي ضربه الله على ضعاف الإيمان المنافقين وأشباههم ليعرفوا به.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب رغم علمه بأن الذي يطلب من الله دفعه عن الأمة. واقع لا محالة لأن الله أعلم بالقلوب وأعلم بالطريق الذي ستختاره كل نفس من النفوس. والأخذ بالأسباب رغم هذا العلم هو في حقيقته تعلق بالله. لأن الله نسب الهداية في كل مكان إلى نفسه

(١) راجع ترجمة ابن أبي السرح (الإستيعاب ٣٧٨ / ٢، الإصابة ٣٠٩ / ٢، أسد الغابة ١٧٣ / ٢).

بصورة مطلقة. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم، بإقامة دماء واحد من الناس بالإضافة إلى أنه أخذ بالأسباب. إلا أنه أيضا يدب الحياة في جسد التحذير بمعنى أن الناس عندما يعلمون أن فلانا قد استباح النبي صلى الله عليه وسلم دمه أو نفاه. فإن التحذير يكون إعلاما على رأس المحذر منه فيتعامل معه الناس بحرص ولا يملكوه أعناقهم. فالأخذ بالأسباب من ناحية الرسول هو تحذير ووجبة في نفس الوقت.

مما سبق يمكن للباحث أن يرى صفحة المجتمع الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم - وعلى هذه الرؤية يمكن القول بأن الصحابة قوم من الناس لهم ما للناس وعليهم ما عليهم. فيهم من يحب الدنيا ويعمل لها. وفيهم من يحب الآخرة ويعمل لها. وفيهم من كان يتلعب بالنصوص ويضرب كتاب الله ببعضه ببعض. وفيهم أصحاب الخشوع

الخيالي الزائف. ومن هؤلاء شيطان منالشياطين تلون وتشكل وزين وزخرف ثم جاءت ضربة فيما بعد من سيف العمودالرئيسي لدائرة الطهر فأردته قتيلا. ومن هذا كله يمكن أن نلقي بالقبول أنعلي بن أبي طالب قد واجه صعوبات جمة وأن طريقه قد وضع عليه العديد منالعقبات. ولم تكن العقبات تأتيه من جانب هؤلاء فقط. وإنما جاءت أيضا منالأعراب اتباع كل ناعق. الذين لا يعرفون من دينهم شيئا. وهؤلاء جاء ذكرهمفيما رواه البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: " ما أظنفلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا(١) " ، وروى الترمذي والإمام أحمد أنهم قالوالنبي صلى الله عليه وسلم عندما مروا بسدرة: يا نبي الله اجعل لنا ذاتأنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفونحولها. فقال النبي: " الله أكبر . هذا كما قلت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهكما لهم آلهة. إنكم تركبون سنن من قبلكم (٢)، وقولهم هذا كان في العام الثامن

(١)البخاري (الصحيح ٦١ / ٤) ك الآداب ب، يكون من الظن.

(٢)رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤٧٥ / ٤)وأحمد وابن جرير وابن أبي حاتم (تفسير ابنكثير ٢٤٣ / ٢) وابن أبي عاصم وقال الألباني حديث صحيح (كتاب السنة ٢٨ / ١)والشافعي والبيهقي (كنز العمال ١٧٠ / ١١١).

الصفحة ٢٥٠

الهجري. أي قبل وفاة النبي بسنتين ونصف تقريبا. فهؤلاء الذين لا يعرفون منالدين شيئا. والذين يريدون ذات أنواط. هؤلاء أنماط بشرية لا يمكن تجاهلوجودها عند قراءة صفحة المجتمع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

- ٢ ذعر على أعتاب الغروب:

على صفحة المجتمع قدمنا حقيقة يقينية، حملتها إلينا أحاديث صحيحة.

وهذه المقدمات شهدت لها حركة التاريخ بعد ذلك بأنها صحيحة. وذلك لأنالنتيجة في النهاية استقامت مع المقدمت في البداية. ولا نقصد بحركة التاريخ هنا ما دونه المؤرخون فقط. وإنما حركة التاريخ عندنا هي التي يرشد إليهاحديث صحيح أخبر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه. فنحننمسك بأحاديث الإخبار عن الغيب ونمر بها على حركة التاريخ. ولا تعتمد فيبحثنا أن الأحداث التي انطبق عليها الحديث الصحيح. وكما قدمنا مقدماتجرت على صفحة المجتمع أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. فإننا نقدم هنا أيضا حدثا لا يمكن تجاهله ونحن نبحت عن العراقيل التي وضعت أمام علي بنأبي طالب. وهذا الحدث يحمل معالم الذعر من علي بن أبي طالب. ومما سبق علمنا أن دائرة الرجز وأصحاب المسجد الضرار عندما عزمالنبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى تبوك وترك عليا في المدينة، أشاعأصحاب دائرة الرجز أن النبي استنقله وخلفه بين النساء والصبيان. وكان هدفهممن وراء هذا أن يخرج علي بن أبي طالب مع النبي حتى تخلوا المدينة أماممخططات ملك الروم ومشركي العرب وأصحاب المسجد الضرار. ولكن النبيرد كيدهم في نحرهم وقال لعلي: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى... "الحديث. وعند عودة النبي من تبوك حدثت محاولة اغتياله بواسطة اثني عشررجلا هم حرب لله ولرسوله

في الحياة الدنيا. ومعنى أنهم حرب أي أنهم أصحاب مخططات يتعاملون مع الأحداث وفقا للزمان والمكان. ولا يمكن بحال أن يكون علي بن أبي طالب بعيدا عن مخططاتهم في حياة الرسول وبعد مماته.

لأن الحديث الصحيح أفاد بأنهم حرب على امتداد الحياة الدنيا. والمعروف أن

الصفحة ٢٥١

أصحاب المخططات الحربية. يجيدون تحديد أعدائهم بدقة وبسرعة وبتركيز.

وسبب ذلك أن الله جعلهم في ذعر دائم. وقد وصفهم الله في كتابه فقال: (لويجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون (١) فهم في جزع وفزع وهلع وفي انزعاج دائم من ضرر متوقع. وإنهم لدفع هذا الضرر لو يجدون حصنا يتحصنون به وحرزا يتحرزون به أو مغارات في الجبال أو نفق في الأرض لاسرعوا في ذلك لا يصرفهم عنه شيء. فهذا النمط البشري في فزع من المستقبل ولهذا فهم في حرب مع كل مستقبل.

والذين في قلوبهم مرض أو زيغ كانوا يعلمون أن السماء لن تضربهم بعقاب ما دام النبي صلى الله عليه وسلم فيهم لقوله تعالى: (وما كان الله ليضلهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٢))، فالعذاب لا يضربهم ما دام الرسول فيهم. ولا يضربهم العذاب إذا استغفروا لذنوبهم وتابوا وعادوا إلى الرحاب الآمن. فإذا قبض الله تعالى رسوله إليه. فإنهم سيقفون تحتقانون هذه الآية: (فإنما نذهب بك فإننا منهم منتقمون (٣))...، وبقينا لاستغفار لمن أراد أن يستقيم. لقد علموا ذلك في العهد النبوي. علموا أنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وسيكون العقاب منهم أقرب. ولكن على يد من سيكون هذا العقاب؟ لقد كان في ذاكرتهم حدث وحديث. يمكن عليهما رصد حامل العقاب الذي يدخره المستقبل لهم. روى ربي بن حراش الذي قاله الإمام الترمذي: سمعت الجارود يقول: سمعت وكيعا يقول. لم يكذب ربي بن حراش في الإسلام كذبة (٤)، روى ربي عن علي أنه قال: لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو و أناس من رؤساء المشركين. فقالوا: يا رسول الله. خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا وليس لهم فقه في الدين. وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا. فأرددهم

(١) سورة التوبة: الآية ٥٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤١.

(٤) الإمام الترمذي (الجامع ٦٣٤ / ٥).

الصفحة ٢٥٢

إلينا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفقهم، يا معشر قريش لتنتهين أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله. قال: هو خايف النعل - وكان قد أعطى

عليًا نعله يخصفها (٩) وفي رواية بسند صحيحًا أيضًا. قالوا: يا محمد إنا جيرانك وحلفاؤك. وإن ناسًا من عبيدنا قد أتوك ليسبهم رغبة في الدين ولا رغبة في الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا فأرددهم إلينا. فقال النبي لأبي بكر: ما تقول؟ قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك.

فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال لعمر: ما تقول؟ قال:

صدقوا أنهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلاً قد امتحن الله قلبه بالإيمان.

فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. قال:

لا. قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا ولكنه الذي يخصف النعل - وكان أعطى عليًا نعلًا يخصفها (٢).

فالذاكرة عند القوم تحمل حدث وحديث. والقرآن أخبرهم أنه بعد وفاة الرسول سيكون هناك انتقام لا محالة. وكما تحسبوا رقابهم عندما علموا يوم الحديبية. إن لهم يوماً من علي بن أبي طالب. تحسبوا أيضاً عندما علموا بتفسير قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإننا منهم منتقمون)، قال السيوطي في الدر المنثور. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإننا منهم منتقمون) قال: نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي، وروى علي وحذيفة في قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٣٤ / ٥) والخطيب وابن جرير وصححه والضياء سند صحيح (كنز العمال ١١٥، ١٧٣ / ١٣).

(٢) رواه أحمد وابن جرير وصححه والضياء بسند صحيح وسعيد بن منصور (كنز ١٧٣، ١٢٧ / ١٣).

الصفحة ٢٥٣

لهم (١) ، ما قوتل أهل هذه الآية بعد (٢) ، وهذه الآية في سورة براءة التي نزلت بعد غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ، فإذا كان هناك قتال يدخره الغيب بعد آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم. فلاجدال أن أصحاب دائرة الرجز سيبحثون كثيراً عن حصون يتحصنون بها أحرزوا يتحرزون به أو مغارات في الجبال أو نفقا في الأرض لدفع هذا الضرر عنهم. ولا يمكن للباحث المنصف أن يستبعد عامل الذعر هذا عند البحث عن العوائق التي وضعت في طريق علي بن أبي طالب.

ويضاف إلى هذا عامل آخر. فالقوم كان فيهم من حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه. وفيهم من دعا النبي عليه ولعنه وفيهم من نفاه وفيهم من أحلّمه. روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسني يوسف اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية (٤) ، وفي رواية عند أبي نعيم: "

والعن أبا الأعور السلمي(٥) " ، وفيما سبق بينا أنه لعن الحكم بن أبي العاص ونفاه وأحل دم عبد الله بن أبي السرحوذو الندية. فهذا الطابور كله كانت لهم ثقافة يشقون بها طريقا في إتجاه السلطة لإعادة مجدهم الزائل الذي أطاحت به الدعوة الإسلامية. فكان لا بد من وضع عقبات يكون من نتائجها التعقيم على هذه الروايات حتى تندثر في عالم النسيان.

وكان الطريق إلى ذلك لا يمر إلا بتخطي علي بن أبي طالب ثم الكذب بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت هذه الأنماط البشرية تعمل من أجل رسم طريق حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه. وهذا الطريق الذي اختره من على موائد الخوف والذعر والحسد والبغض. يستند علاوة على ما

(١)سورة التوبة: الآية ١٢.

(٢)أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن علي وحذيفة (كنز ٤٣٦ / ١١) (الدر المنثور ٢١٤ / ٣) (البداية والنهاية ٣٣٩ / ٢).

(٣)البداية والنهاية ٢٥ / ٥.

(٤)رواه مسلم.

(٥)رواه أبو نعيم (كنز ٨٢ / ٨).

الصفحة ٢٥٤

ذكرنا على عداوة قديمة بين عبد شمس وبين بني هاشم. فقديمًا كانت هناك عداوات بين حرب بن أمية وبين عبد المطلب بن هاشم. وفي عهد النبوة قدمتا الدعوة رداء الأرحام كي تدخل تحته قريش لا فرق بين هذا وذاك. ولكن أبوسفيان لم ينصت لصوت الرحمة وحسد محمد صلى الله عليه وسلم وحاربهم بعد فتح مكة ظل الطريقان متباغضان وإن وقفوا على أرض واحدة. ولقد اتفقان علي بن أبي طالب قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكد هذا بغضهم لعلي وسنرى فيما بعد أن الأحداث تقر بذلك.

باختصار: كان هناك خوف وذعر وطلب ثأر. وكان هناك من استحدثن علي بن أبي طالب. وكان هناك من خاف من شدة وطأته وشدته فيدين الله. وكان هناك من يبغضه فقط لقربه من رسول الله. وكان هناك من كره اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد، وكان خلاص هؤلاء. أن تتداول الخلافة بين قبائل العرب وأن لا تقتصر على بيت مخصوص. فتكون لكل قبيلة وفقا لهذا التصور بابا مفتوحا يصل بهم إلى كرسي الخلافة. وهذا الطريق يقف في النهاية تحت مظلة يكون فيها مال الله دولا ودينه دخلا وعباده خولا. وهو الطريق الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم.

من هذا كله لا يمكن القول أن مجموعة الحرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا. تتحرك بدون خطة تمهد لها ثقافة، ولأن هذه الثقافة لا بد أن تنتشر بين عامة المسلمين. كان لا بد إما الكذب على رسول الله أو التلعب بكتاب الله لضرب بعضه ببعض. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الكذب عليه واقع لا محالة. ولقد صرح في أكثر من مكان

في حجة الوداع وقال: " من كذبعلي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (١) " ، بل وكان يعلم من ربه بالخطة التي تضعها مجموعة الحرب لله ولرسوله. قال تعالى: (ألم تر إلى الذين نهوا عنالنجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتتاجون بالإثم والعدوان ومعصية

(١)رواه البخاري وغيره (الصحيح ٩٣ / ١).

الصفحة ٢٥٥

الرسول (١) ، لقد أخبر تعالى عن ثلاثة جرائم: الإثم والعدوان ومعصية الرسول. والإثم هو: العمل الذي له أثر سئ. والعدوان هو: العمل الذي فيهتجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون. والإثم والعدوان يدخلان تحت عنوان معصية الرسول. ولكنه تعالى أفرد معصية الرسول لتشمل مخالفته فيما أمره أو نهى عنه. مما له من ولاية أمورهم لأنه صلى الله عليه وسلم أولبالمؤمنين من أنفسهم.

لقد نهوا عن النجوى وإن لم تشتمل على معصية. ولكنهم خالفوا. وكانهؤلاء من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وقيل: إن اليهود كانوا طرفا في هذه النجوى. وشمول اليهود في الآية فيه خفاء. وقد بين سبحانه أن التتاجببالإثم والعدوان ومعصية الرسول. تنتهي إلى الشيطان، قال تعالى: (إنماالنجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا(٢))...، وروي في تفسير هذه الآياتأن خط الحرب كان هدفهم القضاء على الدعوة، وكان لهذا الهدف ثقافة عرفتباسم " العقدة " أو " الصحيفة " ويمكن أن يرى الباحث هذا العقد إذا تدبر الحواريين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وإذا نقب فيالأحداث بعد ذلك على امتداد العهد الأموي. ويمكن القول بأن قوافل الذعروالحسد والذين كرهوا أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد. تعاقدوا فيما بينهم على ورقة ثقافية ييئوها على العامة الذين يحبون الدنيا والذين طلبوا أن يكون لهم ذات أنواط والذين لا يعلمون من دينهم شيئا والذين يبحثون عنأمجاد الآباء وغير ذلك مما أوردنا عند البحث عن صفحة المجتمع. وأن العمودالفقري لهذه الثقافة هو:

إن الله بعث محمدا رسولا إلى الناس كافة. ومحمد لم يستخلف أحدا منبعده. وما قاله في علي بن أبي طالب له تأويلات كثيرة عند العرب. والنبي جعللاختيار إلى المسلمين يختارون لأنفسهم من وثقوا برأيه. والرسول لم يستخلف

(١)سورة المجادلة: الآية ٨.

(٢)سورة المجادلة: الآية ١٠.

الصفحة ٢٥٦

أحدا. لئلا يجري ذلك في أهل بيت واحد فيكون إرثا دون سائر المسلمين ولئلايكون دولة بين الأغنياء منهم. ولئلا يقول المستخلف أن هذا الأمر باق في عقبهم ولد إلى ولد إلى يوم القيامة. والذي يجب على المسلمين عند

مضي خليفة من الخلفاء. أن يجتمع ذوي الرأي والصلاح يتشاوروا في أمورهم. فمن رأوهم مستحقا لها ولوه أمورهم وجعلوه القيم عليهم. فإنه لا يخفى على أهل كل زمان من يصلح منهم للخلافة. فإن ادعى مدع من الناس جميعا. إن رسول الله استخلف رجلا بعينه نصبه للناس ونص عليه بإسمه ونسبه. فقد أبطل في قوله.

وأتى بما لا يعرفه أصحاب رسوله الله وخالف جماعة المسلمين. وإن ادع مدعاً للخلافة لا تصلح إلا لرجل واحد من بين الناس وأنها مقصورة فيه. ولا تتبغليغيره لأنها تتلو النبوة. فقد كذب. لأن النبي قال: " أصحابي كالنجوم بأيها اقتديتم اهتديتم " وإن ادع مدع أنه يستحق الإمامة بقربه من رسول الله. ثم هي مقصورة عليه وعلى عقبه ولا تصلح لغيرهم. فليس له ولا لولده وإن دنا من النبي نسبه. لأن الله يقول: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقال رسول الله: " إن ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم وكلهم يد على من سواهم. فمن آمن بما جاء في كتاب الله وأقر بما قال به رسول الله فقد استقام وأتاب وأخذ بالصواب.

ومن كره. فقد خالف الحق والكتاب وفارق جماعة المسلمين فاقتلوه. فإن فيقتله صلاحا للأمة ". وقد قال النبي: " من جاء إلى أمتي وهم جميع ففرقهم فاقتلوه. إن هذه الثقافة يرى وجهها بوضوح في عهد بني أمية. يوم أن حافظوا على الكرسي بقتال أمير المؤمنين علي، ويوم قتل الحسين، ويوم ضرب المدينة بعد أن خرج أهلها على يزيد بن معاوية. ولم تخرج قوات يزيد من المدينة يوم الحرة إلا بعد أن بالت الخيل بين الروضة والمنبر وبعد أن بايع أهل المدينة ليزيد على أساس أنهم عبيد له الحق أن يبيع فيهم ويشترى. وترى هذه الورقة أيضا على امتداد زمن أولاد مروان بن الحكم طريد رسول الله.

وكان بعض الصحابة يعرفون الخطوط الرئيسية لما اتفق عليه القوم وماسمي بالعقدة. ومنهم حذيفة وأبي بن كعب. وروى أبو بكر أحمد بن عبد

العزير (١) في كتابه السقيفة عن البراء بن عازب. إنه كان في جماعة منهما المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبو ذر وحذيفة والهيثم بن التيهان وذلك بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا حذيفة يقول لهم: والله ليكونن ما أخبرتكم به والله ما كذبت ولا كذبت. وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين. ثم قال: انتوا أبي بن كعب. فقد علم كما علمت، قال: فانطلقنا إلى أبي. فضرينا عليه بابه حتى صار خلف الباب. فقال: من أنتم؟ فكلمه المقداد فقال: ما حاجتكم؟ فقال له: افتح علي بابك، فإن الأمر أعظم من أن يجري من وراء حجاب. قال: ما أنا بفاتح بابي وقد عرفت ما جئتم له. كأنكم أردتم النظر في هذا العقد. فقلنا: نعم فقال:

أفيكم حذيفة؟ فقلنا: نعم، قال: فالقول ما قال. وبالله ما أفتح عني بابي حنتجري على ما هي جارية ولما يكون

بعدها شر منها وإلى الله المشتكى. (٢)

كان هذا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة. وفي عهد عمر بن الخطاب على أصح الروايات عزم أبي أن يتكلم في الذي لم يتكلم فيه بعد وفاة الرسول. وكان يقول: هلك أهل العقدة ورب الكعبة ألا لا عليهم آسولكن آسى على من يهلكون من المسلمين (٣)، وفي رواية قال: لأقولن قولاً لأبالي استحبيتموني عليه أو قتلتموني (٤) ، ووعد أن يكشف الحقائق أمام الناسيوم الجمعة. وجاء يوم الأربعاء والجميع ينتظرون موعد أبي. ولكن يوماًلأربعاء جاء بخبر أليم. قال قيس بن عباد: رأيت الناس يموجون.

فقلت: ما الخير؟ فقالوا: مات سيد المسلمين أبي بن كعب. فقلت:

ستر الله على المسلمين حيث لم يقم الشيخ ذلك المقام (٥) ومات أبي في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أصح

(١) أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري.

(٢) ابن أبي الحديد نقلاً من كتاب السقيفة ٣١٢ / ١ ، كتاب سليم بن قيس ص ٧٤.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية في الإمام أحمد.

(٤) ابن سعد (الطبقات الكبرى ٥٠١ / ٣) والحاكم باختصار (المستدرک ٢٢٩ / ٢ ، ٣٠٣ / ٣).

(٥) ابن جرير في المسترشد ص ٢٨.

الصفحة ٢٥٨

الروايات (١) وقيل مات في خلافة عثمان (٢).

وكان هناك العديد من الصحابة يخافون من رواية بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله. من هؤلاء أبو هريرة. قال فيما رواه البخاري " حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثته وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم (٣) " ، وقال: " إني لأحدث أحاديثاً تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر لشج رأسي (٤) " ، وكان حذيفة يقول:

" لو كنت على شاطئ نهر وقد مددت يدي لا غترت فحدثتكم بكل ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتى أقتل

(5) "

ولقد وجدنا في المقدمة نمطاً بشرياً يحب الدنيا ويضرب كتاب الله بعصبيته ويترك رسول الله قائماً وينقض من حوله. ورأينا قبل ذلك دوائر عديدة مهمتها الصد عن سبيل الله. بملابس الخشوع الزائف ثم وجدنا أنماطاً بشرية تجر مجها حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا. وأنماطاً تنطلق من أرض القبائلية والعصبية هدفها إعادة مجد زائل وأنماطاً بشرية تختزن في ذاكرتها معركة في المستقبل تطيح برقابهم فعملوا بكل ما لديهم من قوة وفكر من أجل الاحتماء وراء الجدر ومن وراء الجدر بثوا ثقافة تمهد لمجيئهم. كانت هذه مقدمات حقيقة. ترتب عليها نتائج أقرها الحديث الصحيح وحركة التاريخ. واستقامت هذه النتائج من هذه المقدمات على خط واحد.

٣ - القرارات الأخيرة للنبي صلى الله عليه وآله:

مما سبق علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه: " أن لا يلبس

(١) وهو قول ابن حبان وابن عبد البر (الإصابة ١٦ / ١).

(٢) وهو قول ابن سعد (الطبقات ٢٠٢ / ٣).

(٣) البخاري ك العلم (الصحيح ٣٤ / ١).

(٤) ابن كثير في البداية ١٠٧ / ٨.

(٥) ابن عساکر (كنز العمال ٣٤٥ / ١٣).

الصفحة ٢٥٩

أمته شيعا"، وفي رواية: " أن لا يجعل بأسهم بينهم " فأبى عليه، وفي رواية" فمنعنيها(١) " ، وعلم من ربه أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده وستركب سنننا لأولين شبرا بشبر وذراعا بذراع. ووفقا لهذا الإخبار كان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب ويلج على ربه جل وعلا. وفي كل هذا تعلق بالله الذي يده مصير الأمور. وخلال الأيام الأخيرة للنبي صلى الله عليه وسلم. اتخذ قرارات وكان القوم يعرفون أنه ملاقي الله تعالى لا محالة في العام الحادي عشر الهجري. وذلك لأنهم سمعوا مقالته لهم في حجة الوداع " لعلي لا ألقاكم بعد عامكم هذا " وسمعه يوم غدير خم يقول: " إنني أوشك أن أدعى فأجيب " وعندما نزل قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعت إلي نفسي " فقال ابن عباس: " فإنه مقبوض في تلك السنة (٢) " فلا ريب أن الجميع كانوا يعلمون أن النبي صلى الله عليه وآله وأهله وأصحابه الذين هم في الدنيا. ولا جدال أن الأفراد والجماعات يحب كل منهم أن يفارقه النبي وهو عنهم راض. فينفذون أوامره بدقة ولا يتخاذلوا بأي صورة من الصور.

ونحن هنا سنسلط الضوء على قرارات ثلاثة أصدرها النبي صلى الله عليه وسلم وأيامه الأخيرة لنرى كيف كانت الصورة التي سنعتبرها مقدمة حقيقية يقينية ليستنتج منها طالب العلم معلومات تصديقية واقعية.

أولا - الأمر الواقي من الضلال:

لقد علم النبي من ربه أن الاختلاف والافتراق واقع. وعلى فراش المرض أخذ النبي بالأسباب. وطلب من الحاضرين وكان فيهم عمر بن الخطاب. أن يأتوه بدواة وكتف ليكتب لهم كتابا لا يضلون بعده. فهذا أمر صريح مقدمته تستقيم مع نتيجته. فهو صلى الله عليه وسلم يريد أن يكتب حتى لا يضلوا.

فماذا حدث؟ عن جابر بن عبد الله قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا

(١) رواه مسلم كتاب الفتن (١٤ / ١٨ الصحيح) وأحمد (الفتح الرباني ٢١٥ / ٢) والترمذي (الجامع ٤٧٢ / ٤).

(٢) قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد (التفسير ٥٦٢ / ٤).

عند موته بصحيفة ليكتب فيها كتابا لا يضلون بعده. فخالف عليها عمر بنا الخطاب حتى رفضها (١) فهذا الحديث حدد الزمن " عند موته " وحدد الطلب "صحيفة ليكتب فيها كتابا " وحدد هدف الكتاب " لا تضلون بعده " وحدد الذخالف " فخالف عليها عمر بن الخطاب."

وفي رواية عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " هلم أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. فقال عمر: إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختلفوا. منهم من يقول: قروا يكتب لكم النبي صلى الله عليه وسلم كتابا لن تضلوه بعده.

ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال النبي: " قوموا " (!!) فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كاللرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم (٢)، وفي رواية: قال عمر: إن النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وأكثروا اللغظ فقال النبي: " قوموا عني. ولا ينبغي عندنا تنازع "، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه (٣).

وفي رواية لابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس (٤) ثم بكحتي خضب دمه الحصباء ثم قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا.

- (١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٢٥ / ٢٢٦) وابن سعد (الطبقات ٢٤٣ / ٢) والطبري (تاريخ الأمم ١٩٣ / ٤).
 (٢) رواه البخاري ك المرض (الصحيح ٧ / ٤) ومسلم ط استنبول (الصحيح ٧٦ / ٥)، وأحمد (الفتح ١٩١ / ٢٢) وابن سعد بلفظ: وغموا رسول الله. فقال: قوموا عني (الطبقات ٢٤٤ / ٢).
 (٣) رواه البخاري (الصحيح ٣٢ / ٢).
 (٤) كان اشتداد المرض يوم الخميس وكانت الوفاة يوم الاثنين.

فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا: هجر رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه. (١)

وقال في لسان العرب في معنى هجر: إذا جعلت إخبارا " هجر " فيكونا المعنى أما من الفحش أو الهذيان. أما إذا كان على سبيل الاستفهام كقولهم " أهجر " يكون المعنى: هل تغير كلامه واختلط. وقال ابن الأثير: والقائل كان عمر بن الخطاب. والذي يليق بعمر أن يكون قد استفهم (٢) وبالنظر فيما ورد نجد أن المسلمين الذي حضروا سماع الأمر افترقوا في الدار. لقد وقع الاختلاف بين قولين. قول النبي وقول عمر! وحيل المسلمون بينهما فرجح قوم

هذا. إنالمهم هنا أن القوم سوا بين النبي وبين عمر وجعلوا القولين مسألة خلاف ذهبكل فريق إلى نصره واحد منهما.

ولقد اعتذر العديد لعمر بن الخطاب. فقال النووي في شرح مسلم: إنقول عمر حسبنا كتاب الله من قوة فقهه ودقيق نظره لأنه خشي أن تكتب أموررما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة! ولكن السندي في شرحالبخاري كان له قول آخر قال: إن الأمر الصادر يفيد أنه أمن من الضلالفالكتاب الذي يريد الرسول أن يكتبه سبب للأمن من الضلال ودوام الهداية.

فكيف يخطر على باب إنسان أنه سيترتب عليه عقوبة أو فتنة أو عجز. أما قوله:

"حسبنا كتاب الله " لأنه تعالى قال: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، ويقول:

(اليوم أكملت لكم دينكم)، فكل من الآيتين لا يفيد الأمن من الضلال ودوامالهداية للناس، ولو كان كذلك لما وقع الضلال ولكن الضلال والتفريق في الأمةقد وقع بحيث لا يرجى رفعه كما أن النبي لم يقل لهم: إن مراده أن يكتب لهماالأحكام حتى يقال على ذلك: إنه يكفي فهمها من كتاب الله. ولو فرض أن مراد

(١)رواه البخاري له الوصايا (الصحيح ١٧٨ / ٢) ومسلم (الصحيح ٧٦ / ٥)، وأحمد (الفتحالرباني ٢٢٤ / ٢١).
(٢)لسان العرب ص ٤٦١٩ وقال أبو حامد الغزالي في كتابه سر العالمين أن القائل كانعمر، وقال هذا أيضا سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ص ٦٢.

الصفحة ٢٦٢

النبي كان كتابة بعض الأحكام، فلعل النص على تلك الأحكام منه صلى الله عليه وآله وسلم سبب للأمن من الضلالة. وعلى هذا فلا وجه لقولهم " حسبنا كتابالله " بل لو لم يكن فائدة النص ليس إلا الأمن من الضلال لكان مطلوبوا جدا ولايصح تركه للاعتماد على أن الكتاب جامع لكل شيء وكيف والناس محتاجون إلئالسنة أشد احتياج مع كون الكتاب جامعا وذلك لأن الكتاب وإن كان جامعا إلاأنه لا يقدر كل أحد على الاستخراج منه، وما يمكن لهم استخراج منه لا يقدركل أحد على استخراج منه على وجه الصواب. ولهذا فوض الله لرسوله البيانمع كون الكتاب جامعا فقال تعالى لنبيه: (لتبين للناس ما أنزل إليهم)، ولاشك أن استخراج صلى الله عليه وآله من الكتاب على وجه الصواب يكفيويغني في كونه نسا مطلوبوا لنا لا سيما إذا أمرنا به. ولا سيما إذا وعد على ذلكالأمن من الضلال. فما معنى قول حسبنا كتاب الله بعد ذلك (١)، ويبدو أنالسندي كان يريد على النووي فيما ادعاه.

أدلى العديد من الباحثين بدلوههم. فقال بعضهم: إذا تأملت قول النبيصلى الله عليه وآله: " أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده "، وقوله: " إنني تاركفيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهم أعظم من الآخر كتاب الله حبلممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي(٢) "، تعلم أن المرمى فيالحديث واحد. وقال البعض: من ألم بأطراف حديث " هجر رسول الله " يقطعأنهم كانوا عالمين أنه إنما يريد أمر يكرهونه ولذا فاجأوه بهذه الكلمة وأكثرواعنده

اللغو واللغظ كما لا يخفى. وكان هناك إصرارا حتى لا يكتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما أراد أن يكتبه الأمر الذي جعل بعض نساء النبي يتحدثن من وراء حجاب (٣)، وقالوا كما في الحديث: " انتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرض عسرتن

(١) السندي شرح البخاري (٣٣ / ١) بتصرف.

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٦٣ / ٥).

(٣) الفاتلة هي أم المؤمنين زينب كما جاء في رواية عند ابن سعد (الطبقات ٢٤٢ / ٢).

الصفحة ٢٦٣

أعينكم وا إذا صح أخذتن بعنقه. فقال النبي: هن خير منكم. (١) "

وبقي سؤال: لماذا لم يصر النبي على كتابة الصحيفة. والإجابة: لأنهم جردوه من العصمة من الضلال بقولهم: " هجر " لقد أراد أن يكتب لهم كتابا يكونوا به في مأمن الضلالة، فقالوا: الكلمة التي بها يصبح الكتاب مصدر ضلالة فلو كتب الكتاب بعد هذه الكلمة لشكك الذين في قلوبهم مرض في كل مكتوب بعد ذلك حتى كتاب الله. ولهذا قال لهم فيما رواه ابن عباس بعد أن قالوا أن النبي الله ليهجر: فقل له ألا نأتيك بما طلبت، فقال صلى الله عليه وسلم:

أو بعد ماذا؟ (٢) !!، وهناك سبب آخر. وهو أنه صلى الله عليه وآله قد علم من ربه أن الاختلاف واقع لا محالة. ولقد رآهم النبي يختلفون في أمر أصدره داخل حجرته. فرجحوا بين قوله وبين قول عمر وكثر اللغظ. والله تعالى أعلم ماذا كان سيحدث لو أصر النبي على كتابة الصحيفة أثناء هذا اللغو واللغظ.

ولقد اكتفى صلى الله عليه وسلم بما أمر به وحذر منه على امتداد رسالته.

ودعنا نفترض أن الرسول قد كتب ما يريده. فهل تمنع الكتابة هذه الأنماط البشرية التي يعلمها الله من الكف عن مخططاتها. كلا! لقد كانوا سيعملون فيوجود الصحيفة نفس علمهم في عدم وجودها. والقرآن الكريم كشف عن أنماط بشرية إذا جاءهم الرسول بآية ظاهرة. قالوا في ظهورها ما كانوا سيقولونه فيعدم ظهورها يقول تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جننتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون * كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) (٣)، بل إن القرآن كشف عن نمط بشري أرادوا أن يبدلوا كلام الله ليكون وفقا لما يريدون قال تعالى: (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلىمغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكمقال الله من قبل (٤)، إن النبي أخذ بالأسباب وهو يعلم أنه لن يمكن من كتابة

(١) رواه الطبراني في الأوسط (كنز ٦٤٤ / ٥) وابن سعد (الطبقات ٢٤٤ / ٢).

(٢) رواه ابن سعد (الطبقات ٢٤٢ / ٢).

(٣)سورة الروم: الآية ٥٨، ٥٩.

(٤)سورة الفتح: الآية ١٥.

الصفحة ٢٦٤

الصحيفة. كما أمر من قبل يقتل ذو النُدبية وهو يعلم أن هذا المارق لن يقتلها الشيخان أبو بكر وعمر. وإن له يوماً في بطن الغيب وأخبر النبي بهذا اليوم.

وأمر بقتل ابن أبي السرح وهو يعلم أن أحداً لن يقتله وأن عثمان بن عفان سيخفيه في داره وهي نفس الدار التي حاصرها الذين ظلمهم بن أبي السرح.

ونفى الحكم بن أبي العاص، وعندما طلب بعض الصحابة أن يقتلوه، رفضوا خبرهم أن في صلبه ذرية الويل لأمتهم منهم واكتفى بنفيه حتى أعاده عثمان فيعهده.

إن الأحداث تجري بمشيئة الله. وما فعل النبي أمراً إلا بإذن من الله. وكلحدث يجري كان من ورائه هدف ومن وراء الهدف حكمة. وعالم الفتن عالمعميق. وأعظم الفتن هي التي تأتي من مكان يستبعد الناس أن تأتي منه الفتن.

وما فعله النبي من طرد الحكم وأمره بقتل ذي النُدبية وغير ذلك يكون اختباراً لمن عاصر الحدث وتحذيراً لهم ولمن بعدهم. وعليه تأتي أحداث يترتب عليها امتحان. وهذا من حكمة الوجود. ألم تر أن الله تعالى قبل أن يخلق آدم أخبر سبحانه ملائكته أن آدم مخلوق ليمارس واجب الخلافة في الأرض. ولكن آدم لميهبطه الله إلى الأرض عقب خلقه مباشرة. وإنما كان بين الخلق وبين الهبوط وأمر ونواهي وأحداث ترتب عليها أن آدم هبط إلى الأرض باختياره وليس قهراً.

والرسول حذر وأمر ونهى وفي علم الله أن الهبوط والاختلاف والافتراق واقع لا محالة. لأنه سبحانه العليم المطلق بطبائع الناس. والله لا يظلم مثقال ذرة. ومامن طريق إلا ودل على موطن الهداية فيه. وما ترك الشيطان طريقاً للهداية إلا دق عليه أوتاداً. ألم تر أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت الحرام وبعد فترة من الزمان أوحى الشيطان إلى أتباعه بزرع الأصنام حول الكعبة. فأصبح الناظر في المكان يرى هذا وذاك فأصحاب الفطرة السوية يعرفون طريق الصواب وأصحاب النفوس المريضة يعكفون على كل صنم.

إن النبي الأعظم أمر أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتاباً لا يضلوا بعده.

وكان هذا لهدف من ورائه حكمة. وكان أيضاً مادة يختبر بها من عاصر الحادث وشعاعاً يهدي إلى الحق لكل باحث عن الحقيقة، وكم كنا نتمنى أن تكتب هذه

الصفحة ٢٦٥

الصحيحة. نعم لقد كان العديد من الجيل الأول سوف يشكك فيها وربما شككها عشرة أجيال أو أكثر. ولكن الشيء الأكيد أن هذا التشكيك ما كان ليكتب له الخلود وعلى أي حال لم تصلنا هذه الصحيفة لأنها لم تكتب. فدعونا نبحث دعونا نبكي مع ابن عباس رضي الله عنهما.

إن الرسول إذا أمر لا ينبغي أن نناقش ماذا وراء هذا الأمر. لأن المخالفة لا تصب إلا في وقت الفتن والعذاب قال تعالى: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم(1))، قال المفسرون:

دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ودعوته ليشاورهم في أمر جامع ودعوته إلى الصلاة جامعة وأمرهم بشئ في أمر دنياهم أو آخرهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه صلى الله عليه وآله وسلم. ويشهد بهذا المعنى قوله: " قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا "، وما يتلوه من تهديد فخالف أمره صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا المعنى يناسب سياق الآية السابقة وهي قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله..) فهذه الآية تمدح الذين يلبون دعوته ويحضرون عنه ولا يفارقونه حتى يستأذنوه. أما هذه الآية فهي تدم وتهدد الذي يدعوهم فيتسللون عنه لو اذا غير مهتمين بدعائه ولا معتنين وقوله: " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم "، تحذير لمخالف أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته. من أن تصيبهم فتنة وهي البلية أو يصيبهم عذاب أليم.

والقرآن الكريم كما حذر الذين يخالفون أوامر الرسول. حذر أيضا الذين يستجيبون إلى الله، فالرسول إذا دعاهم لما يحييهم ويجعلهم في مأمن من الضلال. أن تصيبهم فتنة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون

(1) سورة النور: الآية ٦٣.

واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة واعلم أن الله شديد العقاب(1))، قال المفسرون: لقد أحس سبحانه بالاستجابة لما يحيي الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار. وأخبر أنه سبحانه المالك لكل القلوب. وهو أقرب إلى الناس من كل شئ. حتى يعلم المنافقين أنه أعلم بما في قلوبهم منهم فيرتدعوا. وأحاط الجميع علما بأنهم إليه سيحشرون يوم القيامة، ويومئذ تظهر حقيقة ملكة لهم وسلطانه عليهم. ويومئذ له يغني عنهم منه شئ. ثم حذرهم من فتنة. تختص بجماعة منهم. لكن السئ من أثرها يعم الجميع. وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة. ولم يعرفها بكمال اسمها ورسمها. غير أن قوله تعالى فيما بعد: (لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة)، وقوله: (واعلموا إن الله

شديد العقاب)، يوضحها بعض الإيضاح. وهو إنها اختلاف البعض من الأمة مع بعضهم في أمر يعلم جميعهم وجه الحق فيه. فيجمع البعض عن قبول الحق. ويشق طريقه بالظلم وهذا الظلم هو الذي أمر سبحانه باتقائه. لأنه يرى سوء أثره إللكافة المؤمنين وعامة الأمة. وقد تظن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الأمة وتهدهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرق جمعهم وتشتت شملهم.

وهذه الفتنة حدثت أيام الصحابة وليس في أيام غيرهم. هم وحدهم المسؤولون عنها. فعن الزبير بن العوام قال: لقد خرفنا الله بقوله: (واتقوا فتنة...) الآية نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة (٢) وعنه أيضا قال: لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها (٣)، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا (٤)، ويوم الجمل ما جاء فجأة. ولكن كانت لهم مقدمات. وإتقاء هذه الفتنة يكون بالبحث عن المقدمات الحقيقية اليقينية لاستنتاج معلومات تصديقية واقعية. فإذا تشابهت الأمور اعتبر آخرها أولها

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(٢) رواه ابن جرير (تفسير ابن كثير ٢٩٩ / ٢).

(٣) ابن كثير في التفسير ٢٩٩ / ٢.

(٤) ابن كثير في التفسير ٢٩٩ / ٢.

الصفحة ٢٦٧

فحسب البدايات تكون النهايات.

وفي رأينا أن هذا الأسلوب هو الأمثل للكشف عن فتنة ترتدي ثيابا بالقداسة والخشوع وأول باب للبحث لاتقاء هذه الفتنة يجب أن يبدأ من قولته تعالى: (لا تصيبين الذين ظلموا) وليكون السؤال: الذين ظلموا! ظلموا من؟ ثم يتم البحث عن المقياس الذي عليه يظهر الظلم وحجمه وحركة الظالم والمظلوم.

ثانيا - الأمر العسكري الأخير:

ذكرنا أن النبي في حجة الوداع أعلن على الناس وفاته وذلك في قوله:

"علي لا ألقاكم بعد عامكم هذا"، كما قال مثل ذلك في غدير خم. ويمكن أن تكون المساحة الزمنية بين هذا الإعلام وبين حدوث الوفاة زاخرة بالاجتماعات وترتيب الأوراق بالنسبة لجميع الأطراف. وشاء الله عز وجل أن يكون هناك حدث يستدعي تجهيز جيش ليصدر النبي قرارا ببعث هذا الجيش إلى مهمة خارج الدولة، ويكون هذا الجيش بقيادة أسامة بن زيد وينتظم تحت هذه القيادة جميعا لأطراف وكبار الصحابة باستثناء علي بن أبي طالب. وكان وجود علي في المدينة لهدف كما كان لوجوده فيها يوم تبوك هدف. وروى أصحاب التواريخ والسير أن هذا الجيش

أمره الرسول أن يسير إلى مؤتة (وادي في فلسطين) وروبالبلاذري في تاريخه وهو معروف بالثقة والضبط أن أبا بكر وعمر معا كانا فيجيش أسامة (١) وذكر الواقدي في كتاب المغازي أن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة وإنما كان عمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم. وقال الواقدي إن أبا بكر استأذن رسول الله فذهب إلى داره بالسنة وكان بها منزله حين تزوج ابنة خاتمة.

وبالجملة: اتفق جميع المؤرخين على أن عمر كان بالبعث وروى البلاذري وهو ثقة أن أبا بكر كان أيضا ضمن الجيش وقال غيره غير ذلك.

(١) راجع (الطبقات الكبرى (١٩٠ / ٢، ٦٦، ٦٦ / ٤) والكمال ٢١٧ / ٢ في أنساب الأشراف ٤٧٤ / ١، اليعقوبي ٩٣ / ٢، كنز العمال ٣١٢ / ٥، تاريخ ابن عساکر ٢٩١ / ٢، الفتح الرباني ٢٢٢ / ٢١.

الصفحة ٢٦٨

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج الجيش. فلما أصبح يوم التاسع والعشرين من صفر ووجدهم متناقلين خرج إليهم فحضرهم على السير وعقد اللواء لأسامة بيده تحريكا لحميتهم، ثم قال: أغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله (١)، فخرج أسامة بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف ثم تناقلوا هناك وطعن قوم منهم في تأمير أسامة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك يوم السبت قبل وفاته بيومين. وبعد أن قالوا: " هجر " بيومين. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس.

ما مقالة بلغني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل (٢)، وحضرهم على المبادرة إلى السير، وروى الشهرستاني أن النبي قال: " جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه (٣) ... فلحق الذين تناقلوا من قبل بالجيش. ثم نقل إليهم أن النبي قد ثقل عليها المرض فبدءوا في التناقل وعندما نقل إليهم خبر الوفاة رجعوا إلى المدينة التي كانت ترجف بأهلها.

إن حروب النبي صلى الله عليه وسلم تكن لدنيا وإنما لدين. وكان للدين فيها أقوى تعلق لما يعود على الإسلام وأهله بعلو كلمة. وحروب النبي صلى الله عليه وسلم كانت بأمر من الله عز وجل. وكان الملائكة يشاركون في معظمها لتثبيت الذين آمنوا ونصرة الفطرة. وتخاذل الناس في الحروب حدث على امتداد الرسالات السماوية في أقوام الأنبياء الذين أمروا بالقتال مع رسلهم.

ولقد حدث تخاذل من البعض في المعارك التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم. حدث هذا يوم أحد ويوم حنين ويوم تبوك. أما التخاذل عن بعث أسامة فقد حمل ملامح إضافية وهي أنهم طعنوا في تأمير أسامة عليهم. وهذا

(١) السيرة الحلبية ٢٣٤ / ٣.

(٢) رواه البخاري ب مناقب المهاجرين (الصحیح ٣٠٣ / ٢) وأحمد (الفتح الرباني ٢٢٢ / ٢١) الطبري (تاريخ الأمم ٣١٢ / ٣)، ابن سعد (الطبقات ١٩٠ / ٢).
(٣) الملل والنحل / الشهرستاني ٢٣ / ١.

الصفحة ٢٦٩

الطعن في حقيقة الأمر موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إلى أسامة لأن الذي أمر أسامة هو الرسول. ولهذا خطب النبي ولعن من تخلف عنالبعث. وطعنهم في تأمير أسامة أجمع عليه أهل السير والأخبار وأرسلوا ذلكفي كتبهم إرسال المسلمات ورواه الإمام أحمد والبخاري وغيرهما. وتأمير أسامةوالأمر بخروج الجيش ربما والله أعلم يكون من باب الأخذ بالأسباب. فالرسولقال لعلي كما في الحديث الصحيح أن الأمة ستعذر به. وإن لهذا الغدر أسبابمنها أنهم سيتذرعون بصغر سنه. لذا أمر أسامة على عطاء قريش وشيوخها.

وكان أسامة غلاما لم يبلغ ثماني عشرة سنة وقتئذ. كي يبين لهم ولغيرهم بأنالمؤمن يجب عليه أن يسمع ويطيع ولو وجد في نفسه حرجا مما قضى النبيوسلم تسليما وتأمير أسامة عليهم إرغام لهم على السمع له ليكون سمعهمأسامة مدخلا تتقبله نفوسهم بعد ذلك إذا وجدوا من هو أصغر منهم سنا علبرأس الخرقه. ولكن القوم فطنوا إلى ذلك فقالوا قول الذي لا يبقي للقيادة أيمزية أو فضل وإلا فما معنى الطعن في إمارة من أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد أخلى النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قبل وفاته بتعبئة شيوخقريش تحت إمرة أسامة وإخلاء المدينة من هذه القوة في هذا الوقت بالذات. فيهأنه علم من ربه أن المدينة لن تهاجم من قبل الروم أو الفرس. في هذه الفترة. لذا أمر عليه الصلاة والسلام بالبعث لعل البعث يكون فيه شفاء. قال تعالى:

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكمدينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (١) ، قال المفسرون:

تؤذن بأن دين المسلمين في أمن من جهة الكفار مصون من الخطر المتوجه منقبلهم وأنه لا يتسرب إليه شئ من طارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلميأنفسهم وإن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة ورفضهم هذا الدينالكامل المرضي ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها إلى النعمة ويذيقهم لباس

(١)سورة المائدة: الآية ٣.

الصفحة ٢٧٠

الجوع والخوف، ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية في ملحمتهالمستفادة من قوله: (فلا تخشوهم واخشون) فعليه أن يتأمل فيما استقر عليهحال العالم الإسلامي اليوم. حيث انهدام الوحدة الدينية وظهور الفرقة ونفاذاالقوة وذهاب الشوكة. ثم يرجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصلعلى أصول القضايا وأعرافها.

ثالثا - الأمر الطبي الأخير:

بعد أمره صلى الله عليه وآله وسلم بأن يكتب لهم كتابا لا يضلون من بعده. وأمر بأن يخرجوا في بعث أسامة. ومن على فراش المرض. أمرهم أن لا يلدوه مهما شاهدوا عليه من علامات المرض، ومعنى اللد أن يجعلوا الدماء فيأحدي جانبي فيه. وكانوا يستعملون العود الهندي في ذلك. فماذا حدث بعدها الأمر الصريح؟ روى البخاري عن عائشة قالت: لدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه فجعل يشير لنا أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء. فلما أفاق قال صلى الله عليه وآله وسلم: ألم أنهاكم أن تلدوني، قلنا:

كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لد. إلا العباس فإنه لم يشهد (١)، وفي رواية للإمام أحمد قالت: ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفاق وعرف قد لد ووجد أثر اللدود فقال: ظننتم أن الله عز وجل سلطها علي - يعني ذات الجنب - ما كان الله يسلطها علي، ثم قال: لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا العباس فإنه لم يشهد (٢)، وفي رواية عند ابن سعد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كنتم ترون أن الله يسلط علي ذات الجنب ما كان الله ليجعل لها علي سلطانا والذي نفسي بيده لا يبقى في البيت أحد لالد... " الحديث (٣)، وقال السندي في شرح البخاري: معنى قوله: " لا يبقى في

(١) رواه البخاري (الصحيح ٩٥ / ٣) ك كتاب المغازي ب مرض النبي.

(٢) رواه أحمد بسند جيد (الفتح الرباني ٢٣٩ / ٢١) والطبراني والحاكم (كنز العمال ٤٦٩ / ١١).

(٣) ابن سعد (الطبقات ٢٢٥ / ٣).

الصفحة ٢٧١

البيت أحد إلا لد "، عقوبة لهم بتركهم امتثال نهيه عن ذلك (١)، وبقراءة متدبرة لهذا الحدث. نجد أن من في البيت ظنوا أن النبي قد غلبه الوجع! لقد حكموا بما يرون ولم يمتثلوا لما قال. وبعد أن وقعوا في المحذور أخبرهم بأن الله لم يجعل لهذا المرض سلطانا على رسول الله. ثم أخبرهم بعقوبة تستقيم مع ما فعلوه. ومعنى أنه صلى الله عليه وسلم يخبرهم بالعقوبة أنه لا ينطق عن الهوى. وأنه كان يتلقى من ربه ويخبر بالغيب حتى النفس الأخير.

لقد تعاملوا معه على أنه قد غلبه الوجع، أو أنه رفض الدواء كراهية المريض للدواء، فضربتهم العقوبة. ترى هل يستحق الفريق الذين قالوا يوم الخميس أن النبي قد غلبه الوجع عقوبة على ما قالوا بعد أن تبين هنا أن الله لا يسلط على رسوله المرض الذي يجعله يهدي أو يهجر؟

رابعا - الوصايا:

إذا سألنا: بماذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم قبل الموت؟

فستكون الإجابة على هذا السؤال غير تامة في جميع الأحوال. ولقد روى أنرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من حق امرئ مسلم له شئ يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده(٢) " ، ولقد روى فيما بعد أنأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثوا عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسأل لهن ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكانت المفاجأة عندما أخبرهم أبو بكر رضي الله عنه أن الرسول قال: لا نورث... (٣) " فمنهذا يمكن القول أن النبي لم يكتب وصيته ويقول فيها هذا. وعلى أقل تقدير لم يخبر أهل بيته بذلك. فإذا تركنا الوصية فيما يتعلق بميراث أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ونظرنا إلى الوصية بالأمة. نجد روايات تحتاج إلىإيضاحات. وعلى سبيل المثال روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي

(١) البخاري شرح السندي (٩٥ / ٣).

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤٢٢ / ٤).

(٣) سنين ذلك في حينه.

الصفحة ٢٧٢

صلى الله عليه وسلم أوصى بثلاث وقال: اخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ، إلى هنا انتهت الوصايا. وأنت كما ترى من الوصايا ثلاث لكن الراوي أخبرنا بإثنين. وعندما جاء الدور على الوصية الثالثة قال الراوي: وسكت سعيد عن الثالثة. فلا أدري أسكت عنها عمدا أو قالمرة أو نسيها(١) ، وهكذا حرمانا من الوصية الثالثة كما حرمانا من كتابة الصحيفة.

أين الوصية بخلافة راشدة متكفلة بصلاح النفوس والأموال والأحكام والأخلاق والصالح العام. هل يجوز أن يخشى معاوية بن أبي سفيان أن يترك أمة محمد بعده بلا راعي لها ولا يخشى محمد ذلك؟ أيكون سلاطين الإسلام الذينورثوا الخلافة من والد إلى ولد أحرص على مصلحة الأمة من بني الرحمة؟ إن هذه التساؤلات ليست جديدة. فلقد طرحت من قبل وبعد وفاة الرسول بزمنيسير. روى البخاري: سئل بن أبي أوفى: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم أوصى؟ فقال: لا، فقيل: كيف كتب على الناس الوصية أو أمر بالوصية.

قال: أوصى بكتاب الله (٢)، وفي رواية الترمذي: فقيل: كيف كتبت الوصية وكيف أمر الناس(٣) " ...، وقال في تحفة الأحوازي: أي كيف يؤمر المسلمون بشئ ولا يفعل النبي. وبذلك يتم الاعتراض (٤).

وبعد هذا التساؤل من الناس جاء التساؤل الأهم روى البخاري عن الأسودقال: ذكروا عن عائشة أن عليا كان وصيا. فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنتمسندته إلى صدري - أو حجري - فدعا بالطست - وفي رواية: فبال فيها - فلقدأثخنت في حجري فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصى؟ (٥)، والجدير بالتسجيل

(١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٢٤ / ٢١) وقال في الفتح رواه الشيخان.

- (٢) رواه البخاري ك الوصايا (الصحيح ١٢٥ / ٢) ومسلم (الصحيح ٧٤ / ٥ ط اسطنبول).
(٣) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤٣٢ / ٤).
(٤) تحفة الأحواذي (٣٠٩ / ٦).
(٥) رواه البخاري ك الوصايا ١٢٥ / ٢، كتاب المغازي ٩٥ / ٣، ابن سعد (الطبقات ٢٦١ / ٢).

هنا أن وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي كانت متداولة أيام الصحابة.

ألم تسمع قولهم في محضر أم المؤمنين: إن عليا كان وصيا.

وعلى أي حال فإن حديث الناس بالوصية لعلي لا خلاف عليه كما في هذا الحديث. وإنما الخلاف في رد أم المؤمنين على الذين قالوا بذلك. فلقد أخبرتهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات على صدرها وإنما آخر الناس عنها به. وهذا القول تعارضه أحاديث صحيحة أخرى منها ما رواه الإمام أحمد عن أم المؤمنين أم سلمة، قالت: والذي أحلف به إن كان علي بن أبي طالب أقرب الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت: عدنا رسول الله صلى الله عليه وآله بعد غداة والنبي يقول: جاء علي، جاء علي - وفي رواية قالت فاطمة: كأنه بعثة في حاجة - فجاء علي، قالت أم سلمة:

فظننت أن له إليه حاجة. فخرجنا من البيت فعدنا وكنتم أدناهم إلى الباب فأكبعليه علي (١) فجعل يساره ويناجيه (٢)، ثم قبض صلى الله عليه وآله منيومه ذلك. وكان علي أقرب الناس به عهدا. (٣) "

وروى ابن سعد عن أبي الغطفان قال سألت ابن عباس: يا ابن عباس رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال ابن عباس: توفي وهو لمستند إلى صدر علي بن أبي طالب. قلت: فإن عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وآله بين سحر يونحري. فقال ابن عباس: أتعقل!! والله لتوفى رسول الله وإنه لمستند إلى صدر علي وهو الذي غسله (٤)، وسئل عمر بن الخطاب: ما كان ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: سل عليا، فقيل له: من غسله؟ قال: سل

(١) أي مال برأسه عليه.

(٢) أي يحدثه سرا.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير أم موسى وهيئة (الزوائد ١١٢ / ٩)، ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٩ / ٣)، وأورده ابن كثير في البداية ٣٦٠ / ٧.

(٤) ابن سعد (الطبقات ٢٦٣ / ٢).

عليًا (١)، وعن حذيفة بن اليمان قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه الذي قبض فيه فرأيتَه يستند إلى علي بن أبي طالب. فأردت أنأنحيه وأجلس مكانه فقلت: يا أبا الحسن ما أراك إلا تعبت في ليلتك هذه فلوتتحييت فأعنتك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: دعه فهو أحق بمكانهمك. (٢) "

وكما ذكرنا لقد تحدث الناس في عصر الصحابة عن وصية النبي لعلي.

ولكن الوصايا وصلت إلينا مبتورة. وصحيح أن أم المؤمنين عائشة ذكرت أنالنبي لم يوصي لعلي. وصحيح أيضا أن عليا كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله. وفي الحديث أنه مال برأسه على النبي وأن النبيحدثه سرا. وفي الحديث الصحيح. أن عليا قال: إن مما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأمة ستغدر بك بعدي. (٣) "

ورحل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، رحل النبي الأمي العربيالقرشي الهاشمي المكي المدني ونشهد أنه أدى الرسالة ونصح الأمة وكشفالغمة وجاهد في سبيل الله حتى آتاه اليقين فجراه الله خير الجزاء ونسأله سبحانهأن يحشرنا تحت لوائه يوم القيامة والمؤمنين أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) ابن سعد (الطبقات ٢٦٣ / ٢).)

(٢) رواه ابن عساکر (كنز العمال ٢٢٨ / ١٦).

(٣) رواه البيهقي بسند صحيح (كنز العمال ٢٩٧ / ١١) ابن كثير في البداية (٢١٨ / ٦).

الصفحة ٢٧٥

الطريق إلى الفتن

الصفحة ٢٧٦

الصفحة ٢٧٧

أولا - الاختيار

أضواء على سقيفة بني ساعدة:

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أرجفت المدينة بأهلها. ونزل إليهاالذين كانوا في بعث أسامة. وتوجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى دار النبيأعلن البيان الأول وجاء فيه " أن النبي لم يمت وإنما ذهب إلى ربه كما ذهب موسى فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات والله ليرجعنرسول الله صلى الله عليه وسلم فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنرسول الله مات(١) " ، وفي رواية البخاري عن عائشة قالت قال عمر: والله

مامات رسول الله (٢) " ، والبيان بهذه الصورة في حاجة إلى دقة. فكان يكفيا لفراروق أن ينظر في بيت النبي أو يسأل أم المؤمنين حفصة عن الحقيقة. ثم يلقي البيان على خلفية من الدقة. ولقد فصل الفاروق رضي الله عنه الأسباب التي دعته إلى القول بهذا، فقال فيما رواه البخاري: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم (٣) " ، وفي تاريخ الطبري قال: والله إن حملني على ذلك إلا أنني كنت أقرأ هذه الآية: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، فوالله إني كنت لأظن

(١) الطبري (١٩٧ / ٣ / ٢). (البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٩١ / ٢).

(٣) البخاري (الصحيح ٢٩١ / ٢) ك بدء الخلق.

الصفحة ٢٧٨

أن رسول الله سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بأخر أعمالها فإنه للذي حملني على أن قلت ما قلت (١) " ، إن من أعجب الأشياء أن يقول الفاروق رضي الله عنده ذلك. كيف، وهو القائل يوم الخميس: حسبنا كتاب الله! والله تعالى يقول للرسول: (إنك ميت وإنهم ميتون (٢))، والرسول نفسه أعلن على الملأ أنها وشك أن يدعى فيجيب والناس علموا وتناقلوا فيما بينهم أن آخر حج للنبي كان حجة الوداع، روى البخاري عن ابن عمر قال: هذا يوم الحج الأكبر فطفق النبي صلى الله عليه وآله يقول اللهم أشهد وودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع (٣).

إن ما نسب إلى الفاروق في تأويل هذه الآيات لا تستريح النفس إليه، فعمر كان أجل قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه في هذه الواقعة. لكنه لما علم بالوفاة خاف من وقوع فتنة في الإمامة وخاف حدوث ردة. فافتضت المصلحة تسكين الناس بأن أظهر ما أظهره من كون أن النبي لم يمت. حتى يأتي أبو بكر وكبار الصحابة ويقرروا ماذا سيفعلون لمصلحة الأمة... وجاء أبو بكر وكان بالسنح وكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما علم بالحقيقة قال للعمر الذي كان يحلف بالله أن النبي لم يمت: أيها الحالف على رسلك (٤)، ثم أعلن البيان الثاني وقال: ألا من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: (وإنك ميت وإنهم ميتون)، وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم (٥))، وروى ابن سعد بن عمر عندما سمع الآية قال لأبي بكر: " هذا في كتاب الله؟! قال: نعم، فقال: أيها الناس هذا أبو

(١) الطبري (٢٠٤ / ٣).

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٣) البخاري (الصحيح ٣٠٠ / ١) ك الحج.

(٤) البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٩١ / ٢) (٥). (البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٩١ / ٢).

الصفحة ٢٧٩

بكر وذو شيبه المسلمين فبايعون(١) " ، وكانت هذه أول صيحة من المهاجرين تنادي بأبي بكر.

- الطريق إلى السقيفة:

إن دعوة الفاروق لمبايعة أبي بكر يمكن أن تفهم على أرضية الرأي وليس على أرضية النص. والصحابة على أرضية الرأي لهم أصول عديدة. ولقد أطبقت الصحابة أطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك.

كإسقاطهم سم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلف قلوبهم. وفيهما نصوص واضحة وصريحة بكتاب الله، وكان ذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وفي حياته أمرهم بالخروج في بعث أسامة لكنهم رأوا أن عدم الخروج مصلحة للدولة وللملة وحفظ للبيضة ودفعاً للفتنة. والأمثلة في ذلك كثيرة. ولما كانت الحركة بعد وفاة النبي تدور بساعد الفاروق رضي الله عنه. فإننا نسجل هنا أن الفاروق كانت له اجتهادات وآراء واعتراضات في زمن الرسول. إذا نظرنا فيها لا يمكن أن ننكر منه أنه يبايع لأبي بكر لمصلحة رآها ويعدل عن النص. ومما ثبت أنه أنكر مرارا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أموراً اعتمدها.

منها إنكاره صلاة رسول الله على عبد الله بن أبي. وذلك فيما رواه الإمام البخاري أن عمر قال للنبي: " تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر له(٢) " ، وفي رواية عند الترمذي " فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي جذبهم وقال: أليس قد نهى الله أن تصلي على المنافقين(٣) " ، وفي رواية عندها أيضاً قال له النبي: " أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت.(٤) "

واعترض على قسمة قسمها النبي، روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال:

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقلت: والله يا رسول الله لغير

(١) الطبقات الكبرى ٢٦٧ / ٢.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة براءة (الصحيح ١٢٧ / ٢) ومسلم (الصحيح ١٦٧ / ١٥).

(٣) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٨٠ / ٥).

(٤) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٧٩ / ٥).

هؤلاء كان أحق به منهم فقال النبي: إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش أو يبخلون فلست بباخل(١) " ، أي: الجأوني إلى السؤال بالفحش أو نسبتي إلباخل. واعترض على صلح الحديبية وقال للنبي بكل صراحة: ألسنت نبي الله حقاً؟ ولم يعترض عليه النبي.

روى البخاري قال عمر: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت:

ألسنت نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله! ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أو ليست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به. ثم قال عمر فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟! قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل، قال: بلى، قلت: فلنعطي الدنيا فيديننا إذا. فقال أبو بكر: أيها الرجل! إنه لرسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بفرزه!! فوالله إنه على الحق. (٢)

وفي روايات عديدة أن عمر بن الخطاب عندما تحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. رجع متغيظا رغم ردود النبي عليه. وذلك من قوفقه وعظيم بصيرته رضي الله عنه، روى البخاري: " قال رسول الله يا ابنا الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا. فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق... " الحديث. (٣)

وأرضية الرأي وقف عليها كثير من الصحابة. وبعد الرسول عملوا بمقتضما يغلب في ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدبهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص. والذي يمكن أن نقوله وفقا لقراءتنا للأحداث. أن العديد من كبار الصحابة تبنوا أن عليا لن تجتمع

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٤٦ / ٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الشروط باب الجهاد والمصالحة (الصحيح ١٢٢ / ٢).

(٣) رواه البخاري تفسير سورة الفتح (١٩٠ / ٣).

الصفحة ٢٨١

عليه العرب إما لأنه وترها وسفك دماءها وإما للحسد أو البغض وإما لاستحداثهم سنة أو للخوف من شدة وطأته وشدته في دين الله أو لدفع ضرر يخبئه لهم الغيب. وإما كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد. ولقد تبنوا خطيرة الموقف بعد غزوة تبوك وهي الغزوة التي شهدت محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم. ووفقا لهذه القراءة للأحداث كان كبار الصحابة أمام خيارين:

الأول: أن يعملوا بالنص وينصبوا عليا، ثم تجرى بحور الدماء على أيدي الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون بجميع دوائرهم وتياراتهم، ويترتب لذلك تقدم الجاهلية والارتداد عن الإسلام.

الثاني: أن يرجحوا المصلحة وينصبوا لشيخا مجريا للأمر لا يحسده أحدولا يحقد عليه أحد ولا يبغضه أحد. فأيهما أصلح للدين؟ الوقوف مع النصالذي يؤدي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية. أم العملبمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام وانتدامة العمل بالدين وإن كان فيه مخالفةالنص؟

قد يقول قائل: إن نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان النبيودفع النص. وهذا شعور طيب. ولكن هناك نصوص صريحة ثم مصادرتها وهيفي كتاب الله ومن ذلك سهم المؤلفة قلوبهم وسهم ذي القربى وسيأتي الحديثعنهما في حينه. ثم أن نفسي أيضا لا تسامحني أن أنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم إهمال أمر الإمامة وأن يترك الناس في فوضى وهو صلى الله عليه وسلم ماكان يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميرا وهو حي ليس بالبعيد عنها فكيف لا يؤمر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث؟

والخلاصة أقر كبار الصحابة هذا الرأي لحقن الدماء ولسير الدعوة. وحقنالدماء يدخل تحت ظلها علي بن أبي طالب وأهل بيته. ولهذا لم يتعرض إليهاحد بمكرهه وكان هو وأولاده على امتداد عصور الخلفاء الثلاثة يعامل بكتقدير واحترام. ووفقا لما ذكرنا بايع عمر لأبي بكر رضي الله عنه... وأبو بكر

ما كان يريد قيادة وإنما كان يخاف الفتنة وسنذكر أقواله في حينها. وكان منقبيلة لا تراحم غيرها من القبائل على طلب رأس قريش. ولم يكن في نسبه مايشمخ به على الناس (١) وكان منطقة توازن يميل إليه الكثير من الصحابة ولايفرق بين هذا وذاك حتى أبو سفيان كان أبو بكر يكن له كل تقدير. ومعاملة كهذه تشهد بأنه كان ماهرا في قيادة السفينة. روى الإمام مسلم عن عائذ بنعمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذتسيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريشوسيدهم. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال النبي: ياأبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي (٢)أهها أرضية منالجب. لم يتكبر على الضعفاء وإنما ذهب إليهم وطيب خاطرهم، قال النووي في الحديث: هذه فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء (٣)، ولم يختلف الفاروقرضي الله عنه عن أبي بكر فهو من قبيلة لا تصارع قريشا على متاع ولم يكنعندها ما تشمخ به على القبائل كان منزله بالعوالي في بني أمية (٤)، وكان يقدرأبا سفيان وأولاده، ذكر معاوية يوما عنده فقال: دعوا فتى قريش وابنسيدها (٥)، فهذا كله يحفظ التوازن لتسير الدولة وفقا لمصلحة الأمة.

قد يقول قال: ما هو الدليل على أن كبار الصحابة أخذوا بمصلحة الأمة في أمر الخلافة ودفعهم النص؟ نقول: أما النصوص الخاصة بالولاية فقد قدمناها على امتداد هذا الكتاب وأما أخذهم بمصلحة الأمة فلقد روى ابن خزيمة فيصحيحه والإمام أحمد بسند صحيح عن أبي رافع قال: لما استخلف الناس

(١)الإسلام لا يقيم وزنا للقبائل من حيث نسيها. ولكننا طرحنا النسب هنا نظرا للقبائلية التي توهجت بعد رسول الله وبقيت زمنا طويلا.

(٢)رواه مسلم (الصحيح ٦٦ / ١٦ في فضل سلمان وبلال وصهيب).

(٣)مسلم شرح النووي (٦٦ / ١٦).

(٤)الترمذي (الجامع ٤٢٠ / ٥).

(٥)رواه الديلمي (كنز العمال ٥٨٧ / ١٣) وابن كثير في البداية (١٢٤ / ٨).

الصفحة ٢٨٣

أبا بكر. قلت: صاحبي الذي أمرني أن لا أتأمر على رجلين. فارتحلت فانتهيت إلى المدينة فتعرضت لأبي بكر فقلت له: يا أبا بكر أتعرفني؟ قال: نعم، قلت:

أتذكر شيئا قلته لي. أن لا أتأمر على رجلين وقد وليت أمر الأمة، فقال: إن رسول الله قبض والناس حديث عهد كفر فحفت عليهم أن يرتدوا وأن يختلفوا فدخلت فيها وأنا كاره ولم يزل بي أصحابي. فلم يزل يعتذر حتى عذرت (١)، وفي رواية الإمام أحمد قال: فبايعوني لذلك وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة يكون بعدها ردة (٢).

وروى الطبري أن عمر قال لابن عباس: أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد؟ قال ابن عباس فكرهت أن أجيئه فقلت: إن لم أكن أدري فأمرير المؤمنين فإدري فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فنتبججوا على قومكم بجحا فاختارت قريش لنفسها فأصاب (٣)، وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز في كتابه السقيفة أن عمر قال لابن عباس: ما أظن صاحبك إلا مظلوما. قال ابن عباس فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته. فانتزع يده من يدي ثم مر يهيم ساعة ثم وقف فلقته فقال لي: يا ابن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه. قال ابن عباس فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى، فقلت: واللهم استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر (٤) وروى أحمد بن أبي الطاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه مسندا عن ابن عباس قال: قال لي عمر (٥) من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد. قال: كيف خلفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر. قلت: خلفته يلعب مع أتراه، قال:

لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلفته يمتح

(١)رواه ابن خزيمة في صحيحه والبعوي وابن رهوية (كنز ٥٨٦ / ٥).

(٢)رواه أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني ٦١ / ٢٣).

(٣)الطبري (تاريخ الأمم ٣١ / ٥).

(٤)ابن أبي الحديد ٢٩٠ / ٢.

(٥)كان لقاء عمر بابن عباس في أوائل خلافة عمر بالمسجد.

الصفحة ٢٨٤

بالغرب (١) على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن قال: يا عبد الله، عليكدماء البدن إن كتمتنيها! هل بقي في نفسه شئ من أمر الخلافة. قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص عليه؟ قلت: نعم، أزيدك. سألت أبي عما يدعيه فقال: صدق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمره ذرو (٢) من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عدرا. ولقد كان يربح في أمره وقتا ما. ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعته من ذلك إشفافا وحيطة على الإسلام، لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبدا. ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها. فعلم رسول الله إن علمت ما في نفسه. فأمسك وأبى الله إلا إمضاء ما ختم (٣).

ونعود إلى حيث بدأنا. فعندما أعلن عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهتف عمر بمبايعة أبي بكر علمت الأنصار بما عزم عليه المهاجرون. فأتوا بسعد بن عباد ليبايعوه. ويقتضي هذا أن نلقي الضوء على الأنصار.

٢ - أضواء على الأنصار:

الأنصار هم القوة الضاربة في جيش الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأطاحت سيوفهم برقاب العديد من أهل مكة. وكان الطلقاء من أهل مكة يحملون أحقادا للأنصار. وهذه الأحقاد بلغت ذروتها يوم الحرة عندما اجتاحت خيول يزيد بن معاوية المدينة وبايعه أهل المدينة على أنهم عبيد له. والنبيل صلى الله عليه وسلم وضع الأنصار مع علي بن أبي طالب على أرضية واحدة هي أرضية الإيمان. روى مسلم عن علي أنه قال: إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (٤)، وفي الأنصار روى مسلم عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار الغرب / الدلو.

(٢) ذرو / طرف.

(٣) ابن أبي الحديد ٧٦٥ / ٣.

(٤) رواه مسلم (٦١) / ١ ط التحرير).

لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله (١)، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يبغض الأنصار جل يؤمن بالله واليوم الآخر (٢)، وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق. (٣) "

ولأن عليا والأنصار على أرضية واحدة كان أبو سعيد الخدري يقول: " إننا كنا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم علي بن أبي طالب (٤) " ، وقال النووي في شرح مسلم: إن من عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم في نصرته الله والسعي في إظهاره. وعرف من علي بن أبي طالب قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وما

كان منه في نصره الإسلام، ثم أحب الأنصار وعليا كان ذلك من دلائل صحة إيمانه، ومن أبغضهم كان ضد ذلك واستدل به على نفاقه وفساد سريرته. (٥)

والنظر إلى الأنصار لا ينبغي أن يحمل على أن جميع الأنصار في دائرة الإيمان. لأن كل قاعدة بها وتد للنفاق، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم (٦)، والمعنى وممن حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرقوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم - لذا فدائرة الإيمان على أرضية الأنصار لا ترى إلا على طريق علي بن أبي طالب. فعلي إنسان فطري ربه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغرس فيه القيادة كما غرس صلى الله عليه وآله في

(١) رواه مسلم (٦٠ / ١ ط التحرير).

(٢) رواه مسلم (٦٠ / ١ ط التحرير).

(٣) رواه مسلم (٦٠ / ١ ط التحرير).

(٤) رواه الترمذي (الجامع ٦٣٥ / ٥) ورواه الخطيب عن أبي ذر بلفظ آخر (كنز ١٠٦ / ١٣).

(٥) مسلم شرح النووي (٦٤ / ٢).

(٦) سورة التوبة: الآية ١٠١.

الأنصار الجندية. ولهذا ترى الجندية الحقة على صفحة القيادة الحقة. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرتب الأنصار على درجات، روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: " خير دور الأنصار دور بني النجار ثم دور بني الأشهل ثم بني الحرث بن الخزرج ثم بني ساعدة وفي كل دور الأنصار خير (١) " ، وعندما علم سعد بن عبادة بهذا الترتيب حيث بني ساعدة التياشتهرت بسقيفتها رابع أربع قال: خلفنا رسول الله فكننا آخر الأربع. اسرجوا ليحماري أتى صلى الله عليه وسلم فقال له ابن أخيه: أتذهب لترد على رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم. أو ليس حسبك أن تكون رابع أربع فرجع وقال: الله ورسوله أعلم. (٢)

ومن الغريب أن في صحيح البخاري حديثا يتهم سعد بن عبادة بالنفاق.

والحديث روته أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك، وفيه: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي. فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كاني أدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذركمه إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقال سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا!! ولكن احتملته الحمية فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد ابن الحضير فقال:

كذبت لعمر الله والله لنقتلنه فإنك منافقتجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فنزل فحفضهم حتى سكتوا وسكت (٣) " فسعد بن عباد الذي زاحم المهاجرين في البيعة وطلبها للأنصار كما طلبها

(١)رواه مسلم في الصحيح (١٦ / ٧٠) والترمذي (الجامع ٧٢٠ / ٥) البخاري (الصحيح ٣١١ / ٤).

(٢)رواه مسلم (الصحيح ١٧٥ / ٦).

(٣)رواه البخاري باب حديث الإفك من كتاب الشهادات (الصحيح ١٠٤ / ٢).

الصفحة ٢٨٧

المهاجرين لأنفسهم متهم في صحيح البخاري بالنفاق وبالذفاق عن المنافقين بعد أن كان رجلا صالحا. وحدث هذا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- ٣ صراع داخل السقيفة:

كان علي بن أبي طالب يغسل النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم.

وكان المهاجرون يتناقشون في الخلافة، وعندما علم الأنصار بأن قريشا عازمة على إبعاد علي بن أبي طالب وليس بالضرورة أن يكون هذا العلم قد جاء بعد وفاة الرسول لأن الرسول أخبر بما هو كائن بعده. علاوة على أن الأنصار يعرفون من يحبهم. اجتمع الأنصار وأرادوا إبرام الأمر فيما بينهم على أن يكون الخليفة منهم اعتقادا منهم بأن الإسلام قام بحد سيوفهم وأن المهاجرين عيال عليهم. وحملوا سعد بن عباد وكان مريضا إلى سقيفة بني ساعدة. فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه. ثم تكلموا فيما بينهم فقالوا: فإنأبى المهاجرون وقالوا: نحن أولياؤه! فقال قوم من الأنصار نقول: منا أمير ومنكم أمير فقال سعد: هذا أول الوهن.

وكان للمهاجرين عيون على الأنصار فانطلق عويم بن ساعدة وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخا بين عويم وبين عمر (١)، وجاء إلى عمر ومعهم بن عدي وأخبراه بما حدث من الأنصار. فأرسل عمر إلى أبي بكر أن أخرج فقد حدث أمر لا بد أن تحضره. فخرج فأعلمه بالخبر، فمضينا مسرعين نحوهم ومعهم أبو عبيدة. وكان عمر على امتداد الطريق يبحث عن إجابات مقنعة يقنع بها الأنصار. فقد كان يخشى ردة فعل الأنصار وكان يخشى أن لا يوافقوا عليا بعد علي بن أبي طالب نظرا للصالح العام. وعندما وصلوا إلى السقيفة. روى البخاري أن عمر أراد أن يتكلم. فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا إني قد هيأت كلاما قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر (٢)، أي أنه جهز كلاما وهو في الطريق خشى أن لا يقول أبو بكر مثله. فتكلم أبو بكر

(١)الإصابة ٤٥ / ٥.

(٢)البخاري باب فضائل أصحاب النبي (الصحيح ٢٩١ / ٢).

وقل: نحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل منا أمير ومنهم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء (١).

وارتفعت الأصوات وكثر اللغط، وتكلم عمر وقال: والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم (٢)، فرد عليه الحباب فقال: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر. فإن أبو بكر ما سألتهم فاجلوه عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الأمر. فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دانم من لم يكن يدين. أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعينها جذعة. فقال عمر: إذا يقتلك الله، قال الحباب: بل إياك يقتل (٣)، وقال أبو بكر: إني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر أو أبو عبيدة (٤)، وانتهى الأمر بأن قال عمر: أبسط يدك يا أبا بكر فلا بايعك. فقال أبو بكر: بلأنت يا عمر فأنت أقوى لها مني ففتح عمر يد أبي بكر وقال: إن لك قوتي معقوتك (٥)، إلى هذا الحد كان الأنصار يصرون على موقفهم حتى قام بشير بن سعيد الخزرجي وكان حاسدا لسعد وقال: يا معشر الأنصار. إلا أن محمدا منقرش وقومه أولى به. وبايع، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عقتعقاق ما أحوجك إلى ما صنعت أنفست على ابن عمك الإمارة (٦)، فلما رأنا لأوس ما صنع بشير. قام أسيد بن الحضير - قال صاحب الإصابة: كان أبو بكر لا يقدم عليه أحد من الأنصار. ولما مات أسيد وفي عمر دينه - (٧) وقال: قوموا بايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، فأنكس على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما

(١) البخاري (الصحیح ٢٩١ / ٢) ك بدء الخلق.

(٢) الطبري (تاریخ الأمم ٢٠٩ / ٣).

(٣) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٤) البخاري كتاب بدء الخلق باب فضل أصحاب النبي (٢٩١ / ٢) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٥) الطبري (١٩٩ / ٣).

(٦) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٧) الإصابة (٤٨ / ١).

كانوا أجمعوا له من أمرهم (١).

وحدث هرج وكادوا يطؤون سعد بن عبادة. فقال ناس من أصحاب سعد:

انقوا سعد لا تطؤوه. فقال عمر: اقتلوه قتله الله (٢) ثم قام على رأسه وقال: لقد هممت أن أطأك حتى تنذر عضوك. فأخذ سعد بلحية عمر، فقال عمر: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة (٣)، فقال سعد لعمر: أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض - وكان مريضا - لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرا

يحجزك وأصحابك. أما والله إذا لألحقتك بقوم كنت فيهم تابع غير متبوع. ثم قال: احملوني من هذا المكان. فحملوه فأدخلوه داره. وتركأياما. ثم بعث إليه أن أقبل فبايع. فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي مننبلي. وأخضب سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم بأهل بيتي من أطاعني من قومي. فلا أفعل وأيم الله. لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنسما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي. فلما أتى أبو بكر ذلك. قاله عمر: لا تدعه حتى يبايع فقال له بشير بن سعد: أنه قد لج وأبى. وليس بمبايعكم حتى يقتل. وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه فليس تركه بضاركم. إنما هو رجل واحد. فتركوه وقبلوا مشورق بشير بن سعد. وكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ولا يحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم (٤)، فلم يزل كذلك حتى خلافة عمر بن الخطاب. فقال لعمر: كان صاحبك أحب إلينا وقد أصبحت والله كارها لجوارك. وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك. وخرج سعد مهاجرا إلى الشام. وفي حوران قتل سعد (٥) وقالوا لناس يومئذ: لقد قتله الجن.

(١) الطبري (٢٠٩ / ٣).

(٢) الطبري (٢١٠ / ٣) البخاري في الصحيح (٢٩١ / ٢).

(٣) الطبري (٢١٠ / ٣).

(٤) الطبري (٢١٠ / ٣).

(٥) ابن سعد (الطبقات ٦٢٨ / ٥).

وبعد أكان يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الصراع والتهديد بإجلاء هؤلاء وقتل هؤلاء؟ إن ما ذكرناه اتفق عليه أصحاب الحديث والتراجم والسير واعتبروه من المسلمات. فهل يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك أمته ليكون الحال كما رأينا وهو الذي قال إنني تركتكم علنا المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء. لقد وقف كل طرف يسأل الإمارة. ولقد روى الإمام مسلم أن رجلين دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال أحدهما: يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل. وقال الآخر مثل ذلك. فقال النبي: أنا والله لا تولي هذا العمل أحدا سألته ولا أحدا أحرص عليه (١)، لقد طلب كل منهما بعض ما ولاه الله. ولكن هيهات. إن الأمر لله ورسوله والرسول قد يشاور أصحابه في أمر ما ولكن في النهاية فإن العزم له وحده فإذا عزم فاعلم أن العزم له هدف ومن وراء الهدف حكمة. وقد يعكف البعض على أرضية المشاورة ويعتقدون أنه ما دام الرسول كان يشاورهم فإن كلمتهم الخلود. وفاتهم أن الخلود يمكن في دائرة العزم وحدها ومن تعدى هذه الدائرة فلا يؤمن عليه من الفتن قال تعالى: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله)، فهكذا أشركهم سبحانه في المشاورة ووجد رسوله في العزم.

ولقد عزم الرسول أن لا يولي هذا العمل أحد سألته ولا أحد أحرص عليه.

- ءصراع خارج السقيفة.

روى الزبير بن بكار في كتابه: "الموفقيات والزبير" - قال فيه الذهبي: إمامة من أوعية العلم - (٢) لما بويع أبو بكر أقيمت الجماعة التي بايعته تزفه زفا المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، وروى الإمام البخاري عن أنسائه بعد بيعة أبو بكر سمع عمر يقول لأبي بكر يومئذ اصعد المنبر فلم يزل بهحتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة وكان قبل ذلك قد بايعته طائفة من

(١) رواه مسلم باب الإمارة (الصحيح ٦ / ٦).

(٢) ميزان الاعتدال ٦٦ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد عن كتاب الموفقيات ٢٧٢ / ٢.

الصفحة ٢٩١

السقيفة (١)، وروى الزبير بن بكار أنه لما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال: أيها الناس إني وليت أمركم ولست بخيركم فألخسنت فأعينوني وإذأسأت فقوموني إن لي شيطانا يعتريني فأياكم وإياي إذا غضبت ... (٢).

وقال الزبير بن بكار: وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أنعليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن الفضل بنالعباس قال: يا معشر قريش وخصوصا يا بني تيم إنكم إنما أخذتم الخلافةبالنبوة ونحن أهلها دونكم ولو طلبنا هذا الأمر الذي نحن أهله لكانت كراهةالناس لنا أعظم من كراهم لغيرنا حسدا منهم لنا وحقدا علينا وإنا لنعلم أن عندصاحبنا عهدا هو ينتهي إليه (٣)، وقد ذكر الإمام علي (٤)إنه كان معهود إليه أنلا ينازع في الأمر ولا يثير فتنة بل يطلبه برفق فإن حصل له وإلا أمسك وذلكأن الحجة قد قامت والامتحان قد بدأولا إكراه في الدين. وروى أبو بكرأحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة: بعد بيعة أبو بكر ذهب عمر بنالخطاب ومعه عصابة إلى بيت فاطمة منهم أسيد بن حضير فقال لهم: انطلقوا فبايعوا فأبوا عليه وروى الطبري أن عمر قال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجنإلى البيعة. فخرج عليه الزبير بسيفه (٥)فقال عمر: عليكم الكلب، فوثب عليهسلمة بن أسلم وأخذ السيف من يده فضرب به الجدار، ثم انطلقوا بن وبعليومعها بنو هاشم وعلي يقول: أنا عبد الله! وأخو رسول الله صلى الله عليه وآلهوسلم!

وروى صاحب كتاب السقيفة: وعندما انتهوا بعلي إلى أبي بكر فقيل له:

بايع فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي. أخذتم

(١) البخاري (الصحيح ٢٤٨ / ٤) ك الأحكام.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٧٢ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٧٢ / ٢.

هذا الأمر من الأنصار واحتجتم عليهم بالقرابة من رسول الله فاعطوكم المقادير وسلموا إليكم بالإمارة. وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتجتم به على الأنصار فانصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت لأنصار لكم ولا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال عمر: إنك لست متروكا حتى تباع، فقال له علي: احلب يا عمر حلبا لك شطره! اشد له اليوم أمره ليرد عليك غدا!! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تباعينم أكرهك، وقال أبو عبيدة: يا أبا الحسن أنك لحديث السن وهؤلاء مشيخة قريش قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر. ولا أرى أبا بكر إلا أقوعلى هذا الأمر وأشد احتمالا له واضطلاعا به فسلم له هذا الأمر وأرض. فإنك إن تعش ويصل عمرك فأنت لهذا الأمر خليف وبه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك. فقال علي: يا معشر المهاجرين الله الله. لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناصحة. فوالله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم. أما كان منا القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بالسنة المضطلع بأمر الرعية والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعدا وانصرف علي إلى منزله ولم يبايع. (١)

الملاحظ هنا وخلال أحداث هذه الفترة فيما وصل إلينا أن الإمام عليا لم يحتج على قريش بالنص. ويمكن فهم السبب بخلفية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد خلال الأيام القليلة السابقة لهذه الأحداث أن يكتب لهم نصا ولكنهم حالوا بينه وبين ذلك. إشفاقا عليه وإشفاقا على أنفسهم من أن يكتب لهم ما يعجزون عنه فتكون العقوبة أشد لكون الأمر مكتوب. فإذا كان القوم قد صادروا النص المكتوب لأن عقوبته أشد فإنه لا يستبعد أن يصادروا النص المسموع.

والإمام لوح بالنص في مواطن عديدة. فقوله لهم: "نحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم"، فتح دائرة حق من أراد أن يناقشها ناقشه والحق لا يخفى ثم قوله:

"والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوس" كشف دائرة الهوى وهي أيضا مفتوحة للمناقشة.

وروى البيهقي بسند صحيح أن أبا بكر حين استخلف قعد في بيته حزينا فدخل عليه عمر بن الخطاب فأقبل أبو بكر عليه يلومه وقال: أنت كلفنتي هذا الأمر! وشكا إليه الحكم بين الناس. فقال عمر: أو ما علمت أن رسول

للصلى الله عليه وسلم قال: إن الوالي إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد. فكأنه سهل على أبي بكر (١) .

- هتاف الأنصار:

بعد أن تزعم سعد بن عبادة جماعة من الأنصار ودعا إلى نفسه. قال الزبير بن بكار: أفسد حاله رجلا من الأنصار وهما عويم بن ساعدة ومعن بنعدي (٢) وهما عيون المهاجرين على الأنصار. وذكر المدائني والواقدي: كان معن بن عدي يسوق أبا بكر وعمر سوقا عنيفا إلى السقيفة مبادرة إلى الأمر قبل فواته (٣) وانتهى الأمر إلى مبايعة أبي بكر وأول من بايعه عمر ثم بشير بن سعد ثم أسيد بن حضير ثم أبو عبيدة بن الجراح ثم سالم مولى أبي حذيفة. والذين أنكروا بيعه أبي بكر: خالد بن سعيد بن العاص. وسلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وبريدة الأسلمي وأبو الهيثم بن التيهان وسهل وعثمان ابنا حنيف وخزيمة بن ثابت وأبي بن كعب وأبو أيوب الأنصاري.

وروى الزبير بن بكار وقال الذهبي الزبير بن بكار إمام ثقة من أوعية العلم عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما بويح أبو بكر واستقر أمره. ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولام بعضهم بعضا وذكروا عليا وهتفوا بإسمه وإنه في داره لم يخرج إليهم وجزع لذلك المهاجرون وكثر في

(١) رواه البيهقي وابن رهوة وخيثمة (كنز العمال ٦٣٠ / ٥).

(٢) ابن أبي الحديد ٢٧٥ / ٢.

(٣) قدمنا الحديث بطوله فيما سبق ورواه الترمذي وصححه وابن جرير وصححه والضياء بسند صحيح (كنز ١١٥، ١٧٣ / ١٢) (جامع الترمذي ٦٢٤ / ٥).

ذلك الكلام وكان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم وهم: سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل. وهؤلاء أشرف قريش الذين حاربوا النبي ثم دخلوا في الإسلام وكلهم موتور قد وتره الأنصار. فلما اعتزلت الأنصار. تجمع هؤلاء. فقام سهيل بن عمرو فقال: يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار. ولئى عليهم القرآن فلم بذلك حظ عظيم وشأن غالب. وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب. وعلي في بيته لو شاء لردهم! فادعوه إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإن أجابوكم وإلا فاقتلوهم.

فوالله أنى لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم.

وقال الحارث: فإنه قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه. فإنهم قد خرجوا مماوسموا به وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف... وقال عكرمة: إن الذي هم فيهم فلتات الأمور ونزغات الشيطان. وما لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل اعزوا إلى القوم فإن أبوا فقاتلوهم.

الملاحظ أن مقدمة القوم هنا هو سهل بن عمرو. وهو بالذات يحفظ فيذاكرته قول النبي يوم الحديبية والذي أنذرهم فيه بمعركة يدخرها الغيب لهمعقوبة على ما في قلوبهم، ففي الحديث الصحيح عن ربي عن علي قال: لما كان يوم الحديبية خرج ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو - إلى أن قال - فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر قريش لتنتهين أوليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد امتحن الله قلبه علنا لإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله. وقال عمر: من هو يا رسول الله قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعلها يخصفها.

لهذا لا يستغرب خوف سهيل بن هتاف الأنصار بعلي. وقوله: " وعلي فيبيته لو شاء لردهم " يبين مدى جزعه. ولا يستغرب منه أن يطالب بتحديد دعوة الأنصار لأبي بكر فإن أجابوا فهو الأمان. وإلا فقتلهم أولى. وعلى ضوء هذا كله يمكن أن نفهم لماذا لم يخرج علي بن أبي طالب بأي وسيلة مطالباً بالأمر. فالسكوت كان لقلة الأتباع وظهور سهيل بن عمرو وطابوره. وهم الذين أخرجوا

الصفحة ٢٩٥

الرسول من قبل فكيف بعلي! ثم علينا أن نأخذ عدة خطوات للإمام ونقول. ماذا حدث عندما أظهر الإمام نفسه وبويع بالخلافة؟ لقد اشتعل التراب نارا مع العلمين هذا الاشتعال كان بعد وفاة النبي بربع قرن تقريبا فما بالك لو كان هذا الاشتعال بعد وفاة النبي بيوم واحد.

ذكر الزبير بن بكار أن عمرو بن العاص قدم من سفر كان فيه. وعندما علم بالأحداث وما كان من يوم السقيفة وما تلى ذلك أدلى بدلوه وقال: لقد قاتلنا الأنصار بالأمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة، فلما بلغ الأنصار مقالته قال شاعر الأنصار النعمان بن العجلان فيه شعرا (١)، فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منهم. وفي هذا الوقت قدم خالد بن سعيد العاص من اليمن. وكان له ولأخيه أثر قديم عظيم في الإسلام.

ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار وشم عمرو ابن العاص وقال: يا معشر قريش إن عمرا دخل في الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه. فلما لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار، والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا. لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلكهم وآثرونا على الفقر وحرمانهم على الغني ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان فأوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجاني. (٢)

وخالد بن سعيد بن العاص هو الذي امتنع عن بيعة أبي بكر وقال: لا أباع إلا عليا. وروى الزبير بن بكار: أن رجلا من سفهاء قريش ومثيري الفتن منهما اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له: إنك لسان قريش ورجلها في

الجاهليتين والإسلام فلا تدع الأنصار ، وما قالت . فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم فتكلم وقال: إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها . وأيم الله لو ددت

(١) من أراد أن يقف على الشعر فليراجع ابن أبي الحديد ٢٨٠ / ٢ .

(٢) ابن أبي الحديد ٢٨١ / ٢ .

الصفحة ٢٩٦

أن الله خلى عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب . ونحن الذين أفسدنا علماً أنفسنا أحرزناهم عن كل مكروه وقدمناهم إلى كل محبوب حتى آمنوا المخوف فلما جاز لهم ذلك صغروا حقناً ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم... فقال لها الفضل بن العباس بن عبد المطلب: يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك . وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة إلا أن يأمرنا فنفعل . ثم رجع الفضل إلى علي فحدثه فغضب وشمتم عمرا وقال: آذى الله ورسوله . ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلم مغضباً فقال: يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان ويغضبهم نفاق . وقد قضوا ما عليهم وبقي ما عليكم (!) ، واذكروا أن الله تعالى رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى المدينة . وكره له قريشاً فنقله إلى الأنصار . ثم قدمنا عليهم دارهم ففاسمونا الأموال وكفونا العمل فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقير ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نعم فقال: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئكهم المفلحون (١) ﴿ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاماً (آذى فيه الميت والحي) . ساء به الوائر وسر به الموتور فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت . وأنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار . فليكف عمرو عنا نفسه . قال الزبير بن بكار: فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا: أيها الرجال ما إذا غضبت علي فأكف وقال علي للفضل: يا فضل أنصر الأنصار بلسانك ويديك فإنهم منك وإنيك منهم . فقال الفضل:

قلت يا عمرو مقالاً فاحشاً * إن تعد يا عمرو والله فلك

إنما الأنصار سيف قاطع * من تصبه ظبة السيف هلك

وسيوف قاطع مضربها * وسهام الله في يوم الحلك

نصروا الدين وأووا أهله * منزل رحب ورزق مشترك

(١) سورة الحشر: الآية ٩ .

الصفحة ٢٩٧

وإذا الحرب تلظت نارها * بركوا فيها إذا الموت برك

ودخل الفضل على علي بن أبي طالب فأسمعه شعره ففرح به. وأمره أن يظهر شعره ويبيعت به إلى الأنصار. فلما بلغ ذلك الأنصار بعثوا إلى حسان بنت ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل. فقال: كيف أصنع بجوابه إن لم أتحرقوافيه فضحني فريدا حتى أقفو أثره في القوافي. فقال له خزيمة بن ثابت ذوالشهادتين: اذكر عليا وآله يكفك عن كل شيء. فقال:

جزى الله عنا والجزاء بكفه * أبا حسن عنا ومن كأبي حسن
سبقت قريش بالذي أنت أهله * فصدرك مشروح. وقلبك ممتحن
تمنت رجال من قريش أغرة * مكانك. هيهات الهزال من السمن
وأنت من الإسلام في كل موطن * بمنزلة الدلو البطين من الرسن
غضبت لنا إذ قام عمرو بخطية * أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن
فكنت المرجي من لؤي بن غالب * لما كان منهم. والذي كان لم يكن
حفظت رسول الله فينا وعهده * إليك. ومن أولى به منك من ومن
ألست أخاه في الهدى ووصيه * وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
فحكك ما دمت بنجد وشيخة * عظيم علينا ثم بعد على اليمن (١)

في هذا الشعر صرحت الأنصار بوصية النبي لعلي:

ألست أخاه في الهدى ووصيه * وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

ولقد قالوا هذا الشعر وهنقوا باسم علي. وهذا الأمر يقتضي من الباحث أن يلتفت للأنصار الأعذار وأن ينظر إلى حركتهم من البدء إلى الانتهاء بمنظور الفطرة والرسول الأكرم هو الذي أرشدنا إلى التماس الأعذار لهم. كان صلى الله عليه وسلم يقول لهم: " اللهم أنتم من أحب الناس إلي (٢) " ، وقال النبي الأكرم: " أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالمح في الطعام فمن ولي منكم أمرا يضر فيه أحد أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز

(١) ابن أبي الحديد نقلنا عن الزبير بن بكار ٢٨٣ / ٢.

(٢) البخاري (الصحيح ٣١٠ / ٢) ك بدء الخلق ب مناقب الأنصار.

عن مسيئهم (١) " ، فمن هذا الشعر وهذا الهتاف الذي رواه الزبير بن بكار الإمام الثقة. يمكن القول أن الأنصار علموا بعد وفاة الرسول أن صفحة جديدة ستفتح لهم. قال لهم النبي: " إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني وموعداكم الحوض (٢) " ، وكما علمنا من قبل أن الكتاب والعنزة لا يفترقان حتى يردا علما الحوض وإن عليا سيدفع المنافقين عنه. ولما كان الأنصار قد اشتروا مع علي في أرضية واحدة حيث " لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا

مناقق " فإن دعوة الرسول لهم أن يصبروا حتى يلقوه وموعدهم الحوض. تعني أنه يحثهم علنا لتمسك بالأرضية التي وقفوا مع علي بن أبي طالب ولا يفارقوه. لأن هذه الأرضية بمثابة المقدمة لنتيجة ستظهر آثارها يوم القيامة. لقد علم الأنصار أن هناك تحولات ستحدث. وأن أي مواجهة عسكرية ستكون خسارة فادحة للفائز فيها فضلا على أنها ستحدث في الإسلام فجوات للهوحده أعلم بها. لهذا فضل أغلب الأنصار الاعتزال وعلى رأسهم أبي بن كعب.

أما سعد بن عباد و من معه فقد حسبوها بطريقة أخرى. لقد أرادوا أن يواجهوا الأثرة التي ستحدث لهم بعد وفاة الرسول بالاحتماء في السلطة وذلك بمزاحمة المهاجرين فيها. لعلمهم أن المهاجرين يطالبون بما ليس لهم. بمعنى أننا المهاجرين زاحموا على شيء هم ليسوا من أهله فلا مانع أن يزاحمهم الأنصار.

وأي اتفاق مهما كان حجمه فسيدخل الأنصار به دائرة الأمان حتى يحدث الله بعد عسر يسرا. ولذا نجدهم في أول الأمر طالبوا بالقيادة لسعد بن عباد. ثم تشاوروا فيما بينهم ونزلوا درجة وقالوا منا أمير ومنكم أمير. واعتقد أنه لو تأخر النعمان بن بشير وأسيد بن حضير عن المبايعة برهة من الزمن لتوصل الأنصار إلى الحصول على موطن قدم يحقق لهم الحماية ويدخلهم في عملية التوازنات التي تشارك فيها أطراف عديدة. والذي يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حركة سعد بن عباد كان هدفها حقن دماء

(١) البخاري (الصحيح ٣١٢ / ٢).

(٢) البخاري (الصحيح ٣١١ / ٢) ورواه مسلم (الصحيح ١٥٢ / ٧).

الصفحة ٢٩٩

الأنصار ولكن بالمناورة على السلطة أن شعراء المهاجرين إذا هاجموا سعد بن عباد. حزن الأنصار كلهم في الوقت الذي يهتفون فيه باسم علي بن أبي طالب!

وخروج علي بن أبي طالب وشمته عمرو بن العاص سببه يرجع في الابتداء إلى الشعر قاله عمرو في سعد والأنصار. من هذا قول عمرو كما روى الزبير بن بكار:

عجبت لسعد وأصحابه * ولو لم يهيجوه لم يهج

رجا الخزرج رجاء السراب * وقد يخلف المرء ما يرتجى

فكان كمنح على كفه * بكف يقطعها أهوج

قال الزبير: فلما بلغ الأنصار مقالته بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن عجلان... وتحدث إليه النعمان (١) ثم

قال فيه شعرا جاء فيه:

وقلتم حرام نصب سعد ونصبكم * عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
وأهل أبوبكر لها خير قائم * وإن عليا كان أخلق بالأمر
وكان هوانا في علي وإنه * لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدري
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى * وينهي عن الفحشاء والبغي والنكر
وصى النبي المصطفى وابن عمه * وقائل فرسان الضلالة والكفر (٢)

فكما ترى شعر من عمرو بن العاص في سعد. انتهى إلى حيث انتهى.

وبعد السقيفة وقف الأنصار ومن حولهم أمثال سهيل بن عمرو وعكرمة ابنأبي جهل وعمرو بن العاص. وانتظم معهم في الطابور الوليد بن عقبة الذي قالعنه الزبير بن بكار: كان يبغض الأنصار لأنهم أسروا أباه يوم بدر وضربوا عنقهيين يدي رسول الله. وقال الوليد في الأنصار شعرا شتم فيه الأنصار (٣)، ودخلالأنصار دائرة الصبر. يقول الزبير: وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من كلامالوليد بن عقبة وشعره. فدخل المسجد وقال: يا معشر قريش إن أعظم ذنبا

(١) راجع الحديث في المطولات.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٨٠ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٨٤ / ٢.

الصفحة ٣٠٠

إليكم قتلنا كفاركم وحمائتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كنتم تنقمون مناحنة كانت بالأمس فقد كفى الله شرها. فما لنا وما لكم. والله ما يمنعنا منقتالكم الجين. ولا من جوابكم العيبى. إنا لحي فعال ومقال. ولكننا قلنا: إنهاحب أولها عار وآخرها ذل فأغضينا عليها عيوننا. وسحبنا ذيولنا حتى نربوتروا فإن قلتم قلنا وإن سكتتم سكتنا. فلم يجبه أحد من قريش. ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه (١)، وظلالأنصار تحت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال لهم فيه: " إنكمستلقون بعدي آثرة فاصبروا(٢) " ، والذي قال النووي في شرحه: أي يستأثرعليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق (٣)، ظلوا على أرضية الصبر حتى كانزمن علي بن أبي طالب فبايعوه كلهم وحاربوا تحت رايته. وبعد وفاة علي وفيعصر يزيد بن معاوية جاء يوم الحرة وهو اليوم الذي بايعوا فيه ليزيد على أنهمعبيد.

- ٦ الخلافة في قريش:

في سقيفة بني ساعدة لم يذكر فيها نص عن رسول الله صلى الله عليه وآلهوسلم بأن الأئمة من قريش والروايات الواردة في الجدل الذي دار بين المهاجرينوبين الأنصار ليس فيها إلا إلى أبي بكر وعمر بأن قريشا أهل النبي

صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأن العرب لا تطيع غير قريش. وقول أبي بكر لهم: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحي من قريش. ليس ناصاً مروياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد يكون أبو بكر قد ذكر هذا بناءً على نص سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي أثناء المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار برز علي بن أبي طالب: " بأن الأئمة من قريش "، وكان أول من قال به عكرمة بن أبي جهل ثم أكده عمرو بن العاص عندما عاد من سفره ثم رواه بعد

(١) ابن أبي الحديد ٢٨٥ / ٢.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٣١١ / ٤) مسلم (الصحيح ١٥٢ / ٧).

الصفحة ٣٠١

ذلك معاوية بن أبي سفيان وغيره، وروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان. (١) " وحديثاً للأئمة من قريش لا جدال في أنه حديث صحيح ولكن الكثير اختلف في تحديد معناه ومبناه. قال البعض: إن النسب ليس بشرط وأن الإمامة تصلح في القرشي وغير القرشي إذا كان سيجمعنا للشرائط المعتمدة. وقال البعض: إن القرشية شرط إذا وجد في قريش من يصلح للإمامة فإن لم يكن فيها من يصلح فليست القرشية شرط فيها. وقال البعض: إن النسب شرط فيها وأنها لا تصلح إلا في العرب خاصة ومن العرب فقريش خاصة. وقال في فتح الباري: وقال البعض لا تجوز إلا في بني أمية وعن بعضهم لا يجوز إلا في ولد عمر. وقال ابن حزم ولا حاجة لأحد من هؤلاء الفرق. وبالغ ضرار بن عمرو فقال: تولية غير القرشي أولى لأنه يكون أقل عشيرة فإذا عصى أمكن خلعه (٢) وقال البعض إنها في العباس وولده من بطون قريش كلها. وقال البعض الآخر: إنها في الفاطميين.

وقال آخرون: تجوز في غير الفاطميين من ولد علي بن أبي طالب وهناك من جعلها في محمد بن الحنفية وولده، ومنهم من نقلها منه إلى ولد غيره. قال البعض: إنها سارية في ولد الحسين في أشخاص مخصوصين.

وهذا الاختلاف ليس معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ترك أمته ولم يبين لهم وجه الصواب في هذه المسألة. قد بين وساق الناس إلى الصراط المستقيم. ولكن السياسة كان لها أقوال وأفعال وإليها يعود كل اختلافات الأئمة.

وعلى أي حال فكل فريق وكل طائفة لديه أصوله وحججه. ولأننا نبحت هنا في المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار يحتم علينا البحث أن نلقي الضوء على عنوان " الأئمة من قريش. "

ونحن أمام هذا العنوان يجوز لنا أن نسأل إذا كان الأئمة من قريش فمأعنى قول عمر بن الخطاب: لو كان

سالم مولى أبي حذيفة حيا

(١) رواه البخاري في مناقب قريش (الصحيح ٢٦٥). //

(٢) فتح الباري ١١٨ / ١٣.

الصفحة ٣٠٢

لاستخلفته (١)، وما جعلتها شورى (٥٣) وسالم لم يكن قرشياً وإنما كان من المؤمنين الأوائل للمهاجرين يوم السقيفة. وإذا كان الأئمة من قريش فأى قريشيين الحديث؟ ومن المعروف من عبد مناف خرجت شجرة بني هاشم وشجرة بني عبد شمس حيث بني أمية وبني العاص وقال ابن حجر في فتح الباري: وقد وردت أحاديث في لعن الحكم والد مروان وما ولد أخرجها الطبراني وغيره وبعضها جيد (٢) فما معنى أن يكون على رقبة الأئمة أئمة ملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذي ينظر في التاريخ نظرة المتدبر تجد معالم الفتن التي غرست في هذه العهود وإن كان يعلوها البريق والزخرف وكالدوات التزيين. وهذه الفتن ما ترتب عليها من حركة تؤكد صحة هذه الأحاديث.

فأى قريش التي تدخل تحت سقف " الأئمة من قريش " مع العلم أن قريشاً كما ذكر المسعودي خمسة وعشرون بطناً (٤)، قد يقال: يدخل تحت هذا السقف من كان مستجماً للشرائط المعتمدة. نقول: كيف؟ والأئمة بها العديد من الدوائر التي هدفها الصد عن سبيل الله. وفيها أصحاب الخشوع الزائف والمنافق عليم اللسان والأئمة المضلين وجميع هؤلاء ورد فيهم أحاديث صحيحة. وغير هذا.

هل يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بالصفات الحميدة. وهل في وسعهم الاتحاد والاتفاق على اختياره وانتخابه؟ فإذا كانت الإجابة بنعم. فما معناختلاف الأمة في الإصابة. وهل القرشية شرط أو أن النسب ليس بشرط. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الأمة ليست متفقة في الرأي وإنما لكل فرد أوقبيلة رأي يخالف الباقيين. ومن المعلوم أن أي اختلاف وأي افتراق لا بد وأنتدثره حجة من الله. حتى إذا اختلفوا لم يكن لهم على الله حجة. بمعنى إن الله تعالى يرشدهم إلى الحق ويحيطهم علماً بذلك. فإذا بغوا كان بغيتهم بعد العلم بهذا لا يكون لهم على الله حجة.

(١) الطبري ٣٤ / ٥.

(٢) الإستبصار في معرفة الأنصار ص ٢٩٦.

(٣) فتح الباري ١١ / ١٣ كتاب الفتن.

(٤) مروج الذهب / المسعودي ٢٧٦ / ٢.

الصفحة ٣٠٣

إن سقف الأئمة من قريش سقف واسع ولا يمكن تحديد من كان مستجماً للشروط المعتمدة وفقاً لمقاييس القلوب إلا بإرشاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما الاستجماع للشروط وفقاً للصور والتياب واللون وبلاغة اللسان فهذه أمور أخرى. وليس معنى أن الأئمة من قريش أن القرشي يستحق الإمامة. كما أنه ليس المعنى إن الله كرم

الإنسان إن كل إنسان سيدخل الجنة وينال رضا ربهجل وعلا. ومن الدليل أن القول بإمامة قريش قول واسع لا بد له من تحديدهوخوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من قريش نفسها فقال: " يهلك أمتي هذا الحي من قريش (١) "، وقال: " إن هلاك أمتي على يدي غلظة منقريش(٢) " ، وطالب باعتزالهم فقال: " لو أن الناس اعتزلوهم (٣) "، إن التعريفالواسع يدفع إلى الفتن روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال: قال ليرسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لا أخشى على قريش إلا نفسها قلت:

وما هو؟ قال: أشحة سمرة أن طال بك عمر رأيتهم يفتنون الناس حتى يربالناس بينهم كالغنم بين الحوضين مرة إلى هذا ومرة إلى هذا(٤) " ، وعن ابنعباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ولتحمطنكم قريش على سنةفارس والروم ولتؤمنن عليكم اليهود والنصارى والمجوس.(٥) "

إن هذه حقائق. وعندما ترعرع الزرع في عهد بني أمية قال أبو برزة " إنياًصبحت ساخطا على أحياء قريش (٦) "، فأبي قريش؟ هل يمكن تفادي ما أخبرالنبي صلى الله عليه وسلم أنه سيحدث بأن يختار الناس لأنفسهم؟ وما ذكره

(١)رواه البخاري ك بدء الخلق ب علامات النبوة (الصحيح ٢٨٠ / ٢) مسلم ك الفتن(الصحيح ٤١ / ١٨) أحمد (الفتح الرباني ٣٩ / ٢٣).

(٢)رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك بدء الخلق ب علامات النبوة.

(٣)البخاري (٢٨٠ / ٢) مسلم كتاب الفتن (٤١ / ١٨) أحمد (الفتح ٣٩ / ٢٣).

(٤)رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٨ / ٥).

(٥)رواه الطبراني (الزوائد ٢٣٦ / ٧).

(٦)البخاري لا الأحكام (الصحيح ٢٣٠ / ٤) وأحمد والنسائي وابن ماجة والطبراني (الفتحالرباني ١٨٩ / ٢٣).

الصفحة ٣٠٤

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في قريش قال مثله في مضر فعن حذيفةقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " إن هذا الحي من مضر لا تدع للهفي الأرض عبدا صالحا إلا افنتته وأهلكته(١) " ، وفي رواية: " إلا فتتوه أوقتلوه (٢) " مما سبق علمنا أن عنوان الأئمة من قريش عنوان واسع، ولكي نحددالمكان الخاص تحت السقف العام. فلا بد أن نحدد أولا: أين جانب الفخر فيقريش؟ هل هو في قريش أم في عبد مناف أم في أولاده. أم أن جانب الفخر فيرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ روى أن عبد الله بن الزبير تفاخر يوما أمامابن عباس، بأن أبيه حواري رسول الله وأسماء بنت أبي بكر أمه وعمته خديجةسيدة نساء العالمين وأن عائشة أم المؤمنين خالته وأن صفية عمة رسول اللهجده. فقال ابن عباس: لقد ذكرت شرفا رفيعا. وإنك لم تذكر فخرا لإبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنا أولى بالفخر منك، لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " ما افتترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما "، وقدفارقناك يا ابن الزبيرمن بعد قصي بن كلاب. أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ إنقلت نعم خصمت وإن

قلت لا . كفرت .. فالرسول صلى الله عليه وآله هوجانب الفخر في قريش وعنده يكون الشموخ وفيه يكون الظهر . ومكانة الرسول صلى الله عليه وآله منذ نور الله ذرية آدم مكانة رفيعة فلقد جعله الله في خير الفرق وخير القبائل وخير البيوت وخير النفوس . فعن وائلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم (٣) ، لقد سار الفخر على امتداد التاريخ حتى استقر في المكان الذي يقف فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فمن أراد الفخر فلا يبحث في محطة قريش وإنما يبحث في المكان الذي استقر عنده .

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وأحد أسانيد أحمد وأحد أسانيد البزار رجال الصحيح (الفتح ٢٤٠ / ٢٣).

(٢) رواه أحمد (الفتح ٢٤٠ / ٢٣).

(٣) رواه مسلم ك الفضائل (الصحيح ٣٦ / ١٥) والترمذي وصححه (الجامع ٥٨٣ / ٥).

الصفحة ٣٠٥

وبما أن بني هاشم بيوت وللرسول بيتا فيهم، تم تحديد دائرة في بني هاشم وفي هذه الدائرة يوجد الفخر . قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن الله خل الخلق فجعلني في خيرهم فرقة . ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيوتا وخيرهم نفسا . (١) " فالدائرة التي نقصدها هي دائرة النفس . أي الدائرة التي ترتبط بالروح أكثر من ارتباطها بالأرض . وترتبط بالهدف أكثر من ارتباطها بالقبائل . ومقام النفس للمعالم وامتداد . وإذا أردنا أن نضع أيدينا عليه . فلنقرأ قوله تعالى : (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٢) (ففي هذه الآية توردت أحاديث تلقفتها الأمة بالقبول . وقال فيها العلماء قولاً واحداً هو : إن معنى (أنفسنا وأنفسكم) ، رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب (وأبناءنا) الحسن والحسين (ونساءنا) فاطمة (٣) فالفخر بعد رسول الله ترمعالمه في دائرة النفس والمتدبر في قول النبي لعلي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق يتبين ذلك بسهولة ويسر . ولقد قدمنا فيما سبق الأحاديث الصحيحة التي أخبر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بأن علياً أصل شجرة الرسول . وإن أولاده هم عترة الرسول . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كل بني آدم ينتمون إلي عصابة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم (٤) " ، وفي رواية : " إن لكل بني أبي عصابة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقوا من طينتي ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله (٥) " ، واستمرارية دائرة النفس وتفضيلها على غيرها جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " نحن خير من أبنائنا وبنونا خير من أبنائهم وأبنائهم وأبنائنا خير من أبنائهم

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٨٤ / ٥) وأحمد (الفتح الرباني ٣٦٦ / ٢١).

(٢)سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٣)تفسير ابن كثير ٣٥١ / ١ .

(٤)رواه الطبراني عن فاطمة (كنز العمال ١١٦ / ١٢).

(٥)رواه ابن عساكر والحاكم عن جابر (كنز ٩٨ / ١٢).

الصفحة ٣٠٦

أبنائهم(١) " ، وقوله: " نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد.(٢) "

ومهمة دائرة النفس هي سوق الناس إلى ربهم. ومن صفات أصحاب هذهالدائرة أنهم يقفون على أرضية الرسول. أرضية العبد الكريم. قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: " إن الله جعلني عبدا كريما ولم يجعلني جبارا عنيدا(٣) " ، وقال: " إنا بعثت رحمة ولم أبعث عذابا.(٤) "

ووفقا لما تقدم نقول: إن النبي صلى الله عليه وآله إذا ذم قريشا أوأمر باعتزالها. فإن المقصود بقريش. قريش التي لا يوجد فيها. وإذا أمر بالالتفاف حول قريش فليس معنى هذا أن نبحت عن نسل عبد مناف ونجري وراءأبناء عبد شمس حديث أمية وحرب وأبو سفيان وحيث العاص والحكم ومروانوامتداد طابورهما الطويل. أو نبحت في طُمول العباس التي تنتهي عند الخليفةالمستعصم وإنما علينا أن نبحت أين رسول الله صلى الله عليه وآله. وكماذم النبي صلى الله عليه وآله قريشا ذم أيضا مضر. كما قدمنا وفي مقابلذلك قال: " إذا اختلف الناس فالحق في مضر (٥) " ، ولماذا يكون الحق في مضر؟

الإجابة: لأن للنبي قدم في مضر قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن جبريلاًخبرني أنني رجل من مضر (٦) "، وإذا كان للرسول امتداد إلى مضر فإن هذاالامتداد ينتهي أيضا إلى أهل البيت. وفروع مضر كان يعلمها الأوائل وهماالمخاطبون بهذا الحديث. والحكمة من وراء هذا جمع القبائل عند نقطة واحدة.

وبيان أن الانتساب إلى القبائلية والشعوبية في الماضي الغابر لا جدوى منورائه. فالإنسان لا قيمة له إلا الحق والالتفاف حول الحق. وبعد ذلك كلهممكن أن نفهم حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " الناس تبع لقريش صالحهم تبع لصالحهم

(١)رواه الطبراني عن معاذ (كنز ١٠٤ / ١٢).

(٢)رواه الديلمي (كنز ١٠٤ / ١٢).

(٣)رواه الترمذي (كنز ٤٣٦ / ١١).

(٤)رواه البخاري في التاريخ (كنز ٤٣٦ / ١١).

(٥)رواه ابن أبي شيبة والطبراني (كنز ٥٩ / ١٢).

(٦)ابن سعد (الطبقات ٥٩ / ٢).

الصفحة ٣٠٧

وشرارهم تبع لشرارهم(١) " ، ويمكن أن تفهم قوله: " يا أيها الناس لا تعلموا قريشا وتعلموا منها فإنهم أعلم منكم (٢) "، ألم تر فيما قدمنا إنهم كانوا يضربون كتاب الله بعضه ببعض ويتأولونه في غير موضعه. فمن منهم الأعلم والراسخ في العلم؟ ويمكن أيضا أن نعلم موضع الإمامة في حديث مسلم الذي رواه جابر بن سمرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن هذا الأمر لا ينقض حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة " - وفي لفظ - لا يزال أمر الناس ما ضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا - وفي لفظ - لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة - وفي لفظ - لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثني عشر خليفة "، ثم قال جابر بن سمرة بعد أن سمع ذلك من رسول الله: " ثم تكلم النبي بكلام خفي علي " - وفي لفظ - ثم قال كلمة لم أفهمها - وفي لفظ - ثم تكلم بشئ لم أفهمه قال جابر: " فقلنا لبي: ما قال؟ فقال: كلهم من قريش. (٣) "

والخلاصة أن الإمامة تصيب الذين يعلمون الذين يهدون إلى الحق، قالتعالى: (أمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي(٤)) وإن القول بالائمة من قريش قول فضفاض أريد به إخراج آل محمد من الإمامة. ثم إن هذا القول لم يظهر في السقيفة وإنما ظهر بعدها أثناء المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار. ومن العجيب أن الذي روج له في بداية الأمر عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ثم جاء من بعدهما عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهما. ومنا لأعجب أن الواحد في كتابه المسمى بأسباب النزول ذكر في قوله تعالى:

(فقاتلوا أئمة الكفر)، إنها نزلت في سهيل بن عمرو وعكرمة وأبي سفيان، وروى عن الإمام علي وحذيفة: أن أهل هذه الآية لم يقاتلوا بعد. وكما علمنا أن

-
- (١) رواه أحمد وقال في الفتح، قال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٢٦ / ٢٤) ورواه البخاري بلفظ آخر (الصحيح ٢٦٤ / ٢)، ومسلم (الصحيح ٦ / ٢ ط كتاب التحرير).
- (٢) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٦٣٦ / ٢) وقال في فتح الباري: أخرجه البيهقي والطبراني والشافعي (فتح الباري ١١٨ / ١١٣).
- (٣) رواه مسلم كتاب الإمامة (الصحيح ٦ / ٣ ط كتاب التحرير).
- (٤) سورة يونس: الآية ٣٥.

الصفحة ٣٠٨

هؤلاء كانوا يعلمون من يوم الحديبية أن لهم يوما سيواجه طابورهم فيه خاصفالنعل وعلى هذا وذاك لا نستبعد أن يكون الحديث على هذه الصورة وكان عنعمير.

الصفحة ٣٠٩

ثانيا - دائرة الرأي

بعد السقيفة فتحت أولى صفحات دائرة الرأي. وهي دائرة تقوم علما لشهادتين وعلى احترام شعائر الدين. لكنها لا تعرف السلطة الدينية ولا تعترف بها ولا تحبذ الالتزام بالمثلاليات الدينية والنواحي الإدارية والسياسية وكان همها الأكبر قوة الدولة واستقرارها... وذلك لأن الحكم في دائرة الرأي أساسه رضا الناس واختيارهم فالأمة عنده هي الأصل.

وكما بينا من قبل أن أحداث السقيفة - في رأينا - جاءت بعد أن تبين كبار الصحابة ما يحيط بالدعوة من مكائد وإن العرب لا تطيع عليا. ومن السقيفة خرج نظام الخلافة. والخلافة ليست نظاما إلهيا نبويا. فهي جاءت على قاعدة إختيار الصحابة. والاختيار ليس دينا بأي حال. ونحن إذا أخذنا خطوة إلى الإمام واستبقنا الأحداث نجد أن الخلافة تحولت فيما بعد إلى ملك وجبرية فإذا بحثنا عن الأسباب وجدنا أن كبار الصحابة الذي خافوا على الإسلام من أعدائهم يوم السقيفة. أقاموا حصونهم على حدود من الرمال الناعمة. فلم تتمكن الحصون من التغلب على طبيعة الموروث العشائري عند العرب ولا عن الموروث الكيدي عند كفار أهل الكتاب وغيرهم. فبعد فترة تعاون الموروث العشائري مع الموروث الكيدي في مقاومة نظام الخلافة. قامت دوائر النفاق بالخر في الجدار ثم بالإغارة عليه وفي النهاية تركاه صريحا تسفحه الرياح بعد أن انزلت حصونه المشيدة على حافة الرمال - وفي أعماق الشقوق رفعت أعلام

الملك والجبرية وحولها وقف علماءهم لإرساء قواعد الاستبداد. فقالوا بفصل الدين عن السياسة بحجة أن العمل السياسي ليس عملا دينيا لكنه فعل بشري يحتتمل الخطأ والصواب ويمكن نقضه أو نقده أو العدول عنه. وتحت هذا الحجة ارتكبت أفظع الجرائم في حق المسلمين ولم يستطع أحد أن ينقض أو ينقد لأن الفعل البشري تحت قبة الجبروت لا يمكن نقده أو العدول عنه. ونتيجة لهذا برزت مشكلة أساسية ألا وهي اجتراء المسلمين على السلطة وخروجهم عليها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة. وطمعا في الحكم تارة أخرى. لقد كانت البداية حصون على الرمال. وكانت الخاتمة شقوق ودهاليز تحت سطح الأرض. وبين هذا وذاك ترى الأحداث التي أدت إلى الخسف.

- ١ من معالم الرأي:

إذا أردنا أن ننسب الرأي إلى أصوله فسنجد أن أهم أصوله عمر بن الخطاب. فقد كانت شخصيته من أبرز شخصيات الصحابة في هذا الباب يقول الدكتور عبد الحميدة متولي: لم يقتصر عمر فحسب على الاجتهاد أو استعمال الرأي حيث لا نص من كتاب أو سنة إنما ذهب إلى مدى أبعد من ذلك. إذ كان يعمد إلى الاجتهاد أو بعبارة أخرى. استعمال الرأي ليبحث عن وجهة العدالة أو المصلحة حتى رغم وجود نص من الكتاب أو السنة. فكان لذلك لا يفسر النص طبقا لحرفيته. وإنما يفسره طبقا لحكمته ولو أدى هذا التفسير إلى عدم تطبيق النص (١)، فمثلا قال تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم)، لقد رأى عمر أن الحكمة التي أدت إلى

تقريب ذلك الحكم الشرعي قد زالت. والأمثلة في هذا الباب كثيرة (٢)، وكثير من الصحابة كما ذكر الإمام محمد عبده " كانوا إذا رأوا المصلحة في شئ يحكمون به وإن خالف

(١) أزمة الفكر السياسي الإسلامي / د عبد الحميد متولي، تقديم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ص ١٢١.
(٢) سياأتي ذكر ذلك في موضعه.

الصفحة ٣١١

السنة. كأنهم يرون أن الأصل هو الأخذ بما فيه المصلحة لا بجزئيات الأحكام وفروعها (١)، ويقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: وكانوا إذا لم يجدوا نصا في القرآن والسنة يدل على حكم ما عرض لهم من الوقائع استنبطوا حكمه. وكانوا في اجتهادهم يعتمدون على ملكتهم التشريعية التي تكونت لهم من مشافهة الرسول، ووقوفهم على أسرار التشريع ومبادئه العامة. فتارة كانوا يقيسون ما لانص فيه على ما فيه نص. وتارة كانوا يشرعون ما تقضي به المصلحة أو دفع المفسدة. ولم يتقيدوا بقيود في المصلحة الواجب مراعاتها. وبهذا كان اجتهادهم فيما لا نص فيه فسيحا مجاله وفيه متسع لحاجات الناس ومصالحهم (٢).

كانت هذه بداية الرأي. فما هي محطة النهاية؟ يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: في عهد الصحابة لما تعدد رجال التشريع عنهم وقع بينهم اختلاف في بعض الأحكام وصدرت عنهم في الواقعة الواحدة فتاوى مختلفة وإن هذا الاختلاف كان لا بد أن يقع بينهم لأن فهم المراد من النصوص يختلف باختلاف العقول ووجهات النظر ولأن السنة لم يكن علمهم بها وحفظهم لها على السواء وربما وقف بعضهم منها على ما لا يقف عليه الآخر لأن المصالح التي تستنبط لأجلها الأحكام يختلف تقديرها باختلاف البيئات التي يعيش فيها رجال التشريع.

فلهذه الأسباب اختلفت فتاويهم وأحكامهم في بعض الوقائع والأقضية... ولما آلت السلطة التشريعية في القرن الثاني الهجري إلى طبقة الأئمة المجتهدين اتسعت مسافة الخلاف بين رجال التشريع ولم تقف أسباب اختلافهم عند الأسباب الثلاثة التي بنى عليها اختلاف الصحابة بل جاوزتها إلى أسباب تتصل بمصادر التشريع وبالنزعة التشريعية وبالمبادئ اللغوية التي تطبق في فهم النصوص. وبهذا لم يكن اختلافهم في الفتاوى والفروع فقط بل كان اختلاف أيضا في أسس التشريع وخطه وصار لكل فريق منهم مذهب خاص يتكون من أحكام فرعية استنبطت بخططه التشريعية

(١) المنار / محمد رشيد رضا ٣١٠ / ٤.

(٢) خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي / خلاف ص ٤٠.

الصفحة ٣١٢

خاصة... (١) ثم جاء عهد التقليد الذي بدأ من منتصف القرن الرابع الهجري بالتقريب. حين طرأت على المسلمين عدة عوامل سياسية وعقلية وخلقية واجتماعية أثرت في كل مظهر من مظاهر نهوضهم وأحالت نشاطهم التشريعي إلى فتور ووقفت حركة الاجتهاد والتقنين وأماتت في العلماء روح الاستقلال الفكري فلم يردوا المعين الذي لا ينضب ماؤه وهو القرآن والسنة بل راضوا أنفسهم على التقليد ورضوا أن يكونوا عالة على فقه الأئمة السابقين أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأقرانهم. وحصروا عقولهم في دوائر محدودة من فروع مذاهب هؤلاء الأئمة وأصولها وحرموا على أنفسهم أن يخرجوا عن حدودها وبذلوا جهودهم في ألفاظ أئمتهم وعباراتهم لا في نصوص الشارع ومبادئها العامة. وبلغ من كونهم إلى أقوال أئمتهم أن قال أبو الحسن الكرخي من علماء الحنفية: ككل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ"، ثم يقول الشيخ خلاف عن أسباب وقوف حركة الاجتهاد: أهم العوامل التي أدت إلى هذا الوقوف والتزام تقليد السابقين أربعة:

أولاً - انقسام الدولة الإسلامية إلى عدة ممالك يتناحر ملوكها ولواتها وأفرادها. فهذا الانقسام شغل ولاية الأمور بالحروب والفتن واتقاء المكاييد وتدابير وسائل القهر والغلبة وشغل الناس معهم فدب الانحلال العام وكان لهذا الانحلال أثره في وقوف حركة التشريع.

ثانياً - أنه لما انقسم الأئمة المجتهدون في العهد الثالث إلى أحزاب وصار لكل حزب مدرسة تشريعية بها نزعتها وخطتها. عني تلاميذ كل مدرسة أو أعضاء كل حزب بالانتصار لمذهبهم وتأييد أصوله وفروعه بكل الوسائل والإشادة بزعمائهم ورؤسائهم. فانشغل علماء المذاهب بهذه الأمور وانصرفوا عن الأساس التشريعي الأول وهو القرآن والسنة. وبهذا ففيت شخصية العالم في حزبيته. وصار الخاصة كالعامّة أتباعاً مقلدين.

(١) المصدر السابق ٧٢.

الصفحة ٣١٣

ثالثاً - أنه لما أهمل المسلمون تنظيم السلطة التشريعية ولم يضعوا نظاماً كفيلاً بأن لا يجترأ على الاجتهاد إلا من هو أهل دبت الفوضى في التشريع والاجتهاد وادعى الاجتهاد من ليس أهلاً له وتصدى لإفتاء المسلمين جهال عبثوا بنصوص الشريعة وبحقوق الناس ومصالحهم. وبهذا تعددت الفتاوى وتباينت وتبع هذا تعدد الأحكام في الأقضية حتى كان القضاء يختلف في الحادث الواحد في البلد الواحد فتستحل دماء وأموال في ناحية من نواحي المدينة وتستباح في ناحية أخرى منها وكل ذلك نافذ في المسلمين وكله يعتبر من أحكام الشريعة.

فلما فزع من هؤلاء العلماء حكموا في أواخر القرن الرابع بسد باب الاجتهاد وتقيد المفتين والقضاة بأحكام الأئمة السابقين فعالجوا الفوضى بالجمود.

رابعا - إن العلماء فشت فيهم أمراض خلقية حالت بينهم وبين السمو إلمرتبة الاجتهاد فلقد فشا بينهم التحاسد والأنانية... فماتت روح النبوغ.

وضعت ثقة العلماء بأنفسهم وثقة الناس بهم فولوا وجههم مذاهب الأئمة السابقين (١).

لقد كانت البداية البحث عن المصلحة. فجاء الخلاف وانقسام الدولة الإسلامية وتناحر ملوكها وولاتها. ثم تجرأ على الفتوى اتباع الدوائر المختلفة الذين عبثوا بنصوص الشريعة وبحقوق الناس ومصالحهم وضرب التحاسد والأنانية وجوه العديد من العلماء. وعندما جف الوقود الذي يدفع بأصحابه نحو المستقبل ولوا وجوههم نحو الخلف حيث مذاهب السابقين. وإذا كان الأوائقد اختلفوا في الفتوى نظرا لاختلاف البيئة. فإن الاختلاف من بعدهم أوسع لأن البيئة الواحدة تمزقت إلى ألف بيئة ومعطيات العصر ألفت بآلاف المسائل، فبماذا يجدي النظر إلى الخلف لحل مشكلات الحاضر؟ ألا يفتح ذلك الباب للدخول في سنين الأولين. وخصوصا أن عندهم من المصالح ما لا يخفى على أحد وما يغري العامة والخاصة على تقليدهم واتباعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع.

(١) المصدر السابق ص ٩٦ - ٩٩.

الصفحة ٣١٤

والخلاصة: أن البحث عن المصلحة مطلب فطري. ولكن كلما كان الباحث عن المصلحة لا مصلحة له فيما يبحث - بمعنى أن يكون لا مطمع له فيمال أو جاه أو غير ذلك نظير فتواه - أصابت فتواه دائرة الفطرة. وأيضا كلما كان الباحث عن المصلحة عالما بالكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون وبالسنة التي تشهد لها الكتاب. ساقى فتواه الناس إلى صراط الله الذي لا اختلاف فيه. فإذا لم يتوفر الطهر والعلم والعدل في الباحث عن مصالح الناس. كان الناس منسبن الأولين أقرب.

- ٢ نظرات على فدك:

فدك قرية تبع عن المدينة مسافة يومين أو ثلاثة. أرضها زراعية خصبة.

فيها عين فوارة ونخيل كثيرة (١) يقدر نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس الهجري (٢)، وكان جماعة من اليهود يسكنون فدك ويستثمرونها حتى السنة السابعة للهجرة. فلما حارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يهود خيبر لنقضهما العهد بينهم وبين رسول الله وفتح حصونهم وبقي حصنان أو ثلاثة منها لم تفتح أحصاهم الرسول صلى الله عليه وآله. فلما اشتد بهم الحصار راسل أهلها رسول الله على أن يؤمنهم على حياتهم وينزلوا له عن حصونهم وأرضهم. فقبل النبي صلى الله عليه وآله بعرضهم هذا. وما حدث يوم خيبر أربع أهلفدك. ولكن اتفاقية أهل الحصون المحاصرة مع النبي صلى الله عليه وآله وانهفتحت أمام أهل فدك بابا للأمل. فلما جاءهم رسول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم إلى الإسلام أبوا أن يسلموا ولكنهم استعدوا أن يقدموا نصف أرضهم للنبي مع الاحتفاظ

لأنفسهم بالنصف الآخر على أن يعملوا في أرضهم وأرض رسول الله. ومتى شاء النبي أن يجليهم عن أرضهم فعل شريطة أن يعرضهم عن أتعابهم وأرضهم فصارت فدك ملكا لرسول الله بنص القرآن الكريم

(١) معجم البلدان للحموي مادة فدك.

(٢) ابن أبي الحديد ١٦ / ٢٣٦ - ط الحلبي.

الصفحة ٣١٥

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير (١))، قال المفسرون: كل ما أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب كأموال بني النضير هذفانها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب. أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبته رسول الله صلى الله عليه وآله. فأفأه الله على رسوله. أي خصه به وملكه وحده إياه يتصرف فيه كما يشاء. فلما نزل قوله تعالى: (وآت ذا القربى حقه (٢))، أعطى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة فدكا وواله فدكا لفاطمة. روى أبو سعيد الخدري أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله أعطى فاطمة فدكا وسلمها إليها (٣) وبقي الأمر هكذا حتى توفي النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وضعت الدولة اليد على فدكو وانتزعتها من يد الزهراء، ومن هنا بدأ نزاع فاطمة رضي الله عنها وبين أبي بكر، روى البخاري عن عائشة أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله مما أفاء الله عليه. فقال لها أبو بكر: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال، لا نورث ما تركناه صدقة.

فغضبت فاطمة فهجرت أبا بكر فلم نزل مهاجرته حتى توفيت. وعاشت بعد رسول الله ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير وفدك وصدقته بالمدينة فأبى أبو بكر عليها ذلك....

وروي أن عليا عندما سمع قول أبي بكر بأن الرسول قال: لا نورث وما

(١) سورة الحشر: الآية ٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٦ والآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ومن الآية ٧٣، إلى الآية ٨١ مدنية.

(٣) رواه البزار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد (الدر المنثور ١٧٧ / ٤) (الزوائد ٤٩ / ٧) (كنز العمال) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس (الدر المنثور ١٧٧ / ٤).

الصفحة ٣١٦

تركناه صدقة، قال علي: ورث سليمان داوود وقال زكريا: (يرثني ويرث من أليعقوب...) هذا كتاب الله ينطق. وروى أن فاطمة نازعت في سهم ذي القربالذي نص القرآن عليه. وكانت الدولة قد وضعت يدها عليه.

روى الإمام أحمد لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أهله؟ فقال: لا بلأهله، قالت: فأين سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله عز وجل إذا أطعم نبيا طعمة ثمقبضه الله جعله للذي يقوم من بعده فرأيت أن أرداه على المسلمين(١) " ، وفيرواية عند ابن سعد قالت: فسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعله لناوصافيتنا التي بيدك، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول:

إنما هي طعمة أطعمنيها الله فإذا مت كانت بيد المسلمين(٢) " ، وإذا كان منالعجيب أن يترك النبي صلى الله عليه وسلم عترته دون أن يبين لهم حقيقة ميراثه فإن الأعجب أنهم يبين لنسائه أيضا. روى البخاري عن عائشة قالت: أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وآله عثمان إلى أبي بكر يسألنه ثمنهن مما أفاء الله علىرسوله صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة: فكنت أنا أردهن فقلت لهن: ألاتقين الله. ألم تعلمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث وما تركناه صدقة فانتھين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما أخبرتهن.(٣) "

مما سبق نرى أن الزهراء طالبت بنحلها وبالإرث وبسهم ذي القربى -ولكن أبا بكر أبى عليها وتوفيت رضي الله عنها بعد وفاة النبي بستة أشهر. وفيعهد عمر بن الخطاب. ذهب علي والعباس ينازعان في الميراث وكان في مجلسعمر يومئذ عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وسعد. فقال لهم عمر:

أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه صدقة" ،

(١)رواه أحمد وإسناده صحيح (الفتح ٦٣ / ٢٣).

(٢)الطبقات الكبرى (٣١٤ / ٢).

(٣)البخاري ك المغازي ب حديث ابن النضير (١٧ / ٢) ومسلم (١٥٣ / ٥) ط دار التحرير.

قالوا: نعم، قال عمر: إن الله جل وعز كان خص رسوله بخاصة لم يخصص بها أحدا غيره قال: " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول " ، فقسمرسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير فوالله ما استأثر عليكم ولأخذها دونكم حتى بقي هذا المال فكان رسول الله يأخذ منه نفقة سنة ثم يجعلها بقي أسوة المال. أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم نشد عباسا وعليا بمثل ما نشد به القوم. أتعلمان ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالأبو بكر: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجئت تطلب ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذاميراث امرأته من أبيها. فقال أبو بكر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مانورث ما تركناه صدقة. فرأيتماه كاذبا أثما غادرا خائنا والله يعلم أنه لصادق بارراشد تابع للحق. ثم توفي أبو بكر. وأنا ولي رسول الله صلى

الله عليه وسلمولي أبي بكر فرأيتماني كاذب آثما غادرا خائنا. والله يعلم أي لصادق بار راشدتابع للحق فوليتها، ثم جئنتي أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فقلتما دفعها إلينا. (١).

ولنا تعليق على هذه الروايات وفي البداية نقول: إن حديث " لا نورث " لميرويه إلا أبو بكر وحده. ذكر ذلك أعظم المحدثين حتى أن الفقهاء في أصولالفرقة أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابي الواحد. وفيالحديث السابق استشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وسعدا فقالوا:

سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأين كانت هذه الروايات أيام أبيبكر. ما نقل أن أحدا من هؤلاء يوم خصومة الزهراء وأبي بكر روى من هذاشيئا.

وفي الحديث السابق أيضا جاء علي والعباس إلى عمر يطلبان الميراث.

وقد كان أبو بكر قد حسم هذا كله في عهد وقرر أمام أزواج النبي وأمام عليوالعباس وفاطمة وعمر حيث كان من المساعدين له. أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث. فكيف يعود العباس وعلي بعد وفاة أبي بكر يحاولان أمرا قد

(١)مسلم (١٥٢ / ٥) ط دار التحرير في البخاري (١٧ / ٣).

الصفحة ٣١٨

فرغ منه. اللهم إلا أن يكونا ظنا أن عمر ينقض قضاء أبو بكر في هذه المسألة.

وهذا بعيد لأن عليا والعباس كانا في هذه المسألة يتهمان عمر بممالة أبي بكرعلى ذلك. ألا تراه يصرح بأنهما نسباه إلى الكذب والغدر والخيانة فكيف يظنناأنه ينقض قضاء أبي بكر؟!

ثم إن قول عمر لعلي والعباس عن أبي بكر: فرأيتماه كاذبا آثما غادراخائنا. ثم قال لما ذكر نفسه: فرأيتماني كاذبا آثما غادرا خائنا. فإذا كانا يزعمانذلك. فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا أورث " قال ابن أبي الحديد: إن هذا لمن أعجب العجائب ولولأن هذا الحديث مذكور في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب منمضمونه. إذ لو كان غير مذكور في الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن فيصحته. وإنما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك.

وورد أيضا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلوا عثمان إلى أبي بكريسألنه ثمنهن. ولقد ذكرنا الرواية في ذلك.. ثم وجدنا عثمان في مجلس عمر بعد ذلك وعمر يقول: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورثما تركناه صدقة. قالوا: نعم، ومن جملة الذين أجابوا عثمان. فكيف يعلم بذلكفيكون مترسلا لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسأله أن يعطيهم الميراث.

وروى أيضا أن عمر قال لعلي والعباس: أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العباس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكر. وهل يجوز أن يقال: كان العباس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الذي لا يستحقه؟ وهل يجوز أن يقال: أن عليا كان يعلم ذلك ويمكن زوجته أن تطلبها لا تستحقه. خرجت من دارها إلى المسجد ونازعت أبا بكر وكلمته بما كلمتها إلا بقوله وإذنه ورأيه. (١)

وإذا تم التسليم بأن النبي لا يورث. فكيف نسلم بأن النبي صلى الله عليه

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

الصفحة ٣١٩

وسلم وهو الذي أنزل عليه قوله تعالى: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين) (١)، وقوله: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)، إلى قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخلهنا خالدًا فيها وله عذاب مهين) (٢)، والآيات هنا عامة يدخل فيها النبي صلى الله عليه وسلم وغيره. بدليل أن الآية لم تستثن أحدا. كيف نسلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب وصيته ويقول فيها: " لا نورث ". وكيف يبين النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحكم لغير الأقربين ويكتمه عن الأقربين وهم ورثته.

وكيف يظل علي والعباس وفاطمة على كلمة واحدة يكذبون رواية نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ويقولون أنها مختلفة. بينما يزعم عمرو وأبو بكر أن عليا والعباس في قصة الميراث زعما هما كاذبين ظالمين فاجرين. وما رأينا عليا والعباس اعتذرا ولا تنصلا ولا رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكروا عليه ما حكاه عمر عنهما ونسبه إليهما (٣) إن هذا التضارب فتح الأبواب للقول والقال. ومما قيل: قيل لرجل من قرية تسمى الحلة بين الكوفة والبصرة:

ما تظن قصد أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ ما قصدا؟ قال: أرادا ألا يظهر العلي - بعد السقيفة - رقة ولينا وخذلانا ولا يرى عندهما خورا. فأتبعاه القرح بالقرح. وقيل لآخر من بلدة تسمى بليدة في سواد الكوفة: وهل كانت فدك إلا نخيلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير؟ فقال: ليس الأمر كذلك بل كانت جليلة جدا وكان فيها من النخل ما بالكوفة الآن من النخل. وما قصد أبو بكر وعمر

(١) قال في تحفة الأحوازي: وحتى الاستشكال أن أصل القصة صريح في أن العباس وعلي قد علما بأنه صلى الله عليه وآله قال: لا نورث. فإن كان سمعاه من النبي فكيف يطلبانهم أبي بكر أو في زمنه فكيف يطلبانه بعد ذلك من عمر (تحفة الأحوازي ٢٣٥ / ٥).

(٢) سورة النساء ١١ - ١٤ .

(٣) قال السندي في شرح البخاري: كي يجئ منهما تكذيب أبي بكر فيما روي عن النبي أنه صديق هذه الأمة (البخاري شرح السندي ١٦ / ٣).

الصفحة ٣٢٠

بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى علي بن أبي طالب بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة. ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وسائر بني هاشم وبني المطلب حقه في الخمس. فإن الفقير الذي لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه. ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتماب عن طلب الملك والرياسة. وهكذا ضاعت فدك.

وضاع سهم ذي القربى الذي نص عليه كتاب الله روى أبو داود أن نجدة الحروري حين حج في أيام ابن الزبير. أرسل إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذي القربى ويقول لمن تراه؟ قال ابن عباس: لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبيناه أنقلبه. (١)

وترتب على ذلك فيما بعد اختلاف العلماء في الغنائم وكيف توزع (٢)، واختلفوا في الفئ والخمس (٣) إلى غير ذلك وجميع هذه الاختلافات أصلها مصادرة الدولة لنحلة الرسول وإرثه وسهم ذي القربى، وهذه الاختلافات ولدتها بعد الاختلاف الأعظم في معرفة أهل البيت. وخصوصاً عندما أمر عمر بن الخطاب بعدم رواية الحديث. فعندئذ اختلف عامة المسلمين في أهل البيت.

فمن عاكف عليهم هائم بهم ومن معرض عنهم لا يعبأ بأمرهم ومكانتهم من علماء القرآن. أو مبغض شأنهم لهم. وقد وصاهم النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يرتاب في صحته ودلالته مسلم أن يتعلموا منهم ولا يعلموهم وهم أعلم منهم بكتاب الله. وذكر لهم أنهم لن يغلطوا في تفسيره ولن يخطئوا في فهمه - ولكن الوصايا لم تذا عوفقاً للمصلحة العامة. حيث كان العديد من الدوائر يتربص بالإسلام والمسلمين.

وإن أردت العجب فلك أن تعجب إذا علمت أن مصير فدك بعد سنوات قليلة من منعها عن ربحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء - قد

(١) سنن أبو داود، حديث رقم ٢٩٨٢.

(٢) تحفة الأحوازي ٢٢٣ / ٥.

(٣) تحفة الأحوازي ٢٨٣ / ٥.

الصفحة ٣٢١

أصبح في جعبة مروان بن الحكم الذي لعن الرسول أباه وهو في صلبه. قال فيالفتح الرباني: فلما كان عهد عثمان. تصرف في فدك بحسب ما رأى فأقطعها للمروان. لأنه تأول أن الذي يختص به النبي صلى الله عليه وسلم

يكون للخليفة بعده فوصل بها بعض أقاربه (١)، إنها التركة التي لغير وارث ومن العجيب أنالحكام فيما بعد كانوا يعتبرون التركة من غير وارث ليستولوا عليها. روي أنه فيالقرن الثالث الهجري انشئ ديوان خاص يسمى ديوان المواريث وذلك في عهدالخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)، وكان هذا الديوان مجالا واسعا لظلم الناسوالإعانات في مواريتهم وأخذ ما لم تجز به السنة (٢)يقول ابن المعتز قربأواخر القرن الثالث يشكو ما يجري على أصحاب المواريث.

وويل لمن مات أبوه موسرا * أليس هذا محكما شهرا
وطال في دار البلاء سجنه * وقيل من يدري بأنك ابنه
فقال: جيرانى ومن يعرفني * فنتفوا سباله حتى فنى
واسرفوا في لكمة ودفعه * وانطلقت أكفهم في صفعه
ولم يزل في ضيق الحبوس * حتى رمى لهم بالكيس (٣)

وكان سيف الدولة يأخذ المواريث أخذاً رسمياً ففي عام (٣٣٣ هـ) عين ابنعبد الملك الرقي قاضيا على حلب فكان هذا القاضي يصادر التركات ويقول:

التركة لسيف الدولة. وليس لي إلا أخذ الجعالة وكان كثير من الحكام يحاولونأن يعتبروا التركة من غير وارث ليستولوا عليها (٤)، ونعود إلى حيث ابتدأنا فنقول: إن فاطمة الزهراء كانت مصيبة فيما ادعته. ولم تكن فاطمة في حاجة إلى الشهادة وبينه. لأنها بنص الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيتوتطهركم تطهيرا)، معصومة. والآية تناولت جماعة منهم فاطمة بما تواترتالأخبار في ذلك. وهي أيضا بنص الحديث " فاطمة بضعة مني من أذاها فقد

(١)الفتح الرباني ٢٦٢ / ٢١.

(٢)الحضارة الإسلامية / آدم منز ٢١٧ / ١.

(٣)المصدر السابق ٢١٧ / ١.

(٤)المصدر السابق ٢١٨ / ١.

أذاني ومن أذاني فقد أذى الله عز وجل " معصومة. لأنها لو كانت ممن تقارفالذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذيا له على كل حال. بل إن إقامة الحد عليها إنكان صدر منها فعل يقتضي ذلك أيكون سارا له ومطيعا. ولأنها بعيدة عن كلهذا كان من أذاها فقد آذاه ولا خلاف بين المسلمين في صدقها فيما ادعته. لأنأحدا لا يشك أنها تدعي ما ادعته كاذبة، وليس بعد: لا تكون كاذبة إلا أن تكونصادقة. ولقد قال البعض عن الفعل الأصح الذي كان يجب أن يكون: قد كانالأجمل أن يمنعهم التكرم مما ارتكبا منها فضلا عن الدين وقال ابن أبي الحديدفي تعليقه على هذا

القول المفيد: وهذا الكلام لا جواب عنه. ولقد كان التكرم ورعاية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظ عهده يقتضي أن تعوض ابنته بشئ يرضيها. إن لم يستنزل المسلمون عن فدك وتسلم إليها تطيبها لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه. وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

- ٣ تساؤلات على الطريق:

إذا تحدثنا عن الزهراء نجد أنفسنا أمام أسئلة حائرة تبحث لها عن أجوبة.

من هذه الأسئلة: هل بايعت فاطمة الزهراء أبا بكر؟ والإجابة التي نجدها في البخاري وغيره من حديث عائشة عندما أبا بكر أن يعطي فاطمة ما سألت:

أن فاطمة غضبت وهجرت أبا بكر فلم تول مهاجرته حتى توفيت. وعند البخاري: أن عليا دفنها ولم يخبر أبو بكر بموتها. (١) وعلى هذه الإجابة نقول:

كيف يستقيم موقف الزهراء مع الحديث الصحيح: " من فارق الجماعة شبرافمات إلا مات ميتة جاهلية (٢) " ، وحديث: " من خرج من السلطان شبرا مات

(١) البخاري (الصحيح ٥٦ / ٣) ك المغاري.

(٢) صحيح البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك الفتن.

ميتة جاهلية (١) " ، هل كانت الزهراء مفارقة للجماعة؟ كيف؟

وبخصوص علي بن أبي طالب. فلقد روى البخاري ومسلم " كان لعلي بن الناس وجهه حياة فاطمة. فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته ولم يكن بايع تلك الأشهر فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب. فقال عمر لأبي بكر: والله لا تدخل عليهم وحدك! فقال أبو بكر، وما عساهم أن يفعلوا بي وإني والله لأتينيهم فدخل عليهم أبو بكر (٢) " ، قال المفسرون: إنه كان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة.

أي وجه وإقبال في مدة حياتها. وقيل: وجه من الناس حياة فاطمة أي جاء وعزف قدهما بعدها. وبعد وفاة فاطمة استنكر على وجوه الناس أي لم يعجبه نظرهم إليه. فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد قال المفسرون: أي لئلا يحضر معه من يكره حضوره وهو عمر بن الخطاب لما علم من شدته وصدعهما يظهر له فخاف هو ومن معه ممن تخلف عن البيعة أن ينتصر عمر لأبي بكر فيصدر عنه ما يوحش صدورهم على أبي بكر بعد أن

طابت وانشرحت له. أما قول عمر: لا تدخل عليهم وحدك فمن خوفه أن يغلظوا على أبي بكر في العتاب ويحملهم على الاكثار من ذلك. لين عريكة أبي بكر وصبره عن الجواب.

وبين استنكار وجوه الناس وبين الخوف من غلظة عمر كما قال المفسرون زورى البخاري ومسلم: " فقال علي لأبي بكر موعده العشية للبيعة (٣) " ، وبيقالسؤال: هل يوجد دليل واحد يقول بأن عليا يستمد الجاه والعز من وجوه الناسوهو الذي أطاح برقاب الجبابرة على امتداد حياته. وعاش مظلوما وماتمظلوما. وما هو وزن بيعة مدخلها إرضاء الناس. ثم إذا كان الناس قد انفضوا من حول علي فلماذا خاف عمر على أبي بكر أن يدخل عليهم وحده. وأي عتاب

(١) صحيح البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤) ك الفتن.

(٢) صحيح مسلم (١٥٤ / ٥ باب قول النبي لا نورث)، البخاري (الصحيح ٥٥ / ٣) كالمغازي.

(٣) صحيح مسلم (١٥٤ / ٥ ط دار التحرير)، البخاري (الصحيح ٥٥ / ٣) ك المغازي.

الصفحة ٣٢٤

هذا الذي كان الفاروق يخشاه على أبي بكر؟

ثم نعود إلى حديث من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية فنقول. ألم يعلم علي بهذا الحديث؟ فإذا كان قد بايع بعد وفاة الزهراء. فهل كان علي يعلم أنه سيعيش إلى ما بعد أبي بكر فتأخر عن بيعته تلك الشهور الستة، ولقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم والمسوفون الذين يقولون سوف أعملغدا كذا وكذا ثم يأتيهم الموت على شر وط يعملوا شيئا. إن هذه أسئلة. ولقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

الصفحة ٣٢٥

ثالثا - التعتيم والظهور

لا جدال في أن الفاروق رضي الله عنه هو الذي وضع الأعمدة الأساسية للمجتمع المدني بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب هو صاحب أروع منهج لفهم النصوص الدينية فهما يساير الواقع ويحقق مصلحة المسلمين العامة. وما قدمه الفاروق بجميع المقاييس عملا جريئا للغاية لا يقدر عليه سوى رجل من طراز عمر وقليل ما تجد. ونحن هنا سنسلط الأضواء على بعض هذه الأعمال الأساسية. ولكن في البداية نلقي نظرة على كيفية تولية عمر بن الخطاب الخلافة:

روى الطبري: دعا أبو بكر عثمان خاليا فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد: ثم أغمي عليه. فذهب عنه فكتب عثمان. أما بعد: فإني قد استخلفت عليكم عمر

بنالخطاب ولم ألكم خيرا. ثم أفاق أبو بكر. فقال: إقرأ علي فقرأ عليه. فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في عشيتي. قال:

نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله. وأقرأها رضي الله عنه من هذا

الصفحة ٣٢٦

الموضع (١).

وفي رواية: إن أبا بكر أخذ رأي عثمان وعبد الرحمن بن عوف في عمرو كان رأيهم أن عمر خير من يصلح لهذا الأمر. وفي رواية: أن أبا بكر بعد أن استقر على عمر أعلن للناس أن يسمعوا له ويطيعوا.

وقبل أن يعلن أبو بكر اسم الخليفة من بعده، روى الطبري عن قيس قال:

رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والناس معه ويده جريدة وهو يقول: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال قيس:

ومعه مولى لأبي بكر يقال له شديد معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر (٢)، وبأيت الفاروق قال ذلك يوم أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده أبدا. ورحل أبو بكر رضي الله عنه وجاء عمرو كان قبل الخلافة على القضاء أيام خلافة أبي بكر كلها (٣)، وعلى امتداد هذا المسيرة والشئ الذي يدعو للدهشة أن ظروف المجتمع التي حتمت إلغاء سهمذي القربى على مراحل. ضيقت في الوقت نفسه على رواية الحديث ليتم إلغائها أيضا على مراحل. ومما يدعو للإعجاب بشكل مساو للدهشة أن سهم المؤلف قلوبهم الذي جعله الله تعالى علامة يتميز بها ضعاف الإيمان والذين في قلوبهم مرض. ثم تخفيف القبضة عنه ليتم إلغائه أيضا على مراحل. والشئ الذي يدعو للدهشة والإعجاب معا أن هذه الأمور سارت جنبا إلى جنب. الجميع نالوا جرعة واحدة لم يتميز طريق على طريق. وفي النهاية خرجت شجرة كل فرع فيها يداعبه النسيم ليخرج صوتا موسيقيا وفي النهاية تستمع إلى سمفونية يسري صداها في عالم الفتن.

- التضييق على رواية الحديث الشريف:

لا غنى للكتاب عن السنة. فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن. والقرآن

(١) الطبري ٥٢ / ٤.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٨٤ / ٥) ورواه الطبري (٥٢ / ٤).

(٣) الطبري ٣٧٧ / ٣.

الكريم يتعرض بمنطقة في سنته المشروعة لجميع شؤون الحياة الإنسانية من غير أن يتقيد بقيد أو يشترط بشرط، ما يحكم على الإنسان منفرداً أو مجتمعاً، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، على الأبيض والأسود، والعربي والعجمي، والحاضر والبادي، والعالم والجاهل، والشاهد والغائب، في أي زمان كان وفي أي مكان، ويدخل كل شأن من شأنه من اعتقاد أو خلق أو عمل من غير شك.

فللقآن اصطكاك من جميع العلوم والصناعات المتعلقة بأطراف الحياة الإنسانية، ومن الواضح اللائح من خلال آياته النادرة إلى التدبر والتفكر والتذكر والتعقل أنه يهتد حثاً بالغاً على تعاطي العلم ورفض الجهل في جميع ما يتعلق بالسموات والأرضيات والنبات والحيوان والإنسان من أجزاء عالمنا وما وراءه من الملائكة والشياطين واللوح والقلم وغير ذلك ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه، وما يتعلق نحوه من التعلق بسعادة الحياة الإنسانية الاجتماعية من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحكام الاجتماع. والقرآن اعتبر في بيان مقاصده السنة النبوية. وعين للمسلمين الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان المسلمون يحفظون عنه ويقلدون مشيته العلمية تقليد المتعلم معلمه في السلوك العلمي. (١)

فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن ولا اكتشفنا الكثير من أسرارها وغوامضها. هذا بالإضافة إلى الكثير من الحوادث التي لم ينص عليها القرآن باسمها ووصفها وتركها للرسول صلى الله عليه وسلم الذي انتمنه على وحيه وحمله مسؤولية الأداء والتبليغ والتفسير وبيان ما اشتبته حكمه وخفي علنا للمسلمين وجهه فقال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزلنا عليهم) (٢)، وقال: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) (٣)، وأوجب القرآن على المسلمين النزول على حكمه صلى الله عليه وسلم

(١) الميزان ٢٧١ / ٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٤.

في كل خلاف يحدث بينهم قال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (١)، وأكد عليهم أن يرجعوا إلى النبي في أمور دينهم وحثهم علنا لاستجابة لما يدعوهم فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم).

فما سبق نعلم أنه لا غنى للكتاب عن السنة ولا وجه للسنة إلا الكتاب.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على تبليغ حديثه ويحذر من الكذب عليه.

قال صلى الله عليه وسلم: " ليلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه (٣) " ، قال النووي: فيه تصريح بوجود نقل العلم وإشاعة السنن والأحكام. وقال المهلب: فيه أنه سيأتي في آخر الزمان من يكون له من الفهمي العلم ما ليس لمن تقدم، وقال ابن سيرين: وقد كان ذلك. قد كان بعض من بلغه أوعى له من بعض من سمعه (٣)، والعلم ما بلغ أهله وأصحابه إلا من بعد عصر التدوين. أما قبل ذلك فكان للناس مع الحديث شؤون. ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الفترة من الزمان وهو يخبر بالغيب عن ربه فقال:

"ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول:

عليكم بهذا القرآن. فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. (٤) "

والرجل الشبعان على أريكته الذي جاء ذكره في الحديث هو من استوفى على وطء متمكنا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " لألفين

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) رواه البخاري كتاب العلم (الصحيح ٢٣ / ١) وأحمد ورجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٧٦ / ٢٦) وقال النبي هذا في حجة الوداع.

(٣) (الفتح الرباني ٢٧٦ / ١١).

(٤) رواه أحمد وإسناده جيد وقال في نيل الأوطار حديث صحيح ورواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب (الفتح الرباني ١٩١ / ١) (كنز العمال ١٧٤ / ١) أبو داود حديث رقم ٤٦٠٤.

الصفحة ٣٢٩

أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول:

لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه (١)، وقال لهم: " يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته. يحدث بحديث من حديثي فيقول. بيننا وبينكم كتاب الله. فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله. (٢)

وفي مرحلة من مراحل الدعوة كان بعض الصحابة يحرصون على حفظ الحديث ونقله. وهذا الحرص منعهم عن تمحيصه والتدبر في معناه وخاصة فيعرضه على كتاب الله وهو الأصل الذي تبنى عليه بنية الدين وتستمد منه فروعه.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم الرواية عنه والرجوع إليه في أمور دينهم وفي حجة الوداع وبعد أن اكتمل البناء بحمل أهل البيت لسنة صلى الله عليه وسلم. أمر عليه الصلاة والسلام بأن يروي الناس عنه. وأشار إلى أن يتعلم المسلمون من أهل البيت ولا يعلموهم لأنهم أعلم منهم بكتاب الله وذكر أنهم لن يغلطوا في تفسيره ولن يخطئوا في فهمه وإنهم والكتاب لن يفترقا حتى يردا علنا الحوض.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وجد أبو بكر رضي الله عنه أن العديد من الصحابة يبالغ في رواية الحديث فضيق الحلقة على الرواية. وعندما تولع عمر رضي الله عنه الخلافة روى مالك: أن عمر أراد أن يكتب الأحاديث. أوكتبها. ثم قال: لا كتاب مع كتاب الله (٣)، ثم ضيق على الرواية فعن قرظة بن كعب قال، قال عمر: أفلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا

(١) رواه أحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجه والحاكم عن أبي رافع وقال الترمذي حديث صحيح (الجامع ٣٧ / ٥)، (كنز العمال ١٧٤ / ١).

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم (الجامع ٣٨ / ٥) (الفتح الرباني ١٩١ / ١).

(٣) ابن عبد البر (كنز العمال ٢٩٢ / ١٠).

الصفحة ٣٣٠

شريككم (١)، وقال ابن كثير: إن عمر كان يقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنك تأتي قوما لهم فيمساجدهم دوي بالقرآن كدوي النحل فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث. وأنا شريكك في ذلك. وقال ابن كثير: هذا معروف عن عمر رضي الله عنه. (٢)

ثم بدأ عمر يضيق الدائرة حتى أنه كان يحبس من يروي. فعن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود ولأبي الدرداء ولأبي ذر ما هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحسبه حبسهم حتأصيب (٣)، وعن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر يقول لأبي هريرة: لتتركنا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس (٤)، ورويعن عبد الرحمن بن عوف قال: والله ما مات عمر حتى بعث إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فجمعهم من الآفاق: عبد الله بن حذافة، وأبا الدرداء، وأبا ذر، وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآفاق: قالوا: أنتهاننا. قال: لا. أقيموا عندي. لا والله لا تفارقوني ما عشت (٥)، وروى ابن عبد البر: كتب عمر في الأمصار من كان عنده شيء من ذلك فليمحه. (٦)

(١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح (المستدرک ١٠٢ / ١) الطبري ١٩ / ٥.

(٢) ابن كثير في البداية والنهاية ١٠٧ / ٨، وقال ابن حبان في المجروحين رواه ابن ماجه والحاكم وله طرق (المجروحين ٣٦ / ١).

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وإنكار عمر على الصحابة كثرة الرواية فيهنسنة ولم يخرجاه (المستدرک ١١٠ / ١) ورواه ابن سعد في الطبقات (٣٣٦ / ٢) وابن حبان في كتابه المجروحين (٣٥ / ١).

(٤) رواه ابن عساکر (كنز العمال ٢٩١ / ١٠).

(٥) رواه ابن عساکر (كنز العمال ٢٩٢ / ١٠) وابن حبان في كتابه المجروحين (٢٥ / ١).

(٦) رواه ابن عبد البر وأبو خيثمة معا في العلم (كنز العمال ٢٩٢ / ١٠).

الصفحة ٣٣١

وترتب على ما سبق خوف الصحابة من الرواية كان أبو هريرة يقول: إنى لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر لشج رأسي (١)، وقال: أفكنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي. أما والله إذا لأيقنت أن المحففة ستبشر ظهري (٢)، وقال: " ما كنا نستطيع أن نقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبض عمر (٣) وقيل إن عدم الرواية كان حفظاً للقرآن وخوفاً من أن يتداخل الحديث مع القرآن، ولا يخفى ما في هذا القول من تساهل كبير. لأن القرآن إعجاز لواجتمعت الإنس والجن كي يضعوا فيه ما ليس منه ما استطاعوا. ولا يصدق عاقلان يقرأ إنسان نصف آية ثم يكملها بحديث أو نصف حديث. ويقول هذا من كتاب الله. فقول مثل هذا لا يلتفت إليه. لقد وضع عمر مبدأ عدم الرواية. ولكن نشأ عنه آثار جانبية مثل التي تنشأ عن الدواء الذي يستخدم في علاج داء معين من جملة تلك الآثار الجانبية تمسك بعض من الصحابة بمبدأ عمر في وقت كانت الرواية فيه بمثابة عودة الروح للجسد، ومن الأمثلة على ذلك. عن محمود بن لبيد قال: سمعت عثمان بن عفان على المنبر يقول: لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر (٤)، ثم جاء معاوية بن أبي سفيان فقال: أيها الناس ألقوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن كنتم تحدثون فحدثوا بما كان يتحدث به في عهد عمر (٥)، ثم جاء عمر بن العاص ليشهد ويقسم. فقال: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أقرأكم عمر فاقروا وما أمركم به فأتتموا (٦)، ولا يخفى أن المسافة من عثمان إلى معاوية كنت في حاجة إلى أحاديث وأحاديث.

(١) ابن كثير في البداية (١٠٧ / ٨).

(٢) ابن كثير في البداية (١٠٧ / ٨).

(٣) ابن كثير في البداية (١٠٧ / ٨).

(٤) ابن سعد (الطبقات ٣٣٦ / ٢) ابن عساکر (كنز العمال ٢٩٥ / ١٠).

(٥) ابن عساکر (كنز العمال ٢٩١ / ١٠).

(٦) ابن عساکر (كنز ٥٩٣ / ١٢).

ومن الآثار الجانبية لمبدأ عدم الرواية. أن هناك أنماطاً بشرية لعنهم رسول الله وحذر منهم وطرد بعضهم فهؤلاء ضاع من عليهم التحذير. ومع مرور الأيام نسي الناس ما روي فيهم. فتقلدوا مراكز الصدارة في فترة من الفترات. ولقد حاول هؤلاء التعتيم على الرواية في العهد النبوي ولكن الرسول أمر بالرواية كيدهم في نحورهم، فعن عبد الله بن عمرو قال: قالت لي قريش تكتب عن رسول الله صلى الله عليه وآله!! وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: إن قريشا تقول تكتب عن رسول الله وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر. قال: فأوماً لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم شفتيه. وقال: والذي نفسي بيده ما يخرج ما بينهما إلا

حقفاكتب(١) " ، وقولهم: يغضب كما يغضب البشر فيه أنهم كانوا يعنون أحاديثبعينها. وعلى هذا لا يستغرب أن يصر عثمان ومعاوية وعمرو على رواية أحاديثخضعت لفقہ عدم الرواية.

ومن الآثار الجانبية أن عدم الرواية أدى إلى نسيان الصحابة وتركهم رواية الحديث، فعن ابن أبي أوفى قال: كنا إذا آتينا زيد بن أرقم فنقول حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: كبرنا ونسينا (٢)، وروي عن ابن عباسقال: كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إذا لم يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه. (٣)

ومن آثاره إفساح المجال للقص في المساجد ثم دخول الأحاديثالموضوعة بعد ذلك. ومن آثاره التعتيم على أهل البيت في مرحلة. وقتلهم فيمرحلة وتشويههم في مرحلة. وفيما نظن أن الفاروق لو كان يعلم أن مبدأه

(١)رواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد أصل في نسخ الحديث عن رسول الله ولميخرجاه (المستدرک ١٠٥ / ١) ورواه أبو داود حديث ٣٦٤٦.

(٢)ابن عساكر (كنز العمال ١٩٤ / ١٠).

(٣)رواه ابن حبان في كتابه المجروحين (٢٨ / ١).

الصفحة ٣٣٣

سيترتب عليه آثار جانبية. لعدل عنه وجمع العديد من الصحابة العدول الثقاقوأمرهم بكتابة الأحاديث الصحيحة لتكون منارا لمن يأتي بعدهم ولقطع بذلكالطريق على الوضاعين والذين فرقوا الأمة شيعا وأحزابا. ولسد المنافذ علالذين التمسوا لمبدأه الأعذار وقالوا: إن منع الرواية كان من أجل أن لا يزااحمالحديث القرآن لأن في هذا القول من التشكيك ما لا يخفى.

- ٢ من آثار عدم رواية الحديث:

كان عدد من أهل الكتاب قد دخلوا في الإسلام وأخذ عنهم المحدثون فيما بعد شيئا كثيرا من أخبار كتبهم وقصص أنبيائهم وأممهم فخلطوها بما كان عندهممن الأحاديث المحفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذ الوضعوالدس يدوران في الأحاديث. ويوجد اليوم في الأحاديث المقطوعة المنقولة منالصحابة ورواتهم في الصدر الأول شئ كثير من ذلك يدفعه القرآن بظاهر لفظه:

وا إذا أردنا أن نضع أيدينا على البداية. فلا بد من البحث في مساحة عدم الروايةلنرى أين الوتر الذي تعود إليه وإلى طابوره الأحاديث الموضوعة في صفات اللهوأسمائه وأفعاله والزلات المنسوبة إلى الأنبياء الكرام والمساوي المشوهة المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم والخرافات في الخلق والإيجادوقصص الأمم الماضية. والوتد الأساسي الذي نعتقد أنه الأساس في هذا البلاءهو القص وعليه نسلط الضوء.

أ - القص في المساجد:

القص أو القصص (والجمع قصاص) هو الرجل الذي كان يجمع الناس حوله في الطرقات أو في المساجد. فيعظهم حيناً بذكر الأحاديث والأخبار ويسليهم بالقصص والحكايات حيناً آخر. وهؤلاء كانوا مقربين من الخلفاء وكانوا يقومون مقام الصحف في أيامنا هذه لذا كان الإمام علي بن أبي طالب يقول

الصفحة ٣٣٤

للقص: أنت أبو عرفوني. (١)

وأقدم خبر للقص في صدر الإسلام ما رواه البخاري أن سعيد بن جبيرة قال لابن عباس: بالكوفة رجل قاص يقال له نوف البكالي يزعم أن موسى الذي اجتمع مع العبد الصالح بمجمع البحرين ليس بموسى بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله. (٢)

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتضييق الرواية كانت الساحة مستعدة لاستقبال هؤلاء ليقوموا بالواجب الذي تقوم به صحافة أيامنا هذه.

وروى الإمام أحمد: كان أول من قص تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب أن يقص على الناس قائماً فأذن له (٣) ، وعن السائب بن يزيد قال: إنه لم يكن يقص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا أبي بكر وكان أول من قصتميم الداري استأذن عمر أن يقص فأذن له (٤) ، وتميم كان راهباً نصرانياً وأسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يعترض أحداً على القص أو لم يجتمعوا لترتيب أوراقهم بعد أن حذرهم النبي من أن القص علامة على طريق طويل. وذلك فيما رواه الطبراني: " إن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا (٥) " ، ولكن الساحة رضيت بهذه الظاهرة التي ينتقف بها العامة. ثم جاءت نقطة التحول بدخول كعب الأبحار ساحة القص. وكعب كان على دين اليهود فأسلم في عهد عمر بن الخطاب وكان من المقربين إليه. قال ابن حبان مات كعب سنة أربع وثلاثين وقد بلغ مائة سنة وأربع سنين. (٦)

وكان أستاذ كعب الأبحار قد أسلم في عهد أبي بكر. وكان يدعى

(١) رواه الدارمي والبيهقي والعسكري (كنز العمال ٧٧٥ / ١٢).

(٢) رواه البخاري كالتفسير (الصحيح ١٥٥ / ٣).

(٣) أحمد (الفتح الرباني ١٤٥ / ٢٠).

(٤) العسكري (كنز العمال ٢٨٠ / ١٠).

(٥) الفتح الرباني (١٩٤ / ١).

(٦) راجع ترجمته بالإصابة ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧ / ٣، الطبقات الكبرى ٤٤٥ / ٧.

المسؤول فكناه أبو بكر أبا مسلم وروى عن معاوية (١) وكعب الأبحار نفسه عمل مستشارا لمعاوية وهو أمير على الشام. وذلك بعد أن ترك المدينة وتوجه إلى الشام وسكن حمص. وكعب هو الذي ألقى حب الخلافة في قلب معاوية في أثناء الثورة على عثمان بن عفان (٢) وكان معاوية يقول: إن كعب الأبحار أحد العلماء (٣)، وبدخول كعب إلى الساحة ظهر طابور طويل لم يكن قصدهم الدينبل تسليية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم. وتشويه القصص الدينية ووضعها في مربع الخرافات. وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم، وقد عملوا على نشرها. وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم. لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم. وبدأ كعب الأبحار يمارس عمل كعمل الصحافة في أيامنا هذه. وعلى سبيل المثال عن محمد بن سيرين أن كعب الأبحار قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هل ترى في منامك شيئا؟! فانتهره. فقال: إنا نجد رجلا يرى أمر الأمة فيمنامه (٤) ، وعن شداد بن أوس قال. قال كعب الأبحار: " كان في بني إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر وإذا ذكرنا عمر ذكرناه (٥) " ، وعن سالم بن عبد الله أن كعب الأبحار قال لعمر: إنا لنجد ويل لملك من ملك السماء فقال عمر: إلامن حاسب نفسه فقال كعب: والذي نفسي بيده إنها في التوراة لتابعها (٦).

ويبدو أن الساحة في هذه الآونة كانت على خلاف في تعريف من هو الخليفة ومن هو الملك. وكان هذا الأمر يشغل الفاروق، فعن سفيان بن أبي العوجاء قال: قال عمر: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟!، فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم. فقال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا. قال: ما هو؟ قال:

(١) الجرح والتعديل / الرازي ٤٣٦ / ٩.

(٢) راجع البداية والنهاية ٨٢٧ / ٨، الكامل ٧٩ / ٣ وسيأتي ذلك في حينه.

(٣) الإصابة ٣١٦ / ٣.

(٤) ابن المبارك وابن عساكر (كنز العمال ٥٦٢ / ١٢).

(٥) سدد وإسناده صحيح (كنز العمال ٢٨٢ / ١).

(٦) الدارمي والبيهقي والعسكري (كنز العمال ٧٧٥ / ١٢).

الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق. فأنت بحمد الله كذلك. والملكي عسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا. فسكت عمر (١)، ويبدو أن سكون الفاروق يعبر على أن الإجابة ليست كاملة. لهذا سأل سلمان الفارسي: أملك أنا أم خليفة؟ فقال سلمان: إن أنت جيبت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر. ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة (٢)، ويبدو أن هذه الإجابة تشير إلى الفئ وتقسيمه من طرف خفي. ثم طرح السؤال بعد ذلك على كعب الأبحار الذي نعتبره الجريدة الرسمية في هذه الآونة. فسأل عمر كعبا: أنشدك الله أتجدني خليفة أم ملك؟ قال: بل خليفة. فاستحلفه عمر. فقال: خليفة والله منخير الخلفاء وزمانك خير زمان (٣).

وروى أن بعد فتح بيت المقدس كان كعب يرافق عمر. وعندما أراد عمر الصلاة قال لكعب: أين ترى أن أصلي؟ قال: إن أخذت عني! صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك (٤)، لقد كان كعب يريد من وراء ذلك أنتزاحم قبلة اليهود قبلة المسلمين. ولكن عمر تنبه إلى هذا فيما رواه الهيثم بنعمار قال: قال عمر لكعب حين أراد أن يبني المسجد: أين ترى أن نجعل المسجد؟ قال: اجعله خلف الصخرة فتجمع بين القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد. فقال عمر، ضاهيت اليهودية والله يا أبا إسحاق. خير المساجد مقدمها فبناه في مقدم المسجد. (٥)

وفي ساحة حظرت الرواية لا يستغرب أن يسأل عمر كعب الأخبار: أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده (٦) ، وقوله: حدثني

(١) ابن سعد (كنز العمال ٥٦٧ / ١٢).

(٢) ابن سعد (كنز العمال ٥٦٧ / ١٢)، الطبري (تاريخ الأمم ٣٤ / ٥).

(٣) نعيم ابن حماد في الفتن (كنز العمال ٥٧٤ / ١٢).

(٤) أحمد والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٤٣ / ١٤).

(٥) ابن عساکر (كنز العمال ١٤٨ / ١٤).

(٦) ابن عساکر (كنز العمال ٣٦٤ / ١٢).

الصفحة ٣٣٧

يا كعب عن جنات عدن (١) إن فتح الباب أمام كعب ليدخل إلى السيرة النبوية إلى الغيبات يترتب عليه أمور وأمر. ومن فضل الله تعالى أنه جعل في الساحة من يتصدى لكعب. فعن عوف بن مالك أنه دخل المسجد يتوكأ على ذي الكلاء وكعب يقص على الناس فقال عوف لذي الكلاء: ألا تنهي ابن أخيك هذا عما يفعل (٢)، وبلغ حذيفة أن كعبا يقول: إن السماء تدور على قطر كالرحا فقال:

كذب كعب. (٣)

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحب البحث عن نفسه في كتب أهلال الكتاب. فعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له: هل تجدني في الكتاب؟! قال: نعم، قال: كيف تجدني؟ قال: أجذك قرنا. فرفع عمر عليه الدرة وقال: قرن مه؟ قال الأسقف: قرن حديد أمينشديد (٤)، وروى أن عبد الله بن سلام - كان يهوديا. أسلم في عهد النبوة - وكان عمر قد ذهب إليه ليسأله في معنى قفل جهنم. أن قال: يا أمير المؤمنين أخبرني أبي عن آباءه عن موسى بن عمران عن جبريل أنه قال: يكون في أمة محمد رجل يقال له عمر بن الخطاب. أحسن الناس دينا وأحسنهم يقينا ما دام بينهم الدين والدين فاش فجهنم مقفلة... إلخ. (٥)

وإذا أردنا أن نزن ما سبق ونسأل هل أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأحداث التي تعصف بالساحة؟ نقول: ربما تكون هناك إشارة في حديث رواه ابن عباس، قال: إن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم

بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " أمتهوكون (٦) فيها يا ابن الخطاب. والذي نفسي بيده لقد جئتكم

(١) ابن المبارك وأبو ذر الهواري في الجامع (كنز ٥٦١ / ١٢).

(٢) الإصابة / ابن حجر (٣١٥ / ٣).

(٣) الإصابة (٣١٦ / ٣).

(٤) أبو داود حديث رقم ٤٦٥٦، ابن أبي شيبة ونعيم ابن حماد (كنز العمال ٥٥٩ / ٣).

(٥) ابن عساکر (كنز العمال ٥٨٦ / ١٢).

(٦) أي: أمتهوكون أنتم في الإسلام. وقيل: أترددون ساقطون لسان العرب ص ٤٧٢٢.

الصفحة ٣٣٨

بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه وبباطل فتصدقونه. والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني(١) "، إن دخول معترك أهل الكتاب يكون بمعرفة مادتهم أولا ثم وزنها بميزان الإسلام ثم طرحها عليهم لتدمغهم الحجة. ولذلك نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم. أمر زيد بن ثابت بأن يتعلم له كتب اليهود أولا ليكتب له ويقرأ له إذا كتب إليه. وغضب النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاء عمر بكتاب أهل الكتاب. فيه إشارة خاصة ليتذكرها الذهن وتقوم بها الحجة. ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن هذا سيقع لا محالة قال: " لتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى. لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي.(٢) "

ومعالم التهوك يمكن أن يرصدها الباحث بسهولة، فالقصص يعتبر أكبر عقبة في سبيل التقدم. لأنه يصرف الناس عن الاشتغال بالعلوم الدينية وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة. وذلك لما له من تأثير قوي في الجماهير. وفي عصر بني أمية راج القصص. فمعاوية أمر كعب الأحماس بأن يقص بالشام (٣) وبعد كعب جاء وهب بن منبه. قال الذهبي عنه: أبو عبد الله اليماني صاحب القصص... ولد في آخر خلافة عثمان... كثير النقل من كتب الإسرائيليات.

كان يقول: قرأت بضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء (٤)، ولوهب أيضا تلاميذ.

وظل يتجول في بلاد المسلمين يبيث فيها خرافاته وأساطيره إلى السنة التي مات فيها وهي سنة ١١٤ هـ على أصح الأقوال (٥) والحزب الأموي اعتنى بالقصص يرفعهم القصاصون في عيون المسلمين نظرا لعدم وجود فضل لهم يرفعهم

(١) رواه أحمد وابن ماجه (كنز ٢٠٠ / ١) وابن أبي عاصم وحسنه الألباني وقال له طرق (كتاب السنة ٢٧ / ١).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (كنز العمال ٢٠١ / ١١).

(٣) رواه الطبراني (الإصابة ٣١٦ / ٣).

على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وفي عهد بني أمية كان القصاصون يذكرون عليا وولده بما يطفئ نورهم ويكتم فضلهم. وذلك كله لحساب الحزب الحاكم. وروى عن غضيف بن الحرث قال: بعث إلي عبد الملك بن مروان فقال: قد جمعنا الناس على أمرين. قلت: وما هما؟ قال: رفع الأيدي علالمنابر يوم الجمعة والقص بعد الصبح والعصر. (١)

وعلى هذا الدرب اخترعت أحاديث. وتم الخلط بين الحقيقة والخيال.

روى ابن عساكر عن يزيد بن هارون قال: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلس. أي يروي ما سمعه من كعب وما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يميز هذا من هذا (٢)، ولم يقف الأمر عند أبي هريرة. بل تعداه إلى من سمع منه، روى الإمام مسلم عن بشر بن سعيد أنه قال: لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقول. فاسمع بعضه من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب وحديث كعب عن رسول الله - وفي رواية - يجعل ما قاله كعب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب (٣) وسواء كان التدليس من أبي هريرة أم من الذين سمعوا منه. فإن كعب الأحبار هو محور الارتكاز.

إن طريق التهوك بعد أن فتح الباب أمام النص واضح ولا غبار عليه. ولقد ذم غير واحد من العلماء أثر القص على الحديث. قال ابن الجوزي: إن بعض البلاء يجري من القصاصين. قيل لواحد منهم: من أين حفظت هذه الأحاديث؟

قال: والله ما حفظتها ولا أعرفها بل في وقتي قلتها (٤) وقال أبو حاتم: كانا القصاصون يضعون الحديث في قصصهم ويرونها عن الثقات (٥)، ولم يقف الأمر

(١) رواه أحمد والبخاري والطبراني وقال في الفتح الرباني إسناده جيد (الفتح ١٩٤ / ١).

(٢) ابن عساكر (البداية والنهاية ٤٠٩ / ٨).

(٣) مسلم (البداية والنهاية ١٠٩ / ٨).

(٤) الموضوعات / ابن الجوزي ٤٤ / ١.

(٥) المجروحين / ابن حبان (٨٥ / ١).

عند الحديث والتفسير بل انتهى القص إلى مرحلة أخرى يدمر فيها الأخلاق.

فلقد أخذت مواد القصص الغرامية تتكاثر وتتزايد بإطراد في أواخر العصر الأموي. حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية تعتمد على أغاني الغزل المشهورة من ناحية. كما تشترك بمختلف البواعث النابعة من آداب الأمم عامة من ناحية أخرى، ورواها العرب دون تحريم صادرها وإن سما بعض الأشخاص من أبطال الغرام والعشق الذين لم يكونوا إلا من أبناء الخيال (١)، وهذا الباب ترتب عليه ثقافة وهذه الثقافة فتحت الطريقاً لبواب أخرى تجد على أبوابها دعاة الصوفية والانعزالية. وتجد الذين يستندون عطف الحكام. وتجد الذين يطبخون علوم الكلام لترى على الموائد أصنافاً عديدة. من أقوال مرجئة إلى أقوال قدرية إلى علوم يونانية. وكل هذا أملاً للواقع الجديد الذي بناه القصص.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: أين كان علماء أهل البيت من هذا؟ نقول:

كانوا يعيشون عيش العلماء وقد زهدوا في الناس وما في أيدي الناس. كانوا يقيمون الحجة ولا يتدخلوا في اختيار الناس. فالإمام علي، واجه القصاصين ونسبهم إلى النسب الصحيح فقال: أنتم أبو عرفوني. أما الحسن بن علي رضي الله عنه فلقد روي أنه مر يوماً. وقاص يقص على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الحسن: ما أنت؟ قال: أنا قاص يا ابن رسول الله، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وسلم القاص. قال تعالى:

(فأقصص القصص)، قال الرجل: فأنا مذكر، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكر، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر)، قال الرجل: فما أنا؟ قال له الحسن: المتكلم من الرجال. (٢)

والخلاصة لقد قدمنا هنا أن البداية كانت عندما فتح عمر باب القصص، وشهد بذلك حديث صحيح، وإن هذا القصص زيف الحقائق وشهد بذلك حديث

(١) تاريخ الأدب العربي ١٩٩ / ١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢٧٠ / ٢.

عند البخاري (١)، كما أحدث القصص خلط الأمور وشهد بذلك حديث عند مسلم (٢)، وانتهى المطاف بالأمة إلى الاختلاف والافتراق على طريق التهوكل حزب من الأحزاب في جعبته حزمة من الأحاديث وقد شهد بذلك القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وحركة التاريخ.

ب - الاقتحام بالشعر:

كان الشعر سلاحاً فعالاً على ساحة ضاقت فيها دائرة الرواية. ولا نقصد بذلك عموم الشعر. وإنما نقصد الشعر الذي يصد عن سبيل الله ويضرب الأخلاق في جذورها. ولأن الطريق إلى المجون يبدأ دائماً من دائرة البخس. فلقد حذرتعالى من الاقتراب من هذا الطريق، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء (٣))،

وقال: (ودت طائفة من أهل الكتاب لويصلونكم(ع))، وقال: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا(و))، وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة(٦))، إلى غير ذلك من الآيات وقد تكلمنا عنها فيما سبق. وفي الوقت الذي أمر فيه تعالى بهذه الأوامر لحفظ دينه على امتداد الأرض. أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتحسين مركز القيادة وإشعاع الثقافة الإسلامية في حديث رواه الشيخان وغيرهما. وذلك عند وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فقال: " اخرجوا المشركين من جزيرة العرب " وحدد قبائل بعينها وصفهم بأنهم شر القبائل فقال: " شر قبيلتين في العرب نجران وبني تغلب(٧) " ، وكانت هذه القبائل مركزا خصبا للنصرانية. وروي عن ابن عباس أنه قال: " لا

(١) نقض الحديث الذي يخص القاص نوف البكالي.

(٢) نقصد حديث النقل عن أبي هريرة.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٠٩ (٦) سورة الممتحنة: الآية ١.

(٧) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ٧١ / ١٠).

الصفحة ٣٤٢

تؤكل ذبائح نصارى بني تغلب ولا تتكح نساؤهم. ليسوا منا ولا من أهلالكتاب (١) " وكان الإمام علي بن أبي طالب يقول في خلافته: " لئن تفرغت لبنيتغلب ليكونن لي فيهم رأي. لأقتلن مقاتلهم ولأسبين ذريتهم(٢) " ، ولكن هرزي الله عنه لم يعط الفرصة لالتقاط أنفاسه.

فهل خرج المشركون من جزيرة العرب؟ من الثابت أنهم لم يخرجوا لإقليلا منهم، أما الكثرة فرضيت الدولة منهم بدفع الجزية. روى الطبري وغيره أنالجزيرة افتتحتها عمر بن الخطاب في السنة السابعة عشرة هجرية (٣)وعندما أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب فروا إلى أرض الروم. فقالالنعمان بن زرة لعمر: أشدك الله في بني تغلب فإنهم قوم من العرب يغضبونمن ذكر الجزاء وهم قوم شديدة نكايتهم، فصالح عمر بني تغلب بعدما قطعوالفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم. على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الإسلام. فأعطى بعضهم ذلك وأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزية (٤)، ثم نقض بنو تغلب مع عهدهم مع عمر ونصروا أولادهم. فصاعف عمر عليهماالجزية فقالوا: إنا نرضى ونحفظ ديننا (٥)، واستمر الحال على ذلك. وفي عهدعثمان بن عفان. أراد عثمان أن لا يقبل من بني تغلب في الجزية إلا الذهبوالفضة. فجاءه الثبت أن عمرا أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك (٦).

مما سبق نعلم أن الدولة اجتهدت في وصية النبي صلى الله عليه وسلمفبدلا من إخراجهم قبلوا منهم الجزية لما رأوا أن المصلحة في ذلك. بل لمتقف الدولة عند هذا الحد بل جاءت بسبي النصارى إلى الجزيرة. ذكر البلاذري:

لما ولي عمر بن الخطاب معاوية الشام حاصر قيسارية حتى فتحها فوجد بها من

(١) فتوح البلدان / البلاذري ص ١٨٦.

(٢) فتوح البلدان ص ١٨٧.

(٣) الطبري ١٩٨ / ٤.

(٤) الطبري ١٩٨ / ٤، فتوح البلدان ص ١٨٦.

(٥) فتوح البلدان ص ١٨٦.

(٦) فتوح البلدان ص ١٨٧.

الصفحة ٣٤٣

المرتزقة سبعمائة ألف ومن السامرة ثلاثين ألف ومن اليهود مائتي ألف، ووجد بها ثلاثمائة سوق قائمة كلها. وقد بلغ سبي قيسارية أربعة آلاف. فلما بعث به معاوية إلى عمر بن الخطاب. قسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم فيالكتاب والأعمال للمسلمين (١) وكان أبو بكر أخدم بنات أبي أمامة خادمين منسبي عين التمر فماتا فأعطاهن عمر مكانهما من سبي قيسارية (٢)، ولا يخفى ما يترتب على عمل كهذا في ساحة لا رواية فيها.

ونحن سنلقي بعض الضوء على الأرضية النصرانية بالجزيرة لنمسك بأولالخيوط الذي نقف اليوم في نهايته. روي أن الوليد بن عقبة كان على رأس القوة التي افتتحت الجزيرة ودخلت إلى ديار بني تغلب. وفي بني تغلب التقى الوليد بن عقبة بأبي زيد الشاعر. فأما الوليد قال فيه صاحب كتاب الإستيعاب:

لا خلاف بين أهل العلم أن قوله الله عز وجل: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (٣)، نزلت في الوليد بن عقبة (٤). وعن ابن عباس في قوله تعالى:

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) (٥)، قال: نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة، وذكر قصة في ذلك (٦)، أما أبو زيد قال فيه صاحبالإصابة: كان في الجاهلية مقيما عند أخواله بني تغلب بالجزيرة. وكان فيالإسلام منقطعا إلى الوليد بن عقبة في ولايته للجزيرة ثم للكوفة (٧)، وقال ابنقتيبة: لم يسلم أبو زيد ومات على نصرانيته. وقال المرزباني: كان نصرانيا وهوأحد المعمرين. يقال عاش مائة وخمسين سنة وأدرك الإسلام فلم يسلم (٨)،

(١) أول سبي دخل إلى المدينة من أبناء العجم كان في عهد أبي بكر (تاريخ الطبري ٣٦ / ٤).

(٢) فتوح البلدان ٤٧.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٤) الإستيعاب ٦٣٢ / ٣.

(٥) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٦) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

وبقي أبو زيد إلى أيام معاوية (١).

وبالرغم من أن الوليد بنص الحديث فاسق بما يوافق القرآن. وبالرغم من أن أبا زيد على أكثر الآراء نصرانيا. فإن الفاروق رضي الله عنه رأى أن من المصلحة العامة أن يكون الوليد واليا على الجزيرة. أما فيما يتعلق بأبي زيد قال ابن حجر في الإصابة: " استعمله عمر على صدقات قومه ولم يستعمل نصرانيا غيره (٢) " ، وفي هذه الفترة أصدر عمر بن الخطاب قرارا. روى ابن شهاب أنعمرا كتب إلى أبي موسى الأشعري: " أن مر من قبلك بتعلم العربية فإنها تدل على صواب الكلام ومرهم برواية الشعر فإنه يدل على معالم الأخلاق (٣) " ، ورواية الشعر كانت سنة عربية لم يهتم بأمرها الإسلام. ولم يمدح الكتاب الشعروالشعراء بكلمة ولا السنة بالغت في أمره. وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " والذي بعثني بالحق لتكونن بعدي فترة في أمي بينغي فيها المالم من غير حلة وتسفك فيها الدماء. ويستبدل فيها الشعر بالقرآن (٤) " ، نحن إذا أمام دعوة لرواية الشعر وأمام إخبار بالغيب يقيم الحجة على فترة يستبدل فيها الشعر بالقرآن. وتحت ظلال دعوة رواية الشعر. تقف قبيلة تغلب التي ذمها رسول الله صلى الله عليه وآله. ونصارى الحيرة الذين بقوا على نصرانيتهم حتاالعصر العباسي. وقوافل قيسارية التي بعث بهم معاوية إلى عاصمة الخلافة.

وباقى دوائر الصد عن سبيل الله.

وفي عهد عثمان اتسعت الدائرة عندما أزيلت بعض الحواجز. وذلك عندما تولى الوليد بن عقبة ولاية الكوفة. ففي عهده تم الاتصال بنصارى الحيرة وبدأتقوافلهم تجوب المنطقة وراج شعر الأديرة الذي كان له نصيب من التأثير الخفيفي الثقافة العقلية. ثم بدأ شعر الخمر يلقي بظلاله ومنه الذي يدعو لنبذ الإسلام

صراحة. ولقد قدمنا بعضه في كتابنا " الانحرافات الكبرى (١) " ، فمن أراد أنيقف عليه وعلى أصول هذه الفترة فليراجعه هناك. وتحت ظلال شعر الأديرةوالخمر. كان الأمير الوليد والشاعر أبو زيد يضربان بالأخلاق عرض الحائط.

قال صاحب الإستيعاب: أخبار الوليد في شرب الخمر ومنادمته أبا يزيد مشهورتكثيرة (٢)، وخبر صلته بالمسلمين وهو سكران وقوله لهم: أزيدكم بعد أن صلنا الصبح أربعا مشهورة من رواية الثقات من نقل أهل الحديث وأهل الأخبار (٣)، وترتب على ذلك حدوث أول انتفاضة ضد حكم عثمان بن عفان. ضحى أمامها بعزل الوليد. ولكن الشعر بقي وازداد اتساعا. وتطور إلى شعر الغزل ثم الشعر المجون. وفي عهد معاوية راج الأدب العربي غاية رواجه وظهر الشعر الذي يحتضن سياسة الحزب الحاكم ومنازعات القبائل ومظاهر العصبية العربية.

وكان الأمويون يبالبغون في ترويج الشعر. وربما كانوا يبذلون بإزاء بيت من الشعر أو نكتة أدبية المئات والألوف من الدنانير. وانكب الناس على الشعر وروايته وأخبار العرب وأيامهم وكانوا يكتسبون بذلك الأموال الكثيرة. وبلغ من نفوذ الشعر والأدب في المجتمع العلمي أنك ترى كثيرا من العلماء يتمثلون بشعر شاعر أو مثل في مسائل عقلية. وبدأ شعر الصد يتسلل في ليل الفتن. وبدأ الشعراء يزحفون نحو مركز القيادة ومن هؤلاء: الأخطل، الذي ولد بالحيرة وكان من بني تغلب. دانبا النصرانية كأكثر قبيلته. ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة. دعا الأخطل إليه وأكرمه. وكذلك أكرمه خلفاء يزيد بن بعده وأسبغوا عليه نعمتهم ولا سيما عبد الملك الذي فضله على سائر الشعراء وأجزل له عطايها (٤)، ومنهم: أعشبنبي تغلب كان نصرانيا يقدم شعره في كل مكان ينزل به (٥)، وبدأت ثقافة الفتنة

(١) الانحرافات الكبرى / للمؤلف ط دار الهادي بيروت.

(٢) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٦٣٤ / ٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي ٢٠٥ / ١.

(٥) المصدر السابق ٢٣٨ / ١.

الصفحة ٣٤٦

تتسع حتى أصبح النصارى في عهد بني أمية لا يستغنى عنهم في تدبير السياسة كما كان عدد من نصارى الروم قائمين على تدبير الخراج. وكان لكثير منهم جاه عند الخلفاء (١)، ومن عباءة ثقافة الفتنة التي زحفت بالشعر والخمر والمجون نحو أرضية اللارواية. خرجت الآراء التي جاء بها الزنادقة. والنصرانية هي الأصل التي أتت منه جميع هذه الآراء (٢)، وخرجت آراء المرجئة على أيدي يحيى الدمشقي وكان أبوه صاحب عبد الملك بن مروان. وقد صنف يحيى كتابا في فضائل النصرانية. ولم يكن عرضا أن ظهرت عند المرجئة والقدرية في الشام آراء يحيى الدمشقي. وفي هذا الطوفان عادت إلى الظهور الأوضاع القديمة لعالم القديم. وأصبحت فيها للمال قوة عظيمة حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى. وكل شئ صار يعرض من أجل المال وبلغت وصمة حب المال والمكرا لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة.

وفي نهاية المطاف ظهر فريق من الشعراء يحتقرون كل ما هو دينيويجرعون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظيرا في عصر من العصور .

فكان أبو العلاء المعري الشاعر بالشام (ولد ٣٦٣ هـ) وتوفي عام (٤٤٩ هـ) يهاجم كل ما هو ديني مستندا في ذلك إلى وجهة نظر عقلية ومن شعره:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما * ديانتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا * وبادوا وماتت سنة اللؤماء

وقال:

قد ترامت إلى الفساد البرايا * واستوت في الضلالة الأديان (٣)

ثم جاء ابن الراوندي (المتوفى ٢٩٣ هـ) ليقول: إنا نجد في كلام أكنم بنصيفي ما هو أحسن من القرآن (٤)، ويروى عن أبي العلاء المعري أنه عارض

(١) المصدر السابق ٢٥٦ / ١ .

(٢) الحضارة الإسلامية ٦٥ / ٢ .

(٣) المصدر السابق ١٣٧ / ٢ .

(٤) المصدر السابق ١٣٩ / ٢ .

الصفحة ٣٤٧

القرآن بكتاب عنوانه " بالفصول والغايات في محاذاة السور والآيات "، وقد قيل لأبي العلاء: " ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن . فقال: حتى تصقلها لألسن في المحاريب أربعمئة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون (١). " وهكذا تحقق الإخبار بالغيب. تحقق بركوبه الشعر أولا حيث فتح الوليد الأسوار ودخلنصارى الحيرة ليعانقوا نصارى تغلب. وشاع شعر الأديرة ثم شعر الخمور ثم شعر المجون. ثم تم التسلل نحو الكرسي الأكبر بركوبة شعر القبائل وأيام العريوفضائل بني أمية. وعلى ساحة اللارواية نشأ التصوف تحت ضغط المشاكلالسياسية. وفي مواجهة التصوف ظهرت الزندقة وتعاليم المرجئة وغيرها وخلالهذا التطاحن كان النصارى يشرفون على جمع الخراج. ومن أراد الوزارة كانعليه أن يتقرب إليهم (٢)، وتحت شجرة الشوك تكالب الجميع على المال وأعلنشعراء الانحلال والصد الحرب على الدين والقرآن بصورة لم يسبق لها مثيل.

وإذا كان الإمام علي بن أبي طالب قد توعد بني تغلب إن تفرغ لهم فإنه فيهم رأيا وقال: لأقتلن مقاتلهم ولأسبين ذريتهم (٣)، وذلك لتنفيذ وصيةالنبي صلى الله عليه وسلم والخاصة بإخراج المشركين من جزيرة العرب (٤).

فإنه رضي الله عنه كان له رأي في الشعر والشعراء، يقول صاحب تاريخ الأدب العربي: اشتهر الفرزدق بالشعر وهو شاب. فعرضه أبوه على علي بن أبي طالب بعد يوم الجمل قائلاً: إنه شاعر مضر، فأوصاه أمير المؤمنين أن يقرأ القرآن خيراله من الشعر. ويروى أن الفرزدق وضع رجليه في القيد وأقسم لا يفكهما إلا بعد أن يحفظ القرآن. (٥)

(١) المصدر السابق ١٤٠ / ٢.

(٢) المصدر السابق ١٢٧ / ١.

(٣) فتوح البلدان ص ١٨٧.

(٤) البخاري (الصحيح ٢٠٢ / ٢).

(٥) تاريخ الأدب العربي ٢٠٩ / ١، تاريخ الطبري ٢ / ٩٤ - ١٠٨.

الصفحة ٣٤٨

وطيراً لقد أدى عدم الرواية إلى القص ورواية الشعر وكلاهما سنة عربية قديمة وإحياء هذه السنة أدى إلى عودة أوضاع قديمة لعالم قديم وكان ينقص هذا العالم لكي يكتمل خطوة أو خطوتين.

- ٣ إلغاء سهم المؤلف قلوبهم:

قال تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل)، وقد روى زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته. فاتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن اللهم يرض بحكم نبي ولا غيره من الصدقات حتى حم فيها فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك"، رواه أبو داود (١)، وسهم المؤلف قلوبهم قيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيه لجماعة منهم الذين يراد تأليف قلوبهم ليسلموا كسادات العرب وزعمائهم ومنهم للذين أسلموا ونياتهم ضعيفة فتؤلف قلوبهم بإجزال العطاء. ومنهم من يتربص بإعطائهم إسلام نظرائهم من رجالات العرب. ولقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى هذا السهم لأبي سفيان بن حرب وابنه معاوية (٢)، والأقرع بن حابس وعيينة بن حصين، وعباس بن مرداس. وصفوان بن أمية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلف قلوبهم منذ نزلت الآية حتى لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ولم يعهد إلى أحد من بعده بإسقاط هذا السهم إجماعاً من الأمة المسلمة كافة وقولاً واحداً.

وبعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم. جاء عيينة بن حصين والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس. وطلبوا من أبي بكر نصيبهم فكتب لهم

(١) المغني / ابن قدامة ٦٦٥ / ٢.

(٢) إعطائه أبو سفيان راجع مسلم ١٥٦ / ٧ وإعطائه أبو سفيان ومعاوية راجع البداية والنهاية (٣٥٩، ٣٦٠ / ٤).

به. وجاءوا إلى عمر بن الخطاب، وأعطوه الخط، فأبى ومزقه. وقال: هذا شئكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيكموه. تأليفا لكم على الإسلام. وأغنعنكم. فإن ثبتم على الإسلام. وإلا فبيننا وبينكم السيف فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا: الخليفة أنت أم عمر؟ بذلت لنا الخط فمزقه عمر، فقال: هو إن شاء.

وأمضى ما فعله عمر. (١)

يقول ابن قدامة: ولنا كتاب الله وسنة رسوله. فإن الله تعالى سمي المؤلف في الأصناف الذين سمي الصدقة لهم والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء"، وكان النبي صلى الله عليه وآله يعطي المؤلف كثيرا في أخبار مشهورة. ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله إلا بنسخ. والنسخ لا يثبت بالاحتمال. ثم إن النسخ إنما يكون في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لأن النسخ إنما يكون بنص. ولا يكون النص بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وانقراض زمن الوحي.

ثم إن القرآن لا ينسخ إلا القرآن وليس في القرآن نسخ كذلك ولا في السنة.

فكيف يترك الكتاب والسنة بمجرد الآراء والتحكم فكيف يترك به الكتاب والسنة؟ (٢)

واعترضوا عما فعله عمر وقالوا: إن الله سبحانه فرض في أول الإسلام عندما كان المسلمون ضعافا عطاء يعطي لبعض من يخشى شرهم ويرجي خيرهم تألفا لقلوبهم. غير أن الإسلام لما اشتد ساعده وتوطد سلطانه رأى عمر بن الخطاب حرمان المؤلف لقلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن!!

نقول: لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلف يوم إن كان الوحيد دافع عنه أي: كان يعطيهم من موقع القوة. لفتح الطريق بتحطيم الأصنام داخل نفوسهم.

ويصل النور إلى عقولهم فتحتضنه الفطرة. وتحطيم الأصنام له وجوه.

(١) فقه السنة ٤٢٥ / ١، تفسير المنار ١٠ / ٤٩٦، الدر المنثور ٢ / ٢٥٢.

(٢) المغني / ابن قدامة ٦٦٦ / ٢.

فمن قبل حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام ليصل النور إليهم ويقم عليهم الحجة. فكيف يقال والوحي مع رسول الله أن النبي كان يعطي نظرا لضعف المسلمين. وأنهم منعوا لأن معهم آراءهم. ولوقوفهم على أرضية العز وتوطيد السلطان. ثم من الذي قطع بأن السلطان دائم؟ ألم يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والافتراق من

بعده وقال: " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ (١) " ...، قال النووي: إن الإسلام بدأ في أحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا في أحاد وقلة أيضا كما بدأ (٢).
وهب أننا سلمنا وقلنا بما قالوا بأن السهم كان يعطى لضعف المسلمين.

أليس بين أيدينا نص يقول بأن هذا الضعف سيعود. وعلى هذا فلا بد أن يكون إعطاء السهم ممتد. والخاصة: أن النص في إعطائهم مطلق وإطلاقه واضح في كتاب الله، وهذا مما لا خلاف ولا شبهة فيه. وليس لنا أن نعتبر إعطاءهم معلابظروف زمنية مؤقتة هي تألفهم حينما كان الإسلام ضعيفا دون غيره من الأزمنة.

لقد افترضوا في المقدمة أن السلطان دائم وقوي. وها نحن عند النتيجة نرتجف خوفا - حتى قال صاحب المنار: إننا نجد دول الاستعمار الطامعة في استعباد جميع المسلمين وفي ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم همما للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من حظيرة الإسلام. ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول في حمايتهم ومشاقة الدول الإسلامية الواحدة الإسلامية. أفليس المسلمون أولى بهذا منهم؟! (٣)؛ إننا عند النتيجة نخاف من عالم المعونات والمنح والقروض الأجنبية، لأن كل هذا يصب في النهاية في مربع المؤلفة قلوبهم ولكن لصالح دوائر الصد عن سبيل الله.

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن مسعود وأنس والطبراني في الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس. ورواه الترمذي (صحيح مسلم ١٧٧ / ٢) (كنز العمال ٢٢٨ / ١) (جامع الترمذي ١٨ / ٥).
(٢) مسلم بشرح النووي ١٧٧ / ٢.
(٣) فقه السنة ١٧٧ / ٢.

نظرات على الطريق:

إن سهم المؤلفة قلوبهم دليل على إمامة أهل البيت، وبدون قيادتهم لا يمكن للسهم أن يصرف بما يخدم الدعوة. فمن المعلوم أن الاقتراب في الدين والأحوال الدينية من الذين ظلموا بنوع من الاعتماد أو الاتكاء يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال في التأثير وبغيرهما عن الوجهة الخالصة. ولهذا نهى الله تعالى النبي وأُمَّته من الركون إلى من اتسم بسمة الظلم بأن يميلوا إليهم ويعتمدوا على ظلمهم في أمر دينهم أو حياتهم الدينية. قال تعالى: * (ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) (١) * (، وتحديد الذين ظلموا يحتاج إلى صاحبفقه عال فإن قيل أن الأمة قادرة على هذا التحديد. قلنا وعلى رأس هؤلاء يكون من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وفي هذا نصوص. لأن الله ما طهرهم لا للدين والحياة الدينية فهم الأولى بتحديد أي عقبة على طريق الدين.

ومن المعلوم أيضا أن الأمة بها العديد من الدوائر التي هدفها الصد عن سبيل الله. ومنهم الذين أرادوا اغتيال الرسول صلى الله عليه وآله عند عودته من تبوك ووصفهم النبي بأنهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا وذلك

فيحديث صحيح. فالتعامل مع هذه الدوائر تحتاج إلى سياسة خاصة تتألفهم فيالوقت الذي تجعلهم فيه بعيد عن المناصب التي لا يطلعون فيه على الأسرارالمهمة، قال تعالى: * (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكمخبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر(٢) * (أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هم المنافقون (٣)، وقال ابنكثير: نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة (٤) فإن قيل أنالأمة تعرف المنافقين. قلنا: لا نسلم بهذا وإنما نسلم بمن جاء فيه نص.

(١)سورة هود ١١٣.

(٢)سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٣)الدر المنثور ٦٦ / ٢.

(٤)تفسير ابن كثير ٣٩٨ / ١.

الصفحة ٣٥٢

فالذي لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق هو القادر على القيادة وتحديدالذين سيتعامل معهم. ومن هو الذي سيكون قريبا من دائرة القرار ومن هو الذيينبغي أن يكون في موقع بعيد عن الأسرار المهمة للدولة.

إن سهم المؤلفة قلوبهم لم يكن يعطى كي يعتنق البعض الإسلام. فهذاالمنطق في ديار التبشير حيث ينطلق المبشرون بالخبز والدواء في كل مكان كييعتتق الناس النصرانية. أما الإسلام فلا. لأن الآية حددت القلب كدائرة عمل قالتعالى: * (والمؤلفة قلوبهم) *، فالرسول صلى الله عليه وآله يهيئ قلوبهمويجهزها كي تستقبل منه. ومعنى يهيئ قلوبهم أن يحدد المرض الذي علناطريق إلى القلب ثم يجهز له الدواء المناسب. فهناك من كان النبي يتألفهيبوضعه على رأس سرية من السرايا. حتى إن عمرو بن العاص عندما قيل له عندموته: قد كان رسول الله يدينك ويستعملك قال: أما والله ما أدري أحبا كان ذلكأما تألفا يتألفني (١)، ومنهم من كان يتألفهم بمشاورتهم في بعض الأمور. ومنهممن كان يتألفه بالمال عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانه لأبغض الخلف إلي فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الخلقإلي (٢).

إن الرسول صلى الله عليه وآله يحدد الداء الذي في الصدر وعليهيعطي الدواء لكي يقيم الحجة على أفراد بعينهم. أنه صلى الله عليه وآله يهيطم الأصنام التي تحت الجلود كي يجعل أصحابها أحرارا في اتخاذ القرار.

كما حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام من قبل كي يرجع القومإلى أنفسهم ويكونوا أحرارا في اختيارهم " قال بل فعله كبيرهمهذا فاسألوهم إن كان ينطقون. * (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم

(١)أخرجه الإمام أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح وله طرقأخرى (الفتح ٣١٠ / ٢٢)، ورواه ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢٦٣ / ١) وابن أبي شيبة(كنز العمال ٥٤٩ / ١١) وراجع مجمع الزوائد (٣٥٢ / ٩).

(٢)رواه مسلم، ورواه الترمذي (جامع الترمذي ٤٤ / ٣).

الظالمون (١) * (فالإسلام لم يأت بأجولة من الدنياير والدرهم كي يعتتقهاالناس. وإنما جاء بالكلمة والحركة التي تذكر الإنسان بمخزون الفطرة وتجعلهايقراً الوجود من حوله من منطلق التوحيد. وإذا كان الإسلام قد فرض سهماً للمؤلفة قلوبهم لحكمة فإنه طالب أتباعه بأن يجاهدوا في سبيل الله بالمالوالولد. فهو يعطي لهدف ويأخذ لهدف والله غني عن العالمين. وروي أنه يومحين أعطى النبي قريشا ولم يعط الأنصار. فحزن بعض الأنصار لذلك فقال لهمرسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفراًتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكمبرسول الله. فوالله ما تتقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: بلى يا رسول الله قدرضينا فقال لهم: إنكم سترون بعدي آثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسولهعلى الحوض. قال أنس وهو الراوي للحديث: فلم نصبر (٢)فالذين أخذوا المالكان المال لهم دواء من أجل أن ينتصروا على في أنفسهم. وهناك من كانيطلب من النبي أن يعطيه. وعندما رأى أنه انتصر داخل نفسه لم يسأل مالا وتركهليكون سبيلاً إلى آخر. فعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني. ثم سألته فأعطاني ثم قال لي: يا حكيم إن هذا المال خضرحلو. فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يباركفيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيمفقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحد بعدك شيئاً حتى أفارقالدنيا.

وهناك صنف كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم وهو يعلم أن اللهختم على قلوبهم فهم لا يؤمنون. وهؤلاء الذين قال فيهم الله تعالى: * (وسواءعليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (٣) *، وهناك أيضاً الذين قال فيهم

(١)سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

(٢)البخاري ك الجهاد (٢ / ١٩٩) مسلم (٧ / ١٥١) أحمد (الفتح الرباني ٨٩ / ١٤).

(٣)سورة يس: الآية ٦.

تعالى: * (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هو بمؤمنين) (١) * (والرسول صلى الله عليه وآله كان يعطي هؤلاء يكون سهم المؤلفة عليهمعلامة. يكون كالسك وعلى هذا يكونوا معروفين للأمة فتحذرهم وتتعامل معهمبقه عال فلا توليهم المناصب العليا في الدولة حتى لا يصلوا إلى موقع القرار.

ولله تعالى على بعض عبادته علامات. قال سبحانه في كفار أهل الكتاب:

(* وضربت عليهم الذلة والمسكنة) (٢) *، وضربت كضرب السكة على المعدن أو كضرب الخيمة على الإنسان، وسهم المؤلفة على الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين كالسك على المعدن. وليس كل من رآه المسلمين مؤمناً أن يكون بالضرورة مؤمناً فيولونه أمورهم. روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

أعطى قوما كان سعد يجلس فيهم. فترك النبي منهم من لم يعطه. وكان سعد يعجبه بعض الذين لم يعطهم النبي فقال سعد: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أومسما. ثم تكرر هذا الموقف أكثر من مرة وسعد يقول ما قال والنبي يقول: أومسما. ثم قال النبي: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب فيالنار (٣)، وفي هذا الحديث أن سعدا كان يحكم على طرف بأنه مؤمنا وذلكوفقا لما يراه. أما الرسول صلى الله عليه وآله كان يحكم بما لا يراه سعد. وهذا المقياس له بعد النبوة امتداد. لأن الذين يقولون آمنا وهم لا يؤمنون باقونوأيا ساهم المؤلفه باقى لأنه لم ينسخ بقرآن. وعلى هذه الخلفية يمكن أن نفهمقول النبي صلى الله عليه وآله بن أبي طالب: " ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي (٤) "، ويضاف قوله لعلي: " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق(٥) " ، فهذا الامتداد يحفظ الدعوة من

(١)سورة البقرة: الآية ٨.

(٢)سورة البقرة: الآية ٦١.

(٣)رواه مسلم وغيره (صحيح مسلم ١٨٢ / ٢).

(٤)رواه البخاري وغيره (الصحيح ٨٦ / ٣) وسبق تخريجه.

(٥)رواه مسلم وغيره وسبق تخريجه.

الذين ظلموا ويمنع تسلل بطانة السوء إلى المقاعد الأولى. لأن الاقتراب فيالدين أو الحياة الدينية من هذه الدوائر بنوع من الاعتماد والاتكاء يخرج الدين أوالحياة الدينية عن الاستقلال في التأثير.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحقق الامتداد لمصلحة رآها بعض الصحابة يحفظون بها الحياة الدينية. فأمسكوا سهم المؤلفه الذي كانيعطيه النبي صلى الله عليه وسلم للبعض من قريش وغيرهم فقد روي أنهصلى الله عليه وسلم كان يبعث بالمال إلى أبي سفيان ليفرقه في قريشليتألفهم (١)، ولكن رأي الصحابة نشأ عنه آثار جانبية مثل التي تنشأ عن الدواءالذي يستخدم في علاج داء معين ومن جملة هذه الآثار أن أبا سفيان دخل عنعثمان بن عفان بعد أن كف بصره فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا، فقال: ياعثمان إن الأمر أمر عاليه والملك ملك جاهلية فاجعل أوتاد الأرض بنيأمية (٢)، وفي رواية قال: يا معشر بني أمية إن الخلافة صارت في تيم وعديحتى طمعت فيها. وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الصبي للكرة (٣)،وفي مروج الذهب عنه أنه قال: يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فولذي يحلفه أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصرن إلى صبيانكم وراثه (٣)، وروي أنه مرقبر حمزة بن عبد المطلب فضربه برجله وقال: يا أبا عمارة إن الأمر الذياجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا اليوم يتلعبون به.

ومن جملة ذلك أيضا أن معاوية الذي ضاع من على يديه سكة سهمالمؤلفة بعد التضييق على الرواية نازع على الخلافة. وجلس في المقعد الأوليقود الحياة الدينية للأمة!! ومن جملة هذا ظهور المزيد من المنافقين الذينيقرأون القرآن يريدون به ما عند الناس. روي أن الفاروق عمر بن الخطاب خطبالناس فقال: أيها الناس ألا إنما كنا نعرفكم إذ بين ظهرانينا النبي صلى الله عليه

(١)رواه ابن عساكر (كنز العمال ١٧٦ / ٩).

(٢)الأغاني ٦ / ٣٥٥، تهذيب ابن عساكر ٤٠٧ / ٦.

(٣)الأغاني ٦ / ٣٥٥، الإستيعاب ٦٩٠ / ٢.

الصفحة ٣٥٦

وآلهموسلا إذ ينزل الوحي... وإذ ينبأنا الله من أخباركم ألا وإن النبيصلى الله عليه وآله قد انطلق وانقطع الوحي وإنما نعرفكم بما نقول لكممن أظهر منكم خيراظننا به خيرا وأحبنا به عليه. ومن أظهر لنا شرا ظننا به شراوأبغضناه عليه. سرائركم بينكم وبين ريكم ألا أنه قد أتى علي حين وأنا أحسبان من قرأ القرآن يريد الله وما عنده فقد خيل إلي بآخره ألا أن رجالا قد قرأوهيريدون به ما عند الناس فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم (١).

في هذا الخطاب أمضى الفاروق بأن الطريق الذي بدأه بقول: " حسبناكتاب الله " قد أنتج في عهده. من يقرأ القرآن يريد به ما عند الناس. وفيالخطاب يأس من معرفة المنافقين. وفيه أن العمود الفقري الذي تدور عليهاالسياسة " وإنما نعرفكم بما نقول لكم "، وقد أمر رضي الله عنه بما كان يراهلمصلحة المسلمين. ولكن الإشكال في قوله: " من أظهر لنا شرا ظننا به شرا "، لأن المنافق لا يظهر شرا!! وعلى هذا تسلل أغيلمة قريش إلى الكراسي الأولى.

وأمروا الناس بقتل الحسين واستباحة المدينة. وقتل من بقي من الأنصار وحرقالكعبة وجلد المسلمين. وكانوا يعرفون الناس بما يقولون لهم فمن أظهر لهمشرا أطاحوا برقبته وطافوا برأسه. حتى انتهى الأمر إلى ما أخبر به رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم في أمراء السور وبطانتهم. وأغلب الظن أن الصحابة فيالمجتمع المدني بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله تبينوا أن وجود سهمالمؤلفة يحتم وجود طرف آخر تحت ضوئه يظهر النفاق، ونظرا لأن ظروفهاحتمت إبعاد هذا الطرف سيصبح سهم المؤلفة إرثا للذين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعطيهم أو أن قاعدته ستنتسج لتشمل البعض من الذين لم يقطع بنفاقهمأو سيصبح نهيا ويوظف لاتجاهات أخرى الصحابة أجل من أن يخوضوا فيها،وعلى هذا فضلوا الإطاحة بالسهم وهذا العمل وفقا لأعمدة المجتمع المدني عملا غبار عليه ويمكن فهمه.

(١)رواه أحمد وقال في الفتح إسناده حسن وأخرج البخاري الطرف الأول منه (الفتحالرباني ٨٧ / ٢٣) ورواه ابن خزيمة والبيهقي والحاكم وابن سعد وابن عساكر وسعيد بنمنصور (كنز العمال ١٦٣ / ١٦).

رابعاً - الأمراء والفتن

كانت سيرة النبي صلى الله عليه وآله في أمرائه الذين يبعثهم لإنجاز مهمة ما أن يحذرهم بأن معصيته هي معصية الله. وكانوا يعلمون أن الوحييرصدهم تحت جلودهم. وكان صلى الله عليه وآله يحذرهم من اتخاذ أقرار لم يمضه حتى لا تسيل قطرة دم بغير حق. عن معاذ بن جبل قال بعثت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثري.

فرددت فقال: أنتدري لم بعثت إليك؟ لا تصيين شيئاً بغير إذني فإنه غلول ومنيغلل يأت بما غل يوم القيامة، لهذا دعوتك فامض لعملك (١)، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يبرأ إلى الله من أي أمير لا يتقيد بأوامره أو يجتهد في أمر اجتهادليس للإسلام فيه نصيب. روي أنه صلى الله عليه وآله بعث خالد بن الوليدفي بعث إلى بني خزيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا " قالواصبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر. وعندما علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخبر رفع يده وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد -مرتين(٢) - ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر الجنود بأن يطيعوا أمراءهم إذاكان الأمر في حدود المهمة التي أرسلوا إليها وأن يطيعوه إذا اجتهد اجتهادا لايتعارض مع الإسلام. روي أن النبي صلى الله عليه وآله بعث سرية و أمر

(١)ورواه الترمذي. وقال في تحفة الأحوازي أخرجه أبو داود والبيهقي وابن حميد وابنعددي (التحفة ٥٦٥ / ٤).
(٢)رواه البخاري كتاب المغازي ب بعث النبي خالد (الصحيح ٧١ / ٣).

من فيها بأن يطيعوا أميرهم. وعند تنفيذ المهمة غضب الأمير. فقال لمن معه:

أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني. قالوا: بلى، قال:

فاجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوها. فقال: إدخالوها فهموا. وجعل بعضهم يمسك بعضها ويقولون: فررنا إلى النبي من النار (١)، فمزالوا حتى خمدت النار. فسكن غضب الأمير فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو دخلوها ماخرجوا منها إلى يوم القيامة والطاعة في المعروف (٢)، وروي أن عمران بنحصين بعد وفاة النبي كان يذكر بهذا الحديث الأمراء الذين كانوا يتسعملهمزيد (٣).

- أمراء على الطريق:

وكما ذكرنا من قبل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعمل البعض على رأس السرايا تألفاً منهم عمرو بن العاص وقد ولاه أميراً على أبي بكر وعمروأبي عبيدة بن الجراح في غزوة ذات السلاسل (٤)، وكان النبي قد وجهه

إلْبأخوال أْبِيه العاص يستألفهم بذلك و يدعوهم إلى الإسلام (٥)، فلما وصل ابناالعاص إلى أرض السلاسل بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمدهبجيش فأمده بمأئين فيهم شيوخ المهاجرين (٦)، لقد كانت هذه سيرته صلى الله عليه وسلم في تحديد الأمرء وتعيين أهداف الدعوة. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. كانت هناك مقاييس أخرى لهذه العملية. فعلى سبيل

(١) أي آمنا خوفا من النار يوم القيامة ونحن الآن نأمر بالدخول فيها.

(٢) رواه البخاري ك المغازي (الصحيح ٧١ / ٣) وأحمد بإسناد صحيح (الفتح ٤٢ / ٢٣).

(٣) رواه أحمد وفيه " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " وقال الهينمي رجاله رجالالصحيح (الفتح ٤٢ / ٢٣).

(٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٥٢ / ٩) وسعيد بن منصور (كنز العمال ٧٨٢ / ٥) وابن حجر في الإصابة (٢ / ٣) والإستيعاب (٥١٠ / ٢).

(٥) الإستيعاب (٥١٠ / ٢).

(٦) الإستيعاب (٥١٠ / ٢).

المثال خالد بن الوليد الذي تبرأ من صنعة النبي صلى الله عليه وسلم نجدهفي عهد أبو بكر يرتكب مخالفات ليست أقل خطورة مما ارتكب من قبل ولكنفعله توارى وراء تعريف " تأول فأخطأ وله أجر واحد "، وكان الشخص الذييرتكب مخالفة للكتاب أو السنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ويرادالاعتذار عنه أو يصحح عمله يقال له: " تأول " وتطور الاعتذار إلى حد صار إنكل جريمة ترتكب ومن أمثلة ذلك اعتذار ابن حزم عن أبي الغادية قاتل عمار بنياسر من أنه متأول مجتهد فأخطأ فله أجر واحد هذا مع ما تواتر من قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمار أنه تقتله الفئة الباغية.

ومخالفة خالد عندما قتل مالك بن نويرة ثم تزوج امرأته التي وصفها ابنكثير بأنها كانت جميلة (١)، قصة معروفة عند من تأمل كتب السير والنقل.

فمالك بن نويرة كان على صدقات قومه بني يربوع واليا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما بلغه وفاة الرسول صلى الله عليه وسلمأسك عن أخذ الصدقة من قومه حتى يقوم قائم بعد النبي صلى الله عليه وسلم. وروى أهل النقل إن أبا بكر وصى الجيش الذي بعثه ليقاتل مانعيلزكاة. بأن يؤذنوا ويقيموا فإن أذن القوم كأذانهم وإقامتهم كفوا عنهم. وإن لميفعلوا أغاروا عليهم (٢). وعندما تقدم خالد نحو بني يربوع وكان معه أبو قتادتين سراياه وأمر جنوده أن يدعوا القوم وأن يأتوه بكل من لم يجب. فجاءته الخيلبمالك بن نويرة الذي انتهى الأمر بقتله وتزوج خالد زوجته أم تميم بنت المنهال.

وكان أب قتادة الحارث بن ربيعي ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا و صلوا. وحلفأبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد في جيش أبدا .(٢)وركب أبو قتادة فرسهواتجه إلى أبي بكر فأخبره الخبر وقال له: إني نهيت خالدا عن قتله فلم يقبلقولي. وعندما سمع عمر بن الخطاب الخبر قال: إن القصاص قد وجب على

(١)البداية والنهاية ٢٢٢ / ٦.

(٢)الطبري ٢٤٢ / ٣.

(٣)الطبري ٢٤٣ / ٣.

الصفحة ٣٦٠

خالد. وعندما جاء خالد قام إليه عمر فنزع الأسهم عن رأسه فحطمها ثم قال له:

يا عدو نفسه أعدوت على امرئ مسلم فقتلته ثم نزوت على امرأته والللهنرجمنك بأحبارك. وخالد لا يكلمه. ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر مثل رأيه.

حتى دخل إلى أبي بكر واعتذر إليه بعذره وتجاوز عنه. فخرج خالد وعمر جالسفي المسجد فقال: هلم إلي يا ابن أم شملة. فعرف عمر أن أبا بكر قد رضيعنه .(١)وروي أن أبا بكر قال: " ما كنت لأرجمه فإنه تأول فأخطأ " وفي رواية:

"هبه يا عمر تأول فأخطأ " فارفع لسانك عن خالد .(٢)

لقد كانت هذه بداية جاء عليها طوفان من الأمراء فيما بعد. في البداية قامالأمراء بالقتل على الرغم من أن الخليفة وضع شرطا لهذا القتال، وهو الآذانوالإقامة. ونحن لا نناقش هنا الأساس الفقهي الذي استند إليه أبو بكر في قتالمانعي الزكاة. وقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يقبل زكاةثعلبة بن حاطب وقصته مذكورة في سورة التوبة. ونحن لا نناقش الأساس الفقهي في ذلك وقد رأينا عمر نفسه قد اعترض على قتال مانعي الزكاة منذ البدايةواعترض على مخالفات خالد. ولا ندري كيف يقتل مالك على الزكاة وهويصلي. فهل معنى ذلك أن يقتل الذي لا يصلي حتى إذا أخرج الزكاة. وذلكلأن الصلاة والزكاة حزمة واحدة ومعها الشهادتين وحج البيت. ولكننا نناقش هناالأرضية التي جاء عليها الأمراء. لأن منها خرجت فتن وصل دخانها عنانالسماء.

لقد علمنا أنه في عهد النبوة كانت هناك دوائر عديدة هدفها الصد عنسبيل الله. وكان الرسول يدعو على بعضهم ويطردهم ويخبر أصحابه بأسماءالبعض الآخر. وكان عبد الله بن عمرو يكتب بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صحيفة خاصة به. فلما علمت جهات الصد عن السبيل بذلك.

حاولوا أن يحولوا بين عبد الله وبين ما يكتب نظرا لاحتمال ذكرهم فيما يكتب.

روي عن عبد الله أنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه فنهتني قريش. وقالوا: أكتب كل شيء تسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله بشر يتكلم في الغضب والرضا. فأمسكت عن الكتابة. فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فأومئ لي شفتيه وقال: والذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلا حق فاكتب. (١)

لقد كان التدوين عقبة أمامهم. فلما جاء عهد الفاروق وهدد من يروى بالضرب والحبس وذلك لمصلحة للمسلمين لا نستطيع الوقوف عليها. ضاع ذكر القوم. وعندما أقدم الفاروق رضي الله عنه على إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم. تجرد القوم من علامة بارزة تدل على تألفهم لضعف إيمانهم. ومع نسيان أخبارهم مضيعات علامتهم انخرطوا في نسيج واحد مع الأمة دون اتخاذ الأمة لأي نوع من أنواع الحذر والحيطه تجاههم. ولكي تكتمل المأساة كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله. نظرا لاحتمال تسرب حديث من الأحاديث التي ذمهم فيها النبي. وعلى سبيل المثال لقد وصفوا النبي لابن عمرو عندما كان يكتب.

بأن النبي بشر يتكلم في الغضب والرضا. ونجدهم يقولون على لسان الرسول فيما بعد: " اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر. وإني اتخذت عندك عهدا لن تخلفه. فأيا مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها كفارة وقربة تقربها إليك يوم القيامة (٢) "، وهكذا جعلوا النبي مؤذيا سبابا جلادا حتى يفلتوا مماورد فيهم. ورووا عنه أيضا أنه قال: " اللهم فأيا مؤمن سببته أو لعنته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة (٣) "، هكذا جعلوه سبابا ولعانا " هذه الأحاديث يعارضها قوله الله تعالى: * (وا إنك لعلی خلق عظیم) (٤) * (، وقوله تعالى: * (وما

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد أصل في كتابه الحديث عن رسول الله ولم يخرجاه (المستدرک ١٠٥ / ١) ورواه أبو داود حديث رقم ٣٦٤٦.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٥٣ / ١٦) ك البرب من لعنه النبي.

(٣) سورة القلم: الآية ٤.

(٤) سورة النجم: الآية ٣.

ينطق عن الهوى (١) * (، وقوله تعالى: * (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (٢) * (، إلى غير ذلك من الآيات. ويعارضه حديث " لم يكن النبي سبابا ولا فحاشا (٣) "، وإذا كان النبي قد لعن أحدا فإن هذا اللعن بأمر من الله قالتعالى: * (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم

الله ويلعنهم اللاعنون(٤) * (٤)، وقد أمر الله رسوله يوم مباهلةنصارى نجران بأن يأتي بعلي وفاطمة والحسن والحسين وأن يقول للنصارى:

(* ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين(٥) * (٥)، فالرسول لا ينطق إلا بوحى ولكنأجهزة ومؤسسات الصد جعلته يغضب كما يغضب البشر لأسباب يفهمها كلباحث عن الحقيقة.

وبعد أن انخرطوا مع الأمة في نسيج واحد ضاع ذكرهم بعد أن أغلقتالأبواب على الأحاديث التي حذرت منهم. كما ضاع ذكر أهل البيت بعد أنأغلقت نفس الأبواب على الأحاديث التي رغبت فيهم. ورغم ذلك كان فيالساحة طائفة موالية لأهل البيت ولكن في عالم الضلال... وتحت الأضواء كانهناك من يسير بين الأمة وهدف الأمة. كان يود لو أمسك بقائمة كرسي أمام بابمن الأبواب يتسلق عليها إلى كرسي آخر حتى يخرج الحياة الدينية عن مسارهاوتتحول فيما بعد إلى اتجاه يدفع إلى فتن حذر النبي صلى الله عليه وآلهن مقدماتها. ونحن هنا سنلقي بعض الضوء على بعض الأمراء الذين كانت بدايةظهورهم في عهد أبي بكر ثم تدفقت بهم الدولة بعد ذلك على امتداد تاريخها.

أما الذين كانوا على عهد أبي بكر فمنهم رجل يدعي الفجأة. قدم إلى أبي بكرورزم أنه مسلم وسأله أن يجهز معه جيشا يقاتل به أهل الردة. فجهز معه جيشافلما سار جعل لا يمر بمسلم أو مرتد إلا قتله وأخذ ماله. وعندما علم أبو بكر

(١)سورة(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢)رواه البخاري كتاب الآداب (الصحيح ٥٥ / ٤).

(٤)سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٥)سورة آل عمران: الآية ٦١.

الصفحة ٣٦٣

بهذه الأحداث رده ثم أحرقه في النار (١)، ومن قبل رأينا خالد بن الوليد الذيوصفته الأحاديث الصحيحة أنه كان من المبغضين لعلي بن أبي طالب كيف ركبعلى رأس جيش وقتل مالك وأخذ ماله وتزوج زوجته. وتحت شعار حروبالردة برز عمرو بن العاص. وروي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر حين شيععمرو بن العاص: أو تزيد الناس نارا. ألا ترى ما يصنع هذا بالناس! فقال: دعهفإنما ولاه علينا رسول الله لعلمه بالحرب (٢)، وغير هؤلاء كثير شربوا لبن الإمارةصغارا ثم قاتلوا من أجلها كبارا ثم جاء عهد عمر بن الخطاب فاتسعت الرقعة.

ولقد كانت الرقعة في عهد أبي بكر على مسرحها تدور الكثير من حروب الردتوبعض الفتوحات، أما في عهد عمر فعلى مسرحها دارت الفتوحات الكثيرةالواسعة. وبحجم الفتوحات كان حجم الأمراء. ومن هؤلاء الأمراء.

معاوية بن أبي سفيان، الذي أسلم هو وأبيه وأمه يوم الفتح (٣)، وقال لبعض: إنه أسلم بعد الحديبية وكنم إسلامه وهذا يعارضه ما ثبت في الصحيحين سعد بن أبي وقاص أنه قال في العمرة في أشهر الحج. فعلناها وهذا يومئذ كافر (٤)، كان الفاروق لا يخفي إعجابه بمعاوية، روى أنه ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها أنه لمن يضحك في الغضب ولا ينال منه إلا أعلى الرضا ومن يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه (٥)، وكان يقول للناس:

تذكرون كسرى وعندكم معاوية (٦)، ومعاوية بدأ يحب في اتجاه الكرسي بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان الذي كان له كرسي في عهد أبي بكر وعمر عندما مات يزيد. كتب عمر بولاية معاوية مكان أخيه. وعندما ذهب عمر ليعزي أبي سفيان

(١) البداية والنهاية ٢١٩ / ٦.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٥٢ / ٩).

(٣) البداية والنهاية ٢١ / ٨، والإستيعاب ٣٩٥ / ٣.

(٤) الإصابة ١١٣ / ٦.

(٥) رواه الديلمي في سند الفردوس (كنز العمال ٥٨٧ / ١٣)، البداية والنهاية ١٢٥ / ٨، الإستيعاب ٣٩٧ / ٨.

(٦) الطبري ١٨٤ / ٦، الإستيعاب ٣٩٦ / ٣.

الصفحة ٣٦٤

في ابنه يزيد قال له أبو سفيان: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوهم معاوية، فقال أبو سفيان: وصلت رحما يا أمير المؤمنين - وفي رواية - قال أبو سفيان: فمن بعثت على عمله؟ قال عمر: معاوية أخاه! إبنان مصلحان وإنه لا يحل لنا أن ننزع مصلحا. (١)

وبعد أن ركب معاوية على الكرسي جاءته رسالة من أبيه وأخرى من أمه.

قال له أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخيرنا فصاروا قادة وسادة. وصرنا أتباعا وقد لوك جسيما منأمورهم فلا تخالفهم فإنك تجري إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقلك!! وأتت له أمه في رسالتها: والله يا بني إنه قل أن تلد حرة مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت. (٢)

ولقد أخذ معاوية بالنصيحة. روي لما قدم عمر إلى الشام تلقاه معاوية فيموكب عظيم. فلما دنا من عمر قال له: أنت صاحب الموكب. قال: نعم، فقال: هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك لم تفعل ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون عز الإسلام وأهله ويرهبون به فإن أمرتني فعلت وإنهيهتني انتهيت. فقال عمر: يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتني في

مثلثواجب الفرس لئن كان ما قلت حقا إنه لرأي رأيت ولئن كان باطلا إنه لخديعة أديت، قال معاوية: فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت، فقال: لا أمرك ولا أنهاك (٣)!! وروى ابن المبارك عن أسلم مولى عمر قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض الناس وأجملهم فخرج إلى الحج مع عمر فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه. ثم يضع إصبعه على متن معاوية ثم يرفعه ويقول: بخ بخ. نحن إذن خير الناس إن جمع لنا خير الدنيا والآخرة فقال معاوية: يا أمير المؤمنين سأحدثك أنا

(١) ابن سعد اللالكائي في السنة (كنز العمال ٦٠٦ / ١٣)، البداية والنهاية ١١٨ / ٨، الطبري ٦٩ / ٥، الإستيعاب ٥٩٦ / ٣.

(٢) البداية والنهاية ١١٨ / ٨.

(٣) الطبري ١٨٤ / ٦، البداية والنهاية ١٢٥ / ٨.

الصفحة ٣٦٥

بأرض الحمامات والريف والشهوات. قال عمر: ما بك إلا أظافك نفسك بأطيب الطعام وذوي الحاجات وراء الباب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين علمني أمثل. فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها فوجد عمر فيها ريحا كأنه ريح طيب فقال، يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما. فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتي وقومي... فإله إنني قد عرفت الحياء فيه. ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه الذين أحرم فيهما (١)، لقد كان الفاروق يسأل في كل مرة عن ذي الحاجات ولكم ذكراهم كانت تغيب في ردود معاوية. والخالصة أن معاوية كانت في ذاكرته رسائل والديه ففي كل مرة قال: مرني أمثل! علمني أمثل.

وعلاقة معاوية بالكرسي علاقة وطيدة. قال في الإصابة: عاش ابن هند عشرين سنة أميرا وعشرين سنة خليفة (٢)، وقال صاحب الإستيعاب: هو أول من أقام المهرجان. وأول من قتل مسلما صيرا حجرا وأصحابه. وأول من أقام على رأسه حرسا. وأول من قيدت بين يديه النجائب، وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشر مرقاة - ليكون منبره أعلا من منبر رسول الله، وقال: أنا أول الملوك (٣) وأقول هو أول من دق وتد الوراثة في الحكم. وأول من قال بعدالة الصحابة ليدخل تحت هذه العدالة ولا ينتقد أحدا، وأول من رعى القبائلية حتى أثمرت في النهاية ثمرة القومية العربية.

والإسلام ينظر للإنسان كإنسان ولا فرق عنده بين عربي وبين أعجمي إلا بالتقوى. وقال الحسن البصري: أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاه على هذه الأمة بالسيف واستخلافه من بعده ابنه يزيد السكير الذي يلبس الحرير وادعاه زيادا والنبي قال: " الولد للفراس

(١) البداية والنهاية ١٢٥ / ٨.

(٢) الإصابة ١١٣ / ٦، الإستيعاب ٣٩٨ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٤٠٠ / ٣.

الصفحة ٣٦٦

وللعاهر الحجر "، وقتله حجر بن عدي وأصحابه. فيا ويل له من حجر، يا ويله من حجر، يا ويل له من حجر وأصحاب حجر (١) "، وحجر كان من شيعة علي بن أبي طالب. وهكذا كانت البداية والنهاية في مشهد وحركة. والتفاصيل تأتي في موضعها.

• ومنهم (عمرو بن العاص) ولقد كان الفاروق يلوم أبا بكر في توليته عمرو ويقول: " أو تزيد الناس نارا ؟ ولكن بعد أن أجاد عمرو التسلق. كان عمر بن الخطاب إذا نظر إليه يقول: " ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي علنا الأرض إلا أميرا (٢)، ولاء عمر فلسطين والأردن ثم أمره بفتح مصر فلم يزلوا عليها حتى مات عمر بن الخطاب. وأقره عثمان عليها ثم عزله عنها، فجعل يطعن على عثمان، ولما قتل عثمان سار إلى معاوية وخاض معه معاركه ضد الإمام علي بن أبي طالب مقابل أن يعطيه مصر طعمة. ولاء معاوية مصر فلم يزل عليها إلى أن مات بها (٣)، والذي يتأمل في سيرة ابن العاص يجد أن حرصه على الإمارة كان محور الارتكاز لحركته.

• ومنهم (الوليد بن عقبة) ولاء عمر صدقات بني تغلب. وكان يتخذ أبا زيد الشاعر نديما له. وعلى مائدة اللهو شربا الخمر ودقا قواعد شعر الخمريات. وصلاة الوليد بالمسلمين وهو سكران رواها أكثر من واحد (٤)، ومنهم (عبد الله بن أبي السرح) الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله حتى ولو كان متعلقا بأستار الكعبة. ولاء عمر بعض أعماله وكان من المقربين إليه (٥)، وكان لعبد الله في عهد عثمان عيونه على بيت المال ومن أجل المال فرض الضرائب على أهل مصر وجلد ظهورهم فجاءوا يشكونه إلى عثمان. وكان

(١) الطبري ١٥٧ / ٦، ابن الأثير ١٩٣ / ٣، ابن أبي الحديد ٤٥٦ / ١.

(٢) الإصابة ٢ / ٥.

(٣) الإستيعاب ٥١١ / ٢.

(٤) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٥) الطبري ٥٩ / ٥، البداية والنهاية ٢١٤ / ٨.

الصفحة ٣٦٧

ما كان حتى قتل عثمان. ومنهم (المغيرة بن شعبة) قال: أنا أول من رشا في الإسلام. أعطيت حاجب عمر بن الخطاب عمامة فكان يأنس بي ويأذن لي أنأجلس داخل باب عمر. فيمر الناس فيقولون: إن للمغيرة عند عمر منزلة إنهل يدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد (١) واستعمله عمر على البحرين فكرهوه وشكوا منه فعزل له ثم ولاء البصرة. فاتهموه بالزنا فعزله، ثم ولاء الكوفة بعد ذلك (٢)، وهكذا من كرسي إلى كرسي. والمغيرة أول من وضع في

فوقني أمية الحكم بالوراثة. وسبب ذلك أن معاوية عزم على عزله من منصبه فأشارا إليه بتنصيب ابنه يزيد من بعده. وهو يضمن له أصوات الشيوخ في ولايته. فثبتهم معاوية وساقوا الشيوخ وتمت الوراثة. وكان جابر يقول: صحبت المغيرة بنشعبة. فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من بابها إلا بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها (٣)، وعن الشعبي قال: دهاة العرب أربعة: معاوية وعمرو بنالعاص والمغيرة بن شعبة وزيايد. فأما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير والصغير (٤).

• ومنهم (أبو الأعور السلمي) (أدرك الجاهلية وشهد حيننا مشركا (٥)، لعنه النبي صلى الله عليه وسلم (٦) وكان أمير المؤمنين علي يدعو عليه (٧)، وعن محمد ابن حبيب قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الآفاق أن يبعثوا إليه من كل عمل رجلا من صالحها فبعثوا إليه أربعة من البصرة والكوفة والشامومصر. فاتفق أن الأربعة من بني سليم وهو الحجاج بن علاط وزيد بن الأخنسومجاشع بن مسعود وأبو الأعور. فجعل عمر السلمي على مقدمة

(١) الإصابة ٤٥٣ / ٣.

(٢) البداية والنهاية ٤٨ / ٨.

(٣) البداية والنهاية ٤٩ / ٨، الإصابة ٤٥٣ / ٣.

(٤) ابن عساكر (تاريخ الخلفاء ص ١٩٠)، الإستيعاب ٣٨٩ / ٣.

(٥) الإصابة ٥٤٠ / ٢، أسد الغابة ١٦ / ٦.

(٦) أبو نعيم (كنز العمال ٨٢ / ٨).

(٧) ابن أبي شعبة (كنز العمال ٨٢ / ٨).

الصفحة ٣٦٨

جيش (١)، وظل هكذا حتى عهد معاوية، وكان من أشد المبغضين لعلي بن أبيطالب.

• ومنهم (يعلى ابن منبه) استعمله أبو بكر على بلاد حلوان في الردقوعمل لعمر على بعض بلاد اليمن (٢) وكان عظيم الشأن عند عثمان. وهو الذياغان الزبير بأربعمئة ألف واشترى لعائشة جمل يقال له عسكر وجهز سبعينرجلا من قريش (٣)، وكل هذا لملاقاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يومالجمل. وكان يقول: من خرج يطلب يوم بدم عثمان فعلى جهازه (٤).

• ومنهم (بسر بن أرطاة) كان أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددالعمر بن العاص في فتح مصر. كان الكرسي هدفه، ومن أجله ارتكب أبشعالجرائم في الإسلام فيما نقله أهل الأخبار وأهل الحديث. منها ذبحه ابنيعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدي أمهما. وإغارته علىهمدان، وسبي نساء المسلمين فكن أول نساء سبين في السلام، وقتله أحياء منبني سعد (٥).

لقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أمراء ومن طريق تكون الإماراتفيه ندامة يوم القيامة. والأمراء الذين ذكرناهم لم يأتوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقرن من الزمان. وإنما جاءوا سريعا وشقوا طريقهم لأن

السياسة لم تكتشفهم ولأن الاجتهاد مهد لهم - ولم يكن هؤلاء فقط في بستان الصدر الأول وإنما كان هناك آخرون دخلوا عن عنوان أعلنه عمر بن الخطاب قال فيه:

نستعين بقوة المنافق وإثمه عليه (٦)، وقال ابن حجر في فتح الباري: والذي

(١) الإصابة ٥٤١ / ٢.

(٢) الإستيعاب ٦٦٢ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٦٦٤ / ٣.

(٤) الإستيعاب ٦٦٣ / ٣.

(٥) الإستيعاب ١٥٥، ١٥٧ / ١.

(٦) رواه ابن أبي شيبة والبيهقي (كنز العمال ٦١٤ / ٤).

الصفحة ٣٦٩

يظهر من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمرهم في البلاد أنه كان لا يراعي لأفضل في الدين فقط بل يضم إليه الذي عنده مزيد من المعرفة بالسياسة فلأجل ذلك استخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل منهم في أمر الدين والعلم. (١)

لقد كان الطريق مفتوحاً. فدخل منه رجال بكل هدوء ويسر منهم (إياس بنصيب) قال صاحب الإصابة: كان من أصحاب مسيلمة الكذاب ثم أسلم وولاه عمر القضاء في البصرة (٢)، ومنهم (طليحة بن خويلد) الذي ادعى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وآله. أعجب عمر لكلامه ورضي عنه وكتب له بالوصاية إلى الأمراء أن يشاور (٣)، وفي رواية: كتب عمر إلى النعمان بن مقرن استشر واستعن في حرك بطلحة وعمرو بن معد يكرب ولا تولهما (٤)، ومنهم (ابن عدي الكلبي) قال لعمر: أنا امرؤ نصراني. قال عمر: فما تريد. قال: أريد الإسلام. فعرضه عليه فقبله. ثم دعا له برمح ففقد له على أمن أسلم. قال عفوف بن خارجة: ما رأيت رجلاً لم يصل صلاة أمر على جماعة من المسلمين قبله (٥)، ومنهم (أبو زبيد الشاعر) كان عند أخواله من بني تغلب بالجزيرة، وبعد أن فتحها الوليد بن عقبة في خلافة عمر استعمل عمر أبا زبيد على صدقات قومهم يستعمل نصرانيا غيره (٦)، ومنهم (كعب الأحمري) تولى عملية القس في المساجد ثم انتقل إلى الشام فجعل للقس أوتاد اتخذها القوم سنة فيما بعد. (٧)

ولقد كانت هناك اعتراضات على عمر بن الخطاب في توليته بعض الناس.

روي أنه لما ولي معاوية الشام قال الناس: ولي معاوية فقال لهم: لا تذكروا

(١) فتح الباري كتاب الأحكام ١٩٨ / ١٣.

(٢) الإصابة ١٢٠ / ١.

(٣) البداية والنهاية ١٣٠ / ٧.

(٤) الإستيعاب ٢٣٨ / ٣.

(٥) الإصابة ١١٦ / ١.

(٦) الإستيعاب ٨٠ / ٤.

(٧) الإصابة ٣١٦ / ٣.

الصفحة ٣٧٠

معاوية إلا بخير فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أهده (١).

ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو لأمته كلها بالهداية. ومن العجيب أن حديث " اللهم أهده " حديث ضعيف إلا أن ابن كثير دافع عنه والتمس لا الأعداء. وهذا الموقف لا نجده إذا كان يتعلق بحديث صحيح لمعسكر غير معسكر معاوية. ومن الذين اعترضوا على عملية التوظيف هذه حذيفة رضي الله عنه. قال لعمر: إنك تستعين بالرجل الفاجر. فقال عمر:

إني لأستعمله لأستعين بقوته ثم أكون على قفائه (٢)، وكما ذكرنا من قبل إن الله نهى عن إتخاذ بطانة ينتهي طريقها بخروج الحياة الدينية ودخول حياة أخرجت أي اسم آخر. والنبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل أحدا وصاهو كان يتبرأ من أي عمل لا يصيب في وعاء الدين والحياة الدينية، وكان وراء ذلك كله الوحي. وبعد رحيل النبي صلى الله عليه وسلم كانت للحياة الدينية سياسة وهذه السياسة يمكن للباحث أن يكتشفها بسهولة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلقد قيل له أن يبقى على الأمر في أول عهده حتى يستتب الأمر. لكنه أبي إلا أن يعزلهم. لأنه علم من النبي صلى الله عليه وسلم نهاية الطريق الذي يركبه هؤلاء الأمرء. وما دام الطريق لا يصب في المصباح الصحيح فلا بديل لخلعهم. ما هي الفائدة التي ستعود على الدعوة من دهاء معاوية وعمرو والمغيرة؟ وما هي الفائدة التي ستعود على الدعوة من عضلات أبو الأعور وبسر بن أرطأة؟ وما هي الفائدة التي ستعود على الدعوة من وراء كعب الأبحار وأبي زييد وتلميذ مسيلمة الكذاب وطلحة بن خويلد؟ قلت الدعوات أقل ما هي الفائدة التي ستعود على المسلمين. ثم ما هي النتيجة ليس بعد ألف عام. ولكن في القرن الأول فقط.

ولقد اتسعت الدائرة بعد ذلك في عهد عثمان بن عفان فمن الذين ذكرناهم

(١) البداية والنهاية ١٢٢ / ٨.

(٢) قفائه: مؤخر العنق والحديث رواه أبو عبيد (كنز العمال ٧٧١ / ٥).

الصفحة ٣٧١

ممن اتسع نفوذهم عما كان عليه في عهد أبي بكر وعمر وزاد عثمان القائمة بأخريين منهم:

(• الحكم بن أبي العاص (كان من مسلمة الفتح وأخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة وطرده منها ولعنه وورد في لعنه أحاديث صحيحة. أعاد عثمان في خلافته. وكان من الأسباب التي نقمها الناس على عثمان. ومنهم

(مروان بن الحكم) قيل: كان مع أبيه عندما طرده رسول الله صلى الله عليه وآله. وقيل: أن مروان ولد بالطائف فلم يزل مع أبيه بالطائف إلى أن ولي عثمان. روي أن عائشة قالت لمروان: أما أنت يا مروان فاشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أباك وأنت في صلبه (١)، وكان مروان من أسباب قتل عثمان (٢)، وقال الذهبي وابن عبد البر وغيرهما:

مروان أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة (٣)، وهذا الذي لعنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشق عصا المسلمين. تولى الخلافة وأخذ لقب " أمير المؤمنين".

وهكذا وكما ترى فقد كان الكرسي هو مركز الصراع. هناك من يخاف عليه. وهناك من يعمل كي يمتلكه. وهذا الإشكال لا يذبيبه إلا نص. فتحتال نص يكون لا خلاف ولا اختلاف ولا افتراق ولا صراع. لأن الله تعالى كتب على هداية الناس وفتح الطريق أمامهم. فإن ضلوا الطريق لا تكون لهم على اللهجة يوم القيامة. وكتب الله تعالى على نفسه أن من يختار لنفسه معجزة فلا يستطيع أن يتعدى عائق من العوائق حتى يعود إليه. ومن العوائق من يرتدي الحرير ويتحلى بالذهب والفضة. ولكن حقيقة البريق ترى بعد زمان ليس بطويل. فعندئذ تسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية. ولا يكون هناك ملجأ من اللها إلا إليه. إن عالم الفتن. عالم يضرب بقفاز من حرير الذين نسوا ما ذكروا به

(١) الإستيعاب ٣١٨ / ١.

(٢) الإصابة ١٥٧ / ٢.

(٣) شذرات الذهب / ابن العماد ٦٩ / ١.

الصفحة ٣٧٢

ويستدرج هؤلاء وهؤلاء إلى طريق ليس فيه إلا طعام وشراب اليأس وهناك يموتون كما تموت الحيتان.

٢ - الأمراء والفتوحات:

إن الجندية في الإسلام لها هدف فرما يؤيد الله المسلمين بالرجل الفاجر بمعنى أن يساعدهم بقوته في القتال أو غير ذلك من أمور الحرب، أما أن يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر فلا معنى لذلك، لأن الدين سلوك. وطريقة خاصة في الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق بكمال الأخروي. والدين كطريق لا ينجو الإنسان من السلوك فيه إلا باستقامة، وعدم الاستقامة توجب السقوط والهلاك.

وهذا لا يتفق مع الفاجر والفاسق والمنافق. كما أن السعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان، أو يعمل في الوصول إليها عندما يكون مؤمناً بالله. وكافراً بالطاغوت.

وهذا لا يتفق أيضا مع أصحاب المصالح والأهواء والقتال في الإسلام به قوانينورما يقاثل إنسان ما تحت شعار الإسلام ولكن لا ينفعه الشعار إذا قتل: قالرسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قتل تحت راية عمية ينصر العصبيةويغضب للعصبية فقتلته جاهلية .(١) " وزاد في رواية: " ومن خرج على أمتيضررب برها وفاجرها لا يتحاشى لمؤمنها ولا يفي لذي عهدا فليس مني ولستمه .(٢) " وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟

فقال: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله .(٣)

ومعارك الإسلام تحدها الدعوة ولا يحددها طلاب المال أو الغنائم. فاللهتعالى هو الذي كتب القتال والدعوة التي كتب فيها القتال هي التي تحدد موضع

(١)رواه مسلم (كنز العمال ٥٠٩ / ٣).

(٢)رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ٥٢ / ٢٣).

(٣)رواه البخاري (الصحيح ٣٦ / ١) ومسلم (الصحيح ٤٩ / ١٣) وأحمد (الفتح ٢٠ / ١٣)والترمذي (الجامع ١٧٩ / ٤).

الصفحة ٣٧٣

كل قطرة دم، ومعارك الإسلام في المقام الأول هي معارك لله وفي الله وبالله. قالتعالى: (سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * وهوالذي أخرج الذين كفوا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أنيخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبواوقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أوليالأبصار .(١) (فبقوة الله وسلطانه أجرى سبحانه ما أراد به بأيدي أعدائه، حيثخربوا بيوتهم بأيديهم من الرعب وأبي المؤمنين الذين أمرهم بذلك ووقفهملامثال أمره وانفذ إرادته. وكما حدد الله تعالى موضع كل قطرة دم في معاركالإسلام حدد سبحانه موضع كل مال من غنائم الحرب. فقال تعالى: (واعلمواإنما غنمتم من شئ فإن الله خمس له وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكينوابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان(٢))، وقال:

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامىوالمساكين وابن السبيل لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوهوما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب(٣))، فإله تعالى في الآيةالأولى بين موضع الخمس ويفهم من الآية أن أربعة أخماسها للغانمين .(٤)وفيا الآية الثانية أفاء سبحانه الفئ وأرجعه إلى النبي صلى الله عليه وآله ودلهعلى موارد صرفها التي يتصرف فيها كيف يشاء. وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسم فئ بني النضير على المهاجرين وأعطى بعض الأنصار.

وعلى امتداد العهد النبوي كانت الدعوة تستعمل أدوات الفطرة وهي تشق طريقها إلى الفطرة، ومن الثابت أن الحكم الإسلامي عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يشمل إلا شبه الجزيرة العربية، وكانت الدعوة حريصة على إزالة العقبات التي تهدد الفطرة في هذه المنطقة بعد أن رفض رؤوس الكفر

(١) سورة الحشر: الآية ١ - ٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) المغني / ابن قدامة ٧١٨ / ٢.

الصفحة ٣٧٤

من أهل الكتاب الإيمان الحق. وعندما أخبر الله تعالى رسوله بأن هذه الأنماط البشرية لن تؤمن وأنهم يسعون في الأرض فسادا ويسارعون فيه، كانت عملية إجلائهم عملية تستقيم تماما مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وعملية الإجلاء نسبها الله تعالى إلى نفسه فقال: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب...)، فالله سبحانه هو الذي أخرج بني النضير من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب، وأي إخراج لهم في العهد النبوي يقف تحت هلاله. إن الدعوة لم تضاعف عليهم الجزية وإنما أخرجتهم لأن في الإخراج انتصارا للفطرة، وتأمينا للعاصمة من مخاطر الاختراق والدسائس التي يجيدها الذين يسعون في الأرض فسادا.

والدعوة التي حصنت نفسها بالتطهير من الداخل، عملت من أجل إيجاد المسلم الرسالي الذي إذا وضع قدميه على أرض جديدة في الجزيرة العربية أخرجها. عمل من أجل نشر مفاهيم الدعوة، وكلما جد جديد خرجت الطوائف الرسالية إلى العاصمة ليتحققوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لأنفسهم وينشروه بين الأقاليم إذا رجعوا إليهم. وعلى ذلك كان تقسيم الأراضي لعدنان الغنمين هو في الحقيقة موطئ قدم لداعية.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت الذاكرة عند المسلمين تحتوي على وصايا منها إخراج المشركين من جزيرة العرب، ولكي الدولة نظر الظروف خارجة عن إرادتها، ونظرا للمصلحة العامة ضاعفت الجزية على نصارى بني تغلب، كما سمحت بدخول سبي العجم إلى المدينة، وكان أول سبي دخلها في عهد أبي بكر ثم بعث معاوية أبي عمر في عهده بعدة ألوف من سبي قيسارية.

وكان عمر نفسه ضحية من ضحايا السبي، حيث إن الذي طعنه كان غلاما مجوسيا. ومع حركة الفتوحات هبت رياح تحمل آثارا وبصمات كان يعتقد أنها ذهبت بلا رجعة.

- ٣ رحلة الخراج:

مع الفتوحات جاء حرص الدولة على تدبير المال اللازم لحماية الحدود،

فضلا عن تدبير مصدر للإيرادات تستطيع منه سداد رواتب العاملين وغير ذلك منالنفقات الملقاة على عاتقها. وإذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن سهم ذي القربوسهم المؤلفة قلوبهم بأن الدولة تصرفت فيهما وفقا للمصلحة العامة، فإنناستحدث هنا عن الأخماس الأربعة التي فرضها الله للغانمين، وقد رأت الدولةالتصرف فيها وفقا للمصلحة العامة أيضا. فلقد رأى عمر بن الخطاب أنالمصلحة تقتضي عدم تقسيم الأرض على الغانمين وإبقائها في أيدي أهلها، وفرض شئ عليها يؤدى سنويا إلى بيت المال. وما أن اتخذ عمر قراره حتنانقسم المسلمون إلى فريقين فريق ينادي بقسمة الأرض بين الفاتحين، وفريق آخريقول بقول عمر. وكان عمر يرد على المعارضين بقوله: " هذا رأيي (١) "، ورويان بلال بن رباح وذويه قال لعمر في الأرض التي افتتحوها عنوة: اقسما بينناوخذ خمسها، فقال عمر: لا هنا عين المال ولكني أحبسه فيئا يجري عليهمعلى المسلمين. قال بلال وأصحابه: إقسما بيننا. فقال عمر: اللهم اكفنيبالا وذويه. قيل: فما حال الحول ومنهم عين تطرف.(!) (٢)

وعدم تقسيم عمر الأرض على الفاتحين مشهور، يقول ابن قدامة: إن عمرلم يقسم الأرض التي افتتحها. وتركها لتكون مادة لأخبار المسلمين... وقدنقلنا بعض ذلك وهو مشهور تغني شهرته عن نقله(٣) " ، وما قاله الفقهاء في إلغاءسهم المؤلفة قلوبهم قالوه هنا أيضا. قالوا: إن قسمة النبي صلى الله عليه وآلهوسلم خير كانت في بدء الإسلام وشدة الحاجة! فكانت المصلحة فيه. وقدتعينت المصلحة فيما بعد ذلك في وقف الأرض فكان ذلك هو الواجب (٤) والذي رآه عمر رضي الله عنه من الامتناع عن قسمة الأرض على من افتتحها من

(١) الخراج / أبو يوسف ص ٢٤.

(٢) المغني / ابن قدامة ٧١٦ / ٢.

(٣) المغني / ٧٢٢ / ٢.

(٤) المغني ٧١٨ / ٢.

الغزاة عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك!! توفيقا من الله كان له فيماصنع وفيه كانت الخيرة للمسلمين (١).

وفتح بيت المال لاستقبال الخراج، وانطلق الأمراء الذين وقع اختيار أبيبكر وعمر عليهم من أجل أن يفتحوا البلاد. ولم تمض سنتان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله حتى اتسعت الفتوحات بسرعة هائلة، فاستولناالمسلمون على أراضي كلدة والحيرة التي سميت فيما بعد بالعراق. ثم جاءتموقعة اليرموك لتفتح أبواب الشام، ويفتح المسلمون دمشق وأنطاكية وبيتالمقدس. ثم تحولوا إلى الشرق ففوضوا على الدولة الساسانية وحكموا إيران، ثماستولوا على

أفغانستان ووصلوا إلى حدود نهر السند. ثم تحولوا إلى المغرب، وفتحوا مصر وعموم شمال إفريقيا، ووصل المسلمون إلى سواحل المحيط الأطلسي. ثم حملوا عن طريق ميناء طنجة على إسبانيا واستولوا على طليطلة. وبالجملة: أصبحت الدولة الإسلامية تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي في المغرب إلى نهر السند في الشرق، ومن بحر مازندران في الشمال إلى منابع النيل في الجنوب.

ونشر الدعوة عمل فطري، ومن الثابت أن المخلصين لم تخل منهم ساحة على امتداد الفتوحات. فكما كان في الصفوف طلاب المال والجاه كان فيها أيضا دعاة الحق وابتغاء مرضاة الله ولكن التيار العام لم يكن مع هذا الصنف الرسالي في معظم الأحيان. ولهذا نجد أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحذر من التيار العام وذلك لشدة وسرعة فقال: إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمرنا الله، قال النبي: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسد ثم تتدابرون ثم تتباغضون. (٢)

والتنافس إلى الشئ المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه. وهو أول درجات الحسد. وأما الحسد فهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها. وأما التدابر

(١) الخراج / ابن يوسف ص ٢٧.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٩٦ / ١٨) ك الزهد.

الصفحة ٣٧٧

فهو التقاطع. وأما التباغض فهو بعد التدابر. (١) وهذا الطوفان من الكراهية مفتاحه إذا فتحت عليهم فارس والروم!!، وقال صلى الله عليه وآله أصحابه: كيف أنتم بعدي إذا شبعتم من خبز البر والزبيب وأكلتم ألوان الطعام وليستم ألوان الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذلك؟ قالوا: ذلك، فقال: بل أنتم اليوم خير. (٢) وقال صلى الله عليه وآله: فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم. (٣)

فهل وقع الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإذا كان قد وقع فما هي الأسباب وعلى أيدي من جرت؟ إن الذي جرى كان أمراء السوء مفتاحه وفقهاء السوء أقلامه. ولا يستطيع باحث أن ينكر أن معاوية بن أبي سفيان دعا ستغل الخراج إلى أبعد مدى لشراء الذمم وسفك دماء المسلمين، وإن عمرو بن العاص ساند معاوية لهدف واحد هو كطعمة بعد أن ذاق خراجها في عهد الفاروق، وأن يعلى بن منية استعمال الخراج في تقوية عائشة والزبير لخوض معركتهم مع علي بن أبي طالب. وغير ذلك وعلى امتداد التاريخ كان الخراج مادة الأمراء في تثوير الناس، كان الخراج رشوة تحمل شعارا إسلاميا الإسلام منه برئ. والنبي صلى الله عليه وآله يحذر من هذه الرشوة التي علم من ربه أنها كائنة على طريق أمراء السوء، فقال في خطبة الوداع: يا أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا

تجاحت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه .(٤) وفي رواية: " خذوا العطاء ما دامعطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه، ولا أراكم تفعلون يحملكم على ذلكالفقر والحاجة، ألا إن رحى بني مرج قد دارت وإن رحى الإسلام دائرة وإن

(١) النووي شرح مسلم (٩٧ / ١٨).

(٢) رواه البيهقي وابن عساكر (كنز العمال ٢١٦ / ٢).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٩٥ / ١٨) كتاب الزهد.

(٤) رواه أبو داود حديث رقم ٣٩٥٨.

الصفحة ٣٧٨

الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار، وستكون عليكم أئمة إن أطمعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف صنع يارسل الله؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت في طاعة خير من حياة في معصية .(١)

قال في عون المعبود: خذوا العطاء ما كان محلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه، فإذا (تجاحت) أي تنازعت قريش على الملك، أي تخاصموا وتقاتلوا عليه، وقال كل واحد منهم أنا أحق بالملك أو بالخلافة منك وتنازعوا في ذلكفاتركوا أخذه .(٢) وفيما سبق علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر منتيار يدق أوتاد التنافس والتحاسد والتدابير والتباغض، وكان يعلم أن هذا واقعه على الأمة لا محالة لسوء اختيارها، وأن نهاية الطريق بعد فتح فارس والرومستصب في محطة البغي، فقال صلى الله عليه وسلم: " سيصيب أمتي داء الأُم الأشر والبطر والتكاثر والتشاحن في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكونالبغي .(٣) " وتحديد محطة البغي لا ينبغي أن تحددها الأهواء. ولهذا عين النبيصلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر وقال له في حديث أجمعت الأمة علىصحته: " تقتلك الفئة الباغية " فمحطة عمار هي المحطة الأم لمن أراد أن يفهمالحديث السابق. أما تحديد محطات أخرى صغيرة بمعرفة هذا أو ذلك فأمر لايلتفت إليه.

لقد كانت الفتوحات مطلب فطري، ولكن أمراء السوء حولوها إلى مطلبتجاري. ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيادة تركب أعناقالأمة فقال: " كأنكم براكب قد أتاكم فنزل فقال: الأرض أرضنا والفيئ فيؤناوإنما أنتم عبيدنا فحال بين الأرامل واليتامى وما أفاء الله

(١) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ٢١٦ / ١)، الطبراني عن معاذ (كنز ٢١١ / ١).

(٢) عدن المعبود ١٧٣ / ٨.

(٣) رواه الحاكم (كنز العمال ٥٢٦ / ٢).

الصفحة ٣٧٩

عليهم (١)، صلى الله عليك يا رسول الله! فكم من راكب قد جاء. منهم معاوية بن أبي سفيان الذي وضع أميراً في الحبس لأنه طالب بتوزيع الغنائم على كتاب الله. روي أن الحكم بن عمرو قام بغزو جبل الأشل فغنم شيئاً كثيراً فجاءه كتاب على لسان معاوية فيه: أن يصطفي لمعاوية ما في الغنيمة من الذهب والفضة لبيت ماله فرد الأمير: إن كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، أولم يسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم لا طاعة لمخلوق في معصية الله. ثم قسماً لأمير في الناس غنائمهم. فحبسه معاوية وروي أنه مات في الحبس (٢)، ومنهم: مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل لمروان في زمن معاوية: الفئ مال الله وقد وضعه عمر بن الخطاب مواضعه. فقال:

الفئ مال أمير المؤمنين معاوية يقسمه فيمن شاء. (٣) ورد مقولة مروان من بعده عشرات الألوف في عالم التحاسد والتدابير والتباغض. وكل ذلك من أجل العجل الذي في بيت المال قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لكل أمة عجل يعبدونه وعجل أممي الدرهم والدينار (٤) " ، وقال: " إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال (٥) " ، وقال: " إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم. (٦) "

وعن رحلة الخراج يقول الدكتور محمود لاشين: ظلت الدولة تقوم بدورها في تحصيل الخراج... وذلك حتى منتصف القرن الخامس الهجري حيث حدث تطور خطير كان له أكبر الأثر في إضعاف الدولة، وذلك أنها تخلت عن دورها في جباية وتحصيل الخراج وتلى ذلك تخليها عن تحصيل كثير من الإيرادات العامة، وتركت ذلك للجنود وقادتهم وكل من له حق قبل الدولة كراتب أو غير

(١) رواه ابن النجار عن حذيفة (كنز العمال ١٩٥ / ١١).

(٢) البداية والنهاية ٥١ / ٨.

(٣) الإصابة ٣٠٢ / ١.

(٤) رواه الديلمي عن حذيفة (كنز ٢٢٣ / ٣).

(٥) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٦٩ / ٤).

(٦) رواه أبو داود والطبراني والبيهقي (كنز ١٩١ / ٣).

ذلك ليتولى تحصيل هذه الإيرادات مباشرة من الممولين ويستولي عليها سداد الراتبه أو حقه أو غير ذلك، وظهر على ذلك ما عرف بإقطاع الاستغلال... وقد ترتب على ذلك حدوث اضطرابات داخلية نتيجة للظلم والتعسف في جمع هذا الأموال (١). ويقول الحافظ أبي بكر بن محمد: آل الحال إلى أن استأثر كثير من الناس بأموال بيت المال من غير قيام بمصلحة ولا اتصاف بصفة استحقاق (٢).

وقد رأى نظام الملك (عام ٤٨٦ هـ) أن يفرق الإقطاعات على الجند ولم يكن هذا من عادة الخلفاء من لدن عمر بن الخطاب، وأراد نظام الملك بذلك أن كل من أقطع قرية يعتني بعمارتها وتوفير غلتها. ثم تغيرت الأحوال واختلف النظام.

وصارت الولاية وأتباعهم من الأجناد يجاهدون في الرعايا من المسلمين وغيرهم بسلب أموالهم وتعذيبهم، ومن وقف أمام ظلمهم رموه بالعصيان أو سموه بالبغي والعدوان واستباحوا قتاله واغتنام ماله. وأصل هذا الفساد بل كل فساد فيالدين من ولاية الجور وقضاة الرشا وفقهاء السوء وصوفية الرجس، كما قال عبد الله بن المبارك: أو هل أفسد الدين إلا الملوك وأحباء السوء ورهبانها، فإن الولاية لما فسدوا وامتدت أطماعهم إلى أن أخذوا أموال الناس، واستأثروا بأموال الصالح واعتقدوها مملوكة لهم، تعدى الفساد إلى القضاة والفقهاء وأرباب المناصب بل إلى الكافة، وتقلد الأمانات الخونة فباعوا الدين بالدنيا، وعلم الأتباع منهم أنهم قد خانوا الله. وقالوا: ما لنا لا نخون، وقد روى ابن عبد ربه أن مروان بن الحكم أرسل وكيلا إلى قرية له فيالغوبة ثم حضر إليه في بعض الأيام فقال له مروان: يا هذا أظن أنك تخونني في ضيعتي. فقال له: أو تظن ذلك ولم تستيقنه؟ والله إني أخونك وأنت تخون أمير المؤمنين وأمير المؤمنين يخون الله، فلعن الله أشر الثلاثة. (٣) ثم زاد الفساد

(١) الفاروق عمر والخراج ص ٣٢، ٤٠.

(٢) تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال / الحافظ أبي بكر بن محمد البلاطلسي ص ٨٩.

(٣) العقد الفريد / ابن عبد ربه ٣٧ / ١.

الصفحة ٣٨١

بتصرف الأجناد وغيرهم في الإقطاعات تصرف الملاك بالبيع والشراء، وأمضلهم الولاية ذلك، واشترك في هذا الأمر الخاص والعام، ومن يصلح للجهاد ومنم يصلح، ومن يستحق في بيت المال ومن لا يستحق. ثم اشتد حرص الولاة وأركان الدولة على جمع الأموال وأخذ الرشا، وركزوا في الأمور فاغتمت الجهاد ذلك منهم وأرضوهم بسخط الله، ووثب كل فريق. واستأثر بما تصل إليه قدرته من أموال بيت المال وغيرها، وكثر التنافس والتنافس في ذلك حتى آلالحال إلى أن حولوا كثيرا من الجهات المختصة ببيت المال إلى الملك والوقف والرزق المؤبد، وجعلوا ذلك وسيلة إلى حوز الدنيا لهم ولذرائعهم من بعدهم، واستتبطنوا في ذلك أنواعا من الحيل يخدعون بها الخلق (١)، كانت هذه شهادت لمؤرخ يصف فيها ما حدث في عصره وغير عصره.

ويقول مؤرخ آخر وهو يتحدث عما شاهده في دولة المماليك بمصر: (٢)

في زماننا فسد الحال... وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأرضين والجزية وزكاة المواشي والمعادن والعشر وغير ذلك، ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها وعمت البلوى والله المستعان في الأمور كلها. (٣)

ويقول مؤرخ آخر يصف حال زمانه (٤) إن أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا، فيختص السلطان فيها بأربعة قرايط (أي يحصل السلطان على سدس مساحة الأرض الزراعية في مصر)، ويختص الأجناد بعشرة قرايط (ما يعادل ٧، ٤١ / من خراج أرض مصر، ويختص الأمراء بعشرة قرايط. وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء، ويصير ذلك لإقطاع في دواوين الأمراء ويحتمي بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن، ويمنع منها

(١) تحرير المقال / الحافظ أبي بكر البلاطلسي ص ١٠٥.

(٢) هو القلقشندي.

(٣) صبح الأعشى / القلقشندي ١١٧ / ١٣.

(٤) هو المقرئ.

الصفحة ٣٨٢

الحقوق والمقررات الديوانية وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميه ومضرة على أهل البلاد. (١)

وظل إقطاع الاستغلال الابن البكر لبيت المال يعمل به حتى نهاية دولة المماليك ٩٣٢ هـ، حتى دخلت مصر تحت السيطرة العثمانية، فقاموا بإلغاء قطاع الاستغلال وحل محله نظام الالتزام، كما تم إحلال مصطلح الأموال الأميرية محل الخراج، ولم يترك العثمانيون أي نشاط سواء كان تجاريا أو صناعيا حتتأصحاب المهن والحرف دون أن يفرض عليهم ضرائب محددة يلتزم بتحصيلها أشخاص معينون. (٢) لقد أمروا في البداية أن يعطوا الناس كي تشق الدعوة طريقها برفق. ولكن الأمر سار على غير ذلك وفقا لمصلحة زمان، وترتب عن ذلك أنهم أخذوا من الناس وفقا لمصلحة زمان آخر. ترى هل كانت قسمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبير في بدء الإسلام من أجل شدة الحاجة؟ أم أن القسمة كانت دعوة لا يقوم العدل إلا بها؟

إن الفتوحات أمر عظيم له شروط يمكن فيها النجاة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها وإن عمالهافي النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة (٣) " ، وروي أن أعرابيا قال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم فالرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فيسبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله. (٤)

- ؛نهاية الطريق:

أن بداية النهاية من هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لم يزل

(١) الخطط / المقرئ ٨٨ / ١.

(٢) عمر والخراج ص ٤٢، ١٥٨.

(٣)رواه أحمد وفيه شفيق بن حبان ذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن حجر حسن الإسناد(الفتح الرباني ٢٥ / ٢٣).
(٤)رواه البخاري (الصحيح ١١٣٦) ومسلم (الصحيح ٤٩ / ١٣).

الصفحة ٣٨٣

أمر بني إسرائيل معتدلاً حتى نشأ فيهم المولدون وأبناء سبايا الأمم التي كانت بنوا إسرائيل تسبيها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا. (١) " ولقد علمت متى دخلت السبايا ومتى قالوا بالرأي. وأول نقص دخل كان من باب التخاذل قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا إتق الله ودع ما تصنع فإنه لا عمل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض.

ثم تلى رسول الله قوله تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم)، إلى قوله: (فاسقون) ثم قال: " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحقاير (٢) ولتتصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثمليعنكم كما لعنهم. (٣) " فهذا أول النقص. فإذا لم يدفع منذ البداية. فلا جدوى من فعل أي شئ بعد ذلك لأن الشبل أصبح أسداً. قالوا: يا رسول الله متى ندع الائتثار بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: " إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا كانت الفاحشة في كباركم والملك في صغاركم والعلم في رذالكم. (٤) " لهذا قال النبي في روايات كثيرة وهو يتحدث عن أمراء السوء " لا أن الناس اعتزلوهم " فهذا الدواء خاص بالداء في أول الطريق. أما استفحال الداء بعد ذلك فله فقه آخر.

ومما لا شك فيه أن الفتوحات قذفت على الأمة بالسبايا وبالرأي وبأمراض أول الطريق التي لم يشعر بها أكثر الناس نظراً للبريق الذي حولها وحولهم.

(١)رواه الطبراني في الكبير (كنز العمال ١٨١ / ١١).

(٢)أي لتردد به إلى الحق.

(٣)رواه الطبراني وقال الهيثمي رجال رجال الصحيح (الزوائد ٢٦٩ / ٧).

(٤)رواه أحمد وابن ماجه وقال البوصيري في الزوائد ابن ماجه إسناده صحيح ورجاله ثقات(الفتح الرباني ١٧٧ / ١٩).
وقال في فتح الباري أخرجه ابن أبي خيثمة (فتح الباري ٣٠١ / ١٣).

الصفحة ٣٨٤

فالفتوحات أيقظت غريزة العرب الجاهلية من الغرور والنخوة، بعدما كانت فيسكن بالتربية النبوية. فكانت تتسرب فيهم روح الأمم المستعالية وتتمكن منهم وريداً. ويشهد بذلك شيوع تقسيم الأمة المسلمة يومئذ إلى العرب والموالي، وسيرة معاوية وهو والي الشام يومذاك بين المسلمين بسيرة ملوكية قيصرية، حتقال عمر بن الخطاب: أتذكرون كسرى وعندكم معاوية، وأمور أخرى كثيرة تذكرها التاريخ. وتحت ظل الفتوحات راج الحديث راجا بينا في

عصر معاوية، وكان عدد من أهل الكتاب قد دخلوا في الإسلام، وأخذ عنهم المحدثون شيئاً كثيراً من أخبار كتبهم وقصص أنبيائهم وأمهم فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذ الوضع والديودوران في الأحاديث. وتحت ظل الفتوحات اتسع نطاق المباحث الكلامية، لأن الفتوحات الواسعة أفضت بالطبع إلى اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم وأرباب الملل والنحل وفيهم العلماء والأخبار والأساقفة والبطاركة الباحثون في الأديان والمذاهب، فارتفع منار الكلام في عهد عمر، ثم اتسع في عهد عثمان وعلامة تداد حكم بني أمية. وتحت ظل الفتوحات نقلت علوم الأوائل من المنطق والرياضيات والطبيعية والإلهيات والطب والحكمة العملية إلى العربية، نقلت منها في عهد الأمويين، ثم أكمل في أوائل عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب من اليونانية والرومية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية، وأقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، ولم يلبثوا كثيراً حتى استقلوا بالنظر و صنفوا فيها كتباً ووسائل. وفي ظل الفتوحات ظهرت قوافل التصوف التي ترفض ما وصل إليه الحال. ثم ظهرت قوافل أخرى يتكلمون بأمور تناقض الدين وحكم العقل، وغير ذلك كثير. وما كان هذا ليحدث لو طاب أعلى للعالم، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله." (١)

ولقد سقطت السياسة المالية يوم اتخذ الفيء دولا، ففي حديث النبي

(١) رواه الرامهرمزي في الأمثال.

الصفحة ٣٨٥

صلى الله عليه وسلم قال: "إذا اتخذ الفيء دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرماً وتعلم لغير دين الله... فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع". وفي رواية: "إذا فعلت أمتي خمس عشر خصلة حل بها البلاء"، منها: "إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً." (١) "إن النظام الاقتصادي في المقدمة، فإذا انحرف ظهر أمراء السوء وفقهاء السوء وعادت نخوة الجاهلية، وراجت الأحاديث التي يكذبون فيها على رسول الله، ودخلت المباحث الكلامية عالم البريق والزخرف. وروي الشعروراج القصص وكل هذا من أجل المال الذي في بيت المال ويغترف منه الأمراء والأجناد. وعالم مثل هذا لا بد أن تجرى عليه الزلزلة فتتبعه أركانه، أو تنهدم ويجري عليه الخسف فيتوارى تحت التراب وتخسف هامته.

ومن الثابت أن الدولة الواسعة الأطراف لم تستطع البقاء تحت حكم إدارة مركزية واحدة، فكما توسعت بسرعة نراها تجزأت بسرعة أيضاً، وأول من قام بتجزئتها أحد أفراد أسرة الأمويين في إسبانيا وهو عبد الرحمن الداخل، حيث أسس دولة مستقلة سنة ١٣٩ هـ، ورفع يد الحاكم العباسي عن ذلك الجزء من الدولة الإسلامية. ثم انفصلت الأدارسة وأسسوا الدولة العلوية في مراكش. ثم انفصلت الأغلبية واستولوا على بقية مناطق إفريقيا سنة ١٨٤ هـ، وأسسوا دولة الأغلبية، وبعد قرن أي في سنة ٢٤٦ هـ ظهر ابن طولون في مصر ففصلها عن الدولة الإسلامية. أما في

المشرق فتم تأسيس الدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٤ هـ)، ثم ظهرت دويلات صغيرة بعد ذلك في شرق إيران كالصفارين والسامانيين والغزنويين. وفي منتصف القرن الرابع الهجري سيطر على جهاز الدولة العباسية القواد والأمراء والحجاب والمماليك والأتراك. وخلال هذه الفترة قامت الدولة البويهية في الجزء المتبقى لهم في إيران. ثم انقرضت الدولة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ.

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النهايات قال: " منعت

(١) رواه الترمذي على أبو هريرة وعن علي (الجامع ٤٩٤، ٤٩٥ / ٤).

الصفحة ٣٨٦

العراق درهمها وقفيها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر أرد بها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم. (١) قال النووي: القفيز مكيال معروف لأهل العراق، والمدى مكيال معروف لأهل الشام، والأردب مكيال معروف لأهل مصر، والأشهر في معنا الحديث: إن العجم والروم يستولون على البلاد فيمنعون حصول ذلك للمسلمين، وقد روى مسلم عن جابر قال: يوشك أن لا يجئ إليهم قفيز ولا درهم. قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذلك. وذكر في منعالروم ذلك بالشام مثله (٢). لقد ذهب الخراج الذي فتح له بيت المال أبوابه، لأن فيه الأمن والأمان لحدود الدولة. ولم يأت الخراج بالأمن لأن السبي أصبح لهم موطئ قدم في الدولة، وتجول نصارى الحيرة وبنو تغلب في الطرقات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يوشك أن يملأ الأرض عز وجل أيدىكم من العجم ثم يكونون أسدا لا يفرون فيقتلون مقاتلتكم ويأكلون فيأكم (٣) "، وعلى موائد الفئ لا ترى العجم وحدهم وإنما ترى كل وجوها للأمم. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة بما يومئذ؟

قال: لا ولكنكم غناء كغناء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكرهتكم الموت (٤).

غناء السيل: أي كالذي يحمله السيل من زيد ووسخ (٥)

(١) رواه مسلم كتاب الفتن (الصحيح ٢٠ / ١٨) وأحمد (الفتح الرباني ٢٧ / ٢٤) وأبو داود حديث ٣٠٣٥.

(٢) النووي شرح مسلم (٢٠ / ١٨).

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٥٥ / ٢٤)، ورواه البزار والحاكم (كنز ١٨٨ / ١١).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (الزوائد ٢٨٧ / ٧) وقال في الفتح الرباني رواه أبو داود والبخاري في تاريخه (الفتح ٢٢ / ٢٤).

- مشهود في أول الطريق:

توجد معالم في عهد الفاروق لا يمكن إهمالها ونحن نلقي الضوء على بدايات في عصره كانت لها نهايات في عصرنا، ومن هذه المعالم مدينة البصرة.

ويذكر أن العرب لما فتحوا " الحيرة " سنة ١٤ هـ، أمر عمر بن الخطاب عتبة بنغزوان بتأسيس البصرة سنة ١٥ هـ، فصارت حاضرة العراق. وأوطنت فيها قبائل عربية مختلفة الأصول والأنساب، تشابكت في علاقات مع سكان البلاد الأصليين من الفرس والنبط والآراميين. ومما لا شك فيه أن القبائل العربية قد نالها بعضا من غبار ثقافة أهل تلك البلاد. ولذا فقد حذر النبي صلى الله عليه وآله من البصرة من قبل أن تنشأ، ومن قبل أن يخرج اسمها إلى الوجود، وبين أن العدلسيموت على أعتابها. قال صلى الله عليه وسلم لأنس: يا أنس أن الناس يمضون أمصارا وأن مصرا منها يقال لها: البصرة أو البصرة، فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها (١)، وكلاءها (٢)، وسوقها (٣)، وباب أمرائها (٤)، وعليك بضواحيها (٥)، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قرده وخنازير (٦). وفي رواية فإن أنت وردتها فإياك ومقصعها وسوقها وباب سلطانها، فإنه سيكون بها خسف ومسح وقذف، آية ذلك أن يموت العدلويفشوا فيها الجور، ويكثر فيها الزنا وتفشوا فيها شهادة الزور (٧)، وروي أن

(١) موضع يعلوه الملوحة.

(٢) موضع تربط فيه السفن.

(٣) لفساد العقول فيها.

(٤) لكثرة ظلمهم.

(٥) أي الجبال.

(٦) أي تحل بهم صفات لا يتصف بها إنسان سوى فيكونوا مقلدين كالقردة باحثين عن المادة كالخنازير.

(٧) رواه أبو داود حديث ٤٢٨٥ والطبراني (عون المعبود ٤٢١ / ١١).

أنسا اتخذ بيتا بعيدا عن البصرة. (١)

إن الاعتراض ليس على بناء المدينة، وإنما على تولية أمراء المدينة الذين ذابوا مع نصارى الحيرة على موائد الشراب، وذلك أمر أقره علماء الحديث والتاريخ. فمن فوق هذه الموائد راج الشعر والقصص وكثر الزنا حتى قال الفاروق: إن الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل آية الرجم (٢) وزاد في رواية: فرجم رسول الله ورجم أبو بكر ورجمت، ولولا أنيأكره أن أزيد في كتاب الله لكتبت في المصحف، فإني خشيت أن تجئ أقوام فلا يجدونه

من كتاب الله فيكفرون (٣)، ومما يذكر أن الفاروق نهى عن نكاح المتعة، وهو عند بعض الفقهاء دواء يسد باب الزنا في مهمة كمهمة الفتوحات وغيرها.

فعن جابر أنه قال: كنا نستمع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر حتى نهى عنه عمر (٤)، وروي أن عليا كان يقول: لولا نهى عمر عن المتعة ما زنى إلا شقي.

وتمصير الأمصار كان يتم على قاعدة لا رواية فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر لا يهتم إلا بقراءة القرآن في الأمصار، لكنه علم في آخر عهده أن القرآن وحده لا يعبر الطريق إلى الفرس والنبط والآراميين، ولا بدله من مفتاح يمهد له الطريق. وهذا المفتاح هو السنة الشريفة. ففي بداية الطريق يقول ابن كثير: فإن عمر كان يقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله، ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنك تأتي قوما لهم في مساجدهم دويبالقرآن كدوي النحل، فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث، وأناشريكك في ذلك. هذا معروف عن عمر رضي الله عنه (٥). أما في نهاية الطريق

(١) رواه البخاري كالأحكام ب ما ذكر النبي وحض عليه (الصحيح ٣٦٥ / ٤).

(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٢٨ / ٤).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ١٣١ / ٤).

(٤) البداية والنهاية ١٠٧ / ٨.

(٥) رواه ابن عساکر (كنز العمال ٢٦٧ / ١٠).

الصفحة ٣٨٩

فيروي ابن عساکر أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس: أرى القرآن قد ظهر في الناس. فقال له: ما أحب ذلك يا أمير المؤمنين قال عمر: لم؟ فقال: لأنهم متيقروا وينقروا ومتى ينقروا يمتنوا ويختلفوا ومتى يختلفوا يضرب بعضهم رقاب بعض.

قال عمر: إن كنت لأكتنمها الناس (١)، ثم روى أن أبا موسى قد بعث إليه بأعداد القراءة قد ازداد، فقال عمر: إن بني إسرائيل إنما هلكت حين كثرت قراؤهم (٢). " وهكذا فطن الفاروق للنهاية التي ما بعدها نهاية. لقد أراد أن تنتج الساحة قراء وأمراء من أصحاب السواعد القوية، ولكن في هذا إشكال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أكثر منافقي أمتي قراؤها (٣) " ، وقال:

" بكتاب الله يضلون وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم (٤). " إن القراءة فقط هي بذرة الخواص التي عليها نبنت شجرتهم. والذي يستحق التسجيل هنا أن الفاروق أطلق صيحة مبكرة عندما علم أن أهل العراق قد نقروا واختلفوا. لقد قال: " يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم (٥) " ، ونحن لا ندريلماذا اختار الفاروق أهل

الشام في هذا الوقت المبكر ليتجهزوا لأهل العراق. إننا نعلم الأسباب التي وراء هذا القرار لأنه غابت عنا أحداث لا يعلمها إلا منلابسها.

إن البصرة بداية ضربها الذم من قبل أن يمصرها الناس، وذلك لما لها من أثر بالغ على اللغة والدين بعد أن اختلطت بها الشعوب وتجول على أرضها أمراء السوء، ولهذا لا نعجب عندما نستمع إلى حذيفة وهو يقول للفاروق: "إنك تستعين بالرجل الفاجر. (٦) " ولا نعجب عندما نسمع من يقول لعمر:

الله يا عمر تستعمل من يخون وتقول ليس عليك شيء وعاملك يفعل كذا

(١) رواه ستة (كنز العمال ٣٦٨ / ١٠).

(٢) الإستيعاب ٧٢ / ١.

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رواة ثقات (الزوائد ٢٢٩ / ٦).

(٤) رواه ابن أبي عاصم وفي إسناده ضعف (كتاب السنة ١٣٢ / ١).

(٥) ابن سعد في الدلائل (كنز العمال ٣٥٤ / ١٢).

(٦) (كنز العمال ٧٧١ / ٥).

الصفحة ٣٩٠

وكذا. (١) " فأبي علم هذا وأي دعوة هذه التي يشرف عليها الفاجر والخائن من الأُمراء؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا إيمان لمن لا أمان له ولا دين لمن لا عهد له (٢) " ، والقرآن قد نهى عن اتخاذ بطانة من دون المؤمنين.

وإذا كانت البصرة قد أدينت من قبل أن تمصر، فإن أمراء عمر بن الخطاب قد أدينوا من قبل أن يظهر على مسرح الأحداث. وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بأنه سيظهر من بعد وفاته رجلاً يقال له أويس، وأن هذا الرجل كريم عند ربه، وإنه خير التابعين (٣)، وأمر أصحابه إن لقوه فليطلبوا منه أن يستغفر لهم، وخص النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال: إن استطعت أن تستغفر لك فافعل. (٤) وظهر أويس في عهد عمر بن الخطاب، ولهذا قصة طويلة، وطلب عمر أن يستغفر له ففعل. وحرص عمل على أن يبقنا أويس معه ولا يفارقه ولكنه أملس منه (أي تملس من الأمر. تخلصوا فقلت (٥))، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة! فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصي بك؟ قال: لا!! أكون في غبراء الناس أحب إلي. (٦) لقد رفض أويس الأُمراء، وعندما ذهب إلى الكوفة سأله رجل: كيف الزمان؟ فقال أويس: إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقاً، والله إننا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذوننا أعداء، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعواناً، حتى والله لقد يفذفوننا بالعظائم. والله لا يمنعي ذلك أن أقول الحق. (٧)

وقال أويس لهرم بن حبان: إن الأرواح لها أنفوس كأنفوس الأحياء، إن

- (١) الطبري في تاريخه ٣١ / ٥.
 (٢) رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أبو هلال وثقه ابن معين (الزوائد ٩٦ / ١).
 (٣) مسلم في فضائل أويس (الصحيح ٩٥ / ١٦).
 (٤) أسد الغابة ١٨٠ / ١ رواه مسلم.
 (٥) كنز العمال ٤ / ١٤.
 (٦) رواه مسلم وابن سعد وأبو نعيم والبيهقي (كنز ٤ / ١٤) مسلم في فضائل أويس (الصحيح ٩٦ / ١٦).
 (٧) الحاكم (المستدرک ٤٠٦ / ٧).

والذين يعرف بعضهم بعضاً، ويتحدثون بروح الله وإن لم يلتقوا وأن لم يتكلموا، ويتعارفوا وإن نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل. فقال له هرم:

حدثني عن رسول الله حديث أحفظه عنك؟ قال: إنني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه صحبة، ولقد رأيت رجالاً رأوه وقد بلغني من حديثه كما بلغكم ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسي (١)، ولقد قاتل أويس بعد ذلك تحت راية علي بن أبي طالب واستشهد بين يديه.

وسياتي ذلك عند حديثنا عن معارك أمير المؤمنين.

هذا ما كان من أمر أويس الذي ادخره الله ليأتي في زمان الله حكمة فيه.

وعندما جاء رفضه حتى توصية الأمراء به. وهذا ما كان من أمر البصرة التي أخبر عنها رسول الله من قبل أن يتخذها الناس مصراً من الأمصار، وإخبار فيه إدانة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية. ثم إن طلب عمر بن الخطاب وهو الخليفة الراشد أن يستغفر له أويس وهو الذي لم ير النبي ولم يسمع منه فيه أن الإسلام دين لا يدعو إلى التعتم أمام الأشخاص. ويدعو أن يكون الشغل في الله والهمة به والفرار إليه، والشاهد الأخير هنا على أن الناس في عهد الفاروق كثير منهم تطاولت أعناقهم في طلب الدنيا. ما رواه مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: كنت واقفاً مع أبي بن كعب فقال: لا يزال الناس مختلفاً أعناقهم في طلب الدنيا. قلت: أجل... " الحديث (٢)، وأبي بن كعب مات في خلافة عمر على أصح الروايات (٣)، وطلب الدنيا ينتهي دوماً إلى الزوال. أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا شبعت ماتت. وكذلك ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا أخذ الله عند ذلك ثم تلى: " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء

- (١) الحاكم (المستدرک ٤٠٧ / ٣).
 (٢) مسلم (الصحيح ١٩ / ١٨) كتاب الفتن.

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. (١) "

خامسا - وجاء بنو أمية

في عالم الفتوحات حل الإسلام في قلوب البعض حين جاءت الغنائم والأموال وكثرت المكاسب، فهناك من ذاق طعم الحياة وعرف لذة الدنيا عندما لبسوا الناعم وأكلوا الطيب، وتمتعوا بنساء الروم وملكوا خزائن كسرى. بعد أن كانوا يعيشون في دائرة العيش الخشن، وأكل الضباب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف. فهذا الصنف حلا الإسلام في قلبه عندما وقع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر. فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله وأكلوا الغلوزجات ولبسوا الحرير والديباج. وأصبحوا أمراء في الأمصار استدلوا بما فتح الله عليهم على صحة الدعوة فعظموها بجلوها، وتمسكوا بالدين لأنه زادهم طريقا إلى نيل الدنيا، ومجمل القول: لولا الفتوح والنصر والظفر والخراج لانقرض دين الإسلام بصورة من الصور، ولولا غلظة عمر التي جبله الله عليها ولا حيلة له فيها، وهي غلظة لا يقصد بها سوء ولا يريد بها ذمًا، فعمر أجل قدرا من أن يعتقد فيه أن غلظته هدفها الذم والتخطئة، نقول لولا غلظته في التعامل مع بعض رؤوس القوم، لوجد أعداء الدولة لهم ثغرات يعملون فيها على انقراض الإسلام بصورة من الصورة. ولكن عمر وهو المشهور بالتصدي لهم، وعلى سبيل المثال فعمر هو القائل في سعد بن عبادته هو رئيس الأنصار وسيدها، اقتلوا سعدا قتل الله سعدا، وعمر هو الذي شتم أبوهريرة، وعمر هو الذي خون عمرو بن العاص ونسب إليه سرقة مال الفئ، وعمر شتم خالد بن الوليد وطعن في دينه وحكم بنفسه وبوجوب قتله. فسرعة

عمر إلى محاسبة البعض جعلت البعض الآخر يعيش يومه. وموقف عمر هذا وإن كان فيه خدمة للدولة إلا أنه لم يكن في صالح عمر، فلقد أبغضه بعض الصحابة قوملوه رغم كثرة الفتوح لأنه لم يسمح لهم بالخروج إلى الأمصار. يقول الشعبي: لم يمت عمر حتى ملته قریش وقد حصرهم بالمدينة، وقال: إن أخوفما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد. فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع الناس إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك. (١)

فالذي حافظ على التماسك من ضربات الأعداء، أموال الفتوحات وقبضة عمر - الذي كان عصره بحق أفضل بكثير من عصور الملوك والسلطين الذين ركبوا على أعناق الأمة على ملثداد التاريخ. وإذا كان تاريخ المسلمين

ملئبالسليبات والغيوم، فإن الحق يحتم علينا أن نقول بأن أعظم دولة للمسلمين هيالتي كان على رأسها أبو بكر وعمر بن الخطاب، فهذا العصر كان عصر البذوروالبذور لا يختلف أحد على أوراقها وثمارها لأنها لم تأت بعد: وهذه الفترة منالتاريخ انتهت نهاية أليمة، وذلك عندما طعن غلام مجوسي الفاروق عمررضي الله عنه. وروي أنه كان يفسر لعمر أحلامه. وقد أخبره عمر بحلم منالأحلام ففسره كعب بأنه سيقتل بسلاح له مواصفات خاصة، وعندما طعن عمرجاء كعب يبكي ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين أقسم على الله أن يؤخرهاأخره (٢)، ومن الأعجب أن كعبا اشتغل بعد ذلك مستشارا لمعاوية يوم أن كانأميرا على الشام، وعندما حدثت الانتفاضة على عثمان كان كعب أول من ألقني قلب معاوية حب الخلافة! وعلى أي حال بعد عملية طعن الفاروق وهذاالاسم أطلقه عليه أهل الكتاب تعبيرا منهم لعدله ونظرا لأنهم لم يشعروا بغربة فيعهده، وأظلتهم مظلة التسامح الإسلامية في كل مكان على أرض الدولة. حتى

(١) ابن عساكر (كنز العمال ٧٦ / ١٤).

(٢) ابن سعد (كنز العمال ٦٨٧ / ١٢).

الصفحة ٣٩٥

إن عمر كان له مملوكا نصرانيا (١) ومن قبل عمر أخرج مالك وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي عن عمرة بنت عبد الرحمن أن أبا بكر دخل على عائشة وهيشتكي ويهودية ترقبها فقال أبو بكر ارقبها بكتاب الله عز وجل. فمظلة التسامحكانت تظلمهم ولم يشعروا بالكرامة الحقيقية على امتداد تاريخهم إلا تحت هذالمظلة وخير شاهد أنهم أطلقوا على عمر اسم الفاروق، قال ابن شهاب: بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق وكان المسلمون يأترون ذلك منقومهم، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر من ذلكشيئا (٢) " وبعد أن طعن الغلام المجوسي الفاروق فتحت صفحة جديدة بدأتبما سمي في التاريخ بالشورى.

- ايوم الشورى:

من الثابت أن عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيااستخلفته. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته (٣)، وفي رواية عندالإمام أحمد: لو أدركني أحد الرجلين ثم جعلت الأمر إليه لوثقت به. سالمولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح (٤) ثم اختار عمر ستة من الصحابةوصفهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عنهم وهم:

عثمان بن عفان. عبد الرحمن بن عوف. سعد بن أبي وقاص. الزبير بن العوام.

طلحة وعلي بن أبي طالب. وأمر عمر صهيب أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وأن يدخل هؤلاء الرهط بيتا ويقوم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد، على صهيب أن يطيح رأسه بالسيف. وإن اتفق أربعة وأبى اثنان يضرب رؤوسهما وإن رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فعليه أن يكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن

(١) أنظر ترجمة ناسق اليهودي.

(٢) الطبري ١٥ / ٥، ابن كثير في البداية باختصار ١٣٣ / ٧.

(٣) الطبري ٣٤ / ٥، تاريخ الخلفاء ص ١٢٧.

(٤) الإمام أحمد (الفتح الرباني ٩١ / ٢٣).

الصفحة ٣٩٦

عوف ويقتل الباقيين!! (١)

ومن العجيب أن عمر بن الخطاب كان يخاف أن يطلق الصحابة في الأمصار، ونهاهم عن مخالطة الناس لأنه رأى في ذلك أسى الفساد في الأرض.

ثم نراه قد أطلقهم على دائرة الإمارة والخلافة، الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى التنافس بعد أن رسخت في نفوس البعض من أهل الشورى حب الخلافة. ومناصب أن تأتي بجندي وترشحه للخلافة ثم تقول له بعد ذلك زاحم في الصفوف الأخيرة للجنود.

ومن العجيب أيضا أن يقول عمر لأهل الشورى: إن هذا الأمر لا يصلح للطلاق ولا لأبناء الطلقاء (٢)، خوفا منه لئلا يطمع الطلقاء في الملك، فيالوقت الذي لم يخف حين جعلها في ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة (٣) ومن الأعجب أن يشهد عمر بأنه أهل الشورى مات النبي وهو عنهم مرض، ثم يأمر بضرب أعناقهم إن تأخروا في البيعة أكثر من ثلاثة أيام، ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقون القتل لأنهم كلفوا أن يجتهدوا في اختيار الإمام، وربما يطول زمن الاجتهاد وربما قصر. وعلى هذا فأبي معنى للقتل، إذا تجاوز الأيام الثلاثة؟ ثم إنه أمر بقتل من يخالف العدد الذي فيه عبد الرحمن، وهذا أيضا لا يستحق القتل. ثم أي إجماع وأي شورى وأي اختيار لمن يجلس والسيف على رأسه ويتهدد بالقتل؟ ثم كيف يقتل من ورد فيهم أحاديث بأنهم من أهل الجنة؟

وما هو رأي المسلمين لو سمع النبي صلى الله عليه وسلم عمر يقول اقتلوا أهل الشورى؟ ونحن لا ندري ما الذي حمل عمر على الوقوع في هذا الارتباك وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم وهو يعرفهم واحد واحد!

وروي أن أمراء الأجناد كانوا مع عمر بن الخطاب عند أدائه مناسك الحج

(١) هذا الخبر أجمعت عليه الأمة وأرسله علماء الحديث والتاريخ إرسال المسلمات. (راجع الكامل ٣٦ / ٣)، (كنز العمال ٧٤٣ / ٥).

(٢) ابن سعد (كنز العمال ٧٣٥ / ٥).

(٣) فتح الباري كتاب الأحكام (١٩٧ / ١٣).

الصفحة ٣٩٧

وقدموا معه إلى المدينة وهم: معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، والمغيرة ابن شعبة أمير الكوفة، وأبو موسى الأشعري أمير البصرة، وعمرو بن العاص أمير مصر (١)، فهذه الحزمة الواحدة كانت موجودة يوم الشورى، وروي أن عبد الرحمن بن عوف خرج ليشاور الناس ودار لئاليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان (١) وروي أن عليا عندما علم بما يفعله عبد الرحمن لقي سعد بن أبي وقاص وقال له: اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا. أسألك برجم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرحم عمي حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن عثمان ظهيرا علي فإني أولى بما لا يدلي به عثمان (٢)، وذكر البخاري أن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من علي بن أبي طالب شيئا (٣) ولكنه لم يفصح عن هذا الشيء.

وكان عمار بن ياسر ميزانا للساحة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالذي يبغض عليا فعليه بعمار بن ياسر ليرشده إلى طريق الحق الذي لن يجد فيه إلا علي بن أبي طالب. روى البخاري أن عمارا أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (٤). (٤) عمار قال فيه النبي: ابن سمية ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما (٥)، ويوم الشورى قال عبد الرحمن بن عوف: إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم (٦). فقام عمار بن ياسر وقال: إن أردت أن لا يختلف

(١) الطبري ٣٦ / ٥.

(٢) الطبري ٣٦ / ٥.

(٣) البخاري كتاب الأحكام (الصحيح ٢٤٦ / ٤).

(٤) البخاري في مناقب عمار (الصحيح ٢٠٥ / ٢).

(٥) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٣٠ / ٢٢) والترمذي وصححه (الجامع ٦٦٨ / ٥) والحاكم، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين (المستدرک ٢٨٨ / ٣).

(٦) الطبري ٣٧ / ٥.

الصفحة ٣٩٨

المسلمون فبايع عليا (١) وفي رواية قال: يا معشر قريش أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة، فما أنا بأمن من أن ينزعه اللهممكم فيضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله (٢)، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار إن بايع عبد الرحمن عليا قلنا سمعنا وأطعنا. فقال عبد الله بن أبي السرح - وكان النبي قد أحل دمه واختفى عند عثمان - يا عبد الرحمن إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان. فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا. فثتم عمار بنياسر بن أبي السرح وقال:

متى كنت تتصحح المسلمین؟ ثم قال: أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم.

فقال له رجل من بني مخزوم: (٣) لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قریش لأنفسها. (٤) وكل ذلك كان يجري وأمراء الأمصار في المدينة يراقبون.

وكان علي بن أبي طالب في هذا الوقت يقف في دائرة إقامة الحجة وليس له أن ينازع في أمر طريق الاختيار فيه مفتوح، وعلى الاخلو يأتي إما الأمن وإما الخوف والاستدراج. لقد أقام الحجة على سعد بن أبي وقاص عندما قال له: لا تكن مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا علي. وأقام الحجة عليهم جميعا فيما رواه أبو الطفيل قال: كنت على الباب يوم الشورى، فارتفعت الأصوات بينهم فسمعت عليا يقول: بايع الناس لأبي بكر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفارا يضرب بعضهم رقاب بعضهم بالسيف، ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفارا يضرب بعضهم رقاب بعضهم بالسيف، ثم

(١) الطبري ٣٧ / ٥.

(٢) مروج الذهب / المسعودي ٣٢٢ / ٢.

(٣) بني مخزوم ضمن القبائل التي ذمها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر بجهادهم في الإسلام. رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (كنز العمال ٤٨٠ / ٢).

(٤) الطبري ٣٧ / ٥.

الصفحة ٣٩٩

أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان إذا أسمع وأطيع. إن عمر جعلني في خمسة نفر أناسا دسهم لا يعرف لي فضلا عليهم في الصلاح ولا يعرفونه لي، كلنا فيه شرعسواء، وأيم الله لو أشاء أن أتكلم ثم لا يستطيع عريهم ولا عجمهم ولا المعاهد منهم ولا المشرك رد خصلة منها لعلت. ثم قال: نشدتكم الله أيها النفر جميعا أفياكم أحد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري؟ قالوا: اللهم لا. (١)

وفي الصواعق المحرقة روى الدارقطني أن عليا قال لهم: أنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة غيري؟ قالوا: اللهم لا (٢)، وروى ابن أبي الحديد أنه قال لهم: أنشدكم الله هل فيكم أحد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فهذا مولاه غيري؟ قالوا: لا قال: أفياكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي غيري؟ قالوا: لا، قال: أفياكم من أوتمن على سورة براءة وقال له رسول الله أنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني غيري؟ قالوا: لا. (٣)

كان علي بن أبي طالب يقيم الحجة فقط، وكان يعلم أن طريقه إلى الخلافة غير ممهد، واختيار عمر بن الخطاب لأصحاب الشورى أول دليل على ذلك. فبعد تحديد الأسماء، قال علي للعباس: عدلت عنا. فقال له:

وما علمك؟ قال: قرن بي عثمان وقال كونوا مع الأكثر، فإن رضى رجلا رجلا، ورجلا رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بنعوف. فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان. لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كانا لآخران معي لم ينفعا في (٤) قال له العباس: لا تدخل معهم. قال: أكره

(١) كنز العمال ٧٢٥ / ٥.

(٢) الصواعق المحرقة / ابن حجر الهيتمي ص ٢٤.

(٣) ابن أبي الحديد ٦١ / ٢.

(٤) الطبري ٣٥ / ٥.

الصفحة ٤٠٠

الخلاف (١) الإمام كان يعلم بالنتيجة، وكان يراقب من بالمدينة وكان يكره بالخلاف وكان يقيم الحجة ولا إكراه في دين الله.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف قال لعلي بن أبي طالب هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وسنة الماضين من قبل؟ وفي رواية: وسيرة أبي بكر وعمر؟ وفي رواية: وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال علي: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، فقال عثمان: أنا يا أبا محمد أبايعك على ذلك.. (٢) فقام عبد الرحمن ودخل المسجد وأرسل إلي من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار وأرسل إلي أمراء الأجناد ثم قال: يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أراهم يعدلون بعثمان (٣) فقال علي: حبوته حبو دهر. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثم خرج وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين. فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم. إني لأعجب من قرئش إنهم تركوا رجلا ما أقول أن أحدا أعلم ولا أقضى منه بالعدل. أما الله لو أجد عليه أعوانا. قال عبد الرحمن: يا مقداد اتق الله فإنني خائف عليك الفتنة.

فقال رجل للمقداد (٤) رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل!! (٥) فقال للمقداد: أهل البيت بنو عبد

المطلب والرجل علي بن أبي طالب (٦).

لقد وضع عبد الرحمن شرطا يعلم أن عليا لن يقبله. بل يعلم أن عليا لوجه النقد لهذا الشرط لكان في هذا كفاية لسيل الدماء فضلا عن ابتعاد الخلافة

(١) الطبري ٣٤ / ٥.

(٢) فتح الباري ١٩٨ / ١٣.

(٣) البخاري (الصحيح ٢٤٦ / ٤) ك الأحكام ب كيف يبايع الإمام الناس.

(٤) فيه إشارة أن عدم رواية الحديث جعلت الكثير لا يعرفون شيئا عن أهل البيت.

(٥) المقداد بن الأسود ورد فيه حديث (إن الله أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: عليو أبو ذر والمقداد وسلمان) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٦ / ٥).

(٦) الطبري ٣٨ / ٥، الكامل ٣٧ / ٣.

الصفحة ٤٠١

عن علي. وهذا الشرط أن يبايعه على سيرة أو فعل أبي بكر وعمر. وفي المدينة أمراء عمر معاوية وعمرو والمغيرة وغيرهم، كأمثال ابن أبي السرح وأبي سفيان بن مخروم وهؤلاء انتعشوا بالفتوحات والخراج. والإمام ما كان له أن يقبل هذا الشرط وذلك أن أبا بكر وعمر اختلفا في سيرة كل منهما للآخر. وعلى سبيل المثال أبو بكر نص على خلافة عمر، بينما عمر جعلها شورى في ستة نفر، وأبو بكر رأى أن يقاوم الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، وعمر كان له رأي غير هذا.

وأبو بكر كان يرى أن خالد بن الوليد متأول في قتل مالك بن نويرة، وعمر كان يرى غير ذلك. وأبو بكر كتب لنفر من المؤلفة قلوبهم بحقوقهم، وعمر مزق كتاب أبي بكر لأن له رأيا آخر. فهذا وغيره يستقيم مع قول الإمام " أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي " ولكن التيارات الموجودة بالمدينة حينئذ كانت تعلم أن زهد علي لن يدفع بالخراج إلى أيديهم، وكانوا يعلمون أن عمر كان يجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسله، ويرى تخصيص عموميات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، وكانوا يعلمون أن عمر قد عارك السياسة وكاد خصمه وأمراء الأمراء بالكيد والحيلة وكان يؤدب بالدره والسوط من يتغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اقترفوا ما يستحقون به التأديب. كل ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره. أما علي بن أبي طالب فهو على خلاف ذلك - كان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسة ويطبق أمور الدنيا على أمور الدين، ويسوق الكل سياقاً واحداً ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص.

لقد عرفوا هذا من علي بن أبي طالب على الرغم من أنه لم يجلس على كرسي يأمرهم به وينهاهم. كانوا يعلمون أن عمر شديد الغلظة والسياسة، ويعلمون أن عليا كثير الحلم والصفح والتجاوز، ولكن المصلحة كانت في سياسة عمر، والخوف كان من حلم علي، لأن دائرة الذهن عند جميع تيارات الصد تخاف من يوم، وهذا اليوم ليس من دائرة الغلظة والشدة، وإنما من دائرة خفاف النعل حيث الحلم والصفح والتجاوز والضرب في الله. وعلى هذا يمكن

الصفحة ٤٠٢

أن نفهم قول البخاري: إن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من علي بن أبي طالب شيئا.

- ٢ رباح بني أمية:

كانت أشرف خصال قريش في الجاهلية: اللواء والندوة والسقاية والرفادةوزمزم والحجابه، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية إلى: بني هاشموعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس. على أن معظم ذلك صار فيالإسلام إلى بني هاشم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة صارمفتاح الكعبة بيده، فدفعه إلى عثمان بن طلحة، فالشرف راجع إلى من ملكالمفتاح لا إلى من دفع إليه .(١)وكان بنو عبد شمس في الجاهلية من ألد أعداءبني هاشم، وازداد هذا العداء حدة بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حيثقاد أبو سفيان ابن حرب بن أمية بن عبد شمس الحرب ضد محمد بن عبد الله بنعبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم. وهذه الحرب لها جذور قديمةلم يقض عليها الإسلام فضلا على أسباب تتعلق بالإسلام ودعوته، ولهذا يمكنأن نفهم وصية أبي سفيان وهو يأمر معاوية بأن يطيع عمر فيقول له: فلا تخالفهمفإنك تجري إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقبك .(٢)وقوله في عهد عثمانكما جاء في مروج الذهب: يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذي يحلف به أبوسفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثه. ثم وقفه على قبرحمزة وقوله: يا أبا عمارة إن الأمر الذي اجتدلنا عليه أمس صار في يد غلماننااليوم يتلعبون به .(٣)وذلك بعد أن تجول أمراء بني أمية في الأمصار وراءالخراج. فأبو سفيان لم يكن يودلعقة وإنما كان يريد الاستمرارية على مدبالأيام والدهور، وهذا من الكبر وبطر الحق ويظهر شدة الخصومة، ولذا نجد

(١)ابن أبي الحديد ٦١١ / ٤.

(٢)البداية والنهاية ٨١٨ / ٨.

(٣)ابن أبي الحديد ٤ / ٥١، الإمتاع والمؤانسة ٧٥ / ٢.

الصفحة ٤٠٣

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرةوبنو مخزوم .(١) " وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أرى بني أمية على منبرهفساءه ذلك .(٢) " وقال صلى الله عليه وسلم: " ويل لنبي أمية " ثلاث مرات (٣)،ومعنى أن يكون عثمان بن عفان على رأس الخلافة، أن الطريق أمام بني أميةأصبح ممهدا بصورة من الصور. فبني أمية هدفهم الحكم وهم في سبيله يركبونالصعب، ولو كان الملك من وراء الجبال ليثبوا عليه حتى يصلوا كما روي عنالإمام علي .(٤)فإذا كان كرسي الخلافة لا ينجو منهم إذا كان من وراء الجبالفكيف به إذا كان أمامهم والجالس عليه من وسطهم.

ونحن نقول إن عثمان باب لهم لأنه من نسيجهم، والرسول صلى الله عليهوسلم عندما أعطى سهم ذي القربى ترك بني نوفل وبني عبد شمس، ولم يعطعثمان على الرغم من أن عثمان كان في موقف السائل، روى البخاري وأبو داودعن جببر بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلمسهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس،فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه

وسلم فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم. فما بالإخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا وقرابتنا واحدة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام وإنا نحن وهم شئواحد، وشبك بين أصابعه (٥).

فالطريق الفطري واضح في الجاهلية والإسلام. وليست المسألة مسألة قرابة، فالنبي عندما أعطى أعطى على النصر، وبنو عبد شمس يلتقون في

(١) رواه الحاكم وأبو نعيم (كنز العمال ١٦٩ / ١١).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٤٤٤ / ٥).

(٣) رواه ابن منده وأبو نعيم عن حمران عن جابر، وابن قانع عن سالم الحضرمي (كنز ١٦٥ / ١١).

(٤) رواه ابن عساکر (٣٦٤ / ١١ كنز).

(٥) رواه البخاري (الصحيح ١٩٦ / ٢) وأبو داود حديث ٢٩٨٠ واللفظ له.

الصفحة ٤٠٤

قرابتهم مع بني هاشم في عبد مناف، ولكن ما قيمة قرابة لا نصره فيها لفطرة أولدعوة، وكما قال ابن قدامة: إن بني المطلب شاركوا بني هاشم بالنصر والقرابة (١).

ومن الدليل على أن خلافة عثمان كانت بابا لبني أمية، أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل مدة حكم عثمان في المدة الإجمالية لبني أمية وهي ألف شهر. روي عن الحسن قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزلت (إنا أعطيناك الكوثر) نهر في الجنة ونزلت: (إنا أنزلناه في ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) تملكها بنو أمية، فحسبنا ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص (٢).

وهذا الحديث رواه الحاكم وقال هذا إسناد صحيح، وقال الذهبي: ورويعن يوسف بن نوح بن قيس أيضا، وما علمت أن أحدا تكلم فيه والقاسم وثقوه رواه عنه أبو داود والتبوكي (٣) وقال في الدر المنثور أخرجه الخطيب عن ابن المسيب وروي أيضا مثله عن الخطيب في تاريخه عن ابن عباس. وأيضا ما فيمعناه عن الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن الحسن بن علي. وقال ابن كثير في البداية والنهاية رواه الترمذي عن القاسم بن الفضل وقد وثقه يحيى بن سعيد وغيره ورواه ابن جرير والحاكم والبيهقي (٤) ورغم أن الحديث صحيح إلا أن منهم من لم يقبله قلبه. فترتب على ذلك مشكلة حتى أنالذهبي قال: وما أدري آفته من أين (٥)، ولقد حاول ابن كثير في التفسير أنيظهر نقطة ضعف واحدة فلم يجد واكتفى بالقول إن الحديث منكر، وظهرت حيرة ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن أنكر الحديث في تفسيره، فقال: سألت

(١) المغني ٦٥٧ / ٢.

(٢)الحاكم (المستدرك ١٧١ / ٣).

(٣)المستدرك (١٧١ / ٣).

(٤)البداية والنهاية (٢٤٣ / ٦).

(٥)المستدرك (١٧١ / ٣).

الصفحة ٤٠٥

شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي عن هذا الحديث، فماذا قال الحافظ لابن كثير؟

إن ما قاله كان هو حجر الزاوية الذي عليه أنكروا حديث صحيح. قال الحافظ:

إن القول بأنه حسب دولة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص فهو غريب جدا. وذلك لأنه لا يمكن إدخال دولة عثمان في هذه المدة، وذلك أنها ممدوحة ولأنه أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبهيعدلون، وهذا الحديث إنما سبق لزم دولتهم (١).

وتحديد المدة بدقة هو من شأن علماء التواريخ والسير الأقدمين في بداية العصر العباسي. وما بين أيدينا اليوم من تواريخ يؤيد ما ذهب إليه الحديث ولا يستثني دولة عثمان. وفي محاولة قديمة أسقط من المدة أيام ابن الزبير فقار بمن قام بهذه الصحة في الحساب. وعلى أي حال فإن التاريخ خير شاهد، فعثمان أقام خيمة وهذه الخيمة دخلها معاوية فلم يشعر فيها بغربة، وبعد أن جعلها معاوية وراثته انطلق الورثة من داخل الخيمة وقتلوا الأنصار والحسين والذين أمروا بالقسط من الناس، وكل ذلك تحت هتاف واحد يقول: " يوم بيوم قتل عثمان "، وساروا وراء الخراج وجلسوا أمام بيوت المال ومعهم أختام ليستغريبة عن عهد عثمان.

- ٣ ظهور النفاق:

ومن الدليل القاطع على أن دولة عثمان رتع فيها النفاق حتى بلغ الذروة، تلك الأحاديث التي رويت عن حذيفة صاحب سر رسول الله (٣) فحذيفة كان يعلم أسماء المنافقين الكبار الذين أَرادوا اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من تبوك كما ذكرنا. والثابت والقاطع أن حذيفة مات بعد

(١)البداية والنهاية (٢٤٤ / ٦).

(٢)وصف في الصحيحين أنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره (البخاري ٣٠٥ / ٢) (الإصابة ٣٣٢ / ٢).

الصفحة ٤٠٦

مقتل عثمان بأربعين يوما (١)، وقبل وفاته بايع عليا وأوصى الناس بطاعة أمير المؤمنين علي (٢)، وأمر أولاده

بالقتال تحت رايته فقتلا بصفين (٣).

والثابت أيضا أن حذيفة كان مريضا قبل قتل عثمان وكان يلزم بيته (٤)، وعلى ما سبق فإن رواياته التي سنورها هنا لا بد وأن تكون قد وقعت في خلافة أبي بكر وعمر، وأما في خلافة عثمان. وهي روايات تجسد واقع المجتمع الذيرآه وسمعته حذيفة ومن هذه الروايات: قال: " لا يغرنك ما ترى، فإن هؤلاء يوشكون أن يفرجوا عن دينهم كما تنفرج المرأة عن قبلها. (٥) " وقال: " والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا؟ (٦) والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قائد فتنة (٧) إلى أن تتقضي الدنيا بلغ من معه ثلثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم (٨) قبيلته. (٩) " إن حذيفة هنا يشير إلى أن النبي ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولأن الصحابة نسوا ما ذكروا بهجرت الفتن. وقال حذيفة في معالمها: " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون. (١٠) "

ثم قال صاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره: " إنما كان النفاق علن عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فأما اليوم فإنما هو الكفر

(١) الإصابة ٢٣٢ / ٢، الحاكم (المستدرک ٣٨٠ / ٣)، (البخاري في التاريخ الصغير ٨٠ / ١).

(٢) الحاكم (المستدرک ٣٨٠ / ٣) والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٦ / ٧) وأبو نعيم (كنز العمال ٦١٢ / ١١) والطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧) ومروج الذهب ٢٩٤ / ٢، فتح الباري ٤٠ / ١٣.

(٣) الكامل ١٤٧ / ٣.

(٤) مروج الذهب ٣٩٤ / ٢.

(٥) رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم (كنز العمال ٢١٦ / ١١).

(٦) أم تناسوا: أي أظهروا النسيان لمصلحة من غير نسيان؟!

(٧) قائد فتنة: أي داعي ضلالة وباعث بدعة يأمر الناس بها.

(٨) باسمه واسم أبيه: يعني وصفا واضحا مفضلا لا مبهما.

(٩) رواه أبو داود حديث ٤٢٤٣، في عون المعبود حديث ٤٢٢٢.

(١٠) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤)، ك الفتن باب إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج.

بعد الإيمان. (١) "

ثم يقول صاحب السر الشاهد على عصر الصحابة بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل كان يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا. وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات. وفي رواية: عشر مرات. (١) ثقافتها وتربية مجتمع الرأبوا المصلحة، وإلا كيف انتشرت هذه الثقافة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم؟ ثم يفجر حذيفة أكبر حقيقة ترتبت على ذلك كله فيقول: قال صلى الله عليه وسلم: اكتبوا إلى من تلفظ بالإسلام من الناس. فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل، فقلنا: تخاف ونحن ألف وخمسمائة. ثم يقول حذيفة: فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف. (٢) وفي رواية عند

مسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا. قال الحذيفة: فابتلينا حتى جعل الرجل لا يصلي إلا سرا. (٤)

إن الصلاة سرا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من ربع قرانتهت في زمان بني أمية إلى ما رواه البخاري عن أنس، دخل عليه الزهري فوجده يبكي. فقال ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت. (٥) إن الأحاديث التي رواها حذيفة والأقوال التي قالها حدثت إما في زمن أبي بكر، وإما في عهد عمر الذي اعترف صراحة بتعيين المنافيين، وإما في عهد عثمان، ونحن نرجح العهد الأخير لأنه باب لأسرة ذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث صحيحة. والنبي صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر بظهور النفاق فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكىتم كثيرا ولضحكتم قليلا، يظهر النفاق، وترفع الأمانة، وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين،

(١) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤) ك الفتن باب إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج.

(٢) رواه أحمد وإسناده جيد (الفتح الرباني ١٧٣، ٢٣١ / ١٩).

(٣) البخاري (الصحيح ١٨٠ / ٢) ك الجماد والسير باب كتابة الإمام الذي.

(٤) مسلم (الصحيح ١٧٩ / ٢) وأحمد (الفتح الرباني ٤٠ / ٢٤).

(٥) البخاري (الصحيح ١٣ / ١).

الصفحة ٤٠٨

ويؤتمن غير الأمين. (١) " صلى عليك يا رسول الله فلقد ظهر هذا بعد وفاتك بمن قليل ثم بدأ يتسع حتى تاه الجميع في سنن الأولين إلا من رحم الله. وكان لظهور النفاق علامات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحييتهم لعنة وطعامهم نهيبة (أي اغتصاب) وغنيمتهم غلول (أي سرقة). (٢) (وصلى الله عليك يا رسول الله.

-؛ الإحتجاج السلمي:

بدأ عثمان خطاه فقال: " لا يحل لأحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر (٣) " وكانت بداية حكمه لا تختلف عن سبقه، ولكن ما لبث بعد أن قام بنو أمية بترتيب أوراقهم أن تحول الحكم لصالح بني أمية، وصالح الارستقراطية القرشية. وكما ذكرنا من قبل أن السياسة التي اتبعها عمر بنا الخطاب كانت عدم توزيعه الأرض على المسلمين المقاتلين، وحولها إلى أرض خراج تملك الدولة رقبته، وصار بيت المال يدفع للمقاتلة أعطيات من الثابتان عمر بن الخطاب فضل بعض الناس على بعض. ففضل السابقين على غيرهم وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم. (٤) وكان من نتيجة ذلك ظهور طبقة من الارستقراطية القرشية، ولكن بحجم محدود ما لبث أن اتسع بعد ذلك.

وفي عهد عمر روى الإمام أحمد أن أبا عبيدة بن الجراح بكى وعندما قيل له ما يبكيك قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا أبا عبيدة يكفيك منالخدم ثلاث، خادم يخدمك، وخادم يسافر معك، وخادم يخدم أهلك. وحسبكم الدواب ثلاث، دابة لرحلك، ودابة لتقلك، ودابة لغلامك. ثم ها أنذا أنظر

(١)رواه الحاكم (كنز العمال ١٢٧ / ١١) ورواه الطبراني والبيهقي بلفظ مشابه (كنز ١٢٨ / ١١).

(٢)رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٣٢ / ١٩).

(٣)الطبقات الكبرى ٢٣٦ / ٢، وابن عساكر (كنز العمال ٢٩٥ / ١٠).

(٤)ابن أبي الحديد ٤ / ٣.

الصفحة ٤٠٩

إلى بيتي قد امتلاً رقيقاً، وانظر إلى مرابطي قد امتلأت دواباً، فكيف ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أحبكم إلي وأقربكم مني من لقيني على مثل الحال الذي فارقني عليها (١). وبعد ذلك اتسعت الطبقة في عهد عثمان بعد أن بسط نبلاء بني أمية وغيرهم أيديهم على كثير من الضياع. وبعد أن توسع الناس في أمور الدنيا واستعملوا النفيس من الملابس والمسكن والمطعم واقتتوا الأثاث الفاخر. وبظنر سريعة على ثروة بعض الأفراد خلال هذه المدة نجد أنه كان لعثمان عند خازنهم قتل ثلاثون ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير (٢). وكانت قيمة ما ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، كما ترك ذهباً قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه (٣).

وكان لطلحة بالعراق ما بين أربع مائة ألف إلى خمسمائة ألف، وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف. وروي أنه ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وإن قيمة ما ترك من العقار ثلاثين ألفاً، وترك مائة بهار، في كل بهار ثلاثة قناطير ذهب وبهار جلد ثور (٤)، وكانت قيمة ما ترك الزبير إحدى وخمسين ألفاً، وكان له بمصر خطط، وبالإسكندرية، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكان له أربع نسوة أصابت كل امرأة ألف ألف ومائة ألف (٥). وفي تاريخ ابن عساكر أن عمرو بن العاص كان يلقح كروم بستان له بالطائف بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم، وكانت له دور كثيرة بمصر ودمشق وحران والجابية. وكان لسعد بن أبي وقاص داراً بناها بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضائها وجعل على أعلاها شرفات.

(١)الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٠٧ / ١٩).

(٢)الطبقات الكبرى ٧٦ / ٣.

(٣)الطبقات الكبرى ١٣٦ / ٣.

(٤)الطبقات الكبرى ٢٢٢ / ٣.

(٥)الطبقات الكبرى ١١٠ / ٣.

فالبذرة التي وضعها عمر تحت عنوان الخراج، جعلت العيون تتطلع إلى أموال الدولة حيث كانت وكل فرد يأخذ منها حجم الخدمة التي يؤديها للنظام.

فمنهم من يأخذ دراهم، ومنهم من يأخذ داراً أو خادماً، ومنهم من يأخذ أرضاً أو ضياعاً. ووفقاً لثروة الدولة نتيجة للفتوحات، كان الفاروق يختار الأمراء وقادة الجند من قبائل مختلفة، فإذا وجد المال والأمير المخلص ضمن الدولة عدم حدوث أي تمرد من أي قبيلة، لهذا لا نستغرب تعيين المنافقين في الدولة العمرية، ولا نستغرب تعيين أبي يزيد النصراني لأنه مدخل إلى بني تغلب، ولإياد بن صبيح الذي كان من أصحاب مسيلمة لأنه مدخل إلى بني حنيفة رافعة لواء التمرد، ولا طلحة بن خويلد الذي ادعى النبوة لأنه مدخل إلى قبيلته حتى لا تنثور، إلى غير ذلك من قبائل العرب، فبيت المال هو في حقيقة الأمر الحافظ للنظام، ولكنه في عهد عثمان كان في حقيقة الأمر المدمر للنظام. وذلك لأن الأغلبية العظمى من الأمراء الذين اختارهم عمر لم يكونوا من الطامعين في الخلافة، أما الأغلبية العظمى التي استعملها عثمان كانت تطمع في الخلافة، والغالبية العظمى في قريش كانت قد ملت عمر لأنه لم يسمح لهم بالخروج.

وفي عهد عثمان انطلقوا فخالطوا الناس وجرى في أيديهم الذهب، وحببوا للناس الإمارة كما أحبوا الملك والرئاسة. واتسعت الطبقة الأرستقراطية القرشية وازدادت قائمة النبلاء، وأمام هذا الاتساع ظهرت الحركات المضادة التي تئن تحت العمامة الأموية. وعندئذ يقف عثمان ويقول: يا أيها الناس إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما، وإنني تأولت فيه صلترحمي. (١) " ولكي يضع عثمان على قراره عباءة القداسة نراه يقول لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: " نشدتك الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشا على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش.

فسكت القوم. فقال: لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيته بني أمية حتى

(١) الطبقات الكبرى ٦٤ / ٣، كنز العمال ٦٢٧ / ٥.

يدخلوا. (١) " ولا ندري لماذا لم يسلك عثمان مسلك رسول الله الذي فضل بني هاشم على سائر قريش، ورضي أن يفضل بني أمية في الدنيا بل وطمع أيضا في الآخرة.

لقد كان لتدفق المال قصص وحكايات، وكان على هذا المال تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التحذير حمله أبو ذر الغفاري، وشاء الله أن يحمله أبو ذر دون خلق الله حتى لا يتهم بأنه من بني هاشم فلا يسمع له.

لقد خرج أبو ذر على طائفة النبلاء في أول طريقهم، حتى لا تحدث كارثة في نهاية الطريق تتعداهم إلى غيرهم حتى قيام الساعة. وكان أبو ذر يحمل منقبة الصدق التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم على لسانه لتكون المنقبة حجة بذاتها على الصحابة في هذا الوقت. فعن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قلت الغبراء ولا أظلت الخضراء عن رجلاً صدق من أبي ذر. (٢) وفي رواية: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذيل هجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبيه عيسى بن مريم. فقال عمر بن الخطاب للحاسد: يا رسول الله أنعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه. (٣)

قال أبو جعفر في مشكل الأثر: والمراد بالحديث التأكيد والمبالغة في صدقه، وتأملنا هذا الحديث لنقف على المعنى الذي أريد به، ما هو؟ فكان ذلك عندنا والله أعلم على أنه كان رضي الله عنه في أعلى مراتب الصدق (٤)، ونحن نقول: إن لكل شيء توقيتاً، فأبو ذر كان في أعلى مراتب الصدق من يوم أن

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه ثقات (الفتح ٣٣٢ / ٣٢٢).

(٢) رواه أحمد بسند جيد (الفتح الرباني ٣٧٠ / ٣٢٢) وابن ماجه والطبراني بسند جيد (كشف الخفاء ٢٣١ / ٢) والترمذي وحسنه (الجامع ٦٧٩ / ٥) وابن سعد (كنز العمال ٢٢٨ / ٤) وابن عساکر (كنز العمال ٦٦٧ / ١١).

(٣) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٧٠ / ٥).

(٤) مشكل الأثر ٢٢٤ / ١.

الصفحة ٤١٢

قال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. ولكن هذا الصدق لا بد وأن يشع عنده فله ليكون على الناس حجة، لأن ما من شيء إلا من أجل هدف ومن وراء هذا الهدف حكمة. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر أبا ذر فقال له:

"ويحك بعدي إذا رأيت البناء قد علا سلعا، فالحق بالمغرب أرض قضاة، فإن هسيأتي عليكم يوم قاب قوسين، أو رمح أو رمحين من كذا وكذا. (١) ونذكر لأبيذر أحداث وأحداث وقال له: "يا أبا ذر كيف أنت عند ولاءه - وفي رواية: كيف أنت وأئمة من بعدي!! - يستأثرون عليك بهذا الفئ؟ قال أبو ذر: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي فأضرب به حتى ألحقك: قال: أفلا أدلك على خير لك من ذلك تصبر حتى تلقاني. (٢)

وأمر النبي صلى الله عليه وآله بالصبر هو من نسيج أمره لأمر المؤمنين على بأن لا يناع، لأن المقام مقام إقامة الحجة. وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل يقرأ هذه الآية: * (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً...) * حتفرغ من الآية ثم قال: يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟ قال قلت:

إلى السعة والدعة أنطلق حتى أكون من حمام مكة. قال: كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟ قال قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة. فقال:

وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟ قال قلت: إذا والذي بعثك بالحق أضعيفي على عاتقي. قال: أو خير من ذلك قال قلت: أو خير من ذلك. قال:

تسمع وتطيع وإن كان عبدا حبشيا - (٣) وفي رواية - ألا أدلك على خير من ذلكتفاد لهم حيث قادوك وتتساق لهم حيث ساقوك حتى تلقاني وأنت علنذلك (٤) وليس معنى أن يسمع ويطيع أن يجاريهم في سياستهم، لأن خروجهم يكون عندئذ له معنى وستكون علامة الصدق معطلة في حالة سمعه وطاعته

-
- (١) ابن عساکر (كنز العمال ١٨٨ / ١١) والطبري في التاريخ (تاريخ الأمم ٦٦ / ٥).
(٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٣٧ / ٢٣)، وابن سعد ولكن بلفظ كيف أنت إذا كان عليك أمراء الطبقات ٣٢٦ / ٤).
(٣) رواه أحمد وإسناده جيد (الفتح الرباني ٣٦ / ٢٣).
(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٠٨ / ٢٣).

الصفحة ٤١٣

لنبلاقریش. وإنما المعنى أن يسمع ويطيع لهم عند قرارهم بنفيه وتسييره كيتنقل الحجة من مكان إلى مكان دون عوائق يضعها أمام نفسه.

وعندما بلغ سلعا، وهي العلامة التي سينطلق عندها أبو ذر بدأت المحن.

فلقد قام أبو ذر بإنذار الذين يكنزون الذهب والفضة. وبدأت القيادة في المدينة المنورة تضيق على عثمان. فعن الأحنف بن قيس قال: كنت بالمدينة فإذا برجليفر الناس منه حين يرونه. قلت: من أنت؟ قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: ما يفر الناس؟ قال: إني أنهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. (١)

أبو ذر لمن حضر: أحدثكم إني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تتهمونني. ما كنت أظن أنني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. (٢) وعندما وجدت الدولة أن أبا ذر بدأ يضرب فيالاتجاه الآخر، وأنه سيعت رواية الأحاديث من جديد وستظهر الحقائق، زادتمن أعطية الناس حتى تغطي هذه الزيادة على عنوان " مال الله دولا " الذي ورد فيالحديث. ولكن أبا ذر مضى في طريقه يحذر من نبلاء قریش، فقال له رجل:

إن أعطياتنا قد ارتفعت اليوم وبلغت، هل تخاف علينا شيئا؟ قال: أما اليوم فلا.

ولكنها توشك أن تكون أثمان بينكم فدعوها وإياكم. (٣)

ولنتهى الأمر بإخراج أبي ذر إلى الريذة واستقبال أبو ذر هذا القرار بالرضا التام، لأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين. (٤) " وبينما أبو ذر يستعد للخروج قال له رجل: أنت أبو ذر؟ قال: نعم، قال: لولا أنك رجل سوء ما أخرجت من

(١) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٧١ / ٢٢).

(٢) مروج الذهب ٢٧٦ / ٢، ابن أبي الحديد ٥٤١ / ٥.

(٣) الحاكم (المستدرک ٥٢٢ / ٤).

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه والضياء وأحمد وابن سعد (كنز العمال ٦٦٨ / ١١).

الصفحة ٤١٤

المدينة، فقال: بين يدي عقبة كؤود إن نجوت منها لا يضرنى ما قلت، وأن أقعفيها فأنا شر مما تقول. (١) وعند خروج أبي ذر ودعه الإمام علي بن أبي طالب قال له: يا أبا ذر إنك غضبت لله فأرج من غضبت له، إن القوم خافوك علندياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتم وما أغناك عما منعوك وستعلم منالرابح غدا والأكثر حسدا، ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثمانتى الله لجعل الله له منهما مخرجا، ولا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك (٢) وتوفي أبو ذر بالريذة، وروى البلاذري أنه لما بلغ عثمان موت أبي ذر قال: رحمه الله، فقال عمار: نعم فرحمه الله من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاص أبر أبيه أتراني ندمت على تسييره، وأمر فدفن قفاه وعندما تدخل المهاجرون تركه. (٣) وهكذا أقيمت الحجة على أصحاب الخواتم الذهبية والفضية الفاخرة والأراضي الواسعة لعلهم أن يرتبوا أوراقهم من جديد على طريق الدعوة. وإذا كان أبو ذر قد لفت الأنظار إلى أمراء بني أمية الذين يسلكون طريقا يتخذون فيه دين الله دخلا، فإن عبادة بن الصامت أعلن احتجاجه هو أيضا على أصحاب هذه الدائرة ويعلن لا طاعة لمن عصى الله. وكان عبادة يومئذ بالشام، وروي أن معاوية كتب إلى عثمان أن عبادة بن الصامت قد أفسد عليا بالشام وأهله فإما أم تكف عني عبادة، وإما أن أخلي بينه وبين الشام، فكتب إليه عثمان: أن رحل عبادة حتى ترجعه إلى داره بالمدينة، فبعث عبادة حتى قدم إلى المدينة، فدخل على عثمان في الدار فالتفت إليه فقال: يا عبادة بن الصامت ما لنا وما لك، فقام عبادة بين ظهراني الناس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيلي أموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تتكرون،

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٢٨ / ٢.

(٢) ابن أبي الحديد ٩٠ / ٣، مروج الذهب ٣٧٧ / ٢.

(٣) البلاذري ٥ / ٥٤، يعقوبي ٢ / ١٥٠.

الصفحة ٤١٥

وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى الله .(١)وعلى عثمان كان أيضااعتراض المقداد بن الأسود، روى مسلم أن رجلا جعل يمدح عثمان، فعمدالمقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلا ضخما يحثوا في وجهه الحصباء فقائه عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذأرأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب .(٢)

وهناك اعتراض آخر لجمع من الصحابة قالوا لأسامة بن زيد: ألا تدخلعلى عثمان فتكلمه؟. فقال: أترون أي لا أكلمه إلا أسمعكم، والله لقد كلمتهفيما بيني وبينه .(٣)قال النووي: والمعنى أظنون أي لا أكلمه إلا وأنتمسمعون.. وفي لحديث وعظ الأمراء سرا وتبليغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا عنه. وهذا كله إذا أمكن ذلك فإن لم يمكن الوعظ سرا والإنكار فليفعله علانيةلئلا يضيع أصل الحق .(٤)ولقد قام زيد بن صوحان بوعظ عثمان أبلغ موعظةقبل الطوفان فقال له: يا أمير المؤمنين ملئت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك -ثلاث مرات .(٥)

- الرد على الاحتجاج السلمي:

لقد خرج أبو ذر وعبادة والمقداد باعتراضهم عام ٣٠ هـ، وفي عام ٣٣ هـكان الحال كما هو عليه فالوليد بن عقبة ونديمه النصراني أبو زييد كانا يشربانالخمير، ويدخل عليهما نصارى بني تغلب ونصارى الحيرة في دار الإمارة حيثكان الوليد يومئذ أمير عثمان على الكوفة. وروي أن الوليد عندما ذهب ليجلسعلى كرسي الإمارة قال له سعد بن أبي وقاص: والله ما أرى أكسبت بعدنا أم

(١)رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٢٧ / ٥).

(٢)رواه مسلم باب النهي عن الافراط في المدح (الصحيح ١٢٨ / ١٨).

(٣)رواه مسلم (الصحيح ١١٨ / ١٨) ك الزهد باب عقوبة من يأمر بالمعروف.

(٤)مسلم شرح النووي ١١٨ / ١٨.

(٥)الطبقات الكبرى ١٢٤ / ٦.

حمقنا بعدك، فقال الوليد: لا تجزعن أبا إسحاق فإنما هو الملك يتغذاه قومويتعشاه آخرون، قال سعد: أراكم والله ستجعلونها ملكا (١)، والوليد هو أخوعثمان لأمه (٢)، ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله تعالى: * (إن جاءكم فاسق...) * نزلت في الوليد (٣)، وقصة صلته بالناس الصبح أربعا وهو سكرانمشهورة مخرجة، وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضا مخرجة، في الصحيحين .(٤)ونتيجة لما فعله الوليد احتج وجوه أهل الكوفةوتوجهوا إلى عثمان وطالبوا بعزل الوليد ولكن عثمان ماطل. وروى البلاذري:

أن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً، فأتوا عليا فشكوا إليه، فأتى عثمانوقال: عطلت الحدود وضربت قوماً شهود على أخيك فقلبت الحكم. وأخرجالبلاذري أيضا: وأتى بعض الشهود عائشة فأخبروها بما جرى بينهم وبينعثمان،

وأن عثمان زيرهم فنادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود. وأخرج صاحب الأغانى: إن عثمان قال: أما يجد مراق أهل العرافوساقهم ملجأ إلا بيت عائشة، فسمعت فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل. فتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد فمن قائل: احسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا؟

حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال. ولم يجد عثمان مفراً أمام هذه الانتفاضة سوا أن يجمع بين الوليد وبين خصمائه ورأى أن ينفذ عليه الحد.

وروي أن سعيد بن العاص جلس على كرسي الإمارة بعد الوليد، وما صعدمنبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل: فنأشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معهم بني أمية وقالوا: إن هذا قبيح والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تذب عن هيلزمه عار هذا أبداً، ولكن سعيداً أبى إلا أن يفعل فغسله. (١) إذا كان سعيد قد

(١) الإستيعاب ٦٣٣ / ٣.

(٢) الإستيعاب ٦٣١ / ٣.

(٣) الإستيعاب ٦٣٢ / ٣، الإصابة ٦٣٧ / ٣.

(٤) الإصابة ٦٣٨ / ٣.

(٥) الطبري ٨٨ / ٥.

الصفحة ٤١٧

طهر المنبر نجد أنه عندما اختار من أهل الكوفة من يدخل عليه ويسمر عنده، قدفجر مشكلة فتحت باباً واسعاً للاحتجاج. روى أنه تفاخر بالخراج وقال: "إنما هذا السواد بستان لقريش". فهذه المقولة كانت بداية وقف الأشرع عندها. وقاله: أتزع أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوقام فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا. وتكلم القوم مع الأشرع، وعندئذ قال قائد شرطة سعيد: أتريدون على الأمير مقالته وأغلظ لهم... فقال سعيد: والله لا يسمر عنهم عندي أحد أبداً. ثم كتب سعيد إلى عثمان: إن رهطاً من أهل الكوفة يؤلبون ويجمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا. (١)

وعلى هذه الرسالة بدأ عثمان ينتهج سياسة جديدة هي سياسة التسيير أيابعاد الناس عن ديارهم إلى مكان آخر يمتاز بغلظة اليد. وكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى معاوية وكان معاوية يومئذ على الشام فسيرهم وهم تسعة نفر إلى معاوية (٢) منهم: زيد بن صوحان وجندب بن كعب وفيهما ورد حديث يدينعه عثمان. روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "جندب وما جندبوزيد الخير وما زيد الخير، أما أحدهما فيضرب ضربة يفرق بين الحق والباطل، وأما الآخر فيسبقه عضو من أعضائه إلى الجنة ثم يتبعه سائر جسده. (٣) وقال:

"من سره أن ينظر إلى رجل سبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان. (٤) ع"

فأما جندب فواجه الوليد بن عقبة (٥) وحكم عليه عثمان بالتسيير. وأما زيد

(١) الطبري ٨٨ / ٥.

(٢) الطبري ٨٨ / ٥، البداية ١٦٥ / ٧.

(٣) رواه ابن عساكر وابن مندة وابن السكن (كنز العمال ٦٦٩ / ١١).

(٤) رواه أبو يعلى وابن عدي والخطيب وابن عساكر (كنز ٦٨٥ / ١١)، وقال ابن كثير رواه البيهقي (البداية ٢١٤ / ٦).

(٥) هو الذي أخبر ابن مسعود وغيره بشرب الوليد للخمر وقاد المعارضة ضده (الطبري ١٧ / ٢).

الصفحة ٤١٨

فهو الذي قال لعثمان: ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك. (١) ثم بايع بعد ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقتل تحت رايته. ومنهم: كميل بن زياد قال صاحب الإصابة: أدرك من الحياة النبوية ثمان عشرة سنة، شهد صفين معلي، وكان شريفا مطاعا ثقة. (٢) ومنهم: جندب بن زهير. قال في الإصابة:

أتى النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومه. قال للنبي صلى الله عليه وسلم:

إني لأرجع من عندك، فلم تقر عيني بمال ولا ولد حتى أرجع فأنظر إليك. وقيل كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق ارتاح لذلك، فنزلت قولته تعالى: * (من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) * . ومنهم: عمرو بن الحمق، قال في الإصابة: روي عن ابن إسحاق ما يقتضي أن عمرو بن الحمق شهد بدرا، وشهد مع علي حروبه كلها. (٤) ومنهم: عروة بن الجعد وهو الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ليشتري الشاة بدينار فاشترى به شاتين، والحديث مشهور في البخاري. (٥) ومنهم: صعصعة بن صوحان قال في الإصابة: كان مسلما في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره. شهد صفين مع علي وكان خطيبا فصيحاً. وقال الشعبي: كنت أتعلم منه الخطب. (٦)

ومنهم: مالك بن عامر الأشتر، الذي شهد الصلاة على أبي ذر حين مات بالريذة، وكان النبي قد أخبر أنه يشهد الصلاة عليه عصابة من المؤمنين. وكان الأشتر قلب هجوم علي بن أبي طالب في صفين.

فهؤلاء الصحابة الأجلاء. (٧) فيهم من شهد بدرا، وفيهم من كانت رؤية النبي أعلى من ماله وولده، وفيهم من أجمع العلماء على أنه ثقة ومأمون

(١) الطبقات الكبرى ١٢٤ / ٦.

(٢) الإصابة ٣٢٥ / ٥.

(٣) الإصابة ٢٥٩ / ١.

(٤) الإصابة ٢٩٤ / ٤.

(٥) الإصابة ٢٣٦ / ٤.

وخطيب، هؤلاء طردهم عثمان لأنهم تصدوا لمن هم من أمثال الوليد وسعيدومعاوية إلى غير ذلك من نبلاء بني أمية. لقد سيرهم إلى الشام وهناك بدأ معاوية يعرفهم بتاريخ آباءه بعد أن قطعت المسيرة شوطا كبيرا على طريق اللارواية.

فقال لهم: ... وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه صلى الله عليه وآله... وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما (١) وفي سباق الأحداث يبدو أن معاوية كان يمهّد الأمر لنفسه بهذه المقولة وكان يطمع في نشرها كما سيظهر فيما بعد. ولكن أحد المبعدين وهو صعصعة قال: قد ولد لهم خير من أبي سفيان من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه (٢) وفي الليلة التالية جمعهم معاوية وقال لهم: أيها القوم ردوا علي خيرا أو استكثروا، وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم وينفع عشائركم وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم (٣) وهنا لوح معاوية بالمال ولكن صعصعة قال: لست بأهل ذلك ولا كرامة لك إن تطاع في معصية الله. فأخبرهم معاوية بأنه يأمر بتقوى الله وطاعته وطاعة رسوله. فقال صعصعة: فأما نأمرك أنتعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك. قال معاوية: من هو؟

فقال: من كان أبوه أحسن قدما من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدما منك في الإسلام، قال معاوية: إن لي في الإسلام قدما، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هودة، فقالوا: لست لذلك أهلا (٤). كتب معاوية إلى عثمان: فإنك بعثت إلي أقواما يتكلمون بألسنة الشياطين، وما يملون عليهم ويأتون الناس زعما من قبل فلان فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون وإنما يريدون فرقة، فقد أفسدوا كثيرا من الناس أهل الكوفة، ولست آمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم

(١) الطبري ٨٩ / ٥، البداية والنهاية ١٦٥ / ٧.

(٢) الطبري ٨٩ / ٥، البداية ١٦٥ / ٧.

(٣) الطبري ٨٩ / ٥.

(٤) الطبري ٨٩ / ٥.

وفجورهم فارددهم إلى مصرهم. فكتب إليه عثمان يأمره أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه (١). وعندما تحدثوا بالقرآن خاف سعيد أن يغروا الناس بسحرهم كما خاف معاوية من قبل فكتب إلى عثمان يضح منهم فكتب عثمان إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أمير حمص (٢).

لقد كانت البداية اعتراض على مقولة: " السواد بستان لقريش " تلك المقولة الظالمة التي عند نتیجتها أولى خرج أبو ذر الغفاري وغيره. ولكن الدولة تعامتعن حركة الغليان في الجانب الآخر، وعلى كؤوس الوليد وشعر أبي زييدوالأقيشر وشعراء الأديرة والخمور خرج جندب ليضرب الشعوذة والدجل والسحرويقاضي الوليد بل والنظام كله. ولكن النظام عاد ليقول: " السواد بستان لقريش " ولم يضع في حساباته أن الخروج السلمي لأبي ذر وعبادة والمقداد قد طرح ثقافةتحذر من بني أمية إذا بلغوا ثلاثين رجلا، ولهذا لم يكن غريبا أن نسمع وفدالمبعدين وهم يطالبون باعتزال معاوية.

- البطانة السوء:

جاءت سياسة التسيير بمزيد من الصعوبات أمام دولة عثمان فبعد أن انقضععام ٣٣ هـ - ٣٤ هـ بدأت الأمصار تضج من ظلم الولاة، فمصر تحت قيادةعبد الله بن أبي السرح أخو عثمان من الرضاة. وكان عبد الله يكتب الوحيللنبي، ثم ارتد مشركا، ويوم فتح مكة أمر النبي بقتله، ولو وجد تحت أستارالكعبة، ولكن عبد الله اختفى عند عثمان. وبعد أن هدأت الأمور في مكة جاء بهعثمان ليستأمن له، ولكن النبي صمت طويلا، ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمانقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن حوله: ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكمفيضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال: إن النبي لا

(١) الطبري ٩٠ / ٥.

(٢) الطبري ٩٠ / ٥.

ينبغي أن تكون له خائنة الأعين .(١)وفي عهد عمر بن الخطاب ولاه عمر علسعيد مصر وفي عهد عثمان ضمت إليه مصر كلها بعد أن عزل عمرو بن العاصعنها. وأمره عثمان أن يغزو بلاد إفريقيا، فإن فتحها فله خمس الخمس منالغنيمة، فسار إليها في عشرة آلاف فافتتحها وقتل خلقا كثيرا من أهلها .(٢)

وعلى الرغم من أن خمس الخمس قد دخل جيبه إلا أنه فرض الضرائب علىمصر حتى اشتكى أهلها. أما في الكوفة فقد اجتمع الناس وتذكروا أعمال عثمانوما صنع، واجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه، فأرسلوا إليه عامر بنقيس. فلما دخل عليه قال: إن ناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالكفوجدوك قد ركبت أمورا عظاما، فانتق الله عز وجل وتب إليه. فقال عثمان: أنظرا لي هذا!! تكلمني في المحقرات، فوالله ما تدري أين الله. فقال عامر: بلى واللهإني لأدري إن الله بالمرصاد لك .(٣)عقب هذا اللقاء أرسل عثمان للمعاوية بن أبي سفيان وإلي عبد الله بن أبي السورعلى سعيد بن العباس وإلى عمرو بن العاص وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم. فلما

اجتمعوا عندهقال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنيكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي،وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلي أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميعما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علي .(٤) فماذا قال الذين تطالب الشعوب بعزلهم؟ قال عبد الله بن عامر: رأيي لكأن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلولوا لك، فلايكون همة أحدهم إلا نفسه .(٥) ..فهذا الرأي جعل الجهاد سقفا له، وفيالميدان إما بقتل. وإما التصفية الجسدية، وأما الابقاء في ثغور العدو، أو

-
- (١)راجع أبو داود حديث ٣٦٦٦، أسد الغابة ٢٥٩ / ٣، البداية والنهاية ١٥٢ / ٧، الإصابة ٣١٧ / ٢، الإستيعاب ٣٧٦ / ٢.
(٢)البداية والنهاية ١٥٢ / ٧.
(٣)الطبري ٩٤ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.
(٤)الطبري ٩٤ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.
(٥)الطبري ٩٤ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

الصفحة ٤٢٢

الحبس في أرض العدو. وهذه أمور نهى عنها الشرع .(١)أما سعيد بن العاصفقال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إنهذا الرأي! لولا ما فيه ! (٢)أما معاوية فقال: الرأي أن تأمر أمراء أجنادكفكيفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام .(٣)لقد أراد معاوية أنتجري في الأمصار بحور الدماء، ولم لا وهم في أيديهم المال والسلاح والجنود.

أما عبد الله ابن أبي السرح فقال: إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المالتعطف عليك قلوبهم .(٤)وهذا الرأي يعني التلويح بالرغيف والزخرف لشراءالدين والنفوس. أما عمرو بن العاص فقال: إنك قد ركبت الناس بما يكرهون،فاعترم أن تعتدل، فإن أبيت فاعترم أن تعتزل، فإن أبيت فاعترم عزما وامضيقدا. فقال عثمان: ما لك قمل فروك. أهذا الجد منك. فسكت عمرو. وعندما تفرق القوم قال: يا أمير المؤمنين قد علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فيتقوا بي فأقود إليك خيرا أو أدفع عنك شرا .(٥)

إن هذا الاجتماع الذي رواه غير واحد من أصحاب التاريخ. هو المقدمة الأولى التي قامت على عثمان فقرارات غرفة المشورة هذه أشعلت النيرانلحسابها الخاص، وذلك بعد أن تمكن المال من نفوسهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما .(٦) " فأصحاب المشورة الذين شاورهم عثمان هم المقدمة الأولى لقيادةفاسدة الفطرة، لأن المال والجاه ولترف هو رأس الزاوية لتحركاتهم. وروي أنعثمان بعد هذا الاجتماع قرر أن يضيق الأمراء على من قبلهم، وأن يجمروالناس في البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا

(١) لسان العرب مادة حجر.

(٢) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٣) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٤) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٥) الطبري ٩٤، ٩٥ / ٥، مروج الذهب ٣٧٢ / ٢.

(٦) رواه الضياء (كنز العمال ٦٢ / ٣).

الصفحة ٤٢٣

إليه (١) ولم يمض عام ٣٤ هـ حتى كتب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعضهم إلى بعض: أن اقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد (٢) وأمام هذه التحولات خطب عثمان في الناس: فقد والله عبت علي بما أقررت لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له ما أحببتهم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي ولقفت يدي ولساني عنكم فاجترأت علي، أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأمن إن قلت لهم أتتالي، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابي، فكفوا عليكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإني قد كفت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيت منه بدون منطقي هذا إلا فما تفقدون من حاكم والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه (٣).

فأمام الزحف الساخط على الأمراء، كشر عثمان عن نابه وأمر بالكف عنالطعن على الولاية، وأخبر أن عمر بن الخطاب كان يطوهم برجله ويضربهم بيدهويقرعهم بلسانه، وعثمان لا يختلف عن عمر لأن عثمان يمسك بذيل هر فيكيفية تولية الأمراء وتوزيع المال. وإذا كانت الثورة قد جاءت لأن عثمان قد لائلهم وكف يده عنهم، فلا، لأنه أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا. فهذا مجملخطاب عثمان أثناء العاصفة. وترتب على ذلك أن أهل الكوفة خرجوا علنأميرهم سعيد بن العاص بالسلاح وردوه إلى عثمان وقالوا: لا والله لا يلي علينا حكما ما حملنا سيوفنا (٤). ولم تجدي أنياب الدولة أمام هذا الموقف شيئا، وبعث عثمان بأبي موسى أميرا عليهم فأقروه (٥).

(١) الطبري ٩٥ / ٥.

(٢) الطبري ٩٦ / ٥.

(٣) الطبري ٩٧ / ٥، البداية والنهاية ١٦٩ / ٧.

(٤) الطبري ٩٥، ٩٦ / ٥.

(٥) الطبري ٩٥، ٩٦ / ٥.

الصفحة ٤٢٤

٧ - العاصفة والبحث عن الذات:

وجاء عام ٣٥ هـ وهو العام الذي سقط في سلته ما ترتب على قرارات صدرت خلال ما يقرب من ربع قرن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

وأقصد بذلك قرار إبعاد علي بن أبي طالب عن مركز القيادة، وقرار التضييق على رواية الحديث ثم منعها بعد ذلك وقرار القص في المساجد، وقرار إلغاء سهم المؤلف قلوبهم، وقرار إنشاء الخراج الذي استفاد منه طبقة على حساب الذين فتحوا الأرض عوة، وقرار تعيين المنافقين. وجميع هذه القرارات وردت فيها أحاديث صحيحة، ورواها أصحاب التاريخ وتقبلها العلماء وأرسلوها إرسالا للمسلمات، ولا يمكن الطعن فيها بأي حال من الأحوال.

وذلك لأن الحديث وحركة التاريخ فضلا عن آيات القرآن الكريم، جميع ذلك لا يلتفت إلى أي اعتراض لأنه سيكون اعتراض قوائمه في ديار الأهواء، والذي دفعني لكي أقول ذلك أنه خلال عام ٣٥ هـ ظهر عند بعض أصحاب التواريخ شخصية اعتبروا أنها السبب الرئيسي في البلاء الذي حط على رحلة المسلمين، وهذه الشخصية هي " عبد الله بن سبأ " أو " ابن السوداء "، وأغلب الظن أن الذين اخترعوا هذه الشخصية أرادوا بها قطع طريق البحث العلمي حتى لا يصل إلى الأسباب الحقيقية التي دفعت بالأمة إلى عالم الاختلاف والافتراق اتباع سنن الذين من قبلهم. والذي ساعد على دق عمود هذه الشخصية في تاريخ المسلمين هو القص الذي اتبع سياسة بث الإسرائيليات والخرافات، فيوقت كان العديد يتقبل هذه الإذاعات بالتسليم التام، نظرا لعدم وجود سياسة لرواية الحديث عن رسول الله.

ومن العجيب أن القاص، وهو يعرض شخصية عبد الله بن سبأ، أخبر بأنهم يستطيع أن يمزق وحدة المسلمين في الشام!! ولازم ذلك أن الشام عليها أمير فقيه في دين الله مهتم بأمة محمد وحدثها. ومن الثابت والذي لا خلاف عليها أن القص كان وجبة أساسية على امتداد العهد الأموي، وتحت ظلاله سبوا أمير المؤمنين علي. في البيوت والحارات والبارات وفي المساجد. وعدم اختراق ابن سبأ للشام جاء عند الطبري على النحو التالي: كان عبد الله بن سبأ يهوديا من

أهل صنعاء أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم. (١)

ولا ندري إذا كان ابن سبأ معروف لأهل الشام حتى أنهم أخرجوه. فلماذا لم يقتله معاوية وهو الذي قتل حجر بن عدي بعد ذلك تحت دعوى أنه خطر على النظام. أو لماذا لم يسيره إلى عثمان وهو الذي كتب إليه من قبل أن أهلا الكوفة يتحدثون بالسنة الشياطين وأنه غير أمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم؟! وإذا فرضنا أنه لم يستطع القبض عليه لهروب، فلماذا لم يقبض عليه أي أمير من أمراء الدولة، وهم أصحاب العيون الفتوحة على كل ما يهدد أمنهم؟ ولماذا لم يظهر ابن سبأ يوم قتل عثمان ضمن المجموعة التي اغتالته. وإذا كان كارها لعثمان لماذا لم نسمع له اسما في معارك علي بن أبي طالب كلها. ثم لماذا لم يبحث عنه معاوية يوم أن جلس

على رقبة الأمة، وهو الذي كان يبحث عن المعارضين تحت كل حجر، وأتى بعمر بن الحمق قطع رأسه وأهداها إلى زوجة عمرو، فكان أول رأس أهدى في الإسلام؟

ونحن إذا نظرنا في العمود الفقري للدعوة التي قام بها عبد الله بن سبأ نربالعجب، جاء في تاريخ الطبري: قال ابن سبأ لهم: إنه كان ألف نبي، ولكل نبيوصي، وكان علي وصي محمد. وقال: محمد خاتم النبيين، وعلي خاتماً لأوصياء. وقال: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتناول أمراً لأمة. وقال: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وأبدوا الطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (٢) " هذه دعوة الشخصية الخرافية المنبوذة جعلوها على لسانه لتكون دعوة خرافية منبوذة، أو في عالمهم وعصرهم أو هموا الناس وقفا لسياسة

(١) الطبري ٩٨ / ٥.

(٢) الطبري ٩٨ / ٥.

النص. أن ابن سبأ شخصية حقيقية، ثم على لسانه وضعوا ما يعتبرونه شذوذاً كبيراً فرضه الناس، وفي صلب الدعوة نجد أنهم وضعوا وتدا مهما هو أن الطعن علنا لأمراء جريمة من فعلها يكون قد اقتفى أثر ابن سبأ اليهودي، وليس من الصدقة أن نرى هذا الكم من الأحاديث الموضوعية التي تحض على طاعة الأمراء. ثم نجد وتدا لا يستحق النقاش هو أنهم جعلوا موقع علي بن أبي طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم في دائرة الشذوذ، ليفسحوا الطريق أمام أمرائهم.

ويكفي في هذا المقام أن نقول بأن الله خيب سعيهم، لأن وضع الحقيقة في دائرة الخرافة على عهدهم دليل على أن الله طائفة لا يضرهم من خالفهم أو ناوأهم أو خذلهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. (١) "

وفي رواية: " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس. (٢) " وفي رواية: " لا تزال الطائفة من أمتي ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى ابن مريم. (٣) " وعلى ذلك فإنهم ما وضعوا الحقيقة في دائرة الخرافة إلا عندما أحسوا بوقع أقدام هذه الطائفة فأرادوا أن يعزلوها عن الناس بفعلهم هذا.

إن طائفة الحق ظاهرة في عالم اللارواية، ولن يعتم عليها القص، لأن الله قضى ذلك، وطائفة الحق ظاهرة مهما كانت قوة من ناوأهم أو خذلهم أو خالفهم. فتكون الطائفة على الأرض تحت الظلال وقد يكون من ناوأهم فوق السحاب وتحت الشمس، ولكن الظهور لها لأن الله أراد ذلك. وليس معنى أن الطائفة ليس لها مكان على الأرض إنها

غير موجودة. فعيسى بن مريم لم يمتلك شبرا واحدا من الأرض ولكن وجوده على الأرض أظهر، وهكذا شاء الله. والخلاصة:

أن ابن سبأ شخصية يسأل عنها القائلين على سياسة القصر، فهو شخصية خرافية، جعلوا على لسانه حقائق وخرافات أراد إعلام النبلاء أن يبثها على

(١) رواه الإمام مسلم (الصحيح ٦٥ / ١٣) ك الجهاد.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٦٧ / ١٣) ك الجهاد.

(٣) رواه أحمد والحاكم وأبو داود (الفتح الرباني ٢١٠ / ٢٣).

الصفحة ٤٢٧

الأسماع، رغبة منه في إيجاد رأي عام يؤيد ما تراه السياسة حقيقة أو خرافة.

ولقد قال غير واحد من الباحثين إن شخصية ابن سبأ لا وجود لها في التاريخ. (١) ولم يذكر ابن سبأ في العديد من الكتب التي سبقت تاريخ الطبري ومنها كتاب مروج الذهب للمسعودي.

ومما سبق نعلم أن الساحة كان بها أكثر من تيار ضد عثمان. فتيار كان يعمل من أجل تغيير الأمراء في الأمصار، وتيار كان يرى أن عثمان مسؤول ومسئولية مباشرة عن سياسة الأمراء، ونقموا منها أشياء منها: إرجاعه للحكم بنأبي العاص الذي لعنه رسول الله ونفاه وغير ذلك، وهذا التيار كان يريد خلع عثمان ليتولى السلطة أحد غيره. وكان هناك تيار يريد أن يعود إلى الأمر الأول الذي في دائرته علي بن أبي طالب، وذلك بعد أن فشلت أطروحة الاجتهاد والرأي في قيادة الأمة، وخلفت وراءها أمراء النفاق والفتن وطبقات من النبلاء، وأخرى من المحرومين، ومدونات من الشعر والقص. وهذا التيار حكما بوجوده وفقا لأطروحة ابن سبأ فلو لم يكن له وجود ما اخترعوا له شخصية ابنسبأ، وبالأخص أننا لم نقرأ نسا واحدا ينادي بعلي بن أبي طالب حول بيت عثمان يوم حصاره. والذي قرأناه أن هناك من كان ينادي بطلحة، وليس معنعدم وجود أصوات لعلي ومؤيديه له يصرخون ويولولون حول بيت عثمان أنعليا كان وحده، ويكفي علي أن يكون معه عمار، وأبو أيوب الأنصاري، وحذيفة، وأبو قتادة، وبريدة، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، والبراء بنعازب، وزيد بن صوحان، وغير هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين، وروي أنالصحابة أشاروا على عثمان بأن يرسل من يثور به إلى الأمصار كي يتبين حقيقة الأمور، فأخذ عثمان بهذه المشورة وبعث برجال إلى الأمصار كي يققوا على حقيقة الإذاعة ضده وموقف الأمراء من الرعية. وعندما عادوا أخبروه بعدم وجود إذاعة ضده إلا أن الأمراء يظلمون الناس، فبعث عثمان إلى عمال الأمصار، معاوية، وابن عامر، وابن أبي السرح، وأدخل معهم في المشورة سعيدا،

(١) راجع كتاب عبد الله ابن سبأ / للعلامة مرتضى العسكري.

وعمرأ، وعندما قدموا عليه قال: ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة، إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بي. (١)

ومن العجيب أنهم أصروا على وجود إذاعة ضده، على الرغم من أن الذين بعث بهم عثمان إلى الأمصار نفوا ذلك. وعندما أخبرهم عثمان بما انتهى إليهم قالوا: لا والله ما صدقوا ولا بروا، وإن ما نقل إليك لا يحل الأخذ به ولا الانتهاء إليه، ثم أكدوا الإذاعة ضده. فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع في السر فيلقى به غير ذي معرفة، فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم. قال عثمان: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرجهم هذا من عندهم. (٢) لقد أراد أن يلقي بمزيد من الزيت على النار، وأشار كل واحد منهم بمشورة لا تستقيم مع كون الأمة أمة واحدة، وقال عثمان: كل ما أشرت به علي قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه. (٣) وبعد هذا اللقاء حدث أمر هاميلقي بظلاله على المسيرة بعد ذلك، فلقد روي أن عثمان بعد هذا اللقاء خرجوا كان يسير خلفه كعب الأحبار، ولا ندري ما هو دور كعب في هذا اللقاء الذي كان قريبا منه، ولكن الذي نعلمه أن كعبا كان بعد فتح بيت المقدس يقيم بالشام عند معاوية، وكان كثير الانتقال بين الشام وبين المدينة، وأن معاوية أمره بالقصفي المساجد بالشام، ثم اتخذه مستشارا له وكان يعده من العلماء، روي بعد خروج عثمان رجز الحادي:

قد علمت ضوامر المطي * وضمرات عوج القسي

أن الأمير بعده علي * وفي الزبير خلف رضي

فقال كعب وهو يسير خلف عثمان. الأمير والله بعده صاحب البلغة وأشار إلى معاوية، وروي أن كعبا قال عندما سمع الشعر: كذبت صاحب الشهاب بعده - يعني معاوية - وعندما أخبر معاوية بما قاله كعب سأله، فقال كعب: نعم

(١) الطبري ٩٩ / ٥.

(٢) الطبري ٩٩ / ٥.

(٣) الطبري ١٠٠ / ٥.

أنت الأمير بعده، ولكنها لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي هذا، فوقع فينفس معاوية. وفي رواية: ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمة على عثمان حين جمعهم ثم ارتحل فحدا به الراجز:

أيها الأمير بعده علي * وفي الزبير خلف رضي (١)

ماذا يستفاد من ذلك؟ لقد قال كعب لعمر من قبل أن أوصافه مذكورة فيالتوراة، فهل أخبر معاوية بأن له أوصاف ظاهرة في كتب الأولين؟ وأن أهم هذاالأوصاف أنه سيلي أمر هذه الأمة، ولن يلي هذا الأمر حتى يكذب بهذا الخبر، نظرا لتواضعه وحيأؤه وملكات نفسه التي شبعت من غذاء الروح، فهي لا تجوعأبدا ولا تطلب شبعاً من قيادة أو غيرها! وهل أراد كعب أن يخرج معاوية بأقصىسرعة من دائرة التكذيب بحديثه إلى دائرة الاصرار إلى نيل الخلافة؟ لقد قالمعاوية للوفد الذي سبره عثمان إليه حين طالبوه باعتزال السلطة: والله إن لي فيالإسلام قدما، ولغيري كان أحسن قدما مني، ولكنه ليس في زمني أحد أقوعلى ما أنا فيه مني .(٢)أليس في هذا ما أراد كعب؟ ففي فترة ما كان معاوية أنيعتقد أن هناك من أحسن منه، وهذا الاعتقاد جعله لا يسرع في الأمر لأنه لوأسرع لكذبتة نفسه في بلوغ الهدف، ثم جاءت مرحلة الاصرار حيث ليس فيزمامه أحد أقوى على ما هو فيه منه.

ثم يحق للباحث أن يتساءل، لقد كان كعب الأحبار قريبا من عمر. ورويان عمر قال لأصحاب الشورى: إن اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيانمن الشام .(٣)فهل كان في هذا إغراء لمعاوية بالخلافة يكون مدخلا لما قالهكعب بعد ذلك؟ ثم لقد روي أن عمر قال: " يا أهل الشام استعدوا لأهللعراق (٤) " فهل في هذا إغراء آخر ازداد بريقه في عهد عثمان حيث كانت

(١)الطبري ١٠٠ / ٥.

(٢)الطبري ١٠٩ / ٥.

(٣)الطبقات الكبرى ٧٣٥ / ٥.

(٤)ابن سعد في الدلائل (كنز العمال ٣٥٤ / ١٢).

المعارضة في العراق قد بلغت الذروة؟ والباحث يمكن أن يرى بسهولة أنالاعراء قد تمكن من نفس معاوية، وذلك من خلال أقواله وأفعاله بعد أن أخبرهكعب الأحبار بأن الأمر إليه بعد عثمان، فقبل أن يتوجه معاوية إلى الشام، خرجمن عند عثمان وعليه ثياب السفر متقلدا سيفه متكبكا قوسه، فإذا هن بنفر منالمهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي، وهم الذين جاء ذكرهم في رجز الحاديبخصوص الخلافة بعد عثمان، فقام معاوية عليهم فتوكأ على قوسه بعدما سلمعليهم ثم قال: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبن إلى رجال، فلم يكن منكم أحد إلا وفي فضيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولايشهده ولا يؤامره، حتى بعث الله نبيه، فكانوا يرأسون من جاء من بعده وأمرهمشورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد. فإن أخذوا بذلك وقاموا عليهكان الأمر أمرهم والناس تلهم، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالل سلبواذلك وردة الله إلى ما كان يرأسهم، وإلا فليحذروا الغير فإن الله على البذل قادروله المشيئة في ملكه وأمره، إنني خلفت فيكم شيئا فاستوصوا به خيرا وكانفوهتكونوا أسعد منه حالا ". ثم ودعهم فقال علي: ما كنت أرى في هذا خيرا .(١)

أهم أعمدة هذا الخطاب أراد معاوية أن يذكرهم بأنه قبل الإسلام كانت القيادة في قريش إلى رجال (٢)، وأنهم كانوا يرجعون أمورهم إلى هؤلاء الرجال الذين كانوا يستبدون عليهم ويقطعون الأمور، دون أن يشاوروا غيرهم. وعندما جاء الإسلام جعل الأمر شورى والتفاضل بالسابقة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك كانوا لأمر لهم والناس تبع لهم، وأن أبوا خلاف ذلك رد الله القيادة إلى من كانوا أسهم قبل الإسلام. ثم حذرهم الغير هذا، لأن الله على البديل قادر، فالبديل إذا جاء بأمر الله، فسبحانه له المشيئة في ملكه وأمره. ولم ينس معاوية أن يضع بينه وبينهم شيئا، ثم أوصاهم به، لأن هذا الشيخ ربما يكون طريقا إلى البديل إذا حدث له أي مكروه.

(١) الطبري ١٠١ / ٥.

(٢) ومنهم أبو سفيان وكان معاوية قد قال للوفد الذي سببه إليه عثمان، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها (الطبري ٨٩ / ٥).

الصفحة ٤٣١

هكذا تحدث معاوية بعد إذاعة كعب، ولذا قال الإمام علي: ما كنت أري أن في هذا خيرا. وروي أن معاوية قال لعثمان: انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزلوا (١). ومعنى هذا أن يكون اسم الخلافة بالشام فتكون من معاوية ومعاوية منها. ولكن عثمان لم يوافق على ذلك فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغرين (٢).

وانطلق معاوية إلى الشام وهو يبحث عن ذاته وسط العاصفة، مسترجعا وصية أمهله حين ولاه عمر .

- ٨ من الذي قتل عثمان؟

إن عثمان قتل في نهاية طريق. كانت بدايته ربما بلا عواصف وغالبا لا يرى الإنسان إلا بداية الطريق أو وسطه أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن يجيء. وفي نهاية الطريق كانت هناك عواصف عاتبة. لقد فتحت الدولة أبوابها للمنافقين أصحاب السواعد القوية. ومن نفس الباب جاء عثمان بعبد الله بن أبي السرح الذي أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه. ليجعله واليا على مصر بعد أن جعله عمر أميرا على الصعيد. كما جاء عثمان بالوليد بن عقبة وجعلها واليا على الكوفة بعد أن جعله عمر أميرا على بني تغلب. ثم أحضر الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله وأعطاه من غنائم المسلمين. واتخذ مروان ابنهم مستشارا له ومروان في البداية هو مفتاح قتل عثمان وفي النهاية هو الذي شق عصا المسلمين بلا شبهة. ولم يكتف عثمان بذلك قبل فتح أبواب بيت المال للنبلاء بني أمية والطبقة المميزة من قريش. وعندما قامت عليه الثورة وجد أمامه وحده كل هذه الأخطاء وطالبوه وحده بالتوبة، وروى الطبري أن المصريين عندما قدموا عليه قالوا له: أدع بالمصحف؟ فدعا بالمصحف فقالوا له: إفتح السورة السابعة وكانوا يسمون سورة يونس السابعة. ثم أمره أن يقرأ. حتى أتى على

(١) الطبري ١٠١ / ٥، البداية والنهاية ١٦٩ / ٥.

(٢) الطبري ١٠١ / ٥، البداية والنهاية ١٦٩ / ٥.

الصفحة ٤٣٢

قوله تعالى: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون (١) (فقالوا له: قف. أرأيتم ما حميت من الحمائل أذن لك أم على الله تفتري؟ قال: وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلي لابل الصدقة. فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما ناد في إبل الصدقة... ثم أخذوه بأشياء لم يكن عنده منها مخرج فعرفها فقال: أستغفر الله أتوب إليه ما تريدون؟ قالوا: نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء. فإنما هذا المألل قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فرضي عثمان بذلك وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ولا يفرقوا جماعة ما قام لهم بشروطهم (٢).

ويا ليت الأمر سار على هذا. ولكن بني أمية مكروا مكروهم روى الطبري: لما قدمت إبل الصدقة على عثمان بعد ذلك وهبها لبعض بني الحكم بن أبي العاص.

فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها في الناس وعثمان في الدار (٣).

والأكبر من ذلك أن المصريين عندما تصالحو مع عثمان على أن لا يشقوا عصاما قام بشروطهم. فوجئوا في طريقهم بأبي الأعور السلمي الذي لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أهدر النبي دمه. وفيها يأمره عثمان بصلبهم أو قتلهم أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وعلى الرسالة خاتم عثمان: ولقد أنكر عثمان ذلك ومن سير الأحداث تبين أن الذي وراء هذه الرسالة هو مروان بن الحكم بن أبي العاص الذي لعنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو في صلب أبيه.

إن الذي قتل عثمان سياسة سهرت عليها بطانة سوء من أمثال معاوية وعمرو مروان وابن أبي السرح وغيرهم، وما تصدى لعثمان إلا الصحابة وأبناء الصحابة، وليس من الحقيقة في شئ أن يقال: إن الذين ألبوا وساعدوا وقتلوا

(١) سورة يونس: الآية ٥٩.

(٢) الطبري ١٠٧ / ٥.

(٣) الطبري ١١٤ / ٥.

الصفحة ٤٣٣

عثمان هم مجموعة من أتباع عبد الله بن سبأ أشهر شخصية خرافية في تاريخ المسلمين، أو إنهم مجموعة من الرعاع والدهماء والعامّة، فالذين قاموا بهذامجموعة من الصحابة منهم على سبيل المثال:

● معاوية بن أبي سفيان:

لقد كان له حلمه الخاص. وعندما واجهتعثمان المخاطر. كتب إلى معاوية: أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعبوذلول. وعندما جاء معاوية الكتاب وعلم اجتماع الصحابة على عثمان!

تباطئ (١)، وعندما علم عثمان إبطاء معاوية. تعدها وكتب إلى أهل الشام يستنفرهم ويعظم حقه عليهم. وقال لهم: فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإن القوم معاجلي. فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد القسري وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا (٢) ولقد جرى كل هذا ومعاوية بعيد كل البعد ولا يشغله إلا ما أخبره بهكعب.

ومنهم السيدة عائشة أم المؤمنين. لقد كانت رضي الله عنها أول من كفر عثمان. وذلك حين علمت أن الوقت ليس في صالحه وأن الثورات التي تتوالى عليه ستهلكه لا محالة. روي أنها قالت عندما عطل عثمان الحد عن الوليد بن عقبة وضرب الشهود الذين شهدوا عليه بأنه ينادم أبا زبيد ويشرب مع الخمر قالت: " اقتلوا نعثلا فقد كفر (٣) " ، قال في لسان العرب: النعتل الشيخالأحمق وكان أعداء عثمان يسمونه نعثلا. وفي حديث عائشة: " اقتلوا نعثلا. قتل الله نعثلا... " تعني عثمان وكان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلى مكة (٤) أي: قولها الذي ذكره صاحب لسان العرب كان عند الثورة الأخيرة عليه. وما

(١) الطبري ١١٥ / ٥.

(٢) الطبري ١١٦ / ٥.

(٣) النهاية لابن الأثير ٥ / ٨٠، تاريخ أئتم ص ١٥٥، شرح النهج ٧٧ / ٤.

(٤) لسان العرب مادة نعتل ص ٤٤٧٠.

ذكرناه نحن كان في الثورة الأولى عليه يوم الوليد بن عقبة. وروي أن مروان بنالحكم يزيد بن ثابت قدما إلى أم المؤمنين وهي تريد الحج وعثمان محصور فقالا لها: يا أم المؤمنين. لو أقيمت فإن أمير المؤمنين على ما ترين محصور ومقامك مما يدفع الله به عنه. فقالت: قد حلبت ظهري وعريت غرائزي ولست أقدر على المقام فقال مروان:

وحرقت قيس على البلاد * حتى إذا استعرت أجداما

فقالت: أيها المتمثل علي بالأشعار. وددت والله أنك وصاحبك هذا الذي عنيك أمره. في رجل كل واحد منكما رحا وا نكما في البحر. وخرجت أم المؤمنين إلى مكة (١).

• ومنهم طلحة بن عبيد الله. روى الإمام أحمد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: شهدت عثمان يوم حوصره. فرأيت عثمان أشرق من الخوخة فقال: أيها الناس أفيكم طلحة. فسكتوا - فكررنا ثلاثا - فقام طلحة. فقال له عثمان:

الأراك هنا، ما كنت أرى أن تكون في جماعة تسمع ندائي آخر ثلاث مرات ثم لاتجيبني (٢)، وفي رواية: قال طلحة: نعم؟ فقال عثمان: فإننا لله وإنا إليه راجعون، أسلم على قوم أنت فيهم فلا تردن. فقال: قد رددت قال: ما هكذا الرد أسمعك ولا تسمعني يا طلحة (٣) وكان عثمان يقول: اللهم اكفني طلحة فإنهم علي هؤلاء (٤) وروى ابن أبي الحديد: أن طلحة كان يوم قتل عثمان مقتنعا بثوب استتر به عن أعين الناس وكان يرمي الدار بالسهم (٥) وروى الطبري: أنهم عندما قتلوا عثمان خرج سودان بن حمران يقول: أين طلحة بن

(١) الطبقات الكبرى ٣٧ / ٥.

(٢) رواه أحمد وروى النسائي بعضه (الفتح ١١٢ / ٢٣).

(٣) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ١١٢ / ٢٣).

(٤) الطبري ١٢٢ / ٥.

(٥) ابن أبي الحديد ٤٠٤ / ٢.

الصفحة ٤٣٥

عبيد الله قد قتلنا ابن عفان (١) ومن العجب العجاب أن أم المؤمنين عائشة وطلحة ومن معهما خرجوا على إمام المتقين علي بن أبي طالب يطالبون بالثأر لعثمان. وروى الحاكم عن علقمة بن وقاص قال: رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت له: يا أبا محمد إنني أراك وأحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على زورك إن كنت تكره هذا الأمر فدعه. فليس يكرهك عليه أحد فقال: يا علقمة بن وقاص. لا تلمنيكنا أمس يدا واحدة على من سوانا فأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدهما على صاحبه ولكنه كان مني في أمر عثمان ما لا أرى كفارته إلا أن يسفك دميفي طلبه (٢) ، وكان بنو أمية يعلمون أن طلحة له نصيب كبير في قتل عثمان.

لذا نجد مروان يجد في قتل طلحة يوم الجمل. وعندما ظفر به وقتله قال: واللله أطلب قاتل عثمان بعدك (٣) وكان عبد الملك بن مروان يقول: أخبرني أمير المؤمنين مروان أنه هو الذي قتل طلحة. ولولا ذلك ما تركت من ولد طلحة أحدا إلا قتلته بعثمان (٤).

• ومنهم عمرو بن العاص كان مستشارا لعثمان وعندما عزله عثمان عن مصر انقلب على عثمان. وظلت مصر هي شاغلة الأول والأخير على امتداد حياته. قال في أسد الغابة: لما استعمل عثمان عبد الله بن أبي السرح على مصر وعزل عنها عمرو بن العاص. جعل عمرو يطعن على عثمان ويؤلب عليه ويسعفي إفساد أمره (٥) وانتقل عمرو إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشركبير فكلمه فيما كان من أمره. وتقاولا في ذلك واقتخر عمرو بأبيه على عثمان وأنه كان أعز منه، وجعل عمرو يؤلب الناس على عثمان (٦)، وروى الطبري:

لما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان. فأرسل إليه عثمان وقال له: يا ابن

(١) الطبري ١٢٣ / ٥.

(٢) الحاكم (المستدرک ١١٨، ٢٧٢ / ٣).

(٣) الطبقات الكبرى ٢٢٣ / ٣، أسد الغابة ٨٨ / ٣.

(٤) الطبقات الكبرى ٢٢٣ / ٣.

(٥) أسد الغابة ٣٦٠ / ٣.

(٦) الطبري ١٠٨ / ٥، البداية والنهاية ١٧٠ / ٨.

الصفحة ٤٣٦

النابعة ما أسرع ما قمل جربان جبتك إنما عهدك بالعمل عاما أول. أتطعن عليوتأتيني بوجهه وتذهب عني بأخر والله لولا أكلة ما فعلت ذلك... لقد استعملت على ظلعك وكثرة القالة فيك. فقال عمرو: قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب فارقني وهو عني راض (١)، وعندما اجتمع الناس على عثمان ناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت نهائير لوركنها معك فتب إلى الله نتب. فناده عثمان: وا إنك هناك يا ابن النابعة تملت جبتك من تركتك من العمل. فناده الناس من ناحية أخرى: يا عثمان تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك (٢) وروى الطبري: أن عمرو كان يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان (٣)، وعندما خرج عمرو إلى منزله بفلسطين مر بهراكب فناده عمرو وقال: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان. قال: قتل، فقال عمرو:

أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأنها إن كنت لحرصن عليه حتى أني لأحرصن عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل (٤)، ومن العجب العجاب أن ابن النابعة بعد ذلك يهرول في إتجاه معاوية ويكي عثمان المظلوم ويشارك معاوية في قتال إمام المتقين علي بن أبي طالب نظير أن يعطيه معاوية مصر طعمة.

• ومنهم مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد كانت مهمة مروان تصعيد العنف على عثمان، وعندما قتل عثمان تاجر مروان بدمعثمان شأنه في ذلك كشأن جميع أصحاب المصالح من النبلاء وتجار الأديان.

روي أن عثمان عندما تصالح من الثوار أول مرة ورجع الثوار إلى مصرهم. خرجوا خطب في الناس فرق الناس له يومئذ وبكى من بكى. وعندما عاد إلى منزله وجد مروان وسعيد بن العاص ونفرا من بني أمية فقال مروان: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا. فإن خطبتك تفسر في البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم فيأتيتك من

(١) الطبري ١٠٨ / ٥.

(٢) الطبري ١١١ / ٥.

(٣) الطبري ١٠٨ / ٥.

لا تستطيع دفعه. ولم يزل به مروان حتى خرج وقال بما أشار به مروان (١).

فهاج الناس عليه. وعندما تدخل علي بن أبي طالب لتهديئة الناس استمع الناس إليه. ليتكرر المشهد مرة أخرى مع ثوار آخرين. وعندما اجتمع الناس على بابعثمان قال عثمان لمروان: اخرج إليهم فكلهم. فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جنتم لنهب. شاهت الوجوه كل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد. جنتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا. غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا، وعندما سمعت نائلة امرأة عثمان ذلك قالت لعثمان: إنك إن أطعتمروا قتلك (٢) وعندما توجه وجوه الناس إلى دار عثمان لتهديئة الخواطر خرج مروان وقال: شاهت الوجوه إلا من أريد. ارجعوا إلى منازلكم فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه. وإلا قر في بيته (٣) وسمع علي بما قالهمروان وعندما جاءه رسول عثمان يبلغه أن يأتي عثمان. قال علي بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائذ (٤) وكان علي يقول لعثمان قبل ذلك: إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة. فكل ذلك نخرج فتكلم ونقولوتقول. وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية.

أطعتمهم وعصيتي (٥)، لقد كان الإمام يعلم إلى أين ستنتهي الأحداث وفقا لما أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم فكان يحذر ويراقب من بعيد ليقم الحجة على من شهد أنه ما قتل وما أمر بقتل. وكان صوته بعيدا عن دائرة القتال. وكان صوته حجة في دائرة المقتول. كان يفعل ذلك لعلمه بأنهم سيخلطون بين الدائرتين من أجل إنتاج دائرة جديدة يكونون فيها أصحاب جور.

(١) الطبري ١١٠ / ٥.

(٢) الطبري ١١٢ / ٥، البداية والنهاية ١٧٣ / ٧.

(٣) الطبري ١١٢ / ٥، البداية والنهاية ١٧٣ / ٧.

(٤) الطبري ١١٢ / ٥، البداية والنهاية ١٧٣ / ٧.

(٥) الطبري ١٠٩ / ٥.

وفي دائرة الإمام كان يقف معه الحسن والحسين. فالحسن كانا يدفعان العدوان عن عثمان. لكي يفهم أصحاب العقول أن الذي يدافع عن شيء لا يمكن أن يهجم عليه. وكم في عالم الحجة من حكمة بالغة.

فهؤلاء الذين ذكرنا كانوا من المحرضين والمساعدين على قتل عثمان ثمتاجروا بدمه بعد ذلك. ويبقى قسم آخر وقفوا في دائرة الثوار فأغلظوا لعثمانورفضوا الوقوف بجانبه من هؤلاء:

• عمار بن ياسر: الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: " منعادي عمارا عاداه الله ومن أبغض عمارا أبغضه الله. (١) " وقال عن عمار: " ماخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما(٢) " ، وقال: " إذا اختلف الناس كان ابن سمي مع الحق(٣) " ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين مناقبه التي أودعها الله فيهلحكمة بالغة. ولقد ذكر ابن كثير أن عثمان ضرب عمار بن ياسر (٤)ولكنناختلفوا في سبب ضربه وذكر المسعودي: أن القبائل اعترضت على ضربعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود (٥)، وروى ابن كثير والطبري: أن القوم طلبوا من عمار أن يرد الثوار فقال عمار: والله لا أردهم عنه أبدا (٦)، وقال ابن كثير:

كان عمار يحرض الناس على عثمان ولم يقلع ولم يرجع ولم ينزع (٧)، وكانعمار له موقف ثابت من بني أمية. كما أنه كان يعلم أسماء المنافقين الاثنى عشرالذين أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من تبوك.

-
- (١)رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٩٣ / ٩) (الفتح ٣٢٩ / ٢٢).
(٢)رواه الحاكم وأقره الذهبي ورواه أحمد (الفتح الرباني ٣٣٠ / ٢٢)، (المستدرک ٢٨٨ / ٢) ورواه الترمذي وحسنه الجامع ٦٦٨ / ٥).
(٣)رواه الطبراني (كنز العمال ٧٢١ / ١١).
(٤)البداية والنهاية ١٧١ / ٧.
(٥)مروج الذهب ٣٧٣ / ٢.
(٦)الطبري ١١٠ / ٥، البداية ١٧١ / ٧.
(٧)البداية ١٧١ / ٧.

•ومنهم زيد بن صوحان.زيد وما زيد! ولقد تحدثنا عنه من قبل. وهو الذي سيره عثمان من الكوفة إلى الشام، ثم من الكوفة إلى حمص. وقد خرجثوار الكوفة إلى المدينة في أربع رايات، كان بينهم زيد ومالك الأشر، وقال فيالإصابة: كان زيد فاضلا دينا سيدا في قومه (١)وقال: كان زيد يحب سلمانالفارسي ومن شدة حبه له اكتنى أبا سلمان. (٢)

•ومنهم: عبد الرحمن بن عديس خرج ثوار مصر إلى المدينة في أربعرايات كان عبد الرحمن فيهم ومعه كنانة بن بشر الليثي فأما ابن عديس فكان ممنبايع تحت الشجرة (٣)وأما كنانة فكان من الصحابة الذين أدركوا النبوة. (٤).
•ومنهم: جبلة بن عمر الساعدي. قال في الإستبصار: كان من فضلاء الصحابة (٥)شهد أحدا (٦)قال ابن كثير والطبري: مر عثمان على قوم فيهمجبلة. فسلم فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون عليه. ثم أقبل على عثمان فقال:

والله لأطرحن هذه الجامعة. وكانت في يده جامعة - أو لتتركن بطانتك هذه. قالعثمان: أي بطانة فوالله لأتخير الناس. فقال جبلة: مروان تخيرته! ومعاوية تخيرته! وعبد الله بن عامر تخيرته! وابن السرح تخيرته! منهم من نزل القرآن بدمهوأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه (٧)، وروى أن عثمان مر بجبلتهوهو بفناء داره فقال: يا نعتل والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوب جرباءولأخرجنك إلى حرة النار. ثم جاء جبلة مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزلعنه (٨).

(١)الإصابة ٤٥ / ٣.

(٢)الإصابة ٤٦ / ٣.

(٣)الإصابة ١٧١ / ٤.

(٤)الإصابة ٣٢٥ / ٥.

(٥)الإستبصار ١٣٦.

(٦)الإصابة ٢٣٣ / ١.

(٧)البداية ١٣٦ / ٧، الطبري ١١٤ / ٥.

(٨)البداية ١٧٦ / ٧، الطبري ١١٤ / ٥.

الصفحة ٤٤٠

•ومنه: جهجاه الغفاريقال في الإصابة: شهد بيعة الرضوان روى لهالشيخان (١)وقال الطبري: كان عثمان يخطب على عصا النبي صلى الله عليهوسلم التي كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر. فقال له جهجاه: قم يا نعتل فانزلعن هذا المنبر وأخذ العصا فكسرها (٢).

•ومنه: أعين بن ضبيعة.روى الإمام أحمد أن عثمان قال: إنا والله قدصحبنا رسول الله. وكان يعود مرضانا ويغدوا معنا ويواسينا بالقليل والكثير. وإنا ناسا يعلموني به عسى أن لا يكون أحدهم قد رآه قط، فقال له أعين بن امرأةالفرزدق: يا نعتل إنك قد بدلت (٣).

•ومنه جرو ل بن مالك وعمرو بن بديل وعمرو بن حزم الأنصاريوهؤلاء جميعا من الصحابة. وكان منهم أبناء الصحابة من أمثال محمد بن أبيبكر ومحمد بن أبي حذيفة، ولقد اعترضنا على عثمان لمخالفاته الكثيرة وعاباعليه استعماله بدين أبي السرح لأنه ارتد وكفر بالقرآن وأباح الرسول صلى الله عليه وسلم دمه (٤)وعندما اقتحم الثوار دار عثمان قال له محمد بن أبيبكر: ما أغنى عنك معاوية! ما أغنى عنك ابن عامر (٥)وبالجملة كانت الثورثورة الصحابة يقول الطبري: لما أرى الناس ما صنع عثمان. كتب من بالمدينةمن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى من بالآفاق منهم. وكانوا تفرقوا في الثغور وإنا نكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبوندين محمد صلى الله عليه وسلم. فإن دين محمد قد أفسد من خلفكموترك. فلهلما فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم فأقبلوا من كل أفق

- (١) الإصابة ٢٦٥ / ١ .
(٢) الطبري ٥١٤ / ٥ .
(٣) رواه أحمد ورواته ثقات (الزوائد ٢٢٨ / ٧).
(٤) البداية والنهاية ١٥٨ / ٧ .
(٥) الطبري ١١٨ / ٥ .

حتى قتلوه . (١)

فكما ترى جميعهم من الصحابة وليسوا من الدهماء والرعاع كما قال البعض . ولم يكن بينهم عبد الله بن سبأ كما قال البعض الآخر من الذين أرادوا أن يقطعوا طريق البحث العلمي من قديم الزمان حتى لا يدينهم التاريخ وحتى لاتضع الأمة أيديها على موطن الداء ومركز الفتن . لم يكن هناك ابن سبأ . وكان هناك كعب الأحبار الذي كان يؤخذ برأيه في زمن عثمان في توزيع المال كما روى ابن أبي الحديد . وكان هناك أبو سفيان الذي سمعه عمار بن ياسر وهويقول : " تلقفوها تلقف الكرة " وانطلق عمار إلى الصحابة ينقل إليهم الخبر كما ذكر المسعودي (٢) ، وكان هناك الفاسق الذي يعرف عند من اشتغل بعلم السير والتاريخ .

وبنظرة أخيرة على أحداث الثورة نقول : إن مشكلة عثمان كانت في وضع بني أمية على رقبة الناس الأمر الذي جعل من أكلة القناذ والضباب أصحاب خزائن كبرى مليئة بالذهب والفضة يصدون بها عن سبيل الله . وانتفاء عثمان إنقومه والعمل من أجلهم واضح وضوح الشمس . فالرسول صلى الله عليه وسلم كلما أهدر دم أحد منهم أو نفاه كان عثمان هو الملجأ . وخير دليل ما ورد في معاوية بن المغيرة بن العاص . كان النبي قد أسره بعد غزوة حمراء الأسد عند رجوعه إلى المدينة فلجأ إلى عثمان فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله إن وجد بعد ثلاثة أيام . وعندما توارى بعيدا عن أعين الرسول بعث الرسول إليهم عمار بن ياسر وزيد بن حارثة وأخبرهما بمكانه وعندما وجداه قتلاه . (٣) وأيضا ما ورد في عبد الله بن أبي السرح والحكم بن أبي العاص الذي جاء به عثمان منمنفاه . وضرب بمشاعر المسلمين عرض الحائط يوم أن أقام على قبره فسظاطا .

وكأنه أراد أن يكون وجود الحكم شاخصا حيا أو ميتا على أرض الدولة بعد نفي

- (١) الطبري ١١٥ / ٥ .
(٢) الطبري ١١٥ / ٥ .
(٣) السيرة الحلبية ص ٥٩١ ، حياة الحيوان / الجاحظ ١٦١ / ٤ .

الرسول صلى الله عليه وسلم له . وعندما عاتبه الصحابة قال : إن عمر بالخطاب أقام من قبل فسظاطا على

قبر زينب بنت جحش . (١)

فإذا كان هذا حال عثمان مع المطرودين فكيف يكون الحال مع غيرهم.

وإذا لم تكن بطانة عثمان التي اعترض عليها الثوار بطانة سوء. فما هي البطانة السوء التي حذر منها النبي وأخبر أنها أوشكت أن تتركب بعد وفاته. هل ما زالت في بطن الغيب أم أنها جاءت وزالت بعد أن تركت جذورا وشذوذا وفتنا. لقد كان عثمان منحازا إلى بطانته وكان في إمكانه أن يتفادى الثورة عليه لو سار مع الناس بسيرة أبي بكر وعمر ولم يقيم بتوسيع الدوائر التي خلفوها وراء ظهورهم.

فالدوائر كلما كانت ضيقة تكون العواصف أهدأ. ولكن عثمان لم يفعل ذلك بل لقد استعان بخبراء في توسيع الدوائر وحفرها - لقد كان عمر بن الخطاب يستمع إلى الخصم ويحقق فيما ادعاه. ولكن الأمر اختلف عند عثمان. روي أنه بعد أنتصالح مع أهل مصر عند مجيئهم الأول ذكر له ابن عديس ما صنع ابن أبيالسرحة بمصر وذكر تحاملا منه على المسلمين وأهل الذمة وذكر استنثارا منه فيغنائم المسلمين. وقال ابن عديس: فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إلي (٢)، أي أنه يخبرهم أنه ما يفعل شيئا إلا بإذن عثمان. فماذا فعلعثمان؟ لقد أمر عليهم محمد بن أبي بكر وبينما هم في طريق العودة شاهدوا رسول عثمان ومعه كتابه وخاتمه إلى عبد الله بن أبي السرح يأمره فيه بجلدظهورهم وغير ذلك. وعندما واجهوا عثمان اكتفى بقول: والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت. فقيل له: فمن كتبه؟ قال: لا أدري، فقالوا:

أفجترأ عليك فيبعث غلامك وجمل من صدقات المسلمين وينقش على خاتمكويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا:

فالكاتب كتاب كاتبك - أي مروان - (٣)قال: أجل ولكنه كتبه بغير أمري. قالوا:

(١)الإصابة ٢٩ / ٢.

(٢)الطبري ١١٩ / ٥.

(٣)كان محمد بن سلمة يقول: هذا من عمل مروان، الطبري ١١٩ / ٥.

والرسول الذي وجدنا معه الكتاب غلامك؟ قال: أجل ولكنه خرج بغير إذني.

قالوا: والجمل جملك، قال: أجل ولكنه أخذ بغير علمي، قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب. فإن كنت كاذبا فقد استحقت الخلع لما أمرت به من سفكدمائنا بغير حقها، وإن كنت صادقا فقد استحقت أن تخلع لضعفك وغفلتكوخبث بطانتك. لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يقطع مثل الأمر دونه.

لضعفه وغفلته (١)، وجميع هذا قد حدث ومروان بن الحكم في مأمن تام لميوجه إليه أي اعتراض. وذلك لعلمهم أن في ظهره ذرية من خلفاء بني أمية.

ومعاوية نفسه كان يتحدث بذلك (٢) فمن أجل الحفاظ على فتنة ففتح بنو أمية أبوابا لفتنة أخرى. وحاصر الثوار دار الخلافة. واستمر الحصار أربعين يوما وكان عثمان يصلي بالناس ثلاثين يوما ثم منعه. (٣) وكان علي بن أبي طالب يقدم الماء إلى عثمان في هذا الوقت وكان الحسن والحسين يقومان على حراسته. أولا: لأن ما يجري لا يستقيم مع المحاكمة العادلة. وثانيا: لأن ما يجري سيتم المتاجرة به وسيتهم علي فيه فكان التواجد حجة في ذاته. وكان علي بن أبي طالب يعلم ما ستجري عليه الأحداث وفقا لإخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا. وإذا كان عثمان قد دفع بالأحداث كي تصل إلى ما وصلت إليه وذلك لحفاظه على أسرته وأهل شورته. فإن التاريخ قد سجل أيضا أن الدماء التي جرت حول دار عثمان وداخلها. كانت بدايتها لحفاظ عثمان أيضا على أهل شورته. فعلى الرغم من الحصار إلا أنه كانت تجر محاولات لتهدئة الخواطر. ولكن هذه المحاولات انتهت بسفك الدماء.

روى الطبري: لما مضت أيام التشريق أطافوا بدار عثمان. وأبى إلا الإقامة على أمره وأرسل إلى حشمه وخاصته فجمعهم. فقام رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يقال له: نيار بن عياص. وكان شيخا كبيرا. فنأدى: يا

(١) الطبري ١٢٠ / ٥.

(٢) سيأتي في موضعه.

(٣) الطبري ١٠٧ / ٥.

عثمان. فأشرف عليه عثمان من أعلى داره. فذكره الشيخ لما اعتزلهم. فبينما هو يراجع الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم. وقيل إن الذي رماه كثير بن الصلت الكندي. فقالوا لعثمان عند ذلك: إرفع إلينا قاتل نيار بن عياص فنقتله به. فقال لهم: لم أكن لأقتل رجلا نصرتي وأنتم تريدون قتلي. فلما رأوا ذلك ثاروا إلى بابه فأحرقوه وخرج عليهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأحنس كل منهم في عصابة فاقتتلوا قتالا شديدا. وكان الذيداهم على القتال أنه بلغهم أنه مددا من أهل البصرة وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين. (١) ولم يكن هذا قد حدث لأن معاوية كان في شغل.

وعلى هذا نقول: إن الخدعة في البداية كانت من عند بني أمية يوم أنبعثوا برسالتهم إلى ابن أبي السرح ليقتل المصريين. وإن أول قطرة دم في الأحداث كانت على أيدي بني أمية يوم أن قتلوا نيار بن عياص. قال في الإصابة: كان نيار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممنكلم عثمان في حصره وناشده الله. وقتله بعض أتباع عثمان. وقالوا: وهذا أول مقتول في ذلك الوقت. (٢) ونحن قد ذكرنا في بداية حديثنا عند بني أمية حديثا لألف شهر وهو حديث صحيح ولكن بعض العلماء قد حكم بأنه منكر وذلك لكون مدة حكم عثمان داخلة في مدة حكم بني أمية. وسبب إنكارهم أنهم قالوا إن هذا لا يجوز لأن عثمان خليفة راشد كانت الملائكة تستحي منه. وقد سئل لحفاظ

السخاوي عن المواطن التي استحيت فيها الملائكة من عثمان فقال: لمأقف عليها في حديث يعتمد (٣) ومن الأحداث التي دارت ومن الفتن التي خلفتها من ورائها يمكن القول بارتياح شديد إن الحديث المروي عن النبي حديث صحيح سندا ومتنا ومعنى.

وقتل عثمان. وروى الطبري وغيره: أن عثمان نبذ ثلاثة أيام لا يدفن. وقد

(١) الطبري ١٢٤ / ٥.

(٢) الإصابة ٢٥٩ / ٥.

(٣) التراتيب الإدارية ٣٨٤ / ٢.

الصفحة ٤٤٥

كلم الناس عليا في ذلك فتدخل وأذن لأهله أن يدفنوه. فلما سمع الناس ذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة. وعندما شاهد الناس السرير الذي يحمل عثمان رجما السرير وهموا بطرحه. فبلغ ذلك عليا فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عن هفعلوا. وانطلق به أهله. وأرادوا أن يصلوا عليه في موضع الجنازات فأبت الأنصار. وأرادوا أن يدفنوه بالبقيع فمنعوا أيضا من ذلك. وقالوا: لا يدفن في مقابر المسلمين. فدفنوه في حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم. فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان. أدخل هذا الحش في البقيع فهو اليوم مقبرة بني أمية (١).

وفي الختام. إن الجيل الأول هو الذي حكم بفشل تجربة الرأي التي انطلقت من دائرة المصلحة العامة. الجيل الأول هو الذي اعترض على بطانة السوء التي دخلت من باب إلغاء سهم المؤلفة وتأمير المنافقين. والجيل الأول هو الذي اعترض على توزيع الفئ الذي دخل من باب الخراجة. باختصار اعترض الجيل الأول على قوائم النظام الاقتصادية والإدارية والتربوية. التي عبر عنها الوليد بن عقبة. فكيف حدث هذا بعد مضي ربع قرن تقريبا من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل خرج الناس على ما وضعه النبي أم أنهم خرجوا على شيء حذر منه النبي؟ ثم إذا كانوا قد خرجوا على ما حذر منه النبي فكيف دخل إليهم المحذور ولماذا؟ أخشى أن يقال إن الذي حدث كان قصورا في التطبيق. لأن الذين قاموا بالتطبيق صحابة عدول ثقافتهم ولما يأتي على مر الزمان خيرا منهم. فإذا كان هؤلاء لم يسيروا التطبيق الصحيح فكيف بمن دونهم. إن الذي يمكن أن يقال في هذا الموضوع وإنهم أخطأوا التأويل الصحيح. لأن التأويل الصحيح له رجال يمكن أن يقاتلوا على تأويل القرآن كما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم على تنزيله.

(١) الطبري ١٤٣ / ١٤٤ / ٥.

الصفحة ٤٤٦

الصفحة ٤٤٧

وظهر القمر

الصفحة ٤٤٨

الصفحة ٤٤٩

أولا - من معالم الحكومة الدينية

بعد ربع قرن من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ظهر النفاق. ويشهد بذلك حديث حذيفة " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون (١) " ، بل إن النفاق ركب مرحلة أخرى يقول فيها حذيفة: " إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان (٢) "، ويشهد بظهور النفاق استعمال عمر بن الخطاب للمنافقين وإلغائه لسهم المؤلفة قلوبهم. وبعد وفاة الرسول برقعن قامت السياسة على أعمدة منها عمود عدم الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد من يروي بالضرب أو النفي وهذا أيضا ثابت في أحاديث صحيحة رويت عن عمر بن الخطاب وبينت سيرته بشأن الرواية. وترتب على ذلك ظهور القص والشعر بإذن من عمر وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم برقعن رتع بنو أمية في أموال المسلمين وذلك عندما تربعوا على الخراج الذي أنشأه عمر بن الخطاب. حتى أن مروان بن طريد رسول الله وضع يده على فدك بأمر من عثمان وفدك هذه لم تأخذها ربحانة رسول الله يوم أن نازعت فيها أبا بكر.

فالذي لم تأخذه ربحانة الرسول أخذه في نهاية الطريق ربحانة طريد رسول الله.

ولم يقف الأمر عند مروان بل التهم ابن أبي السرح الذي أهدر النبي

(١) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤).

(٢) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤).

الصفحة ٤٥٠

دمه النصيب الأكبر من غنائم إفريقية بأمر من عثمان الذي كان يستفتي كعبالأخبار فيما يجوز للخليفة أن يأخذه من بيت المال. وروي أن كعبا عندما أفتاهقال أبو ذر لكعب: يا بن اليهوديين أتعلمنا ديننا. وعندئذ قال له عثمان: يا أبانر قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي (١).

ومن نتائج هذا كله بهتت مناقب أهل البيت، وإذا كانت المناقب تشع فيأذهان البعض. فإنها أخذت عند البعض الآخر تأويلا آخر فوضعهم في دائرة(البركة والمشايخ) أي الدائرة التي لا علاقة لها بالقيادة. وحتى هذه الدائرة لمتدم لأهل البيت فيوم الشورى الذي جعل عمر الخلافة فيه في ستة نفر، كاندائرة الشيخ لا يوجد فيها بني هاشم وحدهم فلقد دخلها أبناء عبد شمس وغيرهم. ومن المعروف أن أبناء عبد شمس - وبنو أمية هم أشهر فروعهم -

لممكن لهم نصيب في أشرف خصال قريش في الجاهلية وهي: اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه. وبعد الشورى استحوذ بنو أمية على كل مال على الرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذر منهم إذا ركبوا الأمة. ولكن هذا التخدير لم يكن له وجود واسع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وركب بنو أمية رقبة الأمة يوم الشورى وعملوا من أجل أن يكون الملك فيهم تعويضا لإبعادهم في الجاهلية والإسلام. وعلى امتداد حكم عثمان كانت ثقافات أموية يشرف عليها أمراء عثمان ومنهم معاوية الذي قال في الشام وهو يخاطب الذين سيرهم عثمان " قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... وأن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما."

يستفاد من هذا كله أن هناك فتنة في المقدمة، وهذه الفتنة حذر القرآن منها والنبي صلى الله عليه وسلم لم يفارق الدنيا إلا وبين كل شيء. وهذه الفتنة يشهد كل قارئ للتاريخ أن نتائجها كانت بجميع المقاييس كارثة فالأمة الواحدة اختلفت وافتقرت وذهب ربحها. والجميع في كل دروب الاختلاف والافتراق يقرأون كتاب الله وكل منهم يدعي أن الحق معه وغيره الباطل. ومرجع ذلك في

(١) ابن أبي الحديد ٢٤٠ / ١.

الصفحة ٤٥١

رأينا أن كل فريق انتقى من على أرضية الصحابة وأبناء الصحابة قدوة له فأخذ منهم دون تمحيص وانطلق في أثره. وقد تكون القاطرة تسير على قضبان الفتنة فيركب فيها الراكبون وهم لا يعلمون أنهم بركوبهم هذا يكونون قد شاركوا في الفتنة التي لم يشهدوها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها (١) "، فهو مشارك في الإثم وإن بعدت المسافة بينهما (٢). ودواء هذا الداء لا يكون بتلجيم العقل والسير على طريق الاحتكاك الذي ترفرف عليه أعلام الزينة وللخرف والإغواء. وإنما يكمن العلاج في العلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم " إن الفتنة تجيء فتتسبب العبادة نسفا وينجو العالم منها بعلمه. (٣) "

فالفتنة إذا كانت في المقدمة يقع فيها الذين شاركوا فيها والذين جاءوا متبعدهم. بمعنى أن الفتنة لا تصيب الذين ظلوا خاصة وإنما تصيب الذين ركبو القاطرة التي تسير على قضبان هذه الفتنة، أما العالم فإنها لا تصيبه عند المقدمة لأن عند المقدمة شهود. فشاهد عليه علامة تقول: " تقتله الفئة الباغية " وشاهد عليه علامة " تنبجها كلاب الحوآب " وشاهد عليه علامة " بأنه أصدق لهجة "، وآخر عليه علامة زيد وما زيد... وكثير كثير. والعالم لا تصيبه الفتنة عند النتيجة لأنه ينجو منها بعلمه بأحداثها وموطن الحق فيها.

وفتنة المقدمة ما وقعت إلا بعد أن اختار الناس لأنفسهم في جو من الأحداث لا نعلم عنه إلا القليل. فهناك من أبا أن تكون الخلافة والنبوة في بيت واحد. لأن هذا يعني أن بني عبد شمس من دون خلق الله جميعا لن يكون

لهمركوبة في جاهلية أو إسلام. لقد كانت الأبواب مغلقة بمفاتيح الدعوة ولكنها فتحت بمفاتيح الفتنة. ومن عدل الله تعالى أنه أقام الحجة على الجيل الأول في

(١) رواه أبو داود حديث رقم ٤٢٢٣.

(٢) عون المعبود ١١ / ٥٠١.

(٣) رواه أبو داود وأبو نعيم والرافعي (كنز العمال ١٥٠، ١٧٨ / ١٠).

الصفحة ٤٥٢

كل حركاته بعد وفاة الرسول، وها نحن قد رأينا أحداث أبي ذر وغيره من الذين وضع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم هالات من التبشير والتحذير. لقد حاصرت حجج الله جيل الصحابة لأنهم مقدمة على أرضية دين الله. والشيطان إذادق وتدا له في هذا الجيل ضمن ثغرة له في الجدار يدخل منها بالزينة والإغواء فيضل بذلك كثيرا من الناس. وإذا كانت الحجة قد قامت يوم غدير خم. وأنا التحذير قد تم على لسان بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بعد وفاته. فإن إقامة الحجة بعد النبي بلغت الذروة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهذه الحجة لا تنفصل عن حجة غدير خم بأي حال من الأحوال. ولكنها جاءت لتخاطب زماما قد تغير ومكانا أو شكلى أن يتبعثر. وعندما جاء علي بن أبي طالب لم يأت ليخاطب المتقين بل جاء ليفتح أبواب التوبة أمام المنافقين الذين كثروا في الساحة كما شهد حديث حذيفة وغيره. جاء ليوقف تدفق الفتنة وليفتح صفحات التاريخ لتدون الأحداث التي يقف عندها أصحاب العقول والأفهام لينجو العالم بعلمه.

ولقد علمنا أن التعامل مع النفاق يخضع لفقه خاص لا يلم به كثير من الناس. والفقيه في هذا المجال لا يقوم بتعيينه سلطان أو أمير لأن هؤلاء لا يعلمون خفايا الأمور وإنما الفقيه هنا لا بد أن يحدده نص. وليس معنى هذا أن الفقيه بها التحديد يكون قد علم ما تخفيه الصدور، فالقول بهذا قول سقيم لتفكير غير مستقيم. وإنما الفقيه هنا هو الذي يضع سياسته على قوائم الإسلام.

أي يقيم سياسته على القرآن ونصوص الدين بشكل شامل ويتعامل مع المستجدات بالبحث عن الجوهر فيها ثم يطابقه على الجوهر الأزلي في الإسلام.

ولا يقوم بذلك إلا فقيه راسخ في العلم. ولما كان المنافق في الأساس كارها للإسلام ونظامه. فإنه يشع بعمله تحت عين الفقيه الراسخ في العلم والذي عليه نص بأن لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. لهذا كان التعامل مع النفاق يحتاج إلى فقه خاص. وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان النبي يتعامل مع المنافقين وفقا لحركة الدعوة وكان يجاهدهم وفقا لمطالبها. وكان يفتح لهم أبواب التوبة وفقا لشروط خاصة. وبعد وفاته صلى الله عليه وآله

الصفحة ٤٥٣

وسلم. كانت حجة الله على المنافقين يرفعها علي بن أبي طالب الذي رفضوه فيأول الأمر. ولنتدبر هذه الآيات الكريمة التي أمرت وحذرت وفتحت الأبواب أمام النفاق في عهد الرسول ومن بعده في أيام علي بن أبي طالب لأنه عليه نصبأنه يقاتل على التأويل وأن على صفحته يكشف النفاق. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا * إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك معالم المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما. (١))

قال ابن كثير: ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء مندون المؤمنين. يعني: مصاحبتهن ومصقلتهن ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم قال تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه (٢))، أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه ولهذا قالهنا (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أي حجة عليكم في عقوبتكم (٣)، وبعد هذه المقدمة أخبر تعالى عن المنافقين فقال سبحانه: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) أي يسكنهم في أسفل الدرك من النار ويقطع بينهم وبين كل نصير ينصرهم وشفيع يشفع لهم. وهذا يتفهم حديث الورود على الحوض. الذي يقال فيه لبعض الصحابة: سحقا سحقا أي مكانا بعيدا ليس فيه ناصر ولا شفيع. ولقد بينا في هذا البحث أن علي بن أبي طالب سيكون مع النبي عند الحوض وهو الذي سيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. وبعد أن أخبرت الآيات عن مكان المنافقين يوم القيامة استنتجنا الذين تابوا منهم وبينت أن طريق التوبة الخاص بهم له علامات وهو قوله تعالى:

(١) سورة النساء: الآية ١٤٤ - ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٧٠ / ١.

(إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم فأولئك مع المؤمنين) فالطريق يبدأ من الخروج من جماعة المنافقين والحق بصف المؤمنين. وهذا الخروج لا يتم إلا بالتوبة وهي الرجوع إلى الله. ولا ينفع الرجوع والتوبة حتى يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس وعمل. ولا ينفع الإصلاح إلا أن يعتصموا بالله أي يتبعوا كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ولا ينفعا لا اعتصام إلا إذا أخلصوا دينهم لله وطهروا أنفسهم من بصمات الشرك والظلم قالتعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. (١))

فإذا سلكوا هذا الطريق حتى نهايته كانوا مع المؤمنين قال تعالى: (فأولئك مع المؤمنين) ولم يقل: فأولئك من المؤمنين. لأنهم يلحقون بالمؤمنين ما داموا على طريق التوبة ولن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها.

وطريق التوبة في الجيل الأول لا بد له من سياسة تظهر الإصلاح وعلى هذا يظهر المؤيد والمعارض لسياسة الإصلاح. وتتادي بالاعتصام بالله وعلى هذا يظهر دعاة القبائلية والحزبية وتعمل من أجل إخلاص الدين وعلى هذا يظهر النبلاء الذين كان الدين مصدرا لثروتهم. وبالجملة: لا بد من سياسة تظهر عورات التأويل الذي وضع في غير موضعه. ولما كان هذا التأويل يستند إلى كتاب الله ويقوم به جيل الصحابة فإن هذا يعني أن هذا التأويل سيكون له امتداد نظرا لأن الذين قالوا به من الذين سمعوا وشاهدوا النبي وهنا يكمن الخطر على المستقبل. وينتهي الأمر بالاختلاف والافتراق إلى أكثر من سبعين شعبة وإلى التسكع في طرقات أصحاب أعلام الأديان السابقة واتباعهم شبرا بشير وذراعا بذراع. وقبل أن يحدث هذا كانت حجة الله على جيل الصحابة في بدايته وفي نهايته ليدون التاريخ ويعلم اللاحق أين موضع السابق. و شاء الله أن يكون الفصل بين الحق والباطل في هذه الأحداث على سهيل الخيول وضربات السيوف كي تنطبع الأحداث في ذاكرة كل منتسب إلى الأمة وتشده شدا إلى البحث عن الحقيقة. ومعارك التأويل

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

الصفحة ٤٥٥

خاضها الإمام علي بن أبي طالب الذي شاء الله أن يجعله في المقدمة بعد وفاة الرسول الأعظم ليرى الله كيف يعملون وفقا لدائرة اختيارهم. ولعلمه سبحانه بأنا لا اختلاف واقع لا محالة أحاط سبحانه النبي بالعلم وبين له مواطن الاختلاف والفتن من بعده. وكان فوق كل مواطن من المواطن حجة كأبي ذر والمقداد وسلمان وعمار وأويس وجندب وزيد وغيرهم. وآخر هؤلاء جاء الفقيه الزاهد العالم إمام المتقين علي بن أبي طالب ليواجه دائرة النبلاء التي أخذت شرعيتها من تأويل وضع في غير موضعه. وكان هذا لطفًا من الله كي يشع الماضي أمام الحاضر لينتقل إلى المستقبل.

لقد جاء علي في خاتمة عصر الصحابة القادة. ليفتح أبواب التوبة كي يتنفس المستقبل الأمان ولا يحدث الاختلاف ولا تخرج الفرق التي تستمدوقونها من عهود قبل معارك التأويل أو من عهود ما بعد معارك التأويل. جاء علي ليدخلهم تحت راية واحدة لتشق الدعوة طريقها وتسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد. وليجد المستقبل أن ماضيه لا خلاف فيه. جاء ليفتح أبواب الشكر والإيمان في عالم اكتناز الذهب والفضة وكأنه يتلوا قوله تعالى: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما). (١) (ولكننا سنربما إذا ترتب على فتح هذه الأبواب. وهل المعارك التي دارت كانت من أجل قميص عثمان. أم أن هذا القميص كان كقميص يوسف الذي حمله أبناء يعقوب إلى أبيهم

ليخفوا به مقاصدهم التي بدأوها بالحسد وانتهوا بجريمة تغيب يوسف في أعماق الجب ليخلو لهم مركز الصدارة عند أبيهم؟ أم أن هذه المعارك خاضها طرف من أجل الدفاع عن تأويل حق بينما خاضها أطراف أخرى لوقف التأويل للحق نظرا لأن وجوده سيكشف ما ضاع من رواية وسيطّيح بنباله قريش؟ وعلأى حال فإن ما بين أيدينا من حديث يثبت أن المعارك التي دارت كانت من أجل التأويل وهذا يعري حملة القمصان ويثبت أن القميص ما كان إلا شعارا أجوف حملته الوصول إلى أهداف أخرى، روى الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه

(١) سورة النساء: الآية ١٤٧.

الصفحة ٤٥٦

وسلم أنه قال: فيكم من يقاثل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله (١) "، قالوا: من؟ قال: خاصف النعل وكان أعطى عليا نعا يخصفها (٢)، وعن عليقال: " عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين (٣) " ، قال في لسان العرب: ومنه حديث علي: " أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين " الناكثون أهل الجمل والنكث نقض العهد. وأهل الجمل كانوا قد بايعوه ثم نقضوا بيعته وقتلوه. والقاسطون أهل صفين لأنهم جاروا فيالحكم وبغوا عليه. والمارقون الخوارج لأنهم مرقوا من الدين لغلوهم فيه (٤)، والآن هل رأيت للقميص مكانا في نصوص رسول الله؟ أم أنك رأيت نقضا للعهد وجورا في الحكم وبغيا على الحجة ومروقا من الدين؟ وجميع ذلك مرجعه إلتأويل وضع في غير موضعه وأهواء وآراء تصب في وعاء المطامع ومن أجل هذا كان ظهور الحجة في نهاية عصر الصحابة القادة له حكمة ومن وراء الحكمة هدف.

أولا - النداء الحق:

بعد دفن عثمان تحرك الناس في إتجاه علي بن أبي طالب ليبايعوه (٥) منهم من رأى فيه الزهد فيما بين يدي الناس وسوف يتعامل مع الذهب والفضة تعامل العابدين الزاهدين العادل. ومنهم من وجد فيه الأمانة في النصيح لعثمان ومعارضيه على امتداد عصر الأزمات. ومنهم من تذكر الأيام الأولى وعلم أنه لا سبيل إلا بالعودة إلى الأمر الأول. ومنهم من كان يعلم حقيقة الأحداث ولم ينسها يوما وعندما جاء أوان الظهور لم يكن في حاجة إلى بيعة لأنه كان قد بايع

- (١) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٤٤ / ٦) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٢٣ / ٣).
- (٢) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، قال الهيثمي (الزوائد ١٨٦ / ٥).
- (٣) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣٨ / ٧).
- (٤) لسان العرب مادة نكث ص ٤٥٣٦، ومادة قسط ص ٣٦٢٧، ومادة مرق ٤١٨٥.
- (٥) رواه الحاكم.

بقلبه من قبل.

والذي يستحق التسجيل هنا. أنه قبل أن تتم مبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هروا الناس إلى أكابر الصحابة يسألونهم بماذا ينصحون؟ وعلى سبيل المثال قال عبد الله بن بديل لأم المؤمنين عائشة عندما خرجت الثورة على عثمان: ما تأمرني؟ فقالت: الزم علياً (١)!!، ولقد ذكرها ابن بديل بهذا الحديث بعد هزيمتها يوم الجمل فسكتت. ولم تكن أم المؤمنين وحدها التي نصحت بذلك. فكثير من الناس كانوا يتدافعون على حذيفة صاحب سر رسول الله ليصرفوا إليه في الأحداث لأن حذيفة كان يقول: والله إنني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة (٢)، وقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال (٣) "، أي أن البداية لا تصيب إلا في نهايتها فالشر في الشر والخير في الخير.

وروى بسند صحيح " لما قتل عثمان قالوا لحذيفة: يا أبا عبد الله قتل هذا الرجل وقد اختلف الناس فما تقول؟ قال: سندوني. فسندوه إلى ظهر رجل فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أبو اليقظان علنا لفطرة لا يدعها حتى يموت (٤) وفي رواية: أمركم أن تلمزوا عماراً قالوا: إنعماراً لا يفارق علياً!! قال: إن الحسد هو أهلك الجسد وإنما ينفركم من عمار قربه من علي فوالله لعلي أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب وإنعماراً لمن الأحباب. وهو يعلم أنهم إن لمزوا عماراً كانوا مع علي (٥) " من الواضح هنا أن سياسة اللارواية كانت قد بلغت منتهاها. فهؤلاء القوم لم يكن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة بسند جيد (فتح الباري ٥٧ / ١٣).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٥ / ١٨) ك الفتنة.

(٣) رواه أحمد والبخاري ورجال رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).

(٤) رواه البخاري والطبراني في الأوسط باختصار ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٩٥ / ٩).

(٥) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧).

في ذاكرتهم أي منقبة لأهل البيت وربما كان في ذاكرتهم تشويش على أهل البيت يظهر هذا في قولهم إن عماراً لا يفارق علياً. وحذيفة قد فطن لهذا الأمر بردها لجامع شامل. ولم يكن هؤلاء فقط الذين ذهبوا إلى حذيفة ولكن هناك آخرون ذهبوا إلى حذيفة فقال لهم: انظروا إلى الفرقة التي تدعو إلى أمر علي فالزموها فإنها على الهدى (١). ومما يذكر أن حذيفة كان بالكوفة عند مبايعة الناس لعلي، وعندما علم بمبايعة الناس قال: أخرجوني وادعوا الصلاة

جامعة. فوضع عند المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال: أيها الناس. إن الناس قد بايعوا علياً فعليكم بتقوى الله وانصروا علياً ووازره فوالله إنه لعلى الحقّ أخواً وأولاً وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقي إلى يوم القيامة - ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد أنني قد بايعت علياً. الحمد لله الذي أبقاني لهذا اليوم. ثم قال لابنيه صفوان وسعيد أحملاني وكونا معه فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدوا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحقوم خالفه على باطل. ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام (٢) وقال صاحب فتح الباري: بايع حذيفة لعلي وكان حريصاً على المبايعة له والقيام في نصره (٣) وقال ابن الأثير: قتل ابنه صفوان وسعيد مع علي بصفتين بوصية أبيهما (٤).

ولم يكتف حذيفة رضي الله عنه بنداؤه وهو مريض. وإنما أطلقه أيضاً عند الموت، فعن بلال بن يحيى قال: لما حضر حذيفة الموت قال لنا: أوصيكم بتقوى الله والطاعة لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب (٥)، وأغضض حذيفة عينيه في هدوء وصعدت روحه إلى بارئها. ولقد ترك لنا رواياته في الفتن وغيرها والتي بدونها ما كان الباحث أن يصل إلى الحقيقة بسهولة ويسر. فجزاه الله عنا خير الجزاء. وبعد رحيل حذيفة لم يقف النداء. فكما سمعه أهل العراق سمعه

(١) رواه البزار ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٦ / ٧)، وفتح الباري ٥٥ / ١٣.

(٢) مروج الذهب / المسعودي ٣٩٤ / ٢.

(٣) فتح الباري / ابن حجر ٤٠ / ١٣.

(٤) الكامل ١٤٧ / ٣، مروج الذهب ٤٢٥ / ٢.

(٥) رواه الحاكم (المستدرک ٢٨٠ / ٣).

الصفحة ٤٥٩

أيضاً أهل المدينة وما حولها. لقد كان أبو سعيد الخدري يقول. قال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال:

الموفون الطيبون إن الله يحب الخفي التقي. ومر علي بن أبي طالب فقال النبي:

الحق مع ذا الحق مع ذا (١) " ، وكان أبو ليلي الغفاري يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم: سيكون بعدي فتنة فإذا كان فالزموا علي بن أبي طالب فإنه الفاروق بين الحق والباطل (٢)، وزاد في رواية: " وهو يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين (٣)، وكان كعب بن عجرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يكون بين الناس فرقة واختلاف فيكون هذا وأصحابه على الحق - يعني علياً (٤) وهكذا أقيمت الحجة بالنداء.

- ١ الظهور:

عندما جاء الناس إلى علي بن أبي طالب ليبايعوه. كان علي يعلم أن منأمامه أياما عصبية. فالنبي عهد إليه بقتال الناكثين أولا. وهذا يعني أن بين الدينسبيبايعونه من سينقض البيعة ويقاتله. ومن جهة أخرى فإنه أكثر الذين سيبايعونها يعلمون شيئا عن مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يخوضبهم المعارك وهو لم يسهر على تربيتهم وتدريبهم في وقت تطفح فيه خزائنالذهب والفضة عند ألد أعداء الدعوة. لقد كان هذا كله شاخصا أمام الإمام عليوهم يعرضون عليه أن يبايعوه. وكان عليه أن يبين لهم حقيقة ما يعلمه ولايعلمونه. ويخبرهم أنه إن أجابهم لما يريدون فإنه مثله لن يتراجع عما عهد إليهم النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذه الحالة لن يلتفت إلى قول القائلنهم، ثم يخبرهم. إما أن يقبلوا بهذا أو أن يتركوه ويبحثوا عن غيره. وهذاالمعنى كان فيما روي عنه رضي الله عنه أنه قال لهم: " دعوني والتمسوا غيري

(١)رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ٢٣٥ / ٧).

(٢)رواه أبو نعيم (كنز العمال ٦١٢ / ١١).

(٣)الإصابة ١٦٧ / ٧.

(٤)رواه الطبراني (كنز العمال ٦٢١ / ١١).

الصفحة ٤٦٠

فإننا ستقبلون أمرا له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب ولا ثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت. واعلموا إنني إن أجبتكم ركبت بكمما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكمولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزير خير لكم منيأمير. (١) "

لقد أخبرهم بأن الأيام في بطونها كثير في وقت بهتت فيه الحقيقة ودثرهاالغمام في عالم اللارواية ثم خيرهم إما أن يجيبهم ويركب بهم ما يعلم وإما أنيتركوه. وهو ما قال هذا إلا لأمرين:

أولهما: أن الناس أعداء ما جهلوا. (٢)فأراد أن يبين لهم الخطوط الرئيسيةحتى يكونوا على علم بما جهلوا.

وثانيهما: أنه أخبرهم بخطة عمله كما أخبر من قبل في يوم الشورى علعهد عمر. ليكونوا على بينة من أمرهم ويضعهم في دائرة الاختيار كما وضعغيرهم من قبل. وهذا شأن الحجة في كل زمان ومكان فالحجة تفتح الأبواب ولاإكراه في الدين. وهذا في حد ذاته أسمى معاني الحرية. وقبلت أعداد غفيرة أنيبايعوه على ذلك فقال فيما رواه الطبري: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفيالولا تكون إلا عن رضا المسلمين. فلما دخل المسجد دخل المهاجرون والأنصارفبايعوه ثم بايعه الناس (٣)، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع (٤)، ورويكان أول من بايعه طلحة ثم الزبير (٥)وروي ابن حجر في فتح الباري: عنالأشتر قال: رأيت طلحة والزبير بايعا عليا طائعين غير مكرهين (٦).

(١)ابن أبي الحديد ٥٩٧ / ٢، الطبري باختصار ١٥٦ / ٥.

(٢) هذا القول للإمام علي.

(٣) الطبري ١٥٢ / ٥.

(٤) الطبري ١٥٥ / ٥، البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

(٥) البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

(٦) فتح الباري ٥٤ / ١٢.

الصفحة ٤٦١

وروي أن الناس عندما بايعوا علياً تربع سبعة نفر فلم يبايعوه منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن وقش وأسامة بن زيد (١)، وروي أن عمار بن ياسر قال: يا أمير المؤمنين قد بايعك الناس كافة إلا هؤلاء النفر فلو دعوتهم إلى البيعة كي لا يتخلفوا في ذلك عن المهاجرين والأنصار. فقال: يا عمار لا حاجة لنا في من لا يرغب فينا. وعندما قال الأشر بمثل قول عمار قال الإمام: يا مالك إنني لأعرف بالناس منك دع هؤلاء يعملون برأيهم.

وذكر ابن أبي الحديد أن هؤلاء لم يتخلفوا عن البيعة إنما تخلفوا عن الحرب (٢)، وروي أن مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة حضروا عند علي. فقال الوليد وكان لسان القوم: يا هذا إنك قد وترتنا جميعاً.

أما أنا فقد قتلت أبي صيرا يوم بدر. وأما سعيد فقد قتلت أباه يوم بدر وكان أبو هثور قريش. وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه. وإننا نبايعك على أن تضع عنا ما أصابنا. وتعفي لنا عما في أيدينا وتقتل قتلة أصحابنا. فغضب علي وقال: أما ما ذكرت من وتري إياكم فالحق وتركم وأما وضعي عنكم عما في أيديكم مما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم، وأما قتليقتلة عثمان فلو لزمني قتلتهم اليوم لزمني قتالهم غداً. ولكن لكم أن أحملكم عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فمن ضاق الحق عليه فالباطل عليها ضيق. وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم (٣)، وروي الطبري: هرب سعيد والوليد إلى مكة وتبعهم مروان (٤) وهرب قوم إلى الشام (٥).

وهكذا تمت البيعة التي لم يكن فيها إكراه. وروي أن الإمام علي اشتراط

(١) الطبري ١٥٥ / ٥.

(٢) ابن أبي الحديد ٧٤٦ / ١.

(٣) تاريخ يعقوبي ١٢٥ / ٢.

(٤) الطبري ١٥٦ / ٥، البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

(٥) الطبري ١٥٤ / ٥، البداية والنهاية ٢٢٧ / ٧.

الصفحة ٤٦٢

أن يكون مفتاح بيت المال معه وأخبرهم بأنه لن يأخذ منه درهما وليس له أمر دونهم. ثم قال: رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم ثم بايعهم عند ذلك (١)، وروي عنه أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن

يؤدي الأمانة. فإذا فعل فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذ ادعوا (٢)، وروى عندما بويح الإمام علي بن أبي طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خزيمة بن ثابت وهو واقف بين يدي المنبر:

فإذا نحن بايعنا عليا فحسبنا * أبو حسن مما نخاف من الفتن
ووجدناه أولى الناس بالناس إنه * أطب قريشا بالكتاب وبالسنن
وإن قريشا ما تشق غباره * إذا ما جرى يوما على الضمر البدن
وفيه الذين فيهم من الخير كله * وما فيهم كل الذي فيه من حسن (٣)

- ٢ إصلاحات علوية:

بدأ أمير المؤمنين عملية الإصلاح عقب مبايعته. ولم تكن عملية الإصلاح محيطة الغصون أو الثمار وإنما بدأت من عند الجذور حيث توجد سياسة تعيين المنافقين وسياسة عدم الرواية والتصريح بالقص والشعر وإغماض الطرف عن صناعة الخمر وسياسة الخراج وتأويل الآيات ووضعها واكتناز الذهب والفضة إلى غير ذلك من سياسات، ولم تكن عملية الإصلاح والتغيير عملية سهلة فإلقت العقبان وجاءت موقعة الجمل بسرعة ومنبعدها هبت رياح هدفها تحطيم كل شيء. ونحن هنا سنلقي الضوء على بعض التغييرات والإصلاحات وليتدبر الباحث في جوهرها.

- • قرار عزل أمراء الفتن:

عندما قتل عثمان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ

(١) الطبري ١٥٢ / ٥.

(٢) رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (كنز العمال ٧٦٤ / ٥).

(٣) الحاكم (المستدرک ١١٤ / ٣).

بدمه (١) فورد به على معاوية فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس. وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر، فتباكى الناس حول المنبر. وأصدر معاوية قراراً بأنهلأ يقرب الرجال النساء حتى يأخذوا بثأر عثمان (٢) وذكر ابن كثير: أن الناس استباكوا حول القميص سنة واعتزلوا النساء في هذا العام (٣) وما فعله معاوية يدل على أنه قد أصر على البقاء ولن يرضخ لأي محاولة لعزله. وكان علي قد بعث على الشام سهيل بن حنيف بدل معاوية. فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية فقالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أي شيء، قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان بعثك فهلا بك وإن كان غيره فارجع. فقال: أوما سمعتم الذي كان - أي هل وصلكم أخبار ما حدث؟! قالوا: بلى، فرجع إلى علي (٤)، وعندما جاء ابن عباس وكان يؤدي مناسك الحج دخل على أمير المؤمنين وقال له: يا أمير المؤمنين أنا أشير عليك بأن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلي أن أقلعه من منزله.

فقال الإمام: لا والله لا أعطيه إلا السيف. ثم تمثل بهذا البيت:

ما مية إن متها غير عاجز * بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع... أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحرب خدعة. قال الإمام: بلى يا ابنعباس لست من هنيأتك وهنيأت معاوية في شيء. تشير علي وأرى. فإذا عصيتك فأطعني فقال: أفعل إن أيسر ما لك عند الطاعة (٥)، وكان المغيرة بن شعبة قد قال لقبول ذلك: إني لك ناصح واني أشير عليك برد عمال عثمان عامك هذا فاكذب إليهم بإثباتهم على أعمالهم. فإذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك عزلت منأحببت وأقررت من أحببت فقال الإمام: والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الدني في أمري. قال المغيرة: فإن كنت قد أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية

(١) روى ابن أم حبيبة أرسلت القميص مع النعمان إلى معاوية (مروج الذهب ٣٧٩ / ٢).

(٢) مروج الذهب.

(٣) البداية والنهاية ٢٢٨ / ٧.

(٤) البداية والنهاية ٢٣٠ / ٧، الطبري ١٦١ / ٥.

(٥) الطبري ١٦١ / ٥.

الصفحة ٤٦٤

فإن لمعاوية جرأة وهو في أهل الشام يسمع منه. ولك حجة في إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها. فقال أمير المؤمنين: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا - (١) وفي رواية - إذا كان عمر قد مكن له فأنا لن أمكن لها أبدا.

ولم تكن عملية عزل جميع الولاة عملية سهلة. فعندما فرق أمير المؤمنين عماله على الأمصار على امتداد عام ٣٦ هـ كان منهم من يتسلم عمله بهدوء ولكن على أرضية افتراق الناس. فرقة مع تيار بني أمية وفرقة مع جماعة المسلمين. حدث هذا في البصرة وفي مصر (٢)، أما أهل الكوفة فإن الغالبية العظمى تمسكوا بأمرهم وأعلنوا بأنهم لا يريدون بأمرهم بدلا وكتب أبو موسى إلى أمير المؤمنين بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم وبين الكاره منهم للذي كانوا الراضي بالذي كان (٣)، وأبو موسى نفسه كان في مستقر النفس وهو يكتب هذا الأمير المؤمنين - وسوف نرى بعد ذلك. كيف كان يضع العقبات في طريق أمير المؤمنين ورأي أمير المؤمنين وعمار فيه. وكانت بقية الأمصار في طاعة أمير المؤمنين ولكن هذه الطاعة تقف على أرضية الخوف من الماضي وطمعا فيما عنده من كنوز. لأنها لا تعرف الحاضر وما حوله من توبة.

● قرار التسوية في الأموال:

عن ابن عباس قال: إن عليا خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال:

ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان. وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق القديم لا يبطله شيء. ولو وجدته قد تزوج به النساء. وفرق في البلدان لردته إلى حاله فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليها ضيق. قال ابن أبي الحديد: وتفسير هذا الكلام أن الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أمره في العدل. فهي في الجور أضيقت عليه. لأن الجائر في مظنة أن

(١) الطبري ١٦٠ / ٥.

(٢) الطبري ١٦١ / ٥.

(٣) الطبري ١٦٢ / ٥.

الصفحة ٤٦٥

يمنع ويصد عن جوره. (١)

وروي أن علياً أمر بكل سلاح وجد لعثمان في داره مما تقوى به علماء المسلمين. فقبض. وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة. فقبضت.

وأمر بقبض سيفه ودرعه. وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمون بالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره. وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز عثمان حيث أصيب أو أصيب أصحابها. فلما بلغ عمرو بن العاص ذلك. وكان بأيلة من أرض الشام. كتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع. إذ قسرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لجأها.

وقال الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه وصاحب أبي زبيد النصراني وهو يذكر قبض علي بن أبي طالب نجائب عثمان وسيفه وسلاحه:

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم * ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

بني هاشم كيف الهوادة بيننا * وعند علي درعه ونجائبه

بني هاشم كيف التودد منكم * وبز ابن أروى فيكم وحرائبه

بني هاشم إلا تردوا فإننا * سواء علينا قاتلاه وسالبه

بني هاشم إنا وما كان منكم * كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه

قتلتم أخي كيما تكونوا مكانه * كما غدرت يوماً بكسرى مرزبه

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة منجملتها:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم * أضيع والقاء لدى الروح صاحبه

وشبهته كسرى وقد كان مثله * شبيها بكسرى هديه وضرائبه

وكان المنصور إذا أتشد هذا الشعر يقول: لعن الله الوليد. هو الذي فرقبين عبد مناف بهذا الشعر (٢)، وهكذا بدأ الإمام علي تحركه. وهكذا بدأ عمرو بن العاص والوليد تحركهما الأول يريد إشعال النار والثاني يريد أموال

(١) ابن أبي الحديد ٢٢٠ / ١.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٢٠ / ١.

الصفحة ٤٦٦

كسرى وكسرى كسرى. ولكن الإمام لم يبال بهذا ولا بذلك وبدأ في إصلاح السياسة الحالية للخراج. فعندما قدم عليه عبد الله بن زمعة وهو من شيعته وطلب منه مالا فقال له الإمام علي: إن هذا المال ليس لي ولا لك وإنما هو فئالمسلمين. وجلب أسياهم فإن شركتهم في حربهم.. كان لك مثل حظهم. وإلأفجاة أيديهم لا تكون لغير أفواهم (١). فهنا عادت الحقوق للمقاتلة ولم يعد.

السواد بستانا لقريش. كما عاد التسوية في العطاء. وعندما عوتب الإمام علنا التسوية في العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية في العطاء. وتصويره الناسأوسة في العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف على غيرهم. كما كان يحدث من قبل (٢) قال الإمام علي: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمنوليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير (٣) وما أم نجم في السماءنجا (٤) ولو كان المال ليسويت بينهم.. فكيف وإنما المال مال الله. ثمقال الإمام: ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تذبذير وإسراف وهو يرفع صاحبهفي الدنيا ويضعه في الآخرة. ويكرمه في الناس. ويهينه عند الله. وكم يضع امرؤماله في غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم. وكان لغيره ودهم. فإنزلت به الفعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل. وألام خدين (٥) أي: لواحتاج إليهم يوما عند عثرة يعثرها لم يجدهم (٦).

وكان أمير المؤمنين يراقب عماله في الأمصار من ناحية تصرفهم فيالأموال: روي أنه كتب إلى زياد وكان خليفة عامله عبد الله بن عباس علنالبصرة وكان عبد الله عامل أمير المؤمنين عليها وعلى كور الأهواز وفارسوكرمان وغيرها: وإني أقسم بالله قسما صادقا. لئن بلغني أنك خنت من فيئ

(١) ابن أبي الحديد ٧٢ / ٤.

(٢) راجع كتاب سيرة عمر لابن الجوزي، ابن أبي الحديد ٤ / ٣.

(٣) أي ما أقام الدهر وما بقي.

(٤) أي قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

(٥) الخدين / الصديق.

(٦) ابن أبي الحديد ٣ / ٣.

الصفحة ٤٦٧

المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً. لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر. (١) ثقيلالظهر (٢)، ضئيل الأمر (٣)، والسلام (٤)، وروي أنه رضي الله عنه كتب لبعض عماله: أما بعد. فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك.

وعصيت إمامك. وأخزيت أمانتك. (٥) بلغني أنك جردت الأرض (٦) وأخذت ماتحت قدميك وأكلت ما تحت يديك. فارفع إلي حسابك. واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس. والسلام (٧) وكتب إلي عامله على أردشير: بلغني عنك أمر. إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك.. أنك تقسم فئالمسلمين فيمن أعتامك من أعراب قومك. فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة. لئن كان ذلك حقاً. لتجدن لك علي هواناً. ولتخفن عندي ميزاناً. فلا تستهن بحقربك. ولا تصلح دنياك بمحق دينك. فتكون من الأخرين أعمالاً. ألا وإن حقمن قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفئ سواء. يردون عندي عليهم يصدرون (٨) والمعنى: أنه نهى عن أن يقسم الفئ على أعراب قومه الذين اتخذوه سيذا ورئيساً. ويحرم المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم.

وكتب إلي عامله على آذربيجان: وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه فيعنقك أمانة. وأنت سترعى لمن فوقك. ليس لك أن تفتتات في رعية. ولا تخاطرا إلا بوثيقة. وفي يدك مال من مال الله عز وجل. وأنت من خزانه حتى تسلمهإلي (٩). "

(١) أي أفقرك بأخذ ما احتجت من بيت مال المسلمين.

(٢) أي مسكين لا تقدر على مؤونة عيالك.

(٣) أي حقير لأنك إذا افتقرت صغرت عند الناس.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٦٨ / ٤.

(٥) أي أدلتها وأهنتها.

(٦) أي قشرتها.

(٧) ابن أبي الحديد ٧٩٢ / ٤.

(٨) ابن أبي الحديد ٨٠١ / ٤.

(٩) ابن أبي الحديد ٣٠٩ / ٤.

كان هذا ضوءاً على قرارات الإمام علي بخصوص الفئ ومنها علمنا أنالذين شاركوا في الحروب لا تكون حقوقهم لغيرهم. كما علمنا أن الإمام كانيسوي بين الناس في العطاء. وكان يتعامل مع المال على أنه مال الله. وينظر تسريعة أيضاً على أموال الصدقة نجد أنه كان يتعامل مع هذا المال بدقة شديدتفاعله على الصدقة يتحرك وفقاً لأوامر عمودها الفقري يقوم على الرحمة وعندما تصل الصدقات إلى الإمام فإنه يعطيها لمن أوجبها الله لهم. ومن وصية كانرضي الله عنه يكتبها لمن يستعمله على الصدقات سترى كيف كان يقيم عمادالحق في صغير الأمور وكبيرها.

يقول الإمام في وصيته: إنطلق على تقوى اليهوده لا شريك له. ولا تروعن (١) مسلما. ولا تجتازن عليه كارها (٢). ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله. فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم (٣). ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم. ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول: عباد الله. أرسلني إليكم ولي اللهو خليفتم لآخذ منكم حق الله في أموالكم. فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوها إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا. فلا تراجع. وإن أنعم لك منعم (٤) فانطلق معه منغير أن تخيفه أو توعده، أو تعسفه (ذ) أو ترهقه (٦). فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة. فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه. فإن أكثرها له. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به. ولا تنفرن بهمة ولا تفر عنها.

ولا تسوعن صاحبها فيها (٧) واصدع المال صدعين ثم خيره (٨) فإذا اختار فلا

(١) أي لا تفر عن.

(٢) أي لا تمرن ببيوت أحد من المسلمين يكره مرورك.

(٣) وذلك لأن الغريب يحمد منه الانقباض.

(٤) أي قال لك نعم.

(٥) أي لا تأخذ منه الصدقة عسفا.

(٦) أي لا تكلفه العسر والمشقة.

(٧) أي لا تغموه ولا تحزنوه.

(٨) أي شقه نصفين ثم خيره.

تعرضن لما اختاره. ثم اصدع الباقي صدعين. ثم خيره. فإذا اختار فلا تعرضنلما اختاره. فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله. فاقبضحق الله منه. فإن استقالك فأقله. ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذحق الله في ماله. ولا تأخذن عودا (١) ولا هرمة (٢) لا مكسورة (٣) ولا مهلوسة (٤) ولا ذات عوار ولا تأمن عليها إلا من تثق بدينه. رافقا بما للمسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم. ولا توكل بها إلا ناصحا شفيقا وأميئا حفيظا. غير معنف (٥) ولا مجحف (٦) ولا ملعب (٧) ولا متعب. ثم احدرنا إلينا ما اجتمع عندك. نصيره حيث أمر الله. فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وبين فصيلها. ولا يمصر لبنها (٨) فيضر ذلك بولدها. ولا يجهدنها ركوبا. وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها وليرفه على اللاغب.

وليستان بالنقب والظالع (١٠) وليوردها ما تمر به من الغدر (١١) ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق. وليروحها في الساعات. وليمهلها عندالنظاف (١٢) والأعشاب. حتى تأتينا بإذن الله بدنا (١٣) منقبات (١٤). غير متعبات ولا مجهودات لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم. فإن ذلك

- (١) العود / المسن من الإبل.
- (٢) المسنة أيضا.
- (٣) التي إحدى قوائمها مكسورة.
- (٤) المريضة.
- (٥) المعنف / ضد الرفق.
- (٦) الذي يسوق المال سوقا عنيفا فيهلكه.
- (٧) متعب.
- (٨) حلب ما في الضرع جميعا.
- (٩) أي أمره أن يستأنى بالبيعير ذي النقب لرقه خفه حتى لا تجرحه الأرض.
- (١٠) أي الذي غمز في مشيه.
- (١١) جمع غدبر الماء.
- (١٢) الماء الصافي القليل.
- (١٣) أي السمان.
- (١٤) أي ذوات شحم ولحم.

أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله. (١) "

وتقسيم الصدقات على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يعنى أن سهم المؤلف قلوبهم قد وجد له طريقا في عهد الإمام. والإمام وحده أدري الناس بطبيعة من حوله.

• قرارات قيادية:

لم تكن مهمة الإمام محصورة في بيت المال لأنه حجة والحجة لها دعوة ونحن سنسلط ضوءا على بعض رسائله إلى عماله لنتشف رحيق الدعوة منخلها. كتب إلى عامله صاحب جند حلوان: أما بعد. فإن الوالي إذا اختلفهواه منعه ذلك كثيرا من العدل. فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء. فإنها ليس في الجور عوض من العدل. فاجتنب ما تنكر أمثاله. وابتذل نفسك فيما افترض الله عليك. راجيا ثوابه. ومتخوفا عقابه. واعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعة إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة وإنه لن يغنيك عنالحق شئ أبدا. ومن الحق عليك حفظ نفسك. والاحتساب على الرعية بجهدك. فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك.

والسلام. (٢)

لقد بين له أنه إذا اختلف هو الوالي منعه كثيرا من الحق. لأنه متى لم يكن الخصمان عند الوالي سواء في الحق جار وظلم. وفي النهاية ذكره بالآخرة، ومن كتاب له رضي الله عنه إلى الحارث الهمداني وكان أحد الفقهاء قال: تمسك بجل القرآن واستنصحه وأحل حلاله. وحرّم حرامه. وصدق بما سلف منالحق. واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي منها. فإن بعضها يشبه بعضا. وآخرها لاحق بأولها. وكلها حائل مفارق. وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق. وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت ولا تتمن الموت إلا بشرط وثيق. واحذر كل عمل

(١) ابن أبي الحديد ٥٧٨ / ٤.

(٢) ابن أبي الحديد ١٠٥ / ٥.

الصفحة ٤٧١

يرضاه صاحبه لنفسه. ويكرهه لعامة المسلمين. واحذر كل عمل يعمل به فيالسر. ويستحي منه في العلانية. واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه. ولا تجعل عرضك غرضا لنبال القوم. ولا تحدث الناس بكل ما سمعت به. فكفى بذلك كذبا. ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به. فكفبذلك جهلا. واكظم الغيظ واحلم عند الغضب. وتجاوز عند المقدرة. واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة. واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك. ولا تضيع نعمة من نعم الله عندك. ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك (١)، ومن كتابا لهإلى عامله على مكة (٢) قال: أما بعد. فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله.

واجلس لهم العصرين. فأفت المستفتي وعلم الجاهل. وذكر العالم. ولا يكنك إلى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجبن ذا حاجة عنقائك بها. فإنها إذا زيدت عن أبوابك في أول وردها. لم تحمد فيما بعد عنلقضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذويالعيال والمجاعة. مصيبا به مواضع المفاقر والخلات. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا. ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجرا.

فإن الله سبحانه يقول: (سواء العاكف فيه والباد) فالعاكف: المقيم به.

والبادي: الذي يحج إليه من غير أهله. وفقنا الله وإياكم لمحابه والسلام. (٣) "

ولما كنا قد سلطنا الضوء هنا على بعض وصايا الأيام علي لعماله فإننا نرى أنه لا ينبغي لنا أن ننهي هذا الضوء إلا بعد أن نسلطه على كتاب الإمام إلمالك الأشتري لما ولاه مصر. وهذا الكتاب وضع موضع العناية منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا عند الكثير من رجال العلم. وأعلام الأدب. وأساتذة القانون. فلقد تناولوه درسا وبحثا. وأوسعوه شرحا وتعليقا. وأفردوا فيها المؤلفات، وترجموه إلى بعض اللغات (٤) وكتاب أمير المؤمنين إلى مالك

(١) ابن أبي الحديد ٢٢٦ / ٥.

(٢) هو قثم ابن العباس.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٢٩ / ٥.

(٤) راجع مصادر نهج البلاغة / السيد الحسيني الخطيب ٤٢٦ / ٣.

الصفحة ٤٧٢

الأشتر يعتبر عهدا جامعا شاملا وهو أطول عهد. ولطوله سنورد فقرات منه ومنأراد أن يقف على الخطاب بطوله فعليه بالمطولات. قال الإمام بعد أن أمرينقوى الله وإيثار طاعته وأتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه:... وأشعرقلبك الرحمة (١)للرعية. والمحبة لهم. واللطف بهم. ولا تكن عليهم سبعاضاريا تغتتم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين. وإما نظير لك فيالخلق (٢)يفرط منهم الزلل. وتعرض لهم العلل. ويؤتى على أيديهم في العمدوالخطأ. فاعطهم من عفوك وصفحك. مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك اللهم عفوه وصفحه. فإنك فوقهم. ووالي الأمر عليك فوقك. والله فوق منولاك. وقد استكفاك أمرهم. وابتلاك بهم. ولا تتصبن نفسك لحرب الله (٣).

فإنه لا يدي لك بنقمته. ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تتدمن على عفو.

ولا يتبجح بعقوبة. ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة. ولا تقولن إنيمؤمر أمر فأطاع (٤)فإن ذاك إدغال (٥)في القلب. ومنهكة للدين (٦)وتقربمن الغير. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة. فانظر إليعظم ملك الله فوقك. وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك. فإن ذلكيطامن إليك طماحك. ويكف عنك من غربك (٧)ويغنى إليك بما عزب عنكم عقلك. إياك ومساماة الله في عظمته (٨)والتشبه به في جبروته. فإن الله يذلل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله (٩)وأنصف الناس من نفسك. ومن

(١)أي إجعلها كالشعار له.

(٢)فالرعية إما أخوك في الدين أو إنسان مثلك تقتضي رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمةله.

(٣)أي لا تبارزه بالمعاصي.

(٤)أي لا تقل: إني أمير ووال أمر بالشئ فأطاع.

(٥)الإدغال / الإفساد.

(٦)ومنهكة للدين: ضعف وسقم.

(٧)الغرب: حد السيد.

(٨)أي مباراته في السموم، وهو العلو.

(٩)أي قم له بما فرض عليك من العبادات.

خاصة أهلك. ومن لك هوى فيه من رعيتك. فإنك إلا تفعل تظلم. ومن ظلمعباد الله كان الله خصمه دون عياده. ومن خصمه الله أضحض حجته. وكان للهريا حتى ينزع أو يتوب. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته منإقامة على ظلم. فإن الله يسمع دعوة المضطهدين. وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق. وأعمها في العدل. وأجمعها لرضاالرعية. فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة. وإن سخط الخاصة يغتفر معرضا العامة.

قال ابن أبي الحديد: قال له: أنصف الناس من نفسك ومن ولدك وخاصة أهلك ومن تحبه وتميل إليه من رعيتك فحتى لم تفعل ذلك كنت ظالما. ثم قال للإمام:

وليكن أبعد رعيتك منك. وأشأنهم عندك أطلبهم لمعايب الناس. فإن في الناس عيوباً والي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها. فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت. يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كالحقد. واقطع عنك سبب كل وتر. وتغاب عن كل ما لا يضح لك. ولا تعجلنا إلى تصديق ساع. فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن فيمشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل. ويعدك الفقر. ولا جباناً يضعفك عن الأمور. ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور. فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا. ومن شكرهم في الآثام فلا يكن لك بطانة. فإنهم أعوان الأئمة. وإخوان الظلمة. وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وأثامهم. ممن لم يعاون ظالما على ظلمه. ولا آثما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة. وأحنى عليك عطايا. وأقل لغيرك إفا. فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك.

وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه. واقعا ذلك من هواك

حيث وقع.

قال ابن أبي الحديد: نهاه رضي الله عنه أن يتخذ بطانة قد كانوا من قبل بطانة للظلمة. وذلك لأن الظلم وتحسينه قد صار ملكة ثابتة في أنفسهم. فبعيداً أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت كالخلق الغريزي اللازم لتكرارها وصيرورتها عادة. فقد جاءت النصوص في الكتاب والسنة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم وتحريم الاستعانة بهم. فإن من استعان بهم كان معينا لهم قال تعالى: (وما كنت متخذ المضلين عضداً) (١)، وقال: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) (٢)، ثم يقول الإمام في كتابه:

"والصق بأهل الورع والصدق. ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله. فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو. وتدني من العزة. ولا يكوننا المحسن والمسئ عندك بمنزلة سواء. فإن في ذلك تزهيدا لأهل الاحسان في الاحسان. وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة. وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه.

واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن وال برعيتيه من إحسانه إليهم. وتخفيفها للمؤونات عليهم. وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك. فإن حسن الظن يقطع عنك نصباطويلا. وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده... واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا

ببعض. ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله. ومنها كتاب العامة والخاصة. ومنها قضاة العدل. ومنها عمال الإنصاف والرفق. ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس. ومنها التجار وأهل الصناعات. ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة. وكل قد سمي الله له سهمه. ووضع على حده وفريضته في كتابه أوسنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظا. فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاية، وعز الدين، وسبل الأمن.

(١) سورة الكهف: الآية ٥١.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

الصفحة ٤٧٥

وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم. ويعتمدون عليه فيما يصلحهم. ويكون منوراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاء والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاهد. ويجمعون من المنافع. ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات. فيما يجتمعون عليه من مراقبتهم. ويقيمونه من أسواقهم. ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة. الذين يحق ردهم ومعونتهم. وفي الله لكل سعة. ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك. إلا بالاهتمام والاستعانة بالله. وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل. فولمن جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك. وأطهرهم جنبا. وأفضلهم محلما. ممن يبطن عن الغضب. ويستريح إلى العذر. ويرأف بالضعفاء. (١)

وينبو على الأقوياء. (٢) وممن لا يثيره العنف. (٣) ولا يقعد به الضعف. (٤) ثم الصق بذوي المروءات والأحساب. وأهل البيوتات الصالحة. والسوابق الحسنة.

ثم أهل النجدة والشجاعة. والسخاء والسماحة. فإنهم جماع من الكرم. وشعب من العرف. ثم تفقد من أمورهم ما يتفق الوالدان من ولدتهما. ولا يتفاقم فينفسك شئ قويتهم به. ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل. فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك. وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها. فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به. وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه. وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من وإساهم في معونته. وأفضل عليهم من جدته. بما يسعهم ويسمع من وراءهم من خلوف

(١) أي: الذي يقبل أدنى عذر ويستريح له ويسكن عنده. ويرفق بالضعفاء ويرحمهم.

- (٢) أي يتجافى عنهم ويبعد. أي لا يمكنهم من الظلم والتعدي على الضعفاء.
(٣) أي لا يهيج غضبه عنف وقسوة.
(٤) أي ليس عاجزا.

أهليهم (١) حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو. فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك. ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم. وقلة استئصال دولهم (٢) وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح في آمالهم. وواصل منحس الثناء عليهم. وتعدد من أبلى ذوي البلاء منهم. فإن كثرة الذكر لحسنفعالهم تهز الشجاع. وتعرض الناكل. إن شاء الله. ثم عرف لكل امرئ منهم ما أبلى. ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره (٣) ولا تقصرن به دون غاية بلائه. ولا يدعونك شرف امرئ إلي أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا. ولا ضعة امرئ إلأن تستصغر من بلائه ما كان عظيما. واررد إلى الله ورسوله ما يضلحك منا الخطوب. ويشتبه عليك من الأمور. فقد قال تعالى لقوم أحب إرشادهم: (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول)، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه. والرد إلىالرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفارقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيئك في نفسك. ممن لا تضيق بها الأمور. ولا تمحكه الخصوم (٤) ولا يتمادى في الزلة (٥) ولا يحرص منالفئ إلى الحق إذا عرفه (٦) ولا تشرف نفسه على طمع (٧) ولا يكتفي بأدنىمنهم دون أقصاه (٨) وأوقفهم في الشبهات. وأخذهم بالحجج. وأقلهم تبرما

- (١) أي ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم.
(٢) أي لا تصح نصيحة الجند لك إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دولهم. ولم يتمنوا زوالها.
(٣) أي اذكر كل من أبلى منهم مفردا غير مضموم ذكر بلائه إلى غيره. كي لا يكون مغمورا في جنب ذكر غيره.
(٤) أي تجعله ماحكا. أي لجوجا.
(٥) أي إن زل رجع وأتاب.
(٦) نفس المعنى السابق.
(٧) أي لا تشفق.
(٨) أي لا يكون قانعا بما يخطر له بادئ الرأي من أمر الخصوم بل يبحث أشد البحث.

بمراجعة الخصم (١) وأصيرهم على كشف الأمور. وأصرمهم (٢) عند إيضاحالحكم. ممن لا يزدنيه إطراء. ولا يستمليه إغراء. وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهدقضائه. وأفسح له في البذل ما يزيح عنته. وتقل معه حاجته إلى الناس. وأعطهم المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك. ليأمن بذلك اغتياج الرجاء عندك. فانظر في ذلك نظرا بليغا. فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيديأشرار (٣) يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا. ثم انظر في أمور عمالك.

فاستعملهم اختبارا. ولا تولهم محاباة وأثرة. فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة. والقدمي الإسلام المتقدمة. فإنهم أكرم أخلاقا. وأصح أعراضا. وأقل في المطامع إشرافا. وأبلغ في عواقب الأمور نظرا. ثم أسبغ عليهم الأرزاق. فإن ذلك قولهم على استصلاح أنفسهم. وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم. وحجة عليهم أن خالفوا أمرك. أو تلموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم. وبعث العيون من أهلالصدق والوفاء عليهم. فإن تعاهدك في السر لأمرهم حدوة لهم على استعمال الأمانة. والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان. فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك. اكتفيت بذلك شاهدا. فبسطت عليها العقوبة في بدنه. وأخذته بما أصاب من عمله. ثم نصبته بمقام الذلة. ووسمتها بالخيانة. وقلدته عار التهمة. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله. فإن في صلاحهم صلاحا لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناسكلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد. وأهلك العباد... ولم يستقم أمره إلا قليلا. فإن شكوا

(١) أي تضجرا.

(٢) أي: اقطعهم وأمضاهم.

(٣) هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه وإنهم لم يكونوا يقضون بالحق عنده. بل بالهول يطلب الدنيا.

الصفحة ٤٧٨

تقلا (١) أو علة (٢) أو انقطاع شرب (٣)، أو بالة (٤) أو إحالة أرض اغتمرها غرق (٥) أو أجحف بها عطش (٦) خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم.

ولا يتقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم. فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك. وتزيين ولايتك. مع استجلابك حسن ثنائهم. وتبجحك باستفاضة العدل فيهم. معتمدا فضل قوتهم. بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم. والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه. طيبة أنفسهم به. فإن العمران محتمل ما حملته. وإنما يؤتى خراب الأرض عن أعواز أهلها. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع. وسوء ظنهم بالبقاء. وقلة انتفاعهم بالعبر، ثم انظر في حال كتابك. فول على أمورك خيرهم. وخصص رسائلك التي تدخل فيها ما كابدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة. فيجتري بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاً. ولا تقصر به الغفلة عن يراد مكاتبات عمالك عليك. وإصدار جواباتها على الصواب عنك. وفيما يأخذ لكويطى منك. ولا يضعف عقدا اعتقده لك. ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك.

ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور. فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غير أهله. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنانتك وحسن الظن منك.

فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاية بتصنعهم وحسن حديثهم. وليس وراء ذلكم النصيحة والأمانة شيء. ولكن اختبرهم بما ولوا الصالحين قبلك. فأعد لأحسنهم كان في العامة أثرا. وأعرفهم بالأمانة وجها. فإن ذلك دليل على نصيحتك الله. ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم، لا

(١) أي ثقل الخراج المضروب عليهم.

(٢) أو علة / أي نحو ما يصيب الغلة آفة كالجراد والبرد.

(٣) أي ينقص الماء.

(٤) بالة / يعني المطر.

(٥) أي أن الأرض غمرها الغرق وأفسدها.

(٦) أي أتلغها.

الصفحة ٤٧٩

يقهره كبيرها. ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغايبت عنه ألزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات. وأوصى بهم خيرا. المقيم منهم والمضطرب بماله. والمترفق ببذنه. فإنهم مواد المنافع. وأسباب المرافق.

وجلابها من المبادئ والمطرح (١) في برك وبحرك. وسهلك وجبلك. وحيثلا يلتئم الناس لمواضعها. ولا يجترئون عليها. فإنهم سلم لا تخاف بائقته هو صلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك. وفي حواشي بلادك. واعلم - مع ذلك - أن في كثير منهم ضيقا فاحشا. وشحا قبيحا. واحتكارا للمنافع.

وتحكما في البياعات. وذلك باب مضررة للعامة. وعيب على الولاية. فامنع من الاحتكار. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه. وليكن البيع سمحا بموازين عدل. وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قار فحكرة بعد نهيك إياه فنكل به. وعاقبه من غير إسراف.

ثم الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم. من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمني (٢) فإن في هذه الطبقة قانعا (٣) ومعترا (٤).

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم. واجعل لهم قسما من بيت مالك. وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد. فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكلقد استرعت حقه (٥) ولا يشغلنك عنهم بطر. فإنك لا تعذر بتضييع التافه (٦) لإحكام الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا خذك لهم. وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم. ممن تقتحمه العيون (٧) وتحقره الرجال. ففرغ

(١) الأماكن البعيدة.

(٢) أي البؤس وأولو الزمانة.

(٣) القانع / السائل.

(٤) المعتر، الذي يعرض لك ولا يسألك.

(٥) أي كل فقراء المسلمين سواء في سهامهم ليس فيهم أقصى وأدنى.

(٦) التافه / الحقير.

(٧) أي تزدريه وتحتقره.

الصفحة ٤٨٠

لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع. فليرفع إليك أمورهم. ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله (١) سبحانه يوم تلقاه. فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهده أهل اليتيم، وذوي الرقة في السن. ممن لا حيلة له. ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك علبالولة ثقيل. والحق كله ثقيل. وقد تخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا لأنفسهم. ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك. وتجلس لهم مجلسا عاما. فتتواضع فيه لله الذي خلقك. وتقعده عنهم جندك وأعاونك منأحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متنتع (٢) فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غير موطن: لن تقدر أمة لا يؤخذ للضعيفيها حقه من القوي غير متنتع " ثم احتمل الخرق (٣) منهم والعي (٤) ونحنهم الضيق والأنف. يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته. ويوجب لك ثوابه. وأعط ما أعطيت هنيئا. وامنع في إجمال واعتذار ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرته. منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك. ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تخرج به صدور أعوانك. وامض لكل يوم عمله. فلي لكل يوم ما فيه. واجعل لنفسك فيها بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت. واجزل تلك الأقسام. وإن كانت كلها لله. إذا صلحت فيها النية.

وسلمت فيها الرعية. وليكن في خاصة ما تخلص لله به إقامة فرائضه التي هي له خاصة. فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك. ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مكوم ولا منقوص. بالغا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت فيصلاتك للناس فلا تكن منفرا ولا مضيئا. فإن في الناس من به علة. ولها الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهني إلى اليمن.

(١) أي في تأدية حقه والقيام بفرائضه.

(٢) أي غير مزعج ولا مقلق.

(٣) الخرق / الجهل.

(٤) أي / الجهل أيضا.

الصفحة ٤٨١

كيف أصلي بهم؟ فقال: " صل بهم كصلاة أضعفهم. وكن بالمؤمنين رحيمًا."

وأما بعد هذا. فلا تطولن احتجاجك عن رعبتك فإن احتجاج الولاة عنالرعية. شعبة من الضيق. وقلة علم بالأمر. والاحتجاج منهم يقطع عنهم علما احتجوا دونه. فيصغر عندهم الكبير. ويعظم الصغير، ويقبح الحسن.

ويحسن القبيح. ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنالناس به من الأمور. وليست على الحق سمات لا تعرف بها ضرور الصدق منالكذب. وإنما أنت أحد رجلين: أما أمرؤ سخنت نفسك بالبذل في الحق. ففيماحتجاجك من واجب حق تعطيه. أو فعل كريم تسديه أو مبتلي بالمنع. فما أسرعك الناس عن مسألتك. إذا أيسوا من ذلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك مالا مؤونة فيه عليك. من شكاية مظلمة. أو طلب إنصاف في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة وبطانة. فيهم استئثار وتناول. وقلة إنصاف فيمعاملة. فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطن لأحد منحاشيتك وحامتك قطيعة. ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها منالناس في شرب أو عمل مشترك. يحملون مؤونته على غيرهم. فيكون مهناً ذلكهم دونك. وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريبوالبعيد. وكن في ذلك صابرا محتسبا. واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيثوقع. وابتغ عاقبته بما يثقل عليك فه. فإن مغبة ذلك محمودة. وإن ظننتالرعية بك جيفا. فأصحر لهم بعذرك. وأعدل عنك ظنونهم بإصهارك. فإن فيذلك رياضة منك لنفسك. ورفقا برعبتك. وإعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهمعلى الحق.

قال ابن أبي الحديد: نهاه عن أن يحمل أقاربه وحاشيته وخواصه علىرقاب الناس. وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتناول والإذلال. ونهاه عن أنيقطع أحدا منهم قطيعة. أو يملكه ضيعة تضر بمن يجاورها في شرب يتغلبونعلى الماء منه. أو ضياع يضيفونها إلى ما ملكهم إياه. وإعفاء لهم من مؤنة. أوحفر وغيره. فيعفيهم الولاة منه مراقبة لهم. فتكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قدأسقطت عنهم. وحمل ثقلها على غيرهم. ثم قال الإمام: لأن منفعة ذلك في

الدنيا تكون لهم دونك. والوزر في الآخرة عليك. والعيب والذم في الدنيا أيضا لحقان بك. ثم قال له: إن اتهمتكم الرعية بحيف عليهم. أو ظنت بك جورا.

فأذكر لهم عذرك في ذلك. وما عندك ظاهر غير مستور. فإنه الأولى والأقربإلى استقامتهم لك على الحق. ثم قال الإمام:

وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة. أو ألبسته منك ذمة. فحط عهدكبالوفاء. وارع ذمتك بالأمانة... إياك والدماء وسفكها بغير حلها. فإنه ليسشئ أدعى لنقمة. ولا أعظم لتبعة. ولا أحرى بزوال نعمة. وانقطاع مدة. منسفك الدماء بغير حقها... ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد. لأنفيه قود البدن... وإياك والإعجاب بنفسك.

والثقة بما يعجبك منها. وحبلاطراء. فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه. يحق ما يكون من إحساناالمحسنين. وإياك والمن على رعبتك بإحسانك. أو التزيد فيما كان من فعلك.

أو أن تعدهم فنتبع موعذك بخلفك. فإن المن يبطل الاحسان. والتزيد يذهب نور الحق. والخلف يوجب المقت عند الله وللماس... وإياك والعجلة بالأمر قبل أوانها. أو التسايط فيها عند إمكانها. أو اللجاجة فيها إذا تكرت. أو الوهنعنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه. وأوقع كل عمل موقعه. وإياكوالاستئثار بما الناس فيه أسوة. والتغابي عما تعني به مما قد وضح للعيون. فإنهماأخوذ منك لغيرك.. وعما قليل تنكشف عن أغطية الأمور. وينتصف منكالمظلوم. أمالك حمية أنفك. وسورة حدك. وسطوة يدك. وغرب لسانك.

واحترس من كل ذلك بكف البادرة. وتأخير السطوة. حتى يسكن غضبك.

فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلبريك...

وأنا أسأل الله بسعة رحمته. وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة. أنيوفقني وإياك لما فيه رضاه. من الإقامة على العذر الواضح إلبهوا إلى خلقه. ومن حسن الثناء في العباد. وجميل الأثر في البلاء.

وتمام النعمة. وتضعيف الكرامة. وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة.

إنا إلى الله راغبون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين

الطاهرين (١).

ومن هذا العهد نرى أن الإمام كان يختار الولاية وفقا لقاعدة لا يحبه إلامؤمن ولا يبغضه إلا منافق ثم يزوده بالتعليمات التي تسوق الناس إلى صراط اللهالمستقيم. ويراقبه بعيون ليس لها مصلحة إلا ابتغاء مرضاة الله. فإن أخطأ الواليشهد عليه من لا شبهة فيه عند الإمام وعند الناس. ومن هذا كله علمنا أنالإمارة لم تكن في عهد الإمام وجاهة ونبالة وقتلا من أجل مزيد من الخراج.

ولكنها كانت مهمة ترفق بالإنسان لتكون فطرته مهياً لاستقبال النور. ولقد رأينا من قبل كيف كان الإمام يوصي عماله على الصدقة بالرحمة بالحيوان وأن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها. ولا يجهدنها ركوبا وليعدل بين صواحباتها في ذلكوبينها. إلى غير ذلك، فالرحمة كانت عنوانا أصيلا يقف الإنسان تحت ظلهاشامخا بإنسانيته. وروي عن الإمام أنه قال " من كانت له إلبى فيكم حاجة.

فليرفعها في كتاب. لأصون وجوهكم من المسألة (٢)بهذا تعبر المشاعرالإنسانية جسورا بزاد الرضى وهي

تسلك طريقها إلى ربها.

●قرار رواية العلم ومنع القص:

لم يأت قرار رواية العلم إلا بعد أن وقف الإمام علي على باب مدينة العلم. روي أنه في أول خلافته خطب فأرشد الناس إلى كتاب الله وقال: " إن الله تعالى سبحانه أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر. فخذوا نهج الخير تهتدوا. واصرفوا عن سمت الشر (٣) تقصدوا (٤) الفرائض الفرائض. أدوها إلى الله تودكم إلى الجنة. إن الله حرم حراما غير مجهول. وأحل حلالا غير مدخول.

وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها. وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق

(١) ابن أبي الحديد ٢٣ / ٥.

(٢) العقد الفريد ٢٧٦ / ١.

(٣) أي أعرضوا عن طريقه.

(٤) تقصدوا: أي تعدلوا. والقصد: العدل.

الصفحة ٤٨٤

المسلمين في معاقدها (١) فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق. ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب (٢) بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت. فإن الناس أمامكم (٣) إن الساعة تحذوكم من خلفكم. تخففوا تلحقوا. فإنما ينتظر بأولكم أحرکم (٤) اتقوا الله في عباده وبلاده. فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. وأطيعوا الله ولا تعصوه. وإذا رأيتم الخير فخذوا به. وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه (٥).

فالإمام في أول خطاب له أمر بأخذ الخير وترك الشر. وأمر بأداء الفرائض يبين أن الله حرم حراما وأحل حلالا. وهذه الأمور لها أبواب. وكما علمنا أن سياسة القص وعدم الرواية تركت لها بصمات على أمور وبطانة السوء تركت لها بصمات على أمور أخرى. ودخل المنافقون في عصور الفتوحات بأحاديثهم التي تخدم مصالحهم. ونحن في هذا المقام سنترك تقسيم رواة هذا العصر لأمير المؤمنين علي. وبعد أن يحدد لهم لنا سنرى ما هو الباب الذي فتحه أمير المؤمنين في أول خطاب له لاغتراف العلم.

سئل الإمام عن أحاديث البدع. وعما في أيدي الناس من اختلاف الخير.

فقال:

إن في أيدي الناس حقا وباطلا. وصدقا وكذبا. وناسخا ومنسوخا. وعاما وخالصا. ومحكما ومتشابها. وحفظا ووهما. ولقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهده حتى قام خطيبا. فقال: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وإنما أتاك الحديث أربعة رجال. ليس لهم خامس:

(١) لأن الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

(٢) أي إلا بحق.

(٣) أي سيقوكم.

(٤) أي إنما ينتظر بيعت الموتى المتقدمين أن يموت الأواخر أيضا. فبيعت الكل جميعا فيوقت واحد.

(٥) ابن أبي الحديد ٣٣٧ / ٣.

الصفحة ٤٨٥

رجل منافق مظهر لإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج. يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمدا. فلو علم الناس أنه منافق كاذب لميقبلوا منه. ولم يصدقوا قوله. ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله رآه وسمع منه، ولقف عنه. فيأخذون بقوله. وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك. ووصفهم بما وصفهم به لك. ثم بقوا بعده. فتقربوا إلى أئمة الضلالة. والدعاة إلى النار بالزور والبهتان. فولوهم الأعمال. وجعلوهم حكاما على رقاب الناس فأكلوا بهم الدنيا. وإنما الناس مع الملوك والدنيا. إلا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة.

ويفهم من كلام الإمام رضي الله عنه أن الخلفاء بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا المنافقين لأن المنافق يسير بما في قلبه ويعامله الناس بظاهره. وعندما فتحت البلاد وكثرت الغنائم اختلط المنافقون بالأمرء في الأمصار فولوهم الأعمال والخلفاء لو كانوا يعرفون المنافقين بأعيانهم ما استطاعوا لأمرء وضعهم على رقاب الناس. ثم يقول الإمام رضي الله عنه عن الصنف الثاني: ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا. فهو في يديه. ويرويه ويعمل به. ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه. ولو علم هو أنه كذلك لرفضه.

ثم يقول الإمام عن الصنف الثالث: ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يأمر به ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهين شيئا ثم أمر به وهو لا يعلم فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه.

ثم يقول الإمام في الصنف الأخير: وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله. مبغض للكذب خوفا من الله. وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهمل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على سمعه لم يزد فيهم ولم ينقص منه. فهو حفظ الناسخ فعمل به. وحفظ المنسوخ فجنب عنه

الصفحة ٤٨٦

وعرف الخاص والعام. والمحكم والمتشابه. فوضع كل شيء موضعه. وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام له وجهان: فكلام خاص، وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمله السامع. ويوجهه على غير معرفة بمعناه. وما قصد به أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه. حتى إن كانوا يحبون أن يجيء الأعرابي

والطارئ فيسألعليه الصلاة والسلام حتى يسمعا. وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم فيرواياتهم (١).

وقول الإمام إنه كان لا يمر به شئ من ذلك إلا سأل النبي عنه وحفظه شواهد كثيرة. فعلاوة على أنه كان لا يفارق النبي في مواطن كثيرة. فإنه كانله من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار (٢) يقول له فيهما ما غاب عنه ويفسر له فيهما ما استفسر عنه. وحفظ علي رضي الله عنه لجميع ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في حديث صحيح وذلك في قوله تعالى: (وتعيها أذن واعية) فعن علي قال:

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي.

فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسيت (٣) ، ولذا كان علي يقول: " إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا ناطقا (٤) " ، وقال: " سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت ليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل (٥) " ، وهذا كله كان لحكمة من ورائها هدف. وهذا الهدف يشع فيأحاديث رواها أئمة الحديث عند قوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)

(١) ابن أبي الحديد ٥٩١ / ٣.

(٢) رواه النسائي ٢ / ١٢.

(٣) رواه الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم (كنز العمال ١٧٧ / ١٣).

(٤) الطبقات الكبرى ٣٣٨ / ٢ (٥). الطبقات ٣٣٨ / ٢.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الهادي هو علي بن أبي طالب (١) "

وبعد أن بين الإمام مصادر الرواية بين ما ترتب على ذلك من اختلاف:

ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام. فيحكم فيها برأيه. ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره. فيحكم فيها بخلاف قوله. ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم. فيصوب آراءهم جميعا وإليه واحد ونبينهم واحد وكتابهم واحد. فأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه. أم نهاهم عنه فعصوا. أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه. والله تعالى يقول: (ما فرطنا في الكتاب من شئ (٢)) ، وفيه تبيان كل شئ. وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنا لا اختلاف فيه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا (٣)) ، وأن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه. ولا تنقض غيرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به. (٤) "

وبعد أن بين الإمام اختلاف الرواة وما ترتب عليه من اختلاف الفتوى. فتح أبواب البحث: أيها الناس إنه من استتصح الله وفق. ومن اتخذ قوله دليلاً هددلتي هي أقوم. فإن جار الله آمن. وعدوه خائف. وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم. فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمت أن يتواضعوا له. وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له. فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجر. والباري من ذي السقم. واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه. ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه. ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذ. فالتمسوا ذلك عند أهله. فإنهم عيش العلم. وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم. وصمتهم عن منطقتهم. وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه. فهو بينهم شاهد

(١) رواه ابن جرير (الفتح الرباني ١٨٥ / ١٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) ابن أبي الحديد ٢٣٣ / ١.

الصفحة ٤٨٨

صادق. وصامت ناطق. (١) "

ومما سبق علمنا أن الإمام علي أمر بأخذ الخير وترك الشر. ثم بين ما في أيدي الناس من اختلاف الخبر. وما ترتب على ذلك من الاختلاف في الفتوى لتعدد الآراء. ثم فتح الإمام طريق البحث للوقوف على أسباب ذلك وقال: "واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه " ثم ساق الباحث الكتاب الله ليوقف عند الذي نقضه. ثم اختصر المسافة للتيسير على الباحث فبين أن المعرفة والأخذ بميثاق الكتاب والتمسك به جميع ذلك في دائرة " أهله " وهو قوله: " فالتمسوا ذلك عند أهله " وروي أنه قال في أول خطبة خطبها في خلافته:

ألا إن أبرار عترتي وأطايب أرومتي. أحكم الناس صغاراً. وأعلم الناس كباراً.

أولاً لنا أهل بيت من علم الله علمنا. وبحكم الله حكمنا. ومن قول صادق سمعنا. فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا (٢) ، وقال: " نحن الشعار والأصحاب. والخزنة والأبواب. لا تؤتى البيوت إلا من أبوابها فمن آتاه من غير أبوابها سمي سارقاً (٣) " ، وقال في أهل البيت: " هم عيش العلم. وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم. وظاهرهم عن باطنهم. وصمتهم عن حكمة منطقتهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون عليه. وهم دعائم الإسلام. وولائج الاعتصام (٤) . "

ومن الطبيعي أن النص ورواية شعر المجون لا مجال لهما في هذه المساحة الزمنية والمكانية. ومن الطبيعي أن توجيه الدعوة للبحث يقتضي عودة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد حث الإمام على تدارس الحديث وقال: " تزاورا وتدارسا الحديث و لا تتركوه يدرس (أي اقرأوه

(١) ابن أبي الحديد ٢٠٣ / ٣.

(٢) ابن أبي الحديد.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٤٧ / ٣.

(٤) ابن أبي الحديد ٢٨٧ / ٤.

الصفحة ٤٨٩

وتعهدوه لئلا تتسوه (١) ، وحذر الإمام من خلط الحديث بما كان يجري بالساحة من فعل وخلافة. فقال: " تعلموا العلم. فإذا علمتموه فاكظموا عليه. ولا تخالطوه بضحك وباطل فتمحه القلوب (٢) وزيادة في الاحتياط رد كل علم إلى العالمه حتى لا تخترق الرواية فقال: " إذا قرأت العلم على العالم فلا بأس أنترويه عنه (٣) " ، ثم بشر الذين يروون الحديث فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم ارحم خلفائي (ثلاث مرات) قيل يا رسول الله: ومن خلفائك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي ويعلمونها للناس. (٤) "

أما بخصوص انسحاب القص روي عن أبي البحتري: قال: دخل علي بن أبي طالب المسجد، فإذا رجل يخوف. فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس. فقال: ليس برجل يذكر الناس. ولكنه يقول: أنا فلان بن فلان عرفوني. فأرسل إليه. فقال: أتعرف الناس من المنسوخ، قال: لا، فقال أمير المؤمنين: فأخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه. (٥)

وروي مسدد بسند صحيح عن سعيد بن هند. أن عليا مر بقاص فقال: ما يقول؟ قالوا: يقص، قال: لا ولكن يقول عرفوني (٦)، وعن أبي يحيى قال: مر علي وأنا أقص فقال: هل عرفت الناس من المنسوخ؟ قلت: لا، قال: أنت أبو عرفوني. (٧) "

والسياسة الإعلامية (إعرفوني) هي التي تقدم الناس إلى العامة بعد أنتسج حولهم خيوطا براقية كما ساعدت على إيجاد شخصيات خرافية وقصص خرافية تخدم مصالح معينة. وكما انسحب القص انسحب شعر الجاهلية والأديرة

(١) الخطيب (كنز العمال ٣٠٤ / ١٠).

(٢) عبد الله بن الإمام أحمد والخطيب (كنز العمال ٣٠٤ / ١٠).

(٣) المرهبي (كنز العمال ٢٩٤ / ١٠).

(٤) الطبراني والخطيب والديلمي وابن النجار (كنز العمال ٢٩٥ / ١٠).

(٥) العسكري والمرزوي (كنز العمال ٢٨١ / ١٠).

(٦)مسدد (كنز العمال ٢٨٢ / ١٠).

(٧)المرزوي (كنز العمال ٢٨١ / ١٠).

الصفحة ٤٩٠

والخمور، وروى ابن أبي الحديد. أن عليا كان يأمر بمحاربة شعراء أهل الشامالذين يروجون شعر الأديرة، وروى أن كعب بن جعيل عندما شرب الخمر وأقامعلي بن أبي طالب عليه الحد. غضب ولحق بمعاوية وهجا عليا(١) ، ولماكانت الخمور زادا للشعراء والقصاصين فإن أمير المؤمنين حرق مركز صناعتهاوذلك فيما رواه ربيعة بن زكار قال: نظر علي بن أبي طالب إلى قرية. فقال: ما هذه القرية؟ قالوا: قرية تدعى زرارة يلحن فيها ويباع فيها الخمر. فأتاها بالنيرانوقال :إضرموها: فإن الخبيث يأكل بعضه بعضا. فاحترقت (٢)، وكان عليرضي الله عنه يوصي الشعراء بتعلم القرآن.

وإذا كانت الإصلاحات العلوية قد شملت عزل الأمراء والتسوية في الأموالوالرحمة بالإنسان والحيوان والعودة إلى رواية العلم كما كان على عهد الرسولصلى الله عليه وسلم فإن هذه الإصلاحات فتحت على أمير المؤمنين علي بن أبيطالب أبوابا دخلت منها أصناف من الصدود. فنبلاء قريش وطبقتها العليا منهممن وجد أن عليا ساوى بينه وبين الطبقة السفلى فتحركت فيهم مشاعر لا تختلفكثيرا عن مشاعر الذين شعروا بالضجر يوم أن ساوى الرسول صلى الله عليه وسلمبينهم وبين بلال وخباب وعمار وغيرهم. وهؤلاء إما فروا إلى معاوية في الشاموإما تفرغوا للكيد داخل القوات الإسلامية العلوية. ومنهم من وجد أن عودةالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستظهر فضل علي بن أبي طالب لامحالة وستدين أطرافا أخرى بصورة من الصور فوجدوا أن السبيل لقطع هذاالطريق هو تشكيك الناس في علي بن أبي طالب بأنه ليس وحده من أهل البيتأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من أهل البيت أيضا ولهن مالهوعليهن ما عليه وأن خروجه على إحداهن هو شق لصف أهل البيت. والذينذهبوا إلى هذا المسلك استندوا على عمق مساحة اللارواية وما ترتب عليها مننسيان أو تناس للرواية فضلا على وجود جيل كامل في الأمصار

(١)ابن أبي الحديد ٧٩٩ / ١.

(٢)أبو عبيد (كنز العمال ٥٠٤ / ٥).

الصفحة ٤٩١

لم يسمع من النبي ولم يره وكثير منهم استمد علومه من فقهاء الأمراء وهي علومن تتصف علي بن أبي طالب في أكثر الأحوال.

ومنهم أيضا من كان يطمع في الكرسي بعد أن مهد يوم الشورى الطريق لهكي يحلم بهذه الأحلام. ومن الأصناف الذين وجدوا في الاصلاح العلوي عقبهفي طريقهم. صنف عمل على امتداد تاريخه في الجاهلية والإسلام من

أجل الملك وحده. وذلك بعد استحواذ بني هاشم على مفاخر قريش في الجاهلية واختيار الله لهم في الإسلام. فهذه الأمور أصابت أطرافاً أخرى بعقدة النقص.

ولو ردوا كل شيء إلى الله ما أصابتهم هذه العقد.

ونرى قبل تسليط الضوء على هذه الأمور أن تلقي نظرة سريعة على القيادة التي قامت بهذه الإصلاحات لنرى هل القيادة كانت تعمل من أجل الكرسي. أم أن المال مطلبها. أم أنها كانت قيادة الحجة. قيادة الزهد رداؤها وسيفها هوسيف الزهد ابتغاء وجه الله.

- ٣ العالم العامل الزاهد:

يقول الإمام الزاهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " إني متكلم بعدة للهوجته. قال الله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة. أن لا تخافوا ولا تحزنوا...)، وقد قلت: " ربنا الله " فاستقيموا على كتابه. وعلى منهاج أمره. وعلى الطريقة الصالحة من عبادته. ثم لا تمرقوا منها.

ولا تبتدعوا فيها. (١) ولا تخالفوا عنها. فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة (٢) ، وقال: " فالله الله معشر العباد. وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم.

وفي الفسحة قبل الضيق. فاسعوا فكاك رقابكم. من قبل أن تغلق رهائنها.

اسهروا عيونكم. وأضمروا بطونكم. واستعملوا أقدامكم. وأنفقوا أموالكم.

وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم. ولا تبخلوا بها عنها. فقال قال

(١) أي لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة.

(٢) ابن أبي الحديد ٣٨٥ / ٣.

الله سبحانه: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (١) ، وقال تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) (٢) ، فلم يستنصركم من ذل. ولم يستقرضكم من قل. استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد.

وإنما أراد أن يبيلوكم أيكم أحسن عملاً. فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله الذي يقرضهم. وأزارهم ملائكته. وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيبنا أبدأ. وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. (٣) "

مما سبق يتبين أن المتكلم حجة. همته بالله وشغله فيه وفراره إليه. وكان الإمام يقول مخاطباً ساحة عريضة اكتنز فيها الذهب والفضة " لطلب المال والثروة أسرع من خراب دين الرجل من ذئبين ضاربيين باتا في حظيرة غنم. ما زالا فيها حتى أصبحا (٤)، وقال: " الزهد كله بين كلمتين من القرآن ". قال الله سبحانه:

(*لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم(٥))، ومن لم يأس علنالماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه(٦) "، وقال: " فلا تنافسوا في عزل الدنيا وفخرها. ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها. ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها. فإن عزها وفخرها إلى انقطاع. وزينتها ونعيمها إلى زوال. وضراءها وبؤسها إلى النفاذ. وكل مدة فيها إلى انتهاء. وكل حي فيها إلى فناء. أو ليس لكم في آثارالأولين مزدجر. وفي آباءكم الأولين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون. أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون. وإلى الخلف الباقيين لا يبقون. أو لستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت يبكي. وآخر به يعزي

(١)سورة محمد: الآية ٧.

(٢)سورة الحديد: الآية ١١.

(٣)ابن أبي الحديد ٤٥٤ / ٣.

(٤)رواه العسكري في المواعظ (كنز العمال ٧١٨ / ٣).

(٥)سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٦)ابن أبي الحديد ٧٩٥ / ٣.

الصفحة ٤٩٣

وصريع مبتلي. وعائد يعود وآخر بنفسه يجود. وطالب للدنيا الموت يطلبه. وغافل وليس بمغفول عنه(١) " ..، وقال: " أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال، ووقت لكم الآجال. وألبسكم الرياش (٢). وأرفع لكم المعاش (٣). وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد (٤) لكم الجزاء. وأثركم بالنعمالسوابغ، والرغد الروافع (٥). وأنذركم بالحجج البوالغ (٦). فأحصاكم عددا. ووظف لكم مددا. وفي قرارة خبرة. ودار عبرة. وأنتم مختبرون فيها. ومحاسبون عليها(٧) "

فهكذا كان أمير المؤمنين يخاطب رقعة واسعة عليها العديد من النبلاء.

وكان أمير المؤمنين خير قدوة لسياسة الدنيا والآخرة. يقول الشعبي: دخلتالكوفة وأنا غلام. فإذا أنا بعلي بن أبي طالب قائما على صبرتين (٨)من ذهبوفضة. ومعه محففة. وهو يطرد الناس بمحففته. ثم يرجع إلى المال فيقسمه.

بين الناس. حتى لم يبق منه شيئا. ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا. فرجعت إلى أبي فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحق الناس.

قال: من هو يا بني؟ قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين. رأيت يصنع كذا.

فقصصت عليه، فبكى أبي وقال: يا بني بل رأيت خير الناس (٩)، وروى ابن كثير عن ابن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد. فقلت: يا أمير المؤمنين. إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيبا في هذا المال وأنت ترعد من البرد. فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئا. وهذه

(١) ابن أبي الحديد ٦٣٢ / ٢.

(٢) الرياش / اللباس.

(٣) أرفع / أي واسعاً خصباً.

(٤) أرصد / أي أعد.

(٥) الرصد الروافغ / الواسعة.

(٦) أي الظاهرة المبنية.

(٧) ابن أبي الحديد ٤٢٩ / ٢.

(٨) أي ما جمع بلا كيل ولا وزن.

(٩) ابن أبي الحديد ٤١٤ / ١.

الصفحة ٤٩٤

القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي - أو قال - من المدينة (١)، وروى أن علياً قال: أيها الناس والله الذي لا إله إلا هو ما رزأت من مالكم قليلا ولا كثيرا إلا هذه. وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب وقال: أهداها إلي داهقان (٢) وروى أنه كان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه. ويقول:

لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم (٣)، وروى أنه لم يبين آجرة على آجرة ولا لينة على لينة ولا قصبه على قصبه وكان يأتي بحبوبة من المدينة في جراب ليأكل منها (٤) وروى أنه كان يكس بيت المال كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ويقول:

ليشهد لي يوم القيامة. (٥)

والإمام علي بن أبي طالب لم يطالب بفدك وهي حقه. ليس لأن الزمان كان زمان ثورة على المال والذهب والفضة ومطالبتها سيفتح عليه أبوابا. وإنما لأن فدك كانت ابتلاء لعصر. وإذا كان الإمام لم يأخذ حقه ومفتاح بيت المال فييده. فهو أيضا لم يطالب بفدك وهو على رأس السلطة. وذلك لأنه كان يتعامل مع الأحداث من باب إقامة الحجة ووفقا لمتطلبات الدعوة أما عن أمواله روي أنه قال: " بلى كانت في أيدينا فدك. من كل ما أظلمت السماء. فشحت عليها نفوس قوم. وسخت عنها نفوس آخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك (٦) " ، وشرح ابن أبي

الحديد كلام الإمام فقال: أبي لا مال لي. ولا اقتنيتي فيما مضى مالا. وإنما كانت في أيدينا فدك. فشحت عليها نفوس قوم (أينحلت) وسخت عنها نفوس آخرين. (أي سامحت واغضت)، ثم بين الإمام بعد ذلك. أن ثقله واقتصاره من المطعم والملبس على الجشب والخشن رياضة لنفسه. وأنه يعمل ذلك خوفا من الله. فالرياضة هنا هي رياضة في الحقيقة

(١) البداية والنهاية ٣ / ٨.

(٢) رواه مسدد والحاكم (كنز العمال ١٦٨ / ١٣).

(٣) الكامل ٢٠١ / ٣.

(٤) الكامل ٢٠١ / ٣.

(٥) الإمام أحمد في الزهد (كنز العمال ١٨٢ / ١٣).

(٦) ابن أبي الحديد ٨٢٣ / ٤.

الصفحة ٤٩٥

بالتقوى لا بنفس التقلل والتكشف. لتأتي نفسه آمنة يوم الفرع الأكبر وتثبت فيمداحض الزلق. (١)

وهكذا ترك الإمام الذي له. وعلى مقربة منه جاء قوم ليأخذوا ما ليس لهم. ليكون الذي للإمام حجة عليهم ولقد رأينا مما سبق بعض معالم الحكومة الدينية التي تفتح أبواب التوبة فترسى قواعد حرية الإنسان مما يتوافق مع فطرتها التي فطره الله عليها. ولقد رأينا أن الإمام لم يفرض نفسه ولم يهدد معارضييه.

ونشر العلم ولم يتصد للقصاصين وغيرهم بقوة السلاح وإنما بقوة الحجة. ولم يبعث العمال على الأمصار لهدف جمع الأموال وإنما ليكونوا دعاة رحمة يستظلها الإنسان والحيوان. وكان الإمام أمام هذه المساحة الطويلة والعريضة قدوة ومثل أعلى للعامة والخاصة.

(١) ابن أبي الحديد ٨٢٤ / ٤.

الصفحة ٤٩٦

الصفحة ٤٩٧

ثانياً - البغاة والقمر

بعد مقتل عثمان انطلق النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية. وفي الشام بدأ إعلام معاوية يعبأ الناس حول القميص. وعندما اطمئن معاوية لنتيجة سياسته الإعلامية. روى ابن كثير أنه بعث رجلاً فدخل على علي بن أبي طالب.

وعندما قال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود.

كلهم موتور. تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق. فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. (١)

لقد كانت هذه رسالة مبكرة من معاوية بعد أن أراد أمير المؤمنين عزله منعلى الشام. وبدأ إعلام بني أمية يبث في الأمصار أن عثمان قتل مظلوما وأن عليا اشترك في دمه. وعندما علم أمير المؤمنين بهذا قال: " أولم ينه بني أمية علمها عن قرفي؟ أو ما وزع الجهال سابقتي عن تهمتي؟ ولما وعظهم الله به أبلغ منلساني. أنا حجيج المارقين. وخصيم الناكثين المرتابين. وعلى كتاب الله تعرضا لأمثال. وبما في الصدور نجازي العباد قال ابن أبي الحديد ومعناه: أما كان فيعلم بني أمية بحالي ما ينهاها عن قرفي بدم عثمان. وذكر أن علمهم بها يقتضيا لا يقره بذلك. وحاله التي يعلمها بنو أمية. هي منزلته في الدين التي لا منزلة

(١) البداية والنهاية ٢٣٠ / ٧.

الصفحة ٤٩٨

أعلى منها. وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته فيقوله: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " وأيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " وذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك... فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين. مع علمهم بمنزلته العالية في الدين التي لم يصل إليها أحد من المسلمين. أن يطلقوا أسنتهم فيه وينسبوه إلى قتل عثمان أو الممالة عليه. لاسيما وقد ثبت عندهم أنه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه. ثم قال: إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن. من تحريم الغيبة والقدف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظي لهم. لأنه لا عظة أبلغ من عظة القرآن. ثم قال: أنا حجيج المارقين وخصيم المرتابين يوم القيامة ورويعنه أنه قال: أنا أول من يجثوا للحكومة بين يدي الله تعالى "، ثم أشار إلى ذلك بقوله: على كتاب الله تعرض الأمثال. يريد بذلك قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم) (١)، ثم قال: إن كنت قتلت عثمان أو مألأت عليه. فإن اللهبحانه سيجازيني بذلك. وإلا فسوف يجازى بالعقوبة والعذاب من اتهمني بهونسبني إليه. (٢)

لقد رأوا باتهام أمير المؤمنين في دم عثمان أمورا منها: إخراجهم من دائرة التطهير التي ستظهرها رواية الحديث في عهده، وهم يريدون إخراجهم من هذه الدائرة ليسهل عليهم مواجهته وتعبئة العامة من حولهم على اعتبار أنهم أولياء عثمان والأحق به. أي يجردونه من الرداء الذي وضعه عليه الله ورسوله. بينما يكون على أبدان بني أمية رداء تأويل قوله تعالى: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل) (٣)، فيكونون هم في دائرة الدين. ويكون أمير المؤمنين واحدا من الناس حرص على الحكم ليجعله في أعقابه.

(١) سورة الحج: الآية ١٩.

(٢) ابن أبي الحديد ٣٧٩ / ٢.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٣.

الصفحة ٤٩٩

ولقد بلغ الإعلام الأموي مداه حتى أن الأمر قد التبس عند العديد مناصحابه فهذا زيد من أرقم يقول لأمير المؤمنين علي، أنشدك الله، أنت قتلتعثمان؟ فأطرق الإمام ساعة ثم قال: والذي فلق الحبة. وبرأ النسمة ما قتلت ولأمرت بقتله (١)وأمام طوفان الإعلام الأموي خطب الإمام علي في الناس فقال:

لو أمرت به لكنت قاتلا. أو نهيت عنه لكنت ناصرا. غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه. ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هوخير مني. وأنا جامع لكم أمره. استأثر فأساء الأثرة. وجزعتم فأسأتم الجزع.

ولله حكم واقع في المستأثر والجازع (٢)وخلاصة هذا الكلام: أنه فعل ما لايجوز وفعلتم ما لا يجوز. أما هو فاستأثر فأساء الأثرة. أي استبد بالأمور فأساء في الاستبداد. وأما أنتم فجزعتم مما فعل. أي حزنتم فأسأتم الجزع. لأنكمقتلتموه. وقد كان الواجب عليه أن يرجع عن استنثاره. وكان الواجب عليكم ألاتجعلوا جراه عما أذنب القتل. بل الخلع والحبس وترتيب غير ه في الإمامة. ثمقال: والله حكم سيحكم به فيه وفيكم (٣)

وأما هذه الأحداث طلب منه قوم من أصحابه أن يعاقب من أجلب علعثمان. ولكن من هؤلاء الذين سيعاقبهم الإمام؟ وهناك من مهد ومن أفتى ومنناصر القتلة ومن خذل المقتول ومن قتل. ولهذا قال الإمام لأصحابه: يا إخوتاه،إنني لست أجهل ما تعلمون. ولكن كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حدشوكتهم يملكوننا ولا نملكهم!! دهاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والنفثإليهم أعرابكم (٤)لاحظ أن المجلبين هنا ليسوا في جيش الإمام) وهمخلالكم (٥)يسومونكم (٦)ما شاؤا. وهل ترون موضعا لقدرة على شئ تريدونه؟

(١)رواه الحاكم (المستدرک ١٠٦ / ٣).

(٢) ابن أبي الحديد ٣٦٣ / ١.

(٣) ابن أبي الحديد ٣٦٥ / ١.

(٤) أي انضمت واختلطت بهم.

(٥) أي بينكم.

(٦) أي يكلفونكم.

الصفحة ٥٠٠

إن هذا الأمر أمر جاهلية. وإن لهؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر إذاحرك على أمور: فرقة ترى ما ترون. وفرقة ترى ما لا ترون. وفرقة لا ترى هذا ولا هذا. فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها. وتؤخذ الحقوق مسحة. فأهدأوا عني (١)، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري. ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة (٢) وتسقط منه (٣). وتورث وهنا (٤) وذلة وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي (٥) قال ابن أبي الحديد: واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه كان في نفسه عقاب الذين حصروا عثمان والاقتصاص ممن قتله. ولهذا قال: إنني لست أجهل ما تعلمون. فاعترف بأنه عالم بوجود ذلك. واعتذر بعدم التمكن كما ينبغي. وصدق في ذلك. فإن أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه... ولا يأمن لو شرع في عقوبة الناس والقبض عليهم. من تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم. فكان الأصوب في التدبير. والذي يوجب الشرع والعقل. الامسك إلى حين سكون الفتنة... وكان يأمل أن يطيعه معاوية وغيره وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم. ويعينون قوما بأعيانهم. بعضهم للقتل. وبعضهم للحصار. وبعضهم للتشور. كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضي. فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى. ولكن الأمر لم يقم على هذا النحو. وعصى معاوية وأهل الشام. والتجأ ورثة عثمان إليه. وفار قوا أمير المؤمنين. ولم يطلبوا قصاص طلبا شرعيا. وإنما طلبوه مغالبة. وجعلها معاوية عصبية جاهلية. ولم يأت أحد منهم الأمر من بابيه. وقد قال أمير المؤمنين لمعاوية فيما بعد: (فأما طلبك قتلة عثمان فادخل في الطاعة. وحاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله وسنة رسوله... وهذا عين الحق. ومحض الصواب لأنه يجب دخول الناس في طاعة الإمام ثم تقع المحاكمة

(١) أي فاسكتوا.

(٢) أي تضعف وتهد.

(٣) منة / القوة.

(٤) وهن / ضعف.

(٥) ابن أبي الحديد ٣٣٩ / ١، الطبري حوادث عام ٣٥.

الصفحة ٥٠١

إليه (١) ولكن بني أمية ما كانوا يريدون حقا لأن الحق وضعهم ورفع غيرهم.

جوهر الأمر لم يكن قتلة عثمان وإنما الملك وكان الإمام علي يعلم هذا ولهذا قال: " وسأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي " أي: أمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم إنذارهم. واجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب. فإذا لم أجد بدا من الحرب. فآخر الدواء الكي. أي الحرب. لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها.

لقد كان الإمام يعلم أن هؤلاء هدفهم الحكم وليس قميص عثمان إلا رمزاً وشعاراً، ولهذا قال: لو أعلم أن بني أمية يذهب ما في نفوسها. لحلفت لهم خمسين يمينا مردودة بين الركن والمقام. أني لم أقتل عثمان. ولم أملك علقته (٢) وقال: " أما بنو أمية هيهات هيهات أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو كان الملك من وراء الجبال. ليثبوا عليه حتى يصلوا (٣) " ، والإمام قال ذلك لأنه سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا.

فمن ثروان قال: كنا جلوسا في المسجد. فمر علينا عمار بن ياسر. فقلنا له:

حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يكون بعدي قوم يأخذون الملك. يقتلونه بعضهم بعضا. قلنا له: لو حدثنا غيرك ما صدقناه قال: فإنه سيكون (٤) فالملك لو كان من وراء الجبال لو ثب عليه بنو أمية. ولا يقتلون عليه من خلفهم كان من غيرهم فقط. وإنما يقتلون أيضا بعضهم بعضا عليه.

وفي نص سابق علمنا أن الإمام عليا أخذ على نفسه أن يرسل القوم

(١) ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٣.

(٢) اللالكائي (كنز العمال ٩١ / ١٣).

(٣) ابن عساکر (كنز العمال ٣٦٤ / ١١).

(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٤ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني وأبو يعقوب بن صالح (الزوائد ٢٩٢ / ٧).

وينذرهم ويجتهد في ردهم إلى الطاعة. وقد فعل رضي الله عنه ذلك ليقيم علنا الظالمين الحجة أمام الله جل وعلا. وروى أنه كتب إلى معاوية: " أما بعد. فقد علمت إعداري فيكم. وإعراضي عنكم. حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له.

والحديث طويل. والكلام كثير. وقد أدبر ما أدبر. وأقبل ما أقبل. فبايع من قبلك. وأقبل إلي في وفد من أصحابك (١) "، لقد أقام الحجة وهو يعلم أن معاوية له يبايع. وكيف يبايع وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة منذ أمره عمر على الشام. ومن خلفه وصية أمه وأبيه. وكيف يطيع عليا وبين علي بن أبي طالب وبين النبي صلى الله عليه وسلم مساحة واسعة من اللارواية ومساحة أوسع من القص وعليها من المحرضين على علي أكثر من عدد الحصى ويكفيا لوليد بن عقبة الذي بعث إلى معاوية يقول:

فوالله ما هند بأمرك إن مضى * النهار ولم يثأر بعثمان تائر

أيقتل عبد القوم سيد أهله * ولم تقتلوه ليت أمك عاقر

يقول ابن أبي الحديد: وتالله لو سمع هذا التحريض أجبن الناس وأضعفهم نفساً وأنقصهم همه لحركه وشحذ من عزمه فكيف معاوية. وقد أيقظ الوليد بشعره من لا ينام (٢) ولم يكتف أمير المؤمنين برسالة واحدة إلى معاوية. وإنما بعث إليه بأكثر من رسالة بعد بيعته بخصوص دم عثمان. وفي رسالة قال له:

ولعمري يا معاوية. لئن نظرت بعقلك دون هواك. لتجدي أبرأ الناس من دم عثمان. ولتعلمن أنني كنت في عزله عنه. إلا أن تتجنى. فتجن ما بدا لك.

والسلام. (٣)

ولم يكف الإعلام الأموي عن الباطل بل بعث إلى مكة وبقيّة الأمصار بمن يحملون إذاعته ويعملون من أجل شق صف الأمة.

وفي هذا الوقت استأذن طلحة والزبير علياً في العمرة فأذن لهما فلاحقا

(١) ابن أبي الحديد ٢٤٧ / ٥.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٤٨ / ٥.

(٣) ابن أبي الحديد ٣١١ / ٤.

الصفحة ٥٠٣

بمكة (١) وبدأ أهل المدينة يحومون حول أمير المؤمنين، ليعرفوا رأيه في معاوية، وقتال أهل القبلة. أيجسر عليه أم ينكل عنه. ووجد أهل المدينة فيزياد بن حنظلة التميمي ضالته المنشودة. فدسوا زيادا إلى علي وكان من الذين يدخلون عليه. وذات يوم قال أمير المؤمنين لزياد: يا زياد تيسر. فقال: لأيشئ. فقال الإمام: تغزو الشام فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه.

فقالوا: ما وراءك؟ قال: السيف يا قوم (٢) وبدأ الإمام علي يجهز قواته ليضرب بالفرقة وطلاب الملك عند المهدي وقبل أن يستقل الأمر. وخطب أهل المدينة.

فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة. وقال: إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهديا بكتاب ناطق. وأمر قائم واضح. لا يهلك عنه إلا هالك. وإنما بالمبتدعات والشبهات هن المهلكات. إلا من حفظ الله. وإن في سلطان الله عصمة أمركم. فاعطوه طاعتكم غير ملتوية. ولا مستكره بها. والله لتفعلن أولينقلن الله عنكم سلطان الإسلام. ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأمر الأمر إليها.

إنهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم (٣)، وبينما كان أمير المؤمنين يحشد القوة لمواجهة أهل الشام (٤) جاءه الخبر أن مكة قد هاجت وأن أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير لهم رأي آخر، واشتد على أهل المدينة الأمر!!

- اضجيج في أعماق الحجة:

كانت مكة منطلقا للأحداث بين أم المؤمنين عائشة وبين أمير المؤمنين علي، وبالنظر في خطب أمير المؤمنين بعد نكث طلحة والزبير وخروج أم المؤمنين عائشة. ترى أن جميع الخطب تدور على محور واحد هو: "... فإنهلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم. قلنا: نحن أهله وورثته وعترته.

(١) ابن أبي الحديد ١٦٣.

(٢) الطبري ١٦٣ / ٥.

(٣) الطبري ١٦٤ / ٥.

(٤) الطبري ١٦٩ / ٥.

الصفحة ٥٠٤

وأولياؤه من دون الناس. لا ينازعنا سلطانه أحد ولا يطمع في حقنا طامع. إذانبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا. فصارت الإمرة لغيرنا. وصرنا سوقة. يطمعينا الضعيف. ويتعزز علينا الذليل (١) ".....، وفي جميع هذه الخطب يبين للإمام مبايعة الناس له بعد مقتل عثمان وأن من بين الذين بايعوه طلحة والزبير.

وقد نكثا وغدرا ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرقا الجماعة. والباحث لا يعلم حقيقة الأحداث التي دعت أمير المؤمنين أن يطرح قضية الخلافة في ساحة تواجهها فيها السيدة عائشة. وقيل هذه الأحداث كانت خطب أمير المؤمنين تدور حول الإصلاح وفي قليل منها كان يشيد بأهل البيت.

والذي يمكن أن يؤكد البحث العلمي هو أن علاقة السيدة عائشة بأمر المؤمنين لم تكن على المستوى المطلوب وهذه العلاقة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقيم عليها الحجة في عهده لما سبترتب عليها. من ذلك ما رواه ابن حجر عن معاذة الغفارية قالت: كنت أخرج مع رسول الله في الأسفار. أقوم علنا لمرضى، وأداوي الجرحى. فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت عائشة وعلي خارج من عندها. فسمعتة يقول لعائشة: إن هذا أحب الرجال إليوأكرمهم علي فاعرفي له حقه وأكرمي مثواه (٢) "، وعن رافع مولى عائشة قالت:

كنت غلاما أخدمها إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها. وإنه قال:

"عادي الله من عادي عليا. (٣) " وكانت السيدة عائشة تعلم علم اليقين موضع علي وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن النعمان قال: إستانذن أبوبكر صلى الله عليه وسلم. فسمع صوت عائشة عاليا وهي تقول: والله لقد عرفتأن عليا وفاطمة أحب إليك مني ومن أبي - مرتين أو ثلاثا - فاستأذن أبو بكر فأهوى إليها فقال: " يا بنت فلانة لا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٤) "

(١) راجع هذه الخطب في ابن أبي الحديد ٢٤٨ / ١ وما بعدها.

(٢) الإصابة ١٨٣ / ٨.

(٣) أخرجه ابن منده بسند صحيح (الإصابة ١٩١ / ٢).

(٤) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٤ / ٢٧٥) (الزوائد

الصفحة ٥٠٥

فالنبي صلى الله عليه وسلم أقام الحجة في هذا الأمر. والسيدة عائشة عرفت بهذه الحجة وأقرت. والملاحظ أن العلاقة بين السيدة عائشة وبين أمير المؤمنين علي لم تتقدم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعندما ذكر عندها: هل أوصى النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي؟ قالت: ما قاله؟ (١)، ثم أخبرت بأن الرسول توفي بين سحرها ونحرها وقال: فمتى أوصى؟ ولقد بينا من قبل أن هناك طائفة من الأحاديث الصحيحة أيضا تقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو مستند إلى صدر علي وهو الذي غسله.

وبعيدا عندما يتعلق بقضية الخلافة. نرى أن السيدة عائشة وهي تصف ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيتها عند مرضه تقول: فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه في الأرض. بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر.

الأمر الذي جعل ابن عباس يقول: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسمعايشة: هو علي (٢) ، ومن الدليل على أن العلاقة لم يحدث فيها تقدم علنا للمستوى المطلوب قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله! قال: نعم (٣).

ولما كانت الدعوة لا تجامل أحدا. فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بأن الفتن الكبرى ستكون على أيديهم. وقال: " إنني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم (٤) "، ولم يستثن أزواجه من هذا وإنما قال: " لا إله إلا اللهما فتح الليلة من الخزان. لا إله إلا الله ما أنزل من الفتن. من يوقظ صواحب الحجرات رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة " قال البخاري: " يريد به

(9 / 201 =

(١) رواه البخاري (الصحيح ٩٥ / ٣) ك المغازي باب مرض النبي.

(٢) البخاري ك المغازي، ب مرض النبي (الصحيح ٩٣ / ٣) ومسلم (الصحيح ١٣٩ / ٤).

(٣) رواه الإمام أحمد (المسند ٦ / ٣٩٣) والبخاري (كشف الأستار ٤ / ٩٤) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣٤ / ٧).

(٤) رواه البخاري (الصحيح ٣٢٢ / ١)، ومسلم (الصحيح ٧ / ١٨).

الصفحة ٥٠٦

أزواجه (١) " ، لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة على منطقة الاختيار في الإنسان. وفي علم الله المطلق أن كثيرا من الصحابة لن يلتفتوا إلى هذا الحجة وهذا التحذير، ولكن العلم المطلق يقابله تحذير مطلق. وهذه سنة إلهية تجارية منذ أن بعث الله تعالى رسله حتى لا يكون للناس على الله حجة.

والنبي صلى الله عليه وسلم عندما قال لعلي: " سيكون بينك وبين عائشة أمر. بين صلى الله عليه وسلم طريق هذا الأمر لتأخذ السيدة عائشة حذرهما إذا سلكت هذا الطريق فقال لنسائه: ليت شعري. أيتكن صاحبة الجمال لأدب. تخرج فتبجها كلاب الحوآب. يقتل عن يمينها ويسارها قتلكثير. (٢) "

وفي رواية قال لعائشة: إياك يا حميراء (٣) وكان عند حذيفة خبر هذا الرحلة. لأنها في علم الله المطلق واقعة لا محالة ووقوعها لا ينفي ولا يقلل من وجود الحجة على بداية الطريق. قال حذيفة لرجل: ما فعلت أمك؟ قال: قدمانت. فقال: أما إنك ستقاتلها. فعجب الرجل من ذلك حتى خرجت عائشة (٤) ونظرا لاتساع وعمق مساحة اللارواية وما نتج عنها. كان حذيفة يقول: لو حدثتكم أن أمكم تغزوكم أتصدقوني؟ قالوا: أو حق ذلك! قال:

حق (٥) وكان حذيفة يقول في مساحة اللارواية: لو حدثتكم ما أعلم لافترقتم على ثلاث فرق. فرقة تقاتلني، وفرقة لا تتصرني، وفرقة تكذبني (٦) ولهذا اختصر حذيفة الطريق وأوصى الناس بأن يلزموا عمارا لأنه علم أن عمارا لا يفارق عليا. فإن لزموا عمارا لزموا عليا.

(١) رواه أحمد والبخاري والترمذي (الفتح الرباني ٣٤ / ٢٣) (صحيح البخاري ك اللباس ٣٣، ٨٤ / ٤)، (جامع الترمذي ٤٨٨ / ٤).

(٢) رواه البزار (كشف الأستار ٤ / ٩٤) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٧ / ٢٣٤).

(٣) رواه أبو نعيم بسند صحيح (كنز العمال ٣٣٤ / ١١).

(٤) رواه ابن أبي شيبه (كنز العمال ٣٣٣ / ١١).

(٥) رواه أبو نعيم وابن عساكر (كنز العمال ٢١٨، ٣٣٣ / ١١).

(٦) رواه ابن أبي شيبه (كنز العمال ٣٢٧ / ١١).

الصفحة ٥٠٧

وعلى الرغم من أن مساحة اللارواية قد عتمت على تحذيرات كثيرة وتبشيرات أكثر، إلا أن الحجة كانت قائمة حتى في هذه العتمة. وكان العديد من الصحابة يعلمون أن لهم يوما يبتلون فيه وأن الجمل سيكون علامة ناصعة في هذا اليوم. فعن عمير بن سعيد قال: كنا جلوسا مع ابن مسعود وأبو موسى عنده.

فأخذ الوالي رجلا فضربه وحمله على جمل، فجعل الناس يقولون: الجمال لجمال. فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن هذا الجمل الذي كنا نسمع؟ قال: فأينا البارقة (١).

فمن هذا كله نستطيع القول بأن الحجة على الأحداث قد قامت على الجيل الأول وذلك في إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا.

ويمكن أن نقول. إن الضحيج الذي حدث في مكة وإن كان مظهره يحمل قميصعثمان. إلا أن جوهره بخلاف ذلك. فالذين نكثوا البيعة أرادوا شق الأمة بوضع السيدة عائشة في أعلى مربع أهل البيت ليقطعوا الطريق على علي بن أبي طالب.

والدليل على ذلك ما حدث أثناء الهياج عندما هب الناس للبحث عن الحقيقة.

فلقد ذهبوا إلى أكبر الصحابة وقتئذ ليعرفوا من هم أهل البيت. روى الإمام مسلم أن يزيد بن حبان وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم. ذهبوا إلى زيد بن أرقم فقال له حصين: من أهل بيته يا زيد. أليس نساؤه من أهل بيته. فقال زيد: لا -وفي رواية - نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده (٢) ، قال النوي: نساؤه لا يدخلن فيمن حرم الصدقة (٣) وسيأتي متابعة حرمة الناس في هذا الوقت في حينه.

ومن الدليل أيضا على أن المقصود من حركة الناكثين الإطاحة بعلي مندثرة أهل البيت. أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن هذا الالتباس سيحدث. وأوصى بعلي. وذلك فيما رواه حذيفة قال: كيف أنتم وقد خرج أهلي بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم فرقتين. يضرب بعضهم وجوه بعض. قالوا:

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٣٧ / ٧).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٧٩ / ١٥) في فضل علي ما.

(٣) النووي شرح مسلم (١٨٠ / ١٥)

الصفحة ٥٠٨

يأبا عبد الله. وإن هذا لكائن! وقال بعض أصحابه: فكيف نصنع إن أدركنا ذلك الزمان؟ قال: انظروا الفرقة التي تدعوا إلى أمر علي فالزموها فإنها علنا الهدى (١).

وعلى هذا وذاك يمكن القول بأن الناكثين خلطوا الأمور أمام السيدة عائشة. فخرجت للإصلاح ولكنهم ساروا بها في طريق شق الصف. وعندما نبحت عليها كلاب الحوآب. أرادت الرجوع ولكنهم قالوا لها: تقدمي ويراك الناس ويصلح الله عزو جل ذات بينهم (٢) وتقدمت السيدة عائشة. ومن ورائها تحذير يخوفها من الشيطان. روى البخاري عن عبد الله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة فقال: " ها هنا الفتنة - ثلاثرات - من حيث يطلع قرن الشيطان (٣) " ، لقد كانت الأهواء تحيط بمسكن أم المؤمنين. ويريد أصحابها شق الصف أولا: ليبحث كل صاحب هوى عن كرسيه ثانيا: يركب به على أعناق الأمة. ولم تتبين أم المؤمنين هذه الأهواء في وقتها. ولكنها علمت حقيقتها بعد ذلك. فلم تجد رضي الله عنها إلا الدمع تعبره عن ندم طويل (٤) وسنذكر ذلك بتفاصيله في حينه.

- ٢ الناكثون في أعماق الحجة:

كان الإمام علي يعلم إلى أين ستتتهي الأحداث. أولاً: لأن هناك نصاً أنه سيقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. ومن كان هذا شأنه فلا بد أن يعرف البدايات التي ستتتهي إلى ميدان القتال. وثانياً: لأنه كان قد تعلم رؤوس الفتور رؤوس النفاق، روى أنه قال: " ما من ثلاثمائة تخرج إلا ولو شئت سميت

(١) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣٦ / ٧).

(٢) رواه الحاكم (المستدرک ١٢٠ / ٣).

(٣) رواه البخاري (فتح الباري حديث رقم ٣١٠٤، ص ٢٤٣ / ٦ ط الریان)، ومسلم (الصحيح ٣١ / ١٨)، والإمام أحمد والترمذي (الفتح الرباني ١٨ / ٢٤).

(٤) ندم السيدة عائشة رواه الطبراني (الزوائد ٢٣٨ / ٧) وابن سعد (الطبقات ٧٤ / ٨) والحاكم (المستدرک ٦ / ٤).

الصفحة ٥٠٩

سائقها وناعها إلى يوم القيامة (١) " ، وعن حذيفة قال: "... والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته. (٢) " ولأن الإمام يعلم الرجال ومقاصدهم. كانت حركته كلها حجة عليهم. روي أنه بعد قتل عثمان جاء علي بن أبي طالب فقال لطلحة: أبسط يدك يا طلحة لأبيك. فقال طلحة: أنت أحق وأنت أمير المؤمنين فابسط يدك فبسط علي يده فبايعه. (٣)

وظلح كان يطمع في الخلافة. وكان لا يشك أن الأمر بعد عثمان سيكون له لوجه منها: سابقته. ومنها أنه ابن عم لأبي بكر. وكان لأبي بكر في نفس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة، ومنها أنه كان سمحاً جواداً. وقد كان نازح عمر في حياة أبي بكر. وأحب أن يفوض أبو بكر الأمر إليه من بعده. (٤) وقال لأبي بكر: ما تقول لربك وقد وليت علينا فظاً غليظاً. وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه. ويحدثونه سرا في معنى الخلافة. ويقولون له: لو مات لبايعنا كبغته. وعندما بلغ ذلك عمر. خطب الناس بالكلام المشهور: إن قوماً يقولون:

إن بيعة أبي بكر كانت فتنة. وإنه لو مات عمر لفضلنا وفضلنا (٥) "... وعندما جعلها عمر شورى لم يجد طلحة لنفسه مخرجاً للفوز بالخلافة. حيث إن الشورى ما كانت لتصب إلا في إناء بني أمية لأن عثمان و عبد الرحمن وسعد احزمة واحدة. بالإضافة إلى أن وجود عبد الرحمن في فريق يرجح هذا الفريق على الآخر كما نصت لائحة الشورى. ورضي طلحة بالأمر الواقع حتجاعت الأحداث التي أطاحت بعثمان. وكما رأينا أنه كان من المؤلبيين عليه واستولى على مفتاح بيت المال أثناء هذه الثورة. لأنه كان لا يشك في أن الأمر سيصب في سلته. ومن العجيب أن أم المؤمنين عائشة كانت على علم بهذه

(١) رواه نعيم بن حماد بإسناد صحيح (كنز العمال ٢٧١ / ١١).

(٢) رواه أبو داود حديث ٤٢٢٢.

(٣) الطبري ١٥٦ / ٥.

(٤) ابن أبي الحديد ١٤٦ / ٣.

(٥) الطبري ٢٠٠ / ٣.

الصفحة ٥١٠

الأحداث وهي في مكة. روي أن ابن عباس مر بها في الصلصل. فقالت: يا ابنعباس أنشدك الله. فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلًا (١). أن تخذل عن هذا الرجل -يعني عثمان - وأن تشكك فيه الناس. فقد بانث لهم بصائرهم. وأنهجت ورفعته المنار. وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم وقد رأيت طلحة بن عبید الله. قداخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح. فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكررضي الله عنه. فقال ابن عباس: يا أمه لو حدث بالرجل حدث. ما فزع الناسإلا إلى صاحبنا - يعني عليا - فقالت: إيها عنك. إني لست أريد مكابرتك ولماجدلتك (٢) " وعندما بلغها قتل عثمان قالت: أحق الناس بهذا الأمر لذيالإصبع - تعني طلحة - فلما جاءت الأخبار بببيعة علي قالت: تعسوا تعسوا لايردون الأمر في تيم أبدا (٣). " فهذا الطريق الطويل أقام الإمام علي عليه الحجةفي أوله عندما قال لطلحة: أبسط يدك يا طلحة لأبابعك. وذلك ليقطع طريقالهموى (٤). وهو يعلم أن طريق الهموى سيصب في ميدان القتال حيث يكون قتالهمع الناكثين. وليس معنى قتال الناكثين أن الحجة لم تقم عليهم في أول الطريق. وإنما قامت لأن الطريق سيكون عليه دماء. وهذه الدماء لها قانون. وهذا القانوننتيره حجة ظاهرة ناصعة.

وروي أن طلحة والزبير سألا علي بن أبي طالب أن يؤمرهما على الكوفةوالبصرة. وكانا لهما أتباع فيهما. فقال علي: " تكونان عندي. فأتحمل بكما،فإني وحش لفرأقكما (٥). " وروي ابن قتيبة. أنهما قالوا: ولكننا بايعناك على أنأشريكنا في الأمر. فقال علي لا. ولكنكما شريكنا في القوة والاستقامة والعون

(١) ابن أبي الحديد.

(٢) الطبري ١٤٠ / ٥، البلاذري ٢١٧ / ٣.

(٣) ابن أبي الحديد ٤٠٩ / ٣.

(٤) روي أن طلحة والزبير قالوا بعد أن قال لهما على ذلك: عرفنا أنه لم يكن لبايعنا(الطبري ١٥٣ / ٥).

(٥) الطبري ١٥٣ / ٥.

الصفحة ٥١١

على العجز والأود(١) " ، وبقي طلحة والزبير في المدينة أربعة أشهر يراقبان عليامن قريب (٢).

لقد كان طلحة يعلم أنه لن يكون له في ظل عهد أمير المؤمنين إلا مايستحقه. ولذلك قال بعد أن بايع الناس عليا " ما لنا من هذا الأمر إلا كلحسة أنفالكلب(٣) " ، وفي هذا اليأس جاءت رسالة من معاوية وفيها: أما بعد. فإنك ألقريش وترا. مع صباحة وجهك. وسماحة كفك. وفصاحة لسانك. فأنت بإزاءمن تقدمك في السابقة. وخامس المبشرين بالجنة. ولك يوم أحد وشرفهوفضله. فسارع رحمك الله إلى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعك

التخلف عنه. ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به. فقد أحكمت لك الأمر قبلي. والزبير متقدم عليك بفضل. وأيما قدم صاحبه فالمقدم الإمام. والأمر من بعده للمقدمه. سلك الله بك قصد المهتدين. ووهب لك رشد الموقنين. والسلام (4) "

ولم يكن طلحة وحده الذي أرسل إليه معاوية الرسالة الفخ. وإنما أرسل إنالزبير أيضا. وفيها: ... واعلم يا أبا عبد الله. أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبه الراعي. فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولم الشعث. وجمع الكلمة. وصلاح ذات البين. قبل تفاقم الأمر وانتشار الأمة. فقد أصبح الناس على شفا جرف هار وعا قليل ينهار إن لم يرأب. فشمّر لتأليف الأمة. وابتغى ريك سبيلا. فقد أحكمت الأمر على من قبلي لك ولصاحبك. على أن الأمر للمقدم. ثم لصاحبه من بعده. جعلك الله من أئمة الهدى. وبيغة الخير والتقوى والسلام. (5) "

وبينما لوح لطلحة والزبير بالخلافة. نجده في رسائله إلى مروان بن الحكم وسعيد بن العاص و عبد الله بن عامر والوليد بن عقبة ويعلى بن منبه. يطالب

(1) الإمامة والسياسة ٥١ / ١.

(2) تاريخ يعقوبي ١٢٧ / ٢، ابن أبي الحديد ٥٧٧ / ٣، الطبري ١٥٣ / ٥.

(3) الطبري ١٥٣ / ٥.

(4) ابن أبي الحديد ٥٣٣ / ٣.

(5) ابن أبي الحديد ٥٣٣ / ٣.

الصفحة ٥١٢

بالحذر والسهر حتى لا يفلت الأمر من أيدي بني أمية. فهو يقول لمروان: فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالشهد لا يصطاد إلا غيلة. ولا يتشازر إلا عن حيلة.

وكالثعلب لا يفلت إلا روغانا. واخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأوكف. وامتنع نفسك إمتنان من يبيأس القوم من نصره وانتصاره وبحث عنأمورهم بحث الدجاجة عن حب الدخن عند فقسها. وأنغل (١) الحجاز فإنيمغل الشام والسلام. (٢) "

وكتب إلي يعلى بن منبه،... فأما الشام فقد كفيتهك أهلها. وأحكمتأمرها. وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله. أن يلقاك بمكة. حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم. وكتبت إلىعبد الله بن عامر يمهد لكم العراق. ويسهل لكم حزونة عقابها. (٣) واعلم يا ابنأمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستنتاف ما حوته يداك من المال فاعلم ذلكواعمل على حسبه إن شاء الله. (٤) "

وكتب إلى سعيد بن العاص: ... إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم.

وقتل في سبيلكم. ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه. وأنتم بنو أبيه. ذوورحمه وأقربوه. وطلاب ثأره... فإذا قرأت كتابي هذا فدب دبيب البرء فيالجسد النحيف. وسر سير النجوم تحت الغمام... فقد أيدتكم بأسد وتيم. (٥) "

وكتب إلى عبد الله بن عامر: ساور الأمر مساورة الذئب الأطلس كسيرة القطيع. ونازل الرأي. وانصب الشرك. وارم عن تمكن. وضع الهناء (٦) مواضعالنقب (٧) واجعل أكبر عدتك الحذر. وأحد سلاحك التحريض... وقم قبل أن

(١) أنغلهم / أجملهم على الضعن.

(٢) ابن أبي الحديد ٥٣٣ / ٣.

(٣) العقاب / المرقى الصعب من الجبال.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٣٦ / ٣.

(٥) ابن أبي الحديد ٥٣٤ / ٣.

(٦) هنا البعير / طلاء بالقطران.

(٧) النقب / هو أول ما يبدو من الجرب.

الصفحة ٥١٣

يقام لك. واعلم أنك غير متروك ولا مهمل. فإني لكم ناصح أمين (١) " ...، ودخل طلحة والزبير في فحاح بني أمية بعد أن علم معاوية موطن الداء فيهما، وبدأ كل من طلحة والزبير يعد العدة للذهاب إل مكة حيث توجد السيدة عائشة وأذرع بني أمية التي ترتدي قفازات من حرير غمست في السم أياما طويلة.

وعن أم راشد قالت: سمعت طلحة والزبير يقول أحدهما لصاحبه: بايعتأيدينا ولم تبايعه قلوبنا. فقلت لعلي بن أبي طالب فقال: " من نكث فإنما ينكثعلى نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسيؤتياه أجرا عظيما (٢) " ، وجاء طلحة والزبير. فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة. فأذن لهما. بعد أن أحلفهما ألا ينقضا بيعته. ولا يغدرا به. ولا يشقا عصا المسلمين ولا يوقعا الفرقة بينهم وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة. فحلفا على ذلك كله ثمخرجا (3) "

وروي أنه لما خرج طلحة والزبير إلى مكة وأوهما الناس أنهما خرجا للعمرة.. قال علي لأصحابه: والله ما يريدان العمرة وإنما يريدان الغدرة " ومنكثت فإنما ينكث على نفسه (٤) " ، وهكذا قامت الحجة في البداية وفي النهاية.

- ٣ لقاء في مكة:

لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة. وبينما هي في طريقها من مكة إلىالمدينة لقيها رجل يقال له عبد الله بن أبي سلمة. يعرف بأمه أم كلاب. فقاللها: لا تدري. قتل عثمان. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعه علي. فقالت: لبت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردوني ردوني.

فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه. فقيل

(١) ابن أبي الحديد ٥٣٤ / ٣.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٢٢٥ / ١١).

(٣) ابن أبي الحديد ٥٧٦ / ٣، الطبري ١٦٣ / ٥.

(٤) ابن أبي الحديد ٥٧٦ / ٣.

الصفحة ٥١٤

لها: ولم والله إن من أول من أزال حرفه لأنت. ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعتلافقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا. وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام * وقلت لنا أنه قد كفر

فهينا أطعناك في قتله * وقاتله عندنا من أمر (١)

وروي من طرق مختلفة أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان. وهيا أول من سمى عثمان نعتلا. وكانت لا تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر بعد عثمان. وروي أن عائشة نزلت على باب المسجد. وقصدت للحجر فسترت فيه.

واجتمع الناس إليها فقالت: يا أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهلالمياه وعبيد أهل المدينة. إجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمسالأرب. واستعمال من حدثت سنة، وقد استعمل أسنانهم قبله. ومواضع ممنواضع الحمى حماها لهم. وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها. فتابعهمونزع لهم عنها استصلاحا لهم. فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا. خلجوا وبادءوا بالعدوان. ونبا فعلهم عن قولهم. فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحراموأخذوا لمال الحرام واستحلوا الشهر الحرام. والله لإصبع عثمان خير من طباقالأرض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم. حتى ينكل بهم غيرهم. ويشرد منبعدمهم. ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا. لخلص منه كما يخلصالذهب من خبثه. (٢) " وروي ابن أبي الحديد أن طلحة والزبير كتبا إلى عائشتهوهي بمكة كتابا: أن خذلي الناس عن بيعة علي. وأظهري الطلب بدم عثمان.

وحملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير. (٣) "

وبدأت إذاعة المعارضين تعمل من أجل إيجاد رأي عام. واجتمع القوم في

(١) الكامل / ابن الأثير ١٠٦ / ٣، الطبري ١٧٣ / ٥.

(٢) الطبري ١٦٥ / ٣، الكامل ١٠٦ / ٣.

بيت أم المؤمنين عائشة، وقالوا: نسير إلى علي بن أبي طالب فنقاتله. فقال لبعض: ليس لكم طاقة بأهل المدينة. ولكننا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى. وللزبير بالبصرة هوى ومعونة. فاجتمع رأيهم علان يسيروا إلى البصرة. (١) وأعلنت عائشة الاتفاق فقالت: أيها الناس إن هذا حدث عظيم وأمر منكر. فانهضوا فيه إلى إخوانكم. من أهل البصرة وأنكروه.

فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم - يعني معاوية - لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم (٢) ، ورفع بنو أمية رؤوسهم. وقام سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصر فوي على بن أمية - وينسب إلى أمه منه - من اليمن. (٣) وجاء طلحة والزبير من المدينة. وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد استخلفهما أن لا يوقعا الفرقة بين المسلمين. فحلفا على ذلك وغيره. وعندما التقت بهما عائشة قالت لهما:

ما وراءكما؟ قالوا: فارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا. (٤) "

وبدأ الإعداد للغزو وقال يعلى بن أمية: معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها. وقال عبد الله بن عامر معي كذا وكذا فتجهزوا به. (٥) ونادى المنادي:

إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة. فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين. والطلب بثأر عثمان. ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذه جهازه وهذه نفقته (٦) " ، وكان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وقتنذ. وانطلق القوم إلى أم المؤمنين حفصة يسألونها رأيها في الأحداث فقالت: رأيي يتبع لرأي عائشة، وأرادت حفصة الخروج. فأتاها عبد الله بن عمرو وطلب منها أن تقعد. فبعثت إلى عائشة أن عبد الله حال بيني وبين الخروج

(١) الطبري ١٦٨ / ٥.

(٢) الطبري ١٦٧ / ٥.

(٣) الطبري ١٦٦ / ٥.

(٤) الطبري ١٦٦ / ٥.

(٥) الطبري ١٦٦ / ٥.

(٦) الطبري ١٦٧ / ٥، البداية والنهاية ٢٣١ / ٧.

وبدا التحرك. وذكر الطبري: أن مروان بن الحكم أذن للصلاة حين خرجوا من مكة. ثم جاء إلى طلحة والزبير وقال: علي أيكما أسلم بالإمرة وأؤذنب بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: علي أبي عبد الله. وقال محمد بن طلحة: علي أبي محمد. فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت: ما لك أتريد أن تفرق أمرنا.

ليصل ابن أختي!! فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم إلى البصرة. (٢)

وبينما الركب في الطريق. شاهدوا رجلا معه جمل. فقالوا: يا صاحب الجملة تبع جملك؟ قال: نعم. قيل له: بكم؟ قال: بألف درهم.. قيل: لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا. قال: ولمن تريده، فقيل له: لأمك. قال: تركت أمي في بيتها قاعدة. قيل: إنما نريده لأم المؤمنين عائشة، قال: فهو لك فخذ به غير ثمن. قيل له: لا ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطك ناقة مهربية ونزيدك دراهم. وبعد أن أعطوه، قالوا له: يا أبا عرينة هل لك دلالة بالطريق. قال:

نعم: أنا من أدرك الناس. قالوا: فسر معنا. فسار معهم وكان لا يمر على واد ولا ماء إلا سأله عنه. حتى طرقوا ماء الحوآب فنبحتهم كلابها. قالوا: أي ماء هذا. قال: ماء الحوآب. فصرخت عائشة. ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوآب. طروقا رديني. (٣) فقالوا لها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ذات بينهم، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها ذات يوم: كيف بإحدائك تنبح عليه كلاب الحوآب وانطلقت أم المؤمنين نحو البصرة، في الركب الذي أقيمت عليه الحجة.

(١) الطبري ١٦٧ / ٥.

(٢) الطبري ١٦٩ / ٥، الكامل ١٠٧ / ٣.

(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ونعيم بن حماد وقال ابن كثير إسناده صحيح، وقال الهيثمي رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورواه الحاكم وذكر أن القائل: تقدمي هو الزبير (الفتح الزباني ١٣٧ / ٢٣) (البداية والنهاية ٢١١ / ٦)، (المستدرک ١٢٠ / ٣)، الطبري ١٧٨ / ٥.

الصفحة ٥١٧

-؛ نظرات على طريق البغي:

عندما بلغ أمير المؤمنين عليا ما استقر عليه طلحة والزبير. قال: والله ما أنكروا منكرا. ولا جعلوا بيني وبينهم نصفا (١) إنهم ليطالبون حقا هم تركوه.

ودماهم سفكوه. فإن كنت شريكهم فيه. فإن لهم نصيبهم منوا إن كانوا ولوهدوني فما المطالبة إلا قبلهم. وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم. وإن معيل بصيرتي. ما لبست ولا لبس علي.

وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحممة. (٢) والشبهة المغدقة. (٣) إن الأمر لو واضح. وقد زاح الباطل عن نصابه. (٤) وانقطع لسانه عن شغبه. (٥) وأيم الله لأفرطن لهم حوضا أنا ماتحه. (٦) لا يصرون عنه بري، ولا

يعبون (٧) بعدهم من حسي. (٨) "

قال ربه أبي الحديد: والمعنى: والله ما أنكروا علي أمرا هو منكر في الحقيقة. وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم. وحملهم على ذلك الحسد وحب الاستئثار بالدنيا. وقال: ولا جعلوا بيني وبينهم نصعا أي وسيطا يحكموينصف. بل خرجوا عن الطاعة بغتة. وإنما لهم ليطلبون حقا تركوه. أي يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة. وقد تركوا الحق بالمدينة. وقال: إنهؤلاء خرجوا ونقضوا البيعة. وقالوا: إنما خرجنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإظهار العدل وإحياء الحق. وإماتة الباطل. وأول العدل أن يحكموا على أنفسهم. فإنه يجب على الإنسان أن يقضي على نفسه ثم على غيره. وإذا

(١) النصف / الأنصاف.

(٢) الحمأ / الطين الأسود، حمة العقرب / سمها.

(٣) الشبهة المغدقة / أي الخفية.

أي بعد وذهب عن مركزه ومقره.

(٥) الشغب / تهيج الشر.

(٦) لأفرطن لهم حوضا / أي لأملأن، الماتح / المستفي من فوق.

(٧) العب / الشرب بلا مص كما تشرب الدابة.

(٨) الحس / ماء كامن في رمل يحفر عنه.

الصفحة ٥١٨

كان دم عثمان قبلهم. فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم عن غيرهم. وقال: إن معي لبصيرتي. أي عقلي أي أوضح النبي صلى الله عليه وآله وسلم لي كل شيء وعرفني. وإنما لفئة الباغية. أي الفئة التي وعدت بخروجها علي ثم ذكر بعض العلامات. وقال: إن الأمر لواضح. وقوله هذا يؤكد به عند نفسه وعند غيره. أن هذه الجماعة هي تلك الفئة الموعود بخروجها. ثم أخبر:

وقد ذهب الباطل وزاح. وخرس لسانه. ثم أقسم: ليملأن لهم حوضا هوماتحه - يسقيهم من فوقه - وهذه كناية

عن الحرب والهجاء وما يتعقبهما من القتل والهلاك. (١)

وبعد أن كشف الإمام النقيب عن بداية حرب البغاة التي تحمل أسماء مختلفة وتدور رحاها في ميادين مختلفة. بين أن البغاة يسرون نحو هدف واحد يقتلون عليه بعضهم بعضا ويبدلون في سبيله كل نفيس. وهذا الهدف هو الحكم. قال الإمام بعد نكت طلحة والزبير: " كل واحد منهم يرجو الإمام له.

ويعطفه عليه دون صاحبه ولا يمتان (٢) إلى الله بحبل ولا يمدان إليه بسبب. كل واحد منهما حامل ضب (٣) لصاحبه. واما قليل يكشف قناعه به. والله لئن أصابوا الذي يريدون لينتزعن هذا نفس هذا. وليأتين هذا على هذا. قد قامت الفئة الباغية فأين المحتسبون. (٤) قد سنت لهم السنن. وقدم لهم الخير. ولكلضال علة. ولكل ناكث شبهة. والله لا أكون كمستمع اللدم. (٥) يسمع الناعب ويحضر الباكي. ثم لا يعتبر. (٦) "

فطريق البغي لا يتمسك بحبل الله وأصحاب الرؤوس الكبيرة من صفاتهم أن كل واحد منهم يريد الأمر لنفسه. ولأن هذه هي الحقيقة فإن تحت راياتهم لا

(١) ابن أبي الحديد ١٥١ / ٣.

(٢) يمتان / يتوسلان.

(٣) انصب / الحقد.

(٤) المحتسبون / طالبو الأجر (٥) مستمع الدم / كناية عن الضع حين تسمع وقع الحجر فتستسلم للصائد.

(٦) ابن أبي الحديد ٢٠٦ / ٣.

الصفحة ٥١٩

يدري المقتول في أي شيء قتل. ولا يرى القاتل إلا طعاما له بريق. والقاتل والمقتول لا يدريان شيئا عن الحقيقة. لأن الراية عمية ومرفوعة في ساحات العصبية. وقد يكون قتال الرجل في هذه الساحات لينصر عصبته. ولكن الحقيقة أن هذا الغضب والقتال والنصر سيصب في نهاية المطاف داخل سلة رؤوس البغاة. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لو أن الناس اعتزلوهم " لأن في الاعتزال نجاة من الموتة الجاهلية يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

" من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتته جاهلية (١) " ، وقال: " من قتل تحت راية عمية ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية (٢) " وفي عصر الإمام علي قال الإمام: قد قامت الفئة الباغية. فأين المحتسبون. أي أين طلاب الأجر؟ ثم قال: لكل ضال علة. ولكل ناكث شبهة. كأنه يقول: إذا كانوا قد خرجوا فلا بد أن يكون لهم تأويل في خروجهم. وكل ناكث لا بد له من شبهة يستند إليها.

ولأن الإمام خبير في معرفة الرجال. ولأنه يقابل على التأويل كما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم على التنزيل. قال: والله لا أكون كمستمع الدم.

أي: لن يكون كالضبع. تسمع وقع الحجر بباب حجرها من يد الصائد. فتتخذلوتكف جوارحها إليها حتى يدخل عليه فيربطها. ولن يكون مقرا بالضمير راعنا، يسمع المخبر عن القتلى فلا يكون عنده شيء من التغيير والإنكار.

ومن رحمة الله تعالى أنه سبحانه جعل في عصر الصحابة من يرشدهم بالطريق الصواب. على الرغم من سياسة اللارواية. فأبو ذر كان رواية متحركة فيعهد ما وهذه الرواية ينطق بها صمت أبو ذر ويسمعها من أراد الله أن يقيم الحجة عليه. فالرواية المتحركة لها إيقاع خاص ومذاق خاص عند نمط خاص. وكان أبو ذر يبشر الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاو من نار. وفي عصر الإمام علي كان عمار رواية متحركة، حجة بذاتها على نوع خاص يدعوهم إلى الجنة

(١)رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ٥٢ / ٢٣).

(٢)رواه مسلم وابن ماجه (كنز العمال ٥٠٩ / ٣).

الصفحة ٥٢٠

ويدعونه إلى النار . باختصار كان عمار حجة على البغاة. حجة على أول طريقهموحجة على نهاية طريقهم. وليس معنى أنه قتل في آخر الطريق أنه لم يكن لهوجود في أول الطريق. لأن عمارا بمثابة مشعل على طريق طويل. وهذا المشعلوقوده عند علي بن أبي طالب. قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمار: " يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا. وسلك الناس واديا غيره. فاسلك مع عليودع الناس. إنه لن يدلك على ردى ولن يخرجك من الهدى (١١) "، لهذا كانحذيفة يقول بعد مقتل عثمان: " أمركم أن تلمزوا عمارا. قالوا: إن عمارا لايفارق عليا. قال: إن الحسد هو أهلك الجسد. وإنا ينفركم من عمار قربه منعلي. فوالله لعلني أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب. وإن عمارا لمنالأحباب(٢) "، وإذا كان طريق علي بن أبي طالب واضحا وضوح الشمس في كبدالسماء فإن طريق عمار واضح أيضا فهو ما عرض عليه أمران قط إلا اختارالأرشد منهما (٣)وهو على الفطرة(٤)، وأجاره الله من الشيطان على لساننبيه (٥)، ومن عاداه عاداه الله ومن أبغضه أبغضه الله. (٦)باختصار كان عمار يحملمؤهلات طرق علي بن أبي طالب. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قدقال لعلي: " يا علي ستقاتلك الفئة الباغية وأنت على الحق فمن لم ينصرك يومئذفليس مني(٧) " ، فإنه قال لعمار الذي يحمل معالم الجندية على طريق علي:

"ستقاتلك الفئة الباغية وأنت على الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني.(٨) "

وطريق علي بن أبي طالب يبدأ من أول خطوة رفع فيها علي سيفه.

(١)رواه الديلمي (كنز العمال ٦١٤ / ١١).

(٢)رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٢ / ٧).

(٣)رواه أحمد (الفتح ٣٣٠ / ٢٢) والحاكم وصححه (المستدرک ٢٨٨ / ٣)، والترمذيوصححه (الجامع ٦٦٨ / ٥).

(٤)رواه البزار والطبراني ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٩٥ / ٩).

(٥)رواه البخاري في مناقب عمار (الصحيح ٣٠٥ / ٢).

(٦)رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٩٣ / ٩).

(٧)رواه ابن عساکر (كنز العمال ٦١٣ / ١١).

(٨)رواه ابن عساکر (كنز العمال ٣٥١ / ١١).

الصفحة ٥٢١

ولخطورة ضربات سيف علي وما سيترتب عليها حمل عمار أقوى تحذير علنا لاطلاق: " تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " وهذا فيحد ذاته دعوة للتفكير. فأی قوات ستجابه جيشا فيه عمار. لا يمكن أن تقطعبا ن عمارا سيخرج من المعركة سالما وأنه لن يصيبه ما يؤدي إلى قتله. وعلنهذا فمن الواجب أن تعيد هذه

القوات ترتيب أوراقها في اتجاه التوبة. وإِذا كان هذا التحذير يحيط بعمار. فإن هناك تحذيرا آخر حملته الصحابة منهم أبو رافع.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا أبا رافع سيكون بعدي قوم يقاتلون عليا.

حق على الله جهادهم. فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه. ومن لم يستطع بلسانه فبقلمه. ليس وراء ذلك شئ (١) ، وذلك حتى لا يدق في أرضية الصحابة أوتاد يأتي عليها الشارد والوارد والسابق واللاحق. وما هي إلا أوتاد فتن لاتصيب الذين ظلموا خاصة بل تتعداهم إلى غيرهم.

ولقد فطن عبد الله بن عباس للتحذير الذي حول عمار. فأراد أن يسمعها للناس بعد بيعة علي بن أبي طالب. حتى يكونوا على بينة من أمرهم قبل أن يفتح طريق البغي. فعن عكرمة أن ابن عباس قال له ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد الخدري فاسمعا من حديثه. قال: فانطلقنا فإذا هو في حائط له. فلما رأنا أخذرداه فجاءنا. فقعد. فأنشأ يحدثنا. حتى أتى على ذكر بناء المسجد قال: كنا نحمل لبنة وعمار بن ياسر يحمل لبنتين. فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يفض التراب عنه ويقول: يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك.

قال: إني أريد الأجر من الله. فجعل يفض التراب عنه ويقول: ويح عمار تقتلها الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار (٢) " ، والدعوة إلى النار لها أصول تحدث عنها حذيفة من قبل وذلك عندما قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: " فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة إلى أبواب جهنم من

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي فيه يحيى ابن الحسين لم أعرفه وبقية رجاله ثقات (الزوائد ١٣٤ / ٩).

(٢) رواه أحمد والبخاري (الفتح الرباني ٣٣١ / ٢٢).

أجابهم قذوفه فيها. قال: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا (١) " ، فاختيار ابن عباس لأبي سعيد الخدري من أجل أن يسمع منه عكرمة وابنه علي. هذا الحديث في عمار كان لحكمة ومن وراء الحكمة هدف.

- هـ أصداء يوم غدير خم:

كان لتحرك أم المؤمنين عائشة أثر عظيم على العديد من الأمصار. وذلك لأن العامة يعلمون أن السيدة عائشة عندما تتكلم فإنها تقف على أرضية ليست بعيدة عن النبي كما أنها قريبة من أرضية الخلافة بعد النبي، والخلفاء يعرف الناس عنهم الكثير، بينما لا يعرفون شيئا عن علي بن أبي طالب. الذي تتحرك مناقبه تحرك النجوم وراء السحب بعد عودة الرواية. وكان لإذاعة أم المؤمنين الأثر الأعظم. وذلك لوفرة المال الذي حمله يعلى بن أمية وعبد الله بن عامر من اليمن والبصرة فضلا عن الدعم القوي من الشام. وكما قال الإمام علي: الناس أعداء ما جهلوا.... فلأن

الناس كانوا يجهلون حقيقة الأمور فإن الأرضية التيوقت عليها أم المؤمنين كانت تكسب كل يوم جديدا. فمكة لم يخرج منها احتجاج واحد. وفي الكوفة يقف في موسى في مربع السيدة عائشة فضلا على أن الكوفة فيها شيعة لطلحة والبصرة لها هوى في الزبير. ومعاوية ير اقب من الشاموعمر بن العاص يتابع من فلسطين... فكل ذلك كان له تأثير على من في المدينة وأصبحت عملية حشد القوات عملية تواجهها صعوبات. والحشد بالمال ليس من سياسة أمير المؤمنين. فهو حجة ويعرف أنه مقتول في نهاية الطريق والحجة المقتول لا وقود له يحركه إلا الدين فالإمام كان يريد الجندي الرسالي الذي ينطلق من الدين وينتهي إلى الدين. لذا سنراه يبكي في آخر الرحلة وهو يتذكر أصحابه الذين قتلوا في المعارك. والجندي الرسالي لا بد له منصوص لتأتي به إلى دائرة أمير المؤمنين. وبما أن الإمام إذا تحدث عن نفسه

(١) رواه أحمد (الفتح الرباني ٣١ / ٢٣) والبخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢).

الصفحة ٥٢٣

هذا الوقت ربما شكك أعداؤه فيما تفاخر به. وبالذات بعد خروج السيدة عائشة.

فهذا الخروج أوجد التباسا شديدا في تحديد من هم أهل البيت. وهذا التحديد إن كان عتم عليه في عالم اللارواية. إلا أنه بعد خروج السيدة عائشة زاد التعمؤاضيف إليه الالتباس. فإذا ادعى علي أنه من أهل البيت. جاءه صوت من دائرة الجمل يقول إنه ليس وحده من أهل البيت. بل إنه إذا كان من أهل البيت فإنئده ملطخة بدم عثمان ومن كان كذلك سقطت عنه دعوى أن الله أذهب عنهاالرجس وطهره تطهيرا. ومن دخل في هذه الدائرة فليس له حق في قيادة المسلمين. وللمسلمين أن يختاروا وأصحاب السوابق كثير. منهم طلحة والزبيرومعاوية الذي يراقب وغير هؤلاء كثير.. لهذا كله كان الحديث عن المناقب علنلسان أمير المؤمنين تواجهه عقبات ستدخل المسلمين في جدل طويل. وهناك منيضع البصرة كهدف لهجوم لعملياته الحربية. وكان لا بد أن تأتي المناقب منروايات الساحة ليشهد الإمام لها ويشهد الناس عليها. ولقد رأينا فيما سبق كيفأن ابن عباس جاء بالتحذير الذي حول عمار من داخل الساحة ولم يتحدث هو به. ربما لقربه من الإمام.

و شاء الله تعالى أن تكون البداية من داخل الساحة كي تقام الحجة بلاشبهة. لقد جاءت الرواية ليوقف أمير المؤمنين منها موقف الذي يستفسر أولا ثميقم الحجة ثانيا. عن رياح بن الحرث قال: جاء رهط إلى علي بالرحبة. (١) فقالوا: السلام عليك يا مولانا. قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب، فقالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم: " منكنت مولاة فإن هذا مولاة " قال رياح: فلما مضوا تبعنهم فسألته من هؤلاء، قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري. (٢) "

(١)الرحبة / فضاء وفسحة ورحبة المسجد ساحته.

(٢)أخرجه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات (الفتح الرباني ١٢٦ / ٢٣)، (مجمع الزوائد ١٠٤ / ٩) وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رجاله ثقات وأورده ابن كثير في البداية (البداية ٥١٢ / ٥).

الصفحة ٥٢٤

ومن عالم الغربة الذي استفسر فيه الإمام علي عن شئ يعرفه انتقل للحديث عن هذا إلى مكان أوسع. فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: شهدت عليا في الرحبة ينشد الناس: أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم غدير خم: من كنت مولاه لما قام فشهد. قال عبد الرحمن:

فقام اثنا عشر بدرية كأي أنظر إلى أحدهم عليه سراويل. فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم: ألسنت أولى بالمؤمنين أنفسهم. وأزواجي أمهاتهم (١)فقلنا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنتمولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (٢) ، وفي رواية عنزید بن یثبع قال: أليس الله أولى بالمؤمنين. قالوا: بلى، قال: اللهم من كنتمولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (٣)، وعن أبي الطفيل قال:

جمع علي الناس في الرحبة، ثم قال لهم: أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام (٤)، فقام إليهم ثلاثون من الناس. وقال أبو نعيم: فقام إليه ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده وقال: أتعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم. قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال أبو نعيم:

فخرجت كأن في نفسي شيئا. فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت عليا يقول كذا وكذا. قال زيد: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك (٥) "

(١)تحريم زوجات النبي في هذا المقام يعادل تحريم الولاية على غير أصحابها.

(٢)رواه أحمد وقال في الفتح أورده الهيثمي وقال: رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا (الفتح الرباني ١٢٦ / ٢٣).

(٣)رواه عبد الله بن أحمد والبزار وقال الهيثمي إسنادهما حسن (الفتح الرباني ١٢٧ / ٢٣) وأورده ابن كثير في البداية (٥ / ٢١١)، ورواه البزار (كشف الأستار ٣ / ١٩٠) والطبراني (المعجم الكبير ٥ / ١٧٥).

(٤)يلاحظ أن الإمام لم يقل متن الحديث وإنما استشهدهم أن يقولوا بما سمعوا. إمعانا فيالحجة.

(٥)قال الهيثمي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة (الزوائد

الصفحة ٥٢٥

وعن عمرو ذي مر وسعيد بن وهب وزيد بن يثبع قالوا: سمعنا عليا يقول:

نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام. فقام ثلاثة عشر رجلا. فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

فأخذبيد علي وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداهوأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره وأخذل من خذله. (١) " وفيرواية عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: فقام بضعة عشر رجلا فشهدوا. وكتفقوا بما فنوا من الدنيا إلا عموا وبرصوا(٢) " ، وأحاديث الرحبة رواها غير واحد (٣)، وبعد أن أخذ علي من الناس شهادتهم قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حضر الشجرة بخم ثم خرج آخذاً بيدي فقال: " أيها الناس أستمتمشهدون أن الله ريكم؟ قالوا: بلى، قال: أستم تشهدون أن الله ورسوله أولبكم من أنفسكم وأن الله ورسوله مولاكم، قالوا: بلى، قال: فمن كان لله ورسوله مولاه فإن هذا مولاه. وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله سببه بيده وسببه بأيديكم أهل بيتي. (٤) "

وكان تعريف أهل البيت فيه التباس شديد فمن هم أهل البيت؟ وهلأزواج النبي منهم أم أنهم يساكنونه ويعولهم ولهم احترامهم وإكرامهم؟ وهذا

(٩) / ١٠٤ وقال ابن كثير رواه النسائي إسناده جيد (البداية ٢١٠ / ٥).

(١) رواه البرار وابن جرير وقال الهيثمي رجال إسناده ثقات (كنز العمال ١٥٨ / ١٣) وقال الألباني إسناده جيد (الصحيح ٣٤٣ / ٥).

(٢) رواه الخطيب في الأفراد (كنز العمال ١٣١ / ١٣) وابن كثير في البداية (البداية ٢١١ / ٥).

(٣) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح وأبو يعلى ورجاله وثقوا و عبد الله بن أحمد (الزوائد ١٠٥ / ٩)، وقال ابن كثير في أحاديث الرحبة، روي من طرف متعددة عن علي بن أبي طالب وله طرق متعددة عن زيد بن أرقم وقال سعيد بن جبيرة: وأنا سمعته من ابن عباس(البداية ٣٤٩ / ٧).

(٤) رواه ابن جرير وابن أبي عاصم وابن راهويه والمحاملي بسند صحيح (كنز العمال ١٤٠ / ١٣).

الصفحة ٥٢٦

الالتباس كان سببا في ذهاب بعض الناس إلى زيد بن أرقم للوقوف على حقيقة هذا الأمر. وقد يكون ذهابهم إلى زيد قبل خروج أم المؤمنين عائشة وقد يكون بعد ذلك، ولكن الأمر المؤكد أن خروج أم المؤمنين هو الذي أوجد السؤال.

روى الإمام مسلم عن زيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. رأيت رسول الله وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه. لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال زيد: يا ابن أخي والله لقد كبر سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنتأعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فما حدثتكم فأقبلوا. وما لا فلاتكفوني. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا بماء يدعخما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعدألا أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول فأجيب. وأنا تارك فيكمالثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا بهفحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي.

أذكركم الله أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. فقال له حصين: ومن أهليته يا زيد. أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته!! ولكن أهليته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم(١) ، نقول:

وهذه الرواية توسعت في تحديد من هم أهل البيت. وقد روي أن " لكل شئذرة " ، وآل علي في حديث مسلم في المقدمة. وفي رواية عند مسلم أيضا عندما سألو زيدا: أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: لا. وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر. ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده (٢) ، فإذا كان أهل بيته أصله فإنه في حديث

(١)رواه مسلم في فضائل علي (الصحيح ١٧٩ / ١٥) وأحمد والحاكم (الفتح الرباني ١٠٤ / ٢٢).
(٢)رواه مسلم (الصحيح ١٨١ / ١٥) في فضائل علي.

الصفحة ٥٢٧

صحيح يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " علي أصلي(١) " ،... ويقول النووي في شرحه لحديث مسلم: والمعروف في معظم الروايات في غير مسلم أنه قال:

نساؤه لسن من أهل بيته.(٢) "

كانت هذه رواية مسلم وظهر فيها سؤال يبدو أنه شغل الجميع في وقته.

ولقد رأينا إجابات زيد بن أرقم. وفي روايات أخرى لم ينقطع العديد من الناس عن سؤال زيد. ولقد سئل أن يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع فنزل غدِير خم أمر بدوحات فقمم، ثم قام فقال: كأنني قد دعيت فأجبت. إني قد تركت فيكما الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض.

وعترتي أهل بيتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليا الحوض. ثم قال: إن الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي فقال:

من كنت مولاه فعلي وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقيل لزيد: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم!! فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا قد رآه بعينه وسمعه بأذنه.(٣) "

لقد شهد زيد على عهد عاد رجاله مع النبي صلى الله عليه وسلم منحجة الوداع. وكما شهد زيد شهد أبو هريرة. روى أنه دخل المسجد فاجتمع إليه الناس فقام إليه شاب فقال: أنشدك بالله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، فقال: إني أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كنتمولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. (٤) وإذا كان الصحابة قد

(١) رواه الطبراني في الكبير والضيف بسند صحيح (كنز العمال ٦٠٢ / ١٣).

(٢) مسلم شرح النووي ١٨١ / ١٥.

(٣) رواه ابن جرير عن زيد وعن أبي سعيد (كنز العمال ١٠٤ / ١٣١).

(٤) رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أبي يعلى والطبراني ثقات (الزوائد ١٠٦ / ٩).

وذكر ابن كثير في البداية (٢١٣ / ٥).

الصفحة ٥٢٨

شهدوا أمام الأجيال بحديث الولاية. فإنهم أيضا شهدوا بحديث المنزلة. روى الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. قال سعيد بن المسيب: فأحببت أن أشافه بها سعدا. فلقيت سعدا فحدثته بما حدثني عامر. فقال سعد: أنا سمعته فقلت: أنت سمعته! فوضع أصبعيه على أذنيه وقال: نعم وإلا فأسكتنا (أي صمتا (١)) " (وإذا كانا للصحابة قد شهدوا على حديث المنزلة. فإن أم المساور كانت لها شهادة أخرى.

فمن المساور الحميري عن أمه قالت: دخلت على أم المؤمنين أم سلمة فسمعتها تقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحب عليا منافق ولا يبغضهم مؤمن (٢) ، وهكذا اكتملت الدائرة وجاءت المناقب كالنجوم عندما تظهر من وراء السحاب ليلتقي ضوءها مع ضوء القمر. وكفى بالمناقب الثلاث لتقوم الحجة على أجيال الجمل وصفين والنهروان. وأجيال أخرى عاشت عصورا حقلها أن تبكي بلا احتجاز.

- ٦ على هامش أصداء يوم خم:

لقد ذكرنا فيما سبق بعض الأحاديث الواردة في حق أمير المؤمنين. ولقد وجدت أن ذكر بعضها هنا مرة أخرى يلقي الضوء على الأحداث فيمكن فهمها بسهولة. فأمر المؤمنين بعد أن ضجت الساحة بالأحداث. وبعد أن واجه الصحابة بيوم خم. لم تقف المعارضة له موقف المستسلم. ولقد واجهنا المعارضة جميع رسل الله عليهم السلام في وقت كانت الحجج الدامغة فوق رؤوسهم. وأمام صد المعارضة بدأ الإمام علي يكشف عن نفسه وفقا لما يقتضيه الموقف. ومن المعلوم أن أمير المؤمنين كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٧٤ / ١٥) في فضائل علي.

وآله وسلم. لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وسلم. وإذا لم يسأل ابتداء النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتنقيف. ولم يكن أحد من الصحابة كذلك. بل كانوا أقساما: فمنهم من يهابه أن يسأل، وهما الذين يحبون أن يجئ الأعرابي أو الطارق فيسأله وهم يسمعون. ومنهم من كان بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث. ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعاني. إما بعبادة أو دنيا. ومنهم المقلد الذي يرى أن فرضه هو السكوت وترك السؤال. ومنهم المبغض الشانئ الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه. أما علي رضي الله عنه يضاف إلى الأمر الخاص به ذكاؤه وفطنته. وطهارة طينته. وإشراق نفسه ووضوؤها... فلذلك كان علي كما قال الحسن البصري رباني هذه الأمة وذافضلها (١) ، " وقيل للحسن البصري: ما تقول في علي بن أبي طالب؟ فاحمرتوجنتا الحسن وقال: رحم الله عليا. إن عليا كان سهما صائبا في أعدائه. وكان في محلة العلم أشرقها وأقربها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. وكانه يابني هذه الأمة. لم يكن لمال الله بالسروقة. ولا في أمر الله بالنومة. أعطى القرآن عزائم وعمله وعلمه. فكان منه في رياض موقنة وأعلام بينة. (٢))

وعندما بدأ أمير المؤمنين يكشف عن نفسه في عالم الرواية بعد اندثار عالم الرواية روي عنه أنه قال: " اللهم لا أعرف أن عبدا لك من هذه الأمة عبدكقبلي غير نبيك - قالها ثلاث مرات - لقد صليت قبل أن يصلي الناس سبعا (٣) " ، وقال: " أنا أول من صلى مع رسول الله (٤) " ، وقال: " كنت إذا سألت الله

(١) ابن أبي الحديد ٥٩٨ / ٣.

(٢) البداية والنهاية ٥ / ٨.

(٣) رواه أحمد وقال في الفتح: وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري والطبراني وإسناده حسن (الفتح الرباني ٣٦ / ٢٣). (كنز العمال ١٣٦ / ١٣)، (تحفة الأحواز ٢٣٤ / ١٠).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٠٣ / ٩) ورواه الطبراني وابن أبي شيبة

صلى الله عليه وسلم أعطاني وإذا سكت ابتدأني (١) ، وقال: " كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان. مدخل بالليل ومدخل بالنهار (٢) " ، وقال: لما نزلت هذه الآية " (وأندر عشيرتك الأقر بين) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بيته وقال: من يبايعني على أن يكون أخيو صاحبني ووليكم من بعدي، فمددت. وقلت: أنا أبايعك وأنا يومئذ أصغر القوم فبايعني على ذلك (٣) " ، وقال: " إنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وقد بسط شملة (كساء يتغطى ويتلف به) فجلس عليها هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين. ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمجامعه فعقد عليهم ثم قال: اللهم ارض عنهم كما أنا عنهم راض - (٤) وفي رواية - ثم تلا هذه الآية:

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " إن الله يغضب لغضبك ويغضبك ويرضل رضاءك (٥) " ، وقال: " والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وآله إلي، أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (٦) " ، وقال: " جاء النبي صلى الله عليه وسلم أناس من قريش. فقالوا: يا محمد. إنا جيرانك وحلفوك. وإنا ناسا من عبيدنا قد أتوك. ليس بهم رغبة في الدين ولا رغبة في الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا. فأرردهم إلينا. فقال لأبي بكر: ما تقول. قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك. فتغير وجه

وابن سعد (كنز العمال ١٢٤ / ١٣).

(١) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٧ / ٥)، (تحفة الأحوازي ٢٢٥ / ١٠) رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم وأبو نعيم وسعيد بن منصور (كنز العمال ١٢٠ / ١٣).

(٢) رواه النسائي ٢ / ١٢.

(٣) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٢٩، ١٣٣، ١٧٥ / ١٣)، (الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٦٩ / ٩) وحديث الكساء روي عن عدد من الصحابة وقد خرجناه من قبل.

(٥) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٣ / ٩).

(٦) رواه مسلم (الصحيح ٢١٦٤)، حب علي من الإيمان.

الصفحة ٥٣١

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر: ما تقول، قال: صدقوا إنهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان، فيضربكم عنالدين!! أو يضرب بعضكم!! فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: لا، قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا. ولكنه الذي يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصفها (١) " ، وفي رواية قال راوي الحديث عن علي: ثم التقت إلينا عليقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. (٢) "

وقال علي: والله ما قوتل أهل هذه الآية منذ نزلت: (وا إن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم (٣))، وقال: " عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين (٤) " ، وقال: ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط. ولقد واسيتهنفسي من المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر الأقدام. نجدة أكرمني الله بها. ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنا رأته لعل على صدري. ولقد سألت نفسه في كفي. فأمررتها على وجهي، ولقد وليت غسله صلى الله

(١) رواه أحمد وابن جرير وصححه وسعيد بن منصور والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٢٧، ١٧٣ / ١٣).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٣٤ / ٥) والخطيب وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١١٥، ١٩٣ / ١٣).
(٣) رواه ابن مردويه (كنز العمال ٤٢٥ / ٢)، (الدر المنثور ٢١٥ / ٣)، وروي أيضا عن ابن عباس وحذيفة وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عمر (كنز العمال ٤٢٦، ٤١٧ / ١)، وروي أن حذيفة قال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا منافقين إلا أربعة. وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابن مردويه (الدر المنثور ٢١٤ / ٣).
(٤) رواه ابن عساکر وابن عدي والطبراني (كنز العمال ٢٩٢ / ١١)، وقال ابن كثير روي من طرق عديدة (البداية ٣٣٤ / ٧).

عليه وسلم والملائكة أعواني. فضجت الدار والأفنية: ملا يهبط، وملاً يعرج.

وما فارقت سمعي هينمة منهم. يصلون عليه، حتى واريناه في ضريحه. فمن ذأحق به مني حيا وميتا. فانفذوا على بصائرکم. ولتصدق نياتکم في جهادعدوكم. فوالذي لا إله إلا هو إني لعلی جادة الحق. وإنيهم لعلی مزلة الباطل.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم. (١) "

لقد أخبرهم أن العلماء والأمناء من الصحابة يعلمون أنه لم يرد على اللهورسوله ساعة قط. ويعلمون أنه ثبت معه يوم أحد وفر الناس. وثبت معه يومحنين وفر الناس. وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها. وكل ذلك نجدتمن الله أكرمه بها. وأخبرهم بحقيقة الأمر يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. والحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قبض و إن رأسه لعلی صدر عليوليست على صدر أحد غيره. وأخبرهم أن الملائكة النازلين في الدار ارتفعضجيجهم. وأنه سمع ذلك ولم يسمعه غيره من أهل الدار، وقال ابن أبيالحديد: حديث سماع الصوت رواه خلق كثير عن علي. وروي أن عليا عصبيني الفضل بن العباس حين صب عليه الماء. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاه بذلك. وقال: إنه لا يبصر عورتي أحد غيرك إلا عمي (٢) ، ثم قالالإمام بعد ذلك: أي شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حالحياته وحال وفاته مني. قال ابن أبي الحديد: ومراده من هذا الكلام. أنه أحق بالخلافة بعده. وأحق الناس بالمنزلة منه. حيث كان بتلك المنزلة منه فيالدنيا (٣)، ثم أمرهم فقال: فانفذوا إلى بصائرکم. أي أسرعوا إلى الجهاد علىعقائدکم التي أنتم عليها. ولا يدخلن الشك والريب في قلوبکم. ثم بشرهمفقال: إني لعلی جادة الحق. وإنيهم لعلی منزلة الباطل، قال ابن أبي الحديد:

كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية لأنه لا يحسن أن يقول: وإنيهم لعلی

(١) ابن أبي الحديد ٤٩٣ / ٣.

(٢) المصدر السابق، ٤٩٧ / ٣.

(٣) المصدر السابق، ٤٩٨ / ٣.

جادة الباطل. لأن الباطل لا يوصف بالجادة.(١) "

وهكذا دارت الأحداث بعد مقتل عثمان. فلقد بايع الناس الإمام عليا وعقب المبايعة بدأت الإصلاحات العلوية التي بدأت بقرار عزل الأمراء ثم بدأت حركة الإصلاح تتسع فقام الإمام بالتسوية بين الناس في الأموال وتعديل نظام الخراج فأعاد الحقوق للمقاتلة ثم بدأت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم تتسع وبدأ القص والقصاصون في ركوب دوابهم للاتجاه نحو عالم النسيان، وبينما كانت حركة الإصلاح تسير قطع الناكثون الفارون من بني أمية والمرتزة عليها الطريق. وكانت حركة المعارضة عليها تحذير من النبي صلى الله عليه وسلم لعلمهم يرجعون ولكن الكلاب نبحت وما رجعوا. وكانت حركة الإصلاح عليها تبشير من النبي صلى الله عليه وسلم وفيها علامات واضحة. وكان حتماً أن يواجه الناكثون خاصف النعل في ميدان القتال. وكانت المعارك أيضاً عليها علامات من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) المصدر السابق ٤٩٨ / ٣.